

# إدوارد هيبون

اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها

الجزء الثالث



## الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزیز

الإخراج الفنى

محسنة عطية

اضمحلال

# الإمبراطورية الرومانية

وسقوطها

تأليف :

إدوارد جيبون

ترجمة :

د. محمد سليم سالم

مراجعة :

محمد عاي أبودرة

الجزء الثالث

هذه ترجمة القسم الثالث من كتاب

EDWARD GIBBON'S

**DECLINE AND FALL OF THE ROMAN EMPIRE**

One Volume - Abridgement

by D. M. Low.



## محتويات الكتاب

( أرقام الفصول هنا هي أرقام الفصول نفسها في النص الأصلي  
الذي دونه جيبون )

### ● ظهور الاسلام

الفصل الخمسون ( ٥٦٩ - ٦٣٢ )

صفحة	
١٤	وصف بلاد العرب
٢٤	أخلاق العرب
٣١	ديانة العرب
٤٤	ظهور النبي محمد
٥٠	شريعة محمد
٥٩	هجرة محمد من مكة الى المدينة
٧٧	الجهاد في سبيل الله
٨٠	وفاة النبي
٨٧	أخلاق محمد وحياته الشخصية
	نفوذ محمد

الفصل الحادى والخمسون ( ٦٣٨ )

٩١	مكتبة الاسكندرية
----	------------------

### ● اضمحلال الامبراطورية في الشرق

الفصل الثالث والخمسون ( ٩١٢ - ٩٨٨ )

١٠١	ثروة الامبراطورية ومصنوعاتها وايراداتها
١١٠	القصر الامبراطورى
١٢٢	نسيان اللغة اللاتينية
١٢٥	احياء العلوم اليونانية
١٢٨	فساد الذوق

الفصل السادس والخمسون ( ٨٤٠ - ١٠٨٥ )

١٣٧	• • • • •	الصدام بين العرب والفرنجة واليونانيين في إيطاليا
١٤١	• • • • •	مجيء النورمان
١٥١	• • • • •	فتوحات روبرت جيزكارد

الفصل السابع والخمسون ( ١٠٧٤ - ١٠٩٦ )

١٧٧	• • • • •	مملكة الروم
١٧٩	• • • • •	فتح الأتراك بيت المقدس

● الحروب الصليبية

الفصل التاسع والخمسون ( ١٢٤٨ - ١٢٩١ )

١٨٧	• • • • •	تأسيس لويس والحربان الصليبيتان السادسة والسابعة
١٩١	• • • • •	ضياع أنطاكية
١٩٣	• • • • •	ضياع عكا والأرض المقدسة

الفصل الستون ( ٨٧٥ - ١٢٠٤ )

٢٠٢	• • • • •	عداء اليونانيين واللاتين
٢١١	• • • • •	الحرب الصليبية الرابعة
٢١٦	• • • • •	تحالف الفرنسيين مع البنادقة
٢٢٤	• • • • •	الإبحار إلى القسطنطينية
٢٣٠	• • • • •	استيلاء اللاتين على القسطنطينية
٢٤٠	• • • • •	نهب القسطنطينية

الفصل الحادي والستون ( ١٢٣٧ - ١٢٦١ )

٢٥٣	• • • • •	بلدوين الثاني واكليل الشوك المقدس
٢٦٠	• • • • •	استرداد اليونانيين للقسطنطينية
٢٦٥	• • • • •	النتائج العامة للحروب الصليبية

● نهاية الامبراطورية الرومانية

الفصل الخامس والستون ( ١٤٢٢ - ١٤٤٨ )

٢٧١	• • • • •	حصار مراد الثاني للقسطنطينية
٢٧٥	• • • • •	نظام الأتراك
٢٧٩	• • • • •	اختراع البارود

الفصل السادس والستون ( ١٣٤٨ - ١٤٩٢ )

٢٨٣	• • • • •	استغاثة اليونانيين بالغرب
٢٨٩	• • • • •	زيارة جون باليولوغوس لرومه
٢٩٣	• • • • •	زيارة عمانويل لاطاليا وفرنسا وانجلترا
٣٠٣	• • • • •	حملة جون باليولوغوس الثاني
٣١٠	• • • • •	اتحاد مؤقت بين اليونانيين واللاتين
٣٢١	• • • • •	احياء العلوم اليونانية في ايطاليا
٣٣٥	• • • • •	البابا نيقولا الخامس
٣٣٩	• •	الاستفادة من العلوم القديمة ، وسوء استخدامها

الفصل الثامن والستون ( ١٤٥١ - ١٤٨١ )

٣٤١	• • • • •	خلق محمد الثاني وحكمه
٣٤٥	• • • • •	حصار القسطنطينية
٣٥٧	• • • • •	الاستيلاء على القسطنطينية
٣٦٨	• • • • •	دخول محمد الثاني
٣٧٦	• • • • •	حزن أوروبا وفرعها

● الخاتمة ●

● رومه في العصور الوسطى ● فجر النهضة

الفصل التاسع والستون ( ٨٠٠ - ١٣٥٠ )

٣٨١	• • • • •	سلطان البابوات في رومه
٣٨٩	• • • • •	طرق انتخاب البابوات
٣٩٣	• • • • •	هجرة البابوات الى أفنيون
٣٩٦	• • • • •	انشاء اليوبيل أو السنة المقدسة
٣٩٩	• • • • •	نبلاء الرومان

الفصل السبعون ( ١٣٠٤ - ١٥٠٠ )

٤٠٧	• • • • •	بترارك
٤١١	• • • • •	رينزي وعودة الحكومة الفاضلة
٤١٨	• • • • •	ازدهار الجمهورية الرومانية

صفحة

٤٢٢	• • • • •	فروسية رينزى ، تنويجه ، حماقاته
٤٢٦	• • • • •	عودة البابوات الى رومه
٤٣٢	• • • • •	الانشقاق الخطير فى الغرب
٤٣٧	• • • • •	حكومة رومه فى القرن الخامس عشر
٤٣٩	• • • • •	الحكومة الكنسية

الفصل الحادى والسبعون ( ١٤٣٠ )

٤٤٥	• • • • •	مقال بوجيو عن أطلال رومه فى القرن الخامس عشر
٤٥٠	• • • • •	أربعة أسباب للدمار
٤٦٢	• • • • •	الكوليزيوم
٤٦٧	• • • • •	اعادة المدينة
٤٦١	• • • • •	تأملات أخيرة عن اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها

كشاف

( يشمل الأجزاء الثلاثة )

# ظهور الإسلام

## الفصل الخمسون

(٥٦٩ - ٦٣٢)

وصف بلاد العرب ، اخلاق العرب ودينهم ، ظهور  
النبي محمد وتعاليمه . هجرته من مكة الى المدينة . الجهاد  
في سبيل الله . وفاته . اخلاقه وحياته الخاصة . تقييم أثره .

بعد أن قطعنا أكثر من ستمائة عام مع قياصرة القسطنطينية وألمانيا  
الذين مروا مر السحاب ، نهبط الآن ، في حكم هرقل ، على التخوم  
الشرقية للمملكة اليونانية . ففي الوقت الذي أنهكت فيه الحروب  
الفارسية الدولة ، ومزق الكنيسة نزاعها مع النساطرة وأتباع مذهب  
الطبيعة الواحدة ، أقام النبي محمد والسيف في يد والقرآن في الأخرى  
« عرشه » على أنقاض المسيحية وأطلال رومه . وتحمل عبقرية النبي  
العربي وعادات قومه وروح دينه ، بين طياتها أسباب اضطحلال  
الامبراطورية الشرقية وسقوطها ، وهنا تتركز أنظارنا في لهف وشغف  
على واحدة من أجدر الثورات بالذكر ، وهي ثورة وسمت أمم الأرض  
بأثر جديد خالد (١) .

---

(١) سيبدو في هذا الفصل والفصل الذي يليه أني مطلع اطلاعا واسعا  
على الأبحاث العربية . وهنا يجدر بي أن أعترف بجهلي التام باللغات  
الشرقية ، وأن أقر بجميل المترجمين من الباحثين الذين نشروا عليهم  
باللاتينية أو الفرنسية أو الانجليزية . وسأشير من حين الى آخر الى  
مدوناتهم وترجماتهم والى كتب التاريخ التي وضعوها .



ففى وسط تلك البقعة الشاسعة التى تمتد بين فارس وسوريا ،  
ومصر والحبشة ، يمكن أن تصور شبه الجزيرة العربية على شكل  
مثلث ذى أبعاد ضخمة ، ولكنها غير منتظمة . فمن أعلى نقطة فى الشمال  
يمكن أن نرسم خطا طوله ألف وخمسمائة ميل يمتد من بيليس Beles  
على نهر الفرات لينتهى عند باب المندب وبلاد البخور ( شرق أفريقية ) ،  
ويمكن أن يقال ان عرض شبه الجزيرة من الشرق الى الغرب ، من  
البصرة الى السويس ، ومن الخليج الفارسى الى البحر الأحمر ، نصف  
طولها تقريبا . ويزداد طول ضلعي المثلث تدريجا . أما قاعدته الجنوبية  
فخطل على ألف ميل من شاطئ المحيط الهندى . وتبلغ المساحة الكلية  
لشبه الجزيرة أربعة أمثال مساحة فرنسا أو ألمانيا . ولكن الجزء الأكبر  
منها قد دمنغ بوصفين أصابا كبد الحقيقة ، أحدهما حجرى والآخر  
رملى . فحتى فى مجاهل بلاد التار تلمس يد الطبيعة الصخر ، فينبت  
أشجارا باسقة وحشائش نضرة تمد السائر فى وحدته بالراحة والأنس  
فى كنف النبات .. أما فى صحارى العرب المقفرة فلا توجد الا جبال عارية  
يتقاطع بعضها مع بعض فوق مساحات لا حد لها من الرمال ، بينما تلمح  
الشمس الاستوائية بأشعتها العمودية الحارقة وجه الصحراء ، دون  
ما ظل أو مأوى . وبدلا من النسيم العليل تحمل الرياح ، ولا سيما الرياح  
الجنوبية الغربية ، أبخرة ضارة قد تكون أحيانا قاتلة . ويمكن تشبيه  
تلال الرمال التى تثيرها الرياح ثم تذروها ، بأمواج المحيط . فكثيرا  
ما فقدت قوافل باكملها وجيوش بأسرها ، ودفنت تحت الرمال التى  
تثيرها العواصف . أما الماء ومنافعه المشتركة فكانت موضع اشتاء  
ومثار منازعات . كما كانت الأخشاب نادرة . ولهذا باتت الحاجة ماسة

الى التحايل للمحافظة على عنصر النار والعمل على تكاثره . وقد خلت بلاد العرب من الأنهار الصالحة للملاحة ، والتي تخصب الأرض وتحمل محصولها الى الأقاليم المجاورة . والسيول المتدفقة من التلال تمتصها الأرض العطشى . والنباتات القوية النادرة كالتمر الهندي والسنتال التي تمتد جذورها في شقوق الصخور تنعشها قطرات الندى ليلا . وكمية المياه التي تنجم في الأحواض والقنوات ، والآبار والعيون هي ذخيرة الصحراء وكنوزها . وحني الحاج الى مكة بعد أن يسير أياما عديدة في الحر والجفاف يعاف المياه التي مرت بطبقة من الملح أو الكبريت . فهذه وأمثالها هي الصورة العامة والحقيقية لمناخ الجزيرة العربية . ومواجهة البلاء الشديد تزيد عادة من قيمة أية منعة ولو كانت محلية أو جزئية . فأجمة ظليمة ، ومرعى مخضر ، ومجرى من المياه العذبة ، كل هذه كافية لاجتذاب مجموعة من العرب المقيمين الى أى مكان ميمون يستطيع أن يمدهم ودوابهم بالماء والغذاء . وتشجيعهم على غرس النخيل والأعنان . أما الهضاب المرتفعة التي تطل على المحيط الهندي فتمتاز بوفرة مياهها وأخشابها . والهواء هنا أكثر اعتدالا والفاكهة أطيب ، والانسان والحيوان أوفر عددا . وخصب الأرض يجذب الزراع ويكافئ جهودهم . وقد اجتذب البخور والبن ، وهما هبة عجيبة من هبات الطبيعة في مختلف الأزمنة ، تجار العالم . ولو قورن هذا الاقليم المنعزل ببقية أجزاء شبه الجزيرة لكان جديرا حقا باسم بلاد العرب السعيدة . فالألوان الساحرة التي أضفاها معين الخيال والخرافة ترجع الى التباين الذي يؤكد بعد الشقة . وقد احتفظت الطبيعة بأجمل هباتها وأغرب صنعتها لهذه الجنات الأرضية . وأعجب ما في الأمر أن

نعمتى الترف والبراءة — وهما ضدان لا يجتمعان — نسباً لأهل هذه البلاد . فالتربة مشبعة بالذهب والجواهر . وكل ما فى الأرض والبحر قد درج على ارسال الروائح العطرة . وهذا التقسيم الى رملى وحجرى وسعيد — مع أنه كان مألوفاً لدى الاغريق واللاتين — لا يعرفه العرب أنفسهم . ومن الغريب أن قطراً توحدت لغته وسكانه منذ أمد سحيق لا يكاد يحتفظ بأثر لجغرافيته القديمة . وتواجه أقاليمه البحرية فى عمان والبحرين مملكة فارس . أما مملكة اليمن الحالية فتبين لنا حدود بلاد العرب السعيدة ، أو على الأقل موقعها ، ويطلق اسم نجد على البقاع الداخلية . وقد أضفى مولد النبى محمد شرفاً وسموا على اقليم الحجاز الواقع على البحر الأحمر .

وتحدد وسائل العيش كثافة السكان . فالقاطنون فى شبه الجزيرة على سعته لم يكونوا يبلغون عدد سكان ولاية خصبة مجدة . وقد استمر آكلو السمك على شواطئ الخليج الفارسى والمحيط الهندى والبحر الأحمر فى تجوالهم بحثاً عن طعام لا يجدونه على الدوام . وفى هذه الحالة البدائية المذلة التى لا تستحق اسم المجتمع لا يكاد الآدمى المتوحش — وهو مجرد من الفنون والقوانين ، وهو محروم تقريباً من حسن الادراك ومن اللغة — يتميز عن بقية أنواع الحيوان الا نمزاً بسيطاً . وقد تطوى زوايا النسيان أجيالاً وعصوراً ، وهذا الانسان المتوحش الحائر العاجز لا يستطيع التكاثر ، وقد حددت افامته فى شريط ضيق على ساحل البحر ، من حاجاته ومن سعيه . غير أنه فى فترة مبكرة من العصر العتيق خرج عدد كبير من العرب من وهدة هذا البؤس والشقاء ، ولما كانت الصحارى المجذبة

لا تستطيع أن تمنح القوت لشعب من الصيادين . فقد نهضوا على التوالى الى حياة الرعى وهى حياة أكثر طمأنينة ورخاء . وعلى هذا النهج الرتيب نفسه من الحياة عاشت القبائل المتجولة فى الصحراء . ومن الممكن أن نكشف فى صورة البدوى الحديث ملامح أجداده الذين عاشوا فى عصر موسى أو محمد تحت خيام مشابهة ، واقتادوا خيولهم وابلهم وأغنامهم الى الينابيع والمراعى نفسها . ان متاعنا ثقل وثروتنا تزيد بسيطرتنا على الحيوانات النافعة . وقد أتيح للرعى العربى ملكية مطلقة لصديق وفى ، وعبد مجد . فبلاد العرب فى رأى علماء الطبيعة هى الوطن الحقيقى والأصيل للحصان . فالجو جد ملائم ، لا لحجم هذا الحيوان الكريم ولكن لحيويته وسرعته . وجميع مميزات السلالة المغربية والأسبانية والانجليزية قد انحدرت من اختلاطها بالدم العربى . ويحافظ البدو بعناية بالغة على أمجاد أحسن سلالة وعلى نسبها . وتباع الذكور بأثمان باهظة ولكن يندر أن تباع الاناث . ويعتبر مولد مهر نبيل مدعاة للابتهاج والفرح وتبادل التهانى بين القبائل . وقد ربيت هذه الخيول فى الخيام بين أطفال العرب تربية اتسمت بالألفة الرقيقة ، غرست فيها الوداعة والتعلق بصاحبها . وقد عودت على المشى والركض فقط ، فلم يتبلد شعورها باساءة استخدام المهماز والسوط بصفة دائمة ، فاحتفظت بقوتها كاملة للكر والفر أو المطاردة . ولكن ما ان تشعر بلمس اليد أو المهماز حتى تنطلق بسرعة تسابق الريح . فاذا ترجل صاحبها أثناء الركض السريع فانها تقف فى التو حتى يعود الراكب الى مقعده على ظهرها . أما الجمل فهو هبة مقدسة ثمينة فى رمال أفريقية وبلاد العرب . فهذا الحيوان القوي

الصبور يستطيع . دون ضعاء أو شراب . أن يقطع رحلة تستغرق أياما كثيرة . فهناك خزان من الماء العذب في كيس كبير هو معدة الجمل الخامسة . فجسم الجمل يحمل علامات عبوديته . والصنف الضخم من الجمال يستطيع أن يحمل ثقلا يبلغ ألف رطل . أما الهجين ، وهو أقل جسما وأكثر نشاطا ، فيمكنه أن يسبق أسرع الجياد في حلبة السباق . ويتنعم الانسان بكل جزء من جسم الجمل حيا أو ميتا . فلبن الأثني غزير ومغذ ، ولحم صغاره يشبه في طعمه لحم العجول الصغيرة . ويستخرج من بوله ملح عظيم القيمة . أما روثه فيقوم بسد العجز في الوقود . أما وبره الطويل الذي يتساقط ويتجدد كل عام ، فيصنع منه بطرق بدائية الثياب الخشنة والأثاث والخيام التي يستخدمها البدو . وفي فصول الأمطار يتغذى البدو على الأعشاب النادرة القليلة التي تبت في الصحراء . وعند اشتداد قيظ الصيف ، أو عندما يقل الكلال في الشتاء ، يرحلون الى ساحل البحر والى تلال اليمن أو الى جوار نهر الفرات . وقد يركبون الخطر فينتهزون الفرصة لزيارة ضفاف النيل أو قرى سوريا وفلسطين . وحياة البدو الرحل حياة كلها خطر وضيق ، على الرغم من أنهم يحصلون أحيانا بطريق النهب أو المبادلة على المنتجات الصناعية ، فحياة الفرد العادي في أوروبا وما فيها منترف وبهجة ، أكثر سعادة من حياة أمير يسير مختالا الى ميدان القتال على رأس عشرة آلاف من الفرسان .

ومع ذلك يمكن أن نكشف عن فارق أساسى بين جماعات سكيثيا Scythia وبين القبائل العربية ، فقد استقر كثير من القبائل العربية في المدن واشتغلوا بالتجارة والزراعة . ووجهوا جزءا كبيرا من



وقتهم وجهودهم لتربية قطعانهم ، واتصلوا في الحرب والسلام باخوانهم في البادية . واستفاد البدو من هذا الاتصال فحصلوا على بعض حاجياتهم . واكتسبوا بعض مبادئ الفنون والمعرفة . وقد بلغ عدد المدن التي شيدت في بلاد العرب اثنتين وأربعين مدينة حسب احصاء أبي العلاء ، وكان أقدمهما وأكثرها سكانا تلك التي قامت في بلاد اليمن : قلاع صنعاء والسدود العجيبة في مأرب ، التي بناها ملوك حمير . ولكن بريقها الوثني حجبه الأمجاد النبوية لمكة والمدينة ، وهما تقومان على مقربة من البحر الأحمر ويفصل بينهما مائتان وسبعون ميلا . وكان اليونانيون يعرفون مكة ويطلقون عليها اسم ماكورابا . وهذا اللفظ يدل على عظمة هذه البلدة التي لم تزد حقا في أزهي عصورها من ناحية الحجم والسكان عن بلدة مرسيليا . وهناك حافظ خفي ربما كان ذا صلة بالدين هو الذي دعا مؤسسى مكة الى اختيار موقع لا يشر بأدنى أمل . لقد أقاموا مساكنهم من الطين أو الحجارة في واد لا يزيد طوله على ميلين وعرضه على ميل واحد . في سفح جبال ثلاثة جرداء . فتربته صخرية ومأؤه ، حتى ماء البئر المقدس زمزم ، أجاج أو مر المذاق . والمراعى بعيدة عن البلدة . والعنب يحمل اليها من الطائف ، على مسافة سبعين ميلا تقريبا . وقد تألق مجد قريش التي حكمت مكة وعرفت بنشاطها بين القبائل العربية . وقد استعصت التربة الجذباء على الزراعة ، ولكن موقع مكة كان ملائما للمشروعات التجارية . وقد سهل ميناء جدة ، وهو على بعد أربعين ميلا فقط ، طريق الاتصال بالحشة ، تلك المملكة المسيحية التي كانت أول ملجأ لأتباع محمد . وكانت كنوز أفريقية تنقل عبر شبه الجزيرة الى بلدة

القطيف في اقليم البحرين ، وهى بلدة شيدت ، على ما قيل ، من ملح صخرى بناها المنفيون من الكلدانيين — ومن هناك نقلت مع اللؤلؤ المستخرج من الخليج الفارسى على أطواف الى مصب نهر الفرات . وتقوم مكة في منتصف الطريق تقريبا على مسيرة شهر بين اليمن الى اليمن وسوريا الى اليسار . وكانت اليمن محط القوافل شتاء . كما كانت سوريا محطها صيفا . ووصول هذه القوافل في الوقت المناسب أراح السفن القادمة من الهند من رحلة شاقة مملة في البحر الأحمر . ومن أسواق صنعاء ومأرب ، ومن مينائى عمان وعدن، حملت جمال قريش أحمالا ثمينة من العطور . وكانت كميات من الفلال والمصنوعات تجلب من أسواق بصرى ودمشق . وقد أشاع هذا النبادل النجارى الذى أتى بأرباح طائلة ، الرخاء في ربوع مكة ، فجمع أنبل أبنائها بين حب الحرب والاشتغال بالتجارة .

## أفكار العرب

كان استقلال العرب الدائم موضع ثناء سار على ألسنة الأجانب والمواطنين على السواء . وقد قلبت أفانين الجدل هذا الحدث الفريد الى نبوءة ومعجزة تشريفا لذرية اسماعيل ، غير أن بعض الاستثناءات، التى لا يمكن اخفاؤها أو التملص منها ، جعلت هذا النوع من الاستنتاج طائشا سطحيا . فقد خضعت اليمن على التعاقب للأحباش والفرس وسلاطين مصر والترك . كما خضعت المدينتان المقدستان ، مكة والمدينة ، مرارا لطاغية من سكيذيا . وضمت ولاية بلاد العرب الرومانية الصحراء العجيبة التى لا بد أن اسماعيل وأبناءه نصبوا فيها

خيامهم في مواجهة اخوانهم . ومع ذلك فهذه استثناءات اما محلية أو وقتية . وبرىء الجزء الأكبر من الأمة العربية من نير أقوى الممالك ، فلم يكن في استطاعة جيوش سيزوستريس وكورش ، أو بومبي وتراجان ، أن تحقق غزو بلاد العرب . وقد يكون لسلطان تركيا الحالي ظل من السيادة ، ولكن كبريائه قد يهبط الى حد التماس الصداقة بين قوم من الخطر اثارتهم ، كما أنه من العبث مهاجمتهم ، وانك لتجد الأسباب الواضحة لهذه الحرية منقوشة على أخلاق العرب وعلى الأقليم الذى يسكنون . وقد أحس جيرانهم احساسا شديدا قرونا طويلة قبل زمن محمد ، بجراتهم الفائقة فى الهجوم والدفاع . فشيمة الجندي من صبر ونشاط قد نمت نموا غير محسوس فى عادات حياة الرعى ونظامها . فالعناية بالغنم والابل تركت لنساء القبيلة ، أما الشباب المحارب فهو دائما تحت راية الأمير فى الميدان يدرّب على استعمال القوس والرمح والسيف . ان طسول تذكرهم لاستقلالهم لهو أقوى ضمان لاستمرار هذا الاستقلال . وفى ذلك حافز للأجيال التالية على أن تبرهن على كرم أصولها وأن تحافظ على تراثها . وعند اقتراب أى عدو مشترك يتوقف كل نزاع داخلى . وفى آخر أعمالهم العدائية التى قاموا بها ضد الأتراك ، هاجم ثمانون ألفا من القبائل المتحالفة ، قافلة متجهة الى مكة وسلبوها . وعندما يسرون الى ميدان القتال فان الأمل فى النصر يملأ صدور مقدمة الجيش على حين تؤمن مؤخرته سبل التقهقر . وعندئذ تختفى خيولهم وابلهم عن أعين الفانج ، وهى تستطيع أن تقطع فى ثمانية أيام أو عشرة ، مسافة أربعمائة أو خمسمائة ميل ، ويبحث القائد المظفر سدى عن مياه الصحراء الخفية ، فتساقط

جيوشه المنتصرة يقتلها الظأ والجوع والتعب في مطاردة عدو قد اختفى مستخفاً بجهود خصمه ، ومستلقيا في دعة وسط الصحراء المتقطة . ان سلاح البدوى وصحراء لم تكونا ضمانة لحريته فحسب ، وانما كانتا كذلك حواجز تحمي العرب السعيدة التي أوهن طيب التربة والمناخ سكانها لبعدهم عن النضال . وقد ذابت كنانة أوغسطس نتيجة المرض والاعياء . ولم يفلح أحد في محاولة فتح اليس الا بقوة بحرية . وعندما رفع النبي محمد رايته المقدسة ، كانت اليمن ولاية فارسية ، ومع ذلك كان هناك سبعة من الأمراء الحبريين يحكمون في المناطق الجبلية . ووقع الحاكم الذي أنابه خسرو عنه تحت تأثير الانغراء ، حتى كاد ينسى وطنه البعيد ومولاه التنس . ويصف المؤرخون الذين عاصروا جسنينان حال هؤلاء الأعراب المستقلين الذين فرقهم مصالحهم وميولهم في النزاع الطويل الذي شب في الشرق . لقد سمح ل قبيلة غسان أن تعسكر على حدود سوريا ، أما أمراء الحيرة فقد سمح لهم ببناء مدينة تبعد أربعين ميلا تقريبا الى الجنوب من أطلال بابل . وكان بلاؤهم في الحروب قويا وسريعا ، ولكن صداقتهم كانت نباع وتشترى ، كما أن ولاءهم حول قلب . ويسير عداؤهم وراء أهوائهم . وكانت اثاره هؤلاء المتبربرين الجوالين أيسر من حملهم على وضع أسلحتهم . ومن الاتصال المألوف في الحروب اعتادوا رؤية الرومان والفرس وازدراء ضعفهم . وقد أطلق الاغريق واللاتين على القبائل العربية كلها من مكة الى نهر الفرات اسما عاما هو المشارفة Saracens . وهو لفظ تعلم كل مسيحي أن ينطق به في فزع ونفور .

وقد يفخر عبيد الطغيان الداخلى باستقلالهم القومى ،  
ولكن العربى كان حرا كغيره . وهو يتمتع الى حد ما بمزايا المجتمع  
دون أن يفقد امتيازات الطبيعة . وفى كل قبيلة رفعت الخزعبلات  
أو عرفان الجميل أو الحظ أسرة ما فوق رءوس نظيراتها . وفى هذا  
العرق المختار ينتقل شرف المشيخة ( الرئاسة ) أو الامارة دون تغيير .  
ولكن نظام التعاقب أو الوراثة فضفاض غير مستقر . ويقع الاختيار  
على أكثر الأقارب النبلاء جدارة وأكبرهم سنا ليشغل تلك الوظيفة  
البسيطة . ولكنها هامة : ألا وهى فض المنزعات بإسداء الصبح والنحو  
على الشجاعة بالقذوة الحسنة . وقد سمح حتى لامرأة ذات عقل وروح  
كالزباء ( زنوبيا ) أن تقود مواطنيها . وكان أى اتصال وقى بين عدة  
قبائل ينشئ جيشا . أما اتحادها الأكثر دوام فيخلق منها أمة . وقد  
يكون شيخ مشايخهم ، أى أمير أمرائهم ، الذى يرى عليه يرفرف فوق  
رءوسهم جديرا فى نظر الغرباء بأن يحظى بالشرف الذى يحيط باسم  
الملك . وإذا أساء الأمير العربى استغلال سلطانه ، حل به عقاب سريع ،  
اذ يتخلى عنه رعاياه الذين ألفوا حكما أبويا معتدلا . فروحهم حرة  
وحركاتهم طليقة والصحراء مفتحة ، ويربط القائل والأسر بعضها الى  
بعض موثيق اختيارية متبادلة . وقد أذعن المواطن اليمنى . وهو أكثر  
وداعة ، لأبهة الملك وجلاله . ولكن اذا كان ذلك الملك لا يستطيع أن  
يفادر قصره دون خطر على حياته ، فلا بد أن سلطات الحكم الفعالة تكون  
قد آلت الى نبلائه وحكامه . وقد اتخذت حكومتا مكة والمدينة ،  
وهما تقعان فى قلب آسيا ، شكل حكم مجسوعة من الأمم ( كومنولث )  
ان لم يكن جوهره ، فحمد محمد وأسلافه من قبله برزوا فى الشؤون



الخارجية والداخلية كأمرء لبلادهم . ولكنهم حكموا كما فعل بركليز في آئينا وآل ميدتشى فى فلورنسه ، معتمدين على ما عرف عنهم من حكمة ونزاهة . وكان تفوذهم يتبع تقلب ثرواتهم . فانتقل الصولجان من أعمام محمد الى الفرع الأصغر من قبيلة قريش . وفى المناسب الخطيرة كانوا يدعون الجمعية العمومية للشعب . ولما كان الناس اما أن يجبروا على الطاعة أو يستمالوا إليها ، فان انتشار الخطابة وشهرة الخطباء بين العرب القدامى هما أوضح دليل على الحرية العامة . ولكن حريتهم البسيطة أمر يختلف عن النظم الدقيقة المصطنعة فى الجمهوريات اليونانية والرومانية ، حيث كان لكل عضو قسط لا يتجزأ من الحقوق السياسية والمدنية فى الجماعة ، غير أنه فى الدولة العربية ، وهى أكثر بساطة ، فان الأمة حرة لأن كل فرد من أبنائها يستتف أن يطأطئ الرأس فى خضوع وذلة لارادة سيد ما . ولقد حصن العربى نفسه بفائل صارمة من الشجاعة والصبر والاعتدال ، ودفعه حبه للاستقلال الى ممارسة عادة ضبط النفس ، وحفظته خشية العار من أن يذل بالخوف من الألم والخطر والموت . وان رجاحة عقل العربى وضبط نفسه واضحان فى مظهره الخارجى . فحديثه يتميز بالأنانة والجزالة والايجاز . وقلما يستثار ليضحك . والحركة الوحيدة التى يقوم بها هى لمس لحيته ، وتلك هى السمة الوقورة للرجولة . وقد علمه شعوره بأهميته أن يتحدث الى أقرانه دون استخفاف ، والى رؤسائه دون رهبة . وقد بقيت الحرية العربية حتى بعد الفتوح الاسلامية . وقد أجاز الخلفاء الأول أسلوب رعاياهم على ما فيه من رفع الكلفة والجرأة .

قصعدوا المنابر للاقتناع والحث على مكارم الأخلاق . ولم يقتبس  
العباسيون مراسم البلاطين الفارسي والبيزنطي بما فيها من أبهة  
ورواء ، الا بعد أن انتقلت عاصمة الامبراطورية الى نهر دجلة .

ويمكن عند دراسة الأمم والرجال أن نلاحظ الأسباب التي تجعل  
بعضهم لبعض أعداء أو أصدقاء ، وتنفث في أخلاقهم الاجتماعية شدة  
أولينا ، أو وداعة أو تزمنا . وقد اعتاد العرب . لانزالهم عن بقية  
البشر ، ألا يفرقوا بين الأجنبي والعدو . وقد أدخل فقر البلاد قاعدة  
قومية لا زالوا يؤمنون بها ويتبعونها الى هذه الساعة . فهم يزعمون  
أنه عند قسمة الأرض أعطيت المناطق الغنية الخصبة للفروع الأخرى  
من الجنس البشري ، وأن ذرية اسماعيل الطريد قد يستردون بالخدعة  
أو بالقوة ، ذاك الجزء من ميراثه الذي حرم منه ظلما . وطبقا للملاحظة  
أبداها بلينى ، عكفت القبائل العربية كلها على النهب والتجارة .  
فالقوافل التي تعبر الصحارى ، اما أن تدفع فدية أو تتعرض للسلب .  
وقد عاش جيرانهم منذ الأزمنة الغابرة في زمن أيوب وعصر  
سيزوستريس نها لجشعهم . فاذا ما رأى البدوى مسافرا وحيدا  
ركض نحوه بشدة صائحا بأعلى صوته : اخلع رداءك ، فخالتك  
( يعنى زوجته ) ليس لديها ثوب . فاذا ما بادر المسافر الى الطاعة ،  
حفز ذلك الى الشفقة عليه ، أما ان قاوم ، فانه يثير حفيظة من يهاجمه .  
ويجب أن يكفر بدمه عن دم يزعم أنه في دفاع شرعى عن نفسه .  
ويوصم اللص الواحد أو شرذمة من شركائه بالاسم الصريح ، ولكن  
مغامرات العصاة الكبيرة تأخذ طابع الحرب المشروعة المشرفة ، ان شعبا  
يحمل السلاح على هذا النحو ضد البشر ، لا بد أن يلتهب مزاجه التهاوبا

مضاعفا ، باباحة النهب والقتل والتأثر في الداخل . ففي دساتير أوروبا وضع الآن حتى اعلان الحرب أو السلم في أيد قليلة . كما انحصرت ممارسة الحرب الفعلية في أيدي عدد أقل من الأقطاب الموقرين ، لكن كل عربي كان يستطيع بكل فخر ، وهو في مأمن من العقاب ، أن يسدد رمحه ضد حياة أي فرد من مواطنيه . فوحدة الأمة العربية تظهر فقط في تشابه مبهم بعيد في اللغة والسلوك . وكانت سلطة الحاكم في كل جماعة واهية غير مسموعة . ويتناقل الناس أنباء ألف وسبعمائة معركة حدثت في عصر الجاهلية قبل زمن النبي محمد . وكان الحقد الذي تجع عن التفرق الداخلي يزيد هذه العداوة مرارة . فاللقاء قطعة من النثر أو الشعر عن نزاع قديم تناساه الناس ، كان كافيا لاشعال الضغائن ذاتها بين ذراري القبائل المتعادية .

وفي مجال الحياة الخاصة كان كل فرد ، وإن شئت فكل أسرة ، هو القاضي وهو ولي الدم في قضيته في وقت معا . وكان الاحساس المرهف الدقيق بالكرامة والشرف ، ذلك الذي يهيج لمجرد الاهانة أكثر مما يقدر الضرر والأذى ، هو الذي ينث السوم ويشير الضغائن في شجار العرب وحريهم بعضهم مع بعض ، فما كان أيسر من أن يستهن شرف أعراضهم أو كرامة لحاهم ، ذلك أن أي تصرف يجافي اللياقة أو الحشمة ، وأية لفظة يشتم منها الزراية أو الاحتقار ، لم يكن ليغسلها و يمحو عارها غير دم المسئء . وتلك عادة تأصلت فيهم ، حتى انهم ليتذرعون بالصبر شهورا وأعواما طوالا ، حتى تحين الفرصة المواتية للأخذ بالتأثر . وكانت الدية أو التعويض أمرا مألوفا لدى المنبررين في كل عصر ، ولكن أولباء القليل عند العرب كان لهم

الخيرة في قبول الدية ، أو في أن يثأروا بأيديهم تطبيقاً لمبدأ « النفس بالنفس والعين بالعين .. » . ويرفض العرب بدافع من الحقد الدين رأس القاتل نفسه . ويأخذون أحد الأبرياء بذنب الجاني . ويصبون العقاب على أفضل الرجال وأعلامهم قدراً في الأسرة التي أساءت إليهم أو آذتهم ، فإذا ما وقع في أيديهم ، تعرضوا هم بدورهم الى خطر الثأر ، وهكذا يتضخم الدين الدموى وأرباحه . ويعيش أفراد كل من الأسرتين حياة ملبثة بالحقد والشك . وفي بعض الأحيان قد يمر خمسون عاماً قبل أن تتم تصفية الحساب أو الثأر تصفية نهائية . ويخفف من الشغف بسفك الدماء ، ذلك الشغف الذي لا يعرف الشفقة ولا الصفح — يخفف منه قواعد الشرف التي تتطلب في كل مبارزة خاصة نوعاً من المساواة اللائقة : من حيث السن والقوة ، والعدد والعدة . وكان هناك عيد سنوي يمتد شهرين وقد يطول الى أربعة . كان العرب يحتفلون به قبل زمن النبي محمد ، وفي أثنائه تغمد سيوفهم ولا تسل أبداً في عداء داخلي أو خارجي . وهذه الهدنة المؤقتة دليل أقوى على انتشار القوضى والحروب .

ولكن روح السلب والانتقام خفف منها ما للتجارة والأدب من آثار مهدئة . اذ يحف بشبه الجزيرة المنعزل أكثر مدن العالم القديم حضارة . والتاجر صديق الناس عامة . وقد حملت القوافل السنوية أول بذور المعرفة والأخلاق الى المدن والى خيام الصحراء . ومهما يكن نسب العرب ، فإن لغتهم مشتقة من الأصل نفسه الذي أخذت عنه العبرية والسريانية والكلدانية . ومن الدلائل على استقلال القبائل وجود لهجات خاصة بها . ولكن كل قبيلة سمحت — بعد لغتها — بقدر من

الايتار العادل — للهجة مكة النقية الواضحة . وقد حدث في بلاد العرب ، ماحدث في بلاد اليونان ، من أن اللغة بلغت ذروة الكمال قبل أن تصقل العادات والأخلاق . واستطاعت لغة العرب أن تبتدع ثمانين اسما مختلفا للعسل . ومائتين للشعبان ، وخمسمائة للأسد ، وألفا للسيف ، وذلك في وقت عهد فيه بهذا المعجم العزيز الى ذاكرة شعب أمي . وقد عثر في آثار الحميريين على نقوش بخط عتيق مجهول . أما الحروف الكوفية وهي أساس الخط العربي الحالي ، فقد ابتدعت على شاطئ الفرات . وقد حمل هذا الكشف الجديد الى مكة وعلمه أهلها رجل أجنبي استقر بهذه البلدة بعد مولد محمد . على أن فنون النحو والعروض والبلاغة ، لم تكن معروفة للفصاحة العربية التي نشأت حرة . ولكن ذكاءهم كان حادا وخيالهم خصبا ، ونكاتهم لاذعة وزاخرة بالحكمة . وكان القاء خطبهم وقصائدهم التي دبجت بدقة قويا ، وكان له تأثير كبير في نفوس السامعين . وكانت عبقرية الشاعر الناشئ الذي بدأ شعره في الذبوع ، وفضله ، موضع اهتمام قبيلته والقبائل التي تمت لها بصلة النسب ، فكانت تقام تكريما له وليمة فخمة تضرب فيها جوقة من النساء على الدفوف وهن رافلات في ثياب عرسهن البهية ، مترنات أمام أبنائهن وأزواجهن بسعادة قبيلتهن التي ظهر فيها الآن بطل يذود عن حياضها ويخلد ذكراها . أما القبائل البعيدة أو المعادية فقد لجأت الى عيد سنوى أبطله تعصب المسلمين الأول . ومن الضروري أن هذا المحفل القومي ( السوق ) قد قام بدوره في تمدن البرابرة ونهذبيهم . حيث كانوا يقضون ثلاثين يوما لا في مبادلة الغلال والنيذ فحسب ، ولكن في مطارحة البلاغة والشعر أيضا .



وقد تنافس الشعراء على الجائزة في مباراة كريمة . ثم أودعت القصائد الفائزة في خزائن الرؤساء والأمراء . ونستطيع أن نقرأ اليوم في لغتنا المعلقة السبع الأصلية التي كتبت بحروف من ذهب وعلقت في حرم مكة . وكان شعراء العرب هم المؤرخين ومعلمي الأخلاق في زمانهم . فان هم تعاطفوا مع أهواء قومهم ، فقد ألهموهم الفضائل ورفعوا من شأنهم . وكان الاتحاد الذي لا تنفصم عراه بين الجود والشجاعة موضوع أناشيدهم المفضل . وعندما كانوا يهجون عرقا دينيا هجاء لاذعا ، فانهم كانوا يؤكدون في مرارة أن رجسالة لا يعرفون البذل ونساءه لا يعرفن التعفف ، وما زال الكرم نفسه الذي عرفه ابراهيم وتغنى به هوميروس ، يمارس في مضارب خيام الاعراب . والبدوى المتوحش الذي يثير الفزع في الصحراء يخضن دون تساؤل أو تردد أى غريب يجرؤ على الوثوق في شرفه ودخول خيمته . ويلقى الضيفه معاملة كريمة . ويشاطر مضيفه ثراه أو فقره . وبعد أن يأخذ قسطه الضروري من الراحة يودع بالشكر والدعاء وربما بالهدايا كذلك . وينفتح القلب وتنسبط اليد الى درجة أكبر اذا مس الضر أخا أو صديقا . ولكن أعمال البطولة التي تستحق الاعتراف من العام والخاص لا بد أنها تخطت الحدود الضيقة للتروى والحنكة . وثار يوما بين أهل مكة جدل حول من يستحق منهم جائزة الكرم . ولقى التحدى قبولا عند الثلاثة الذين كانوا يعتبرون أجود الناس . وكان عبد الله بن عباس يزمع القيام برحلة بعيدة وقد وضع قدمه في الركاب عندما ناداه السائل في تضرع : « يا ابن عم رسول الله ، انى ابن سبيل منقطع » . فنزل لتوه ليعطى السائل جملة وزينته

الثينة وكيسا به أربعة آلاف قطعة من الذهب . ولم يحتفظ بغير سيفه ، اما لقيته الفريدة ، أو لأنه كان هدية من قريب نيسل . أما مولى قيس فقد أبلغ السائل الثانى بأن سيده نائم ، ولكنه أضاف لتوه : « هاك كيسا به سبعة آلاف قطعة من الذهب ( وهذا كل ما فى الدار ) ، وأمرا بسحكك جملا وعيدا » . وسرعان ما استيقظ مولاه ، فأثنى على خادمه الأمين وأعتقه ، ولكنه أضاف عتابا رفيقا قائلا له انه احترم نومه فأقص جوده . أما ثالث الأبطال فهو عرابة الأعمى الذى فاجأه سائل ، حين كان ذاهبا الى صلاته يتوكأ على كتفى عبديه ، فأجابه : « وا أسفاه ! ان خزائنى خاوية ولسكنك تستطيع بيع هذين العبدین : فان أبيت قبولهما فانى أتخلى عنهما » . وبعد أن نطق بهذه الكلمات دفع بالشابين بعيدا عنه وسار متحسسا طريقه بجوار الحائط مستعينا بعصاه . وتعتبر أخلاق حاتم مثالا للفضيلة العربية . كان شجاعا جوادا وشاعرا مجيدا <sup>(١)</sup> . كان يشوى أربعين جملا فى ولائمه السخية . وعندما تضرع اليه أحد أعدائه رد اليه كل ما أخذ من أمري وغنائم . وكانت حرية مواطنيه تزدري قوانين العدالة ، ولكنهم استسلموا تلقائيسا ، فى فخر واعتزاز ، لحوافز الشفقة والخير .

## ديانة العرب

كان دين العرب ، كما كان دين الهند ، ينحصر فى عبادة الشمس والقمر والنجوم الثابتة ، وهذا نوع بدائى براق من الخرافات .

(١) أسقطنا من الترجمة هنا عبارة and a successful robber ولم يوصف حاتم الطائى قط بهذه الصفة ( الترجمة )

فالأجسام المضيئة في السماء تعرض صورة مرئية لاله . وتوحى كثرة عددها وبمدها عن الأرض الى عين الفيلسوف أو الرجل العادي بفكرة فضاء لا حدود له . وطابع الخطود واضح في هذه الأجرام السماوية الصلدة التي يخيّل للناس أنها غير قابلة للفساد أو الاضمحلال . ويمكن أن ينسب انتظام حركاتها الى عقل مدبر أو الى الفطرة . وأثرها الحقيقي أو الخيالي يشجع على الاعتقاد الفاسد بأنها ترعى الأرض ومن عليها رعاية خاصة . وقد نشأ في بابل علم الفلك . ولكن مدرسة العرب قبة صافية وسهل عار . وقد اهتموا في سيرهم ليلا بمواقع النجوم . فأسمأوها وترتيبها ومواقعها في كل يوم كانت معروفة للبدوى لوجه للاستطلاع وورعه . وقد علمته التجارب أن يقسم منازل القمر الى ثمانية وعشرين منزلا . وأن يبارك النجوم التي تبعث بالمطر الذي يجلب الخير ويروى ظمأ الصحراء . ولما كان بحكم الأجرام السماوية لا يمكن أن يتعدى العالم المرئي ، وكان من الضروري وجود قوى وراء الطبيعة ( ميتافيزيقية ) لتحافظ على استمرار تناسخ الأرواح وبعث الأجساد . فانهم كانوا يتركون جملا يهلك على القبر لكي يخدم سيده في الدار الآخرة . وتتضمن مناجاة الأرواح إيمانا بأنه لا يزال للموتى شعور وقوة . انى أجهل أساطير المتبربرين المبهمة وهي لا تثير عندي اهتماما للبحث عن أسماء الآلهة المحلية وعن النجوم والهواء والأرض ، عن جنسها وألقابها ونعوتها الدالة على رفع بعضها فوق بعض . وقد أوجدت كل قبيلة وكل أسرة ، بل كل محارب مستقل ، مقوس الدين ومادة العبادة ، كما عمدت الى تغييرها . ولكن الأمة العربية في كل عصر خضعت لدين مكة ،

كما أجنحت الرأس أمام لهجتها . ويرجع تاريخ الكعبة حقا الى ما قبل العصر المسيحي . وقد لاحظ المؤرخ اليوناني ديودوروس في وصفه لشاطئ البحر الأحمر أن هناك معبدا شهيرا يقع بين أرض ثمود وأرض سبأ ، يبجله جميع العرب لما له من قدسية سامية . وجدير بالذكر أن الكسوة المصنوعة من التيل أو الحرير والتي يجددها امبراطور تركيا كل عام ، كان أول من قدمها ملك تقى من ملوك حمير عاش قبل زمن محمد بسبعمئة سنة . وقد يكتفى الشخص المتوحش في عبادته بخيمة أو مغارة ، غير أن بناء من حجر وطين قد أقيم مقامهما . ولم يتجاوز فن ملوك المشرق أو قدرتهم ، ببساطة النموذج الأصلي . ويضم رواق فسيح بناء الكعبة . وهى حرم مربع الشكل طوله أربعة وعشرون ذراعا ، وعرضه ثلاثة وعشرون ذراعا ، وارتفاعه سبعة وعشرون . ولها باب ونافذة يسمحان بدخول الضوء . ويحمل السقف المزدوج أعمدة ثلاثة من الخشب ، وينصرف ماء المطر من ميزاب ( من الذهب الآن ) . وتقوم على بئر زمزم قبة تحميها من أى تلوث طارئ . وقد حصلت قبيلة قريش بالقوة أو بالحيلة على سُدانة الكعبة . وانتقلت هذه الوظيفة الكهنوتية الى جد محمد بعد أن شغلها قبله أربعة من أسلافه . وكان بنو هاشم الذين ينحدر محمد من نسلهم ، يعتبرون في نظر مواطنيهم أكثر الناس قدسية واحتراما ، وكانت أرباض مكة تتمتع بحق حماية اللاجئين ، ويزدحم الحرم والبلدة في الشهر الأخير من كل سنة بجموع غفيرة من الحجاج الذين يجيئون ليوفوا نذورهم ويقدموا قرابينهم في بيت الله . وهذه الطقوس نفسها التى يقوم بها الآن أتقياء المسلمين ،

ابتدعها ومارسها عبدة الأوثان فيما عرفوا من خزعات . فكانوا يخلعون ملابسهم من بعد قصى ويهرولون في طوافهم سبع مرات حول الكعبة ثم يقبلون الحجر الأسود . ويطوفون بالصفاء والمروة سبع مرات تبجيلا لهما ، ويرمون الجمرات سبع مرات في « منى » ، ويختم الحج كما يحدث الآن بنحر الأغنام والجمال . ويدفن شعرها وقلامات أطافرها في الأرض المقدسة . وقد وجدت كل قبيلة معبودها الخاص في الكعبة أو أدخلته إليها ، فزين المعبد أو دنس بثلاثمائة وستين صنما لرجال ونسور وأسود وظباء . وكان أبرزها تمثال هبسل صنم قريش ، المصنوع من العقيق الأحمر ، وهو يمسك بيده سبعة سهام بلا رءوس أو ريش ، وهي أدوات الرجم بالغيب في الجاهلية ورموزه . ولكن هذا التمثال كان يمثل الفنون السورية . أما العبادة في العصور الأقل تحضرا فكان يكفيها عمود أو لوحة . وقد نحتت صخور الصحراء لتكون آلهة أو مذابح ، تقليدا للحجر الأسود في مكة الذي لوثة عيب أصله الوثني . وقد شاع تقديم الذبائح قربانا — بين الناس في الشرق والغرب ، وعبر العابد عن اعترافه بفضل الآلهة أو خوفه من غضبها بالتضحية بأعلى وأعز ما يملك تكريما لها . وحياة الانسان هي أثمن ضحية لابعاد كارثة عامة . وقد دنس الدم البشري مذابح مصر وفينيقية ورومة وقرطاجة . وظلت هذه العبادة الوحشية سائدة زمنا طويلا بين العرب . ففي القرن الثالث كانت قبيلة الدوماتيين تقدم كل عام غلاما ضحية أو قربانا . وذبح أمير عربي كان حليفا لجستيان وجنديا من جنوده — أسيرا ملكيا بدافع من الورع الديني . أما الأب الذي يجر ابنه الى

المذبح فهو يمثل التعصب في أشد حالاته ايلاما وأعظمها سموا .  
وقد أضفى الاقتداء بالقديسين والأبطال على هذا العمل أو عقد النية  
عليه حالة من القدسية . وكاد والد محمد نفسه أن يهلك بسبب نذر  
طائش ، ولم يفتد الا بمشقة بما يساوى مائة بعير . وفي عصر الجاهلية  
أمسك العرب ، كما فعل اليهود والمصريون ، عن تذوق لحم الخنزير .  
وقاموا بختان أطفالهم عند البلوغ <sup>(١)</sup> . وهذه العادة التى لم ينه عنها  
القرآن الكريم أو يأمر بها تناقلها الخلف فى صمت ، كما سار  
عليها كل من اعتنق الاسلام . ويرى البعض ، وفى رأيهم ما ينم عن  
الفتنة — أن المشرع البارع أظهر تسامحا واستسلم لأهواء مواطنيه  
العنيدة ، وقد يكون من الأيسر أن نعتقد أنه تمسك بعبادته وأفكاره  
فى زمن شبابه دون أن يتنبأ بأن عادة تلائم جو مكة قد تكون غير  
نافعة أو مناسبة على شواطئ الدانوب أو الفولجا .

كانت بلاد العرب حرة . أما الممالك المجاورة لها فقد هزتها  
عواصف الغزو والطفيان . فمرت الطوائف المضطهدة الى البلاد  
السعيدة التى يستطيع المرء فيها أن يجهر بآرائه ويمارس معتقداته .  
فانتشرت ديانة الصابئة والمجوس واليهود والمسيحيين من الخليج  
الفارسى الى البحر الأحمر . وفى زمن سحيق فى القدم انتشرت ديانة  
الصابئة فى أرجاء آسيا بفضل علوم الكلدانيين وجيوش الآشوريين .  
ومن ملاحظات دامت ألفى سنة . استنتج الكهنة وعلماء الفلك فى

---

(١) لم يولع علماء المسلمين بهذا الموضوع ، غير أنهم يرون الحتان  
ضروريا للخلاص والنجاة بل أنهم يزعمون أن محمدا ولد محتونا  
بمعجزة .

بابل القوانين الأزلية للطبيعة والعناية الالهية . فعبدوا الآلهة السبعة أو الملائكة السبعة الذين يتحكمون في مسار الكواكب السبعة ، ويؤثرون في الأرض تأثيرا لا سبيل الى مقاومته ، وقد مثلت صفات الكواكب السبعة وعلامات البروج الاثني عشر ومجموعات النجوم الأربع والعشرين في نصف الكرة الشمالي والجنوبي — مثلها صور وطلاسم . وخصص كل يوم من أيام الأسبوع السبعة لأحد الآلهة . وكانت الصابئة تصلى ثلاث مرات في اليوم . وكان معبد القمر في حران نهاية حجه . ولكن طبيعة دينهم المرة كانت دائما على استعداد لأن تعلم أو نعلم . وكان بينهم وبين دين أسراهم من اليهود اتفاق عجيب فيما يخص قصة خلق العالم والطوفان والكهنة والأنبياء . وقد اسشهدوا مرارا بكتب آدم السرية وكتب شيث وادريس . وتسرب قليل من تعاليم الانجيل ، فتحولت البقية الباقية من هؤلاء الوثنيين الذين يؤمنون بتعدد الآلهة الى مسيحيين على يد القديس يوحنا في منطقة بصرى . وهدم المجوس هياكل بابل تهديما . ولكن سيف الاسكندر انتقم لما أصاب الصابئة من سوء . وبقيت فارس تن أكثر من خسائفة سنة تحت النير الأجنبى . وفر أظهر أتباع زردشت من عدوى عبادة الأوثان ، وتنفسوا مع خصومهم نسيم الحرية فى الصحراء . واستقر اليهود فى بلاد العرب سبعمائة سنة قبل وفاة محمد ، وطرد منهم من الأراضى المقدسة فى حروب تيتوس وهادريان عدد أكبر بكثير من ذلك . وقد تطلع المنفيون المجدون الى الحرية والسيطرة : فشيّدوا الهياكل فى المدن والقلاع فى البيداء . وقد اختلط من اعتنق اليهودية من الوثنيين

بنى اسرائيل الذين كانوا يشبهونهم في ممارسة عادة الختان . وكان  
المبشرون المسيحيون دوما أكثر نشاطا وتوفيقا . وقد أكد الكاثوليك  
سيادتهم العامة . وتمكنت المذاهب التي اصطهدها الكاثوليك  
من الاعتزال فيما وراء حدود الامبراطورية الرومانية . ونشر أتباع  
ماركيون وماني آراءهم الغريبة وأتاجيلهم الزائفة . واستمدت  
كنائس اليمس وأمرء الحيرة وغسان ايمانا ألقى من يد أساقفة اليعاقبة  
والنساطرة . وقد أتيح للقبائل حرية الاختيار : فكان كل عربى حرا فى  
أن يختار أو يكون دينه الخاص . وقد اختلطت خزعبلات وطنسه  
البدائية مع لاهوت سام من وضع القديسين والفلاسفة . ورسخت فى  
الأذهان قاعدة من قواعد الدين الأساسية ، وذلك برضاء الغرباء  
العارفين : أغنى وجود اله واحد فرد سما فوق قوى السماء والأرض .  
وكثيرا ما كشف عن نفسه للبشر على يد ملائكته وأنبياؤه ، وتدخلت  
رحمته أو عدالته فى نظام الطبيعة بمعجزات فى الوقت الملائم . وقد  
اعترف أكثر العرب ذكاء بقدرته ، على الرغم من أنهم أهملوا  
عبادته . وكانت العادة لا العقيدة هى التى لا تزال تربطهم الى بقايا  
عبادة الأوثان . وكان اليهود والنصارى هم أهل الكتاب . وكان  
الانجيل قد ترجم من قبل الى اللغة العربية . أما العهد القديم فقد تم  
الاتفاق على تقبله بين هؤلاء الأعداء الألداء . وقد ابتهج المشرق  
اذ كشفوا فى قصص الأنبياء العبريين عن آباؤهم الأولين . وهللوا لمولد  
اسماعيل وفرحوا بوعوده . وبجلوا دين ابراهيم وفضائله ، وأرجعوا  
نسبه ونسبهم الى الانسان الأول . واستوعبوا فى سذاجة مماثلة ،  
المعجزات التى ذكرت فى النصوص المقدسة وفى رؤى أحبار اليهود  
ورواياتهم .



## ظهور النبی محمد

ان القول بأن نسب محمد غير عريق أو غير نبيل ، قذف أحق تعوزه البراعة من جانب المسيحيين الذين يرفعون بذلك من قدر خصمهم بدلا من الحط منه . وكان نسبة الى اسماعيل امتيازاً قويا أو خرافة . ولكن اذا كان الجزء القديم من النسب محوطا بالظلام والشك ، فانه يستطيع أن يشير الى أجيال عديدة من النسل النقي الأصيل . لقد ولد من قريش في بنى هاشم ، وهم أشهر العرب ، وهم أمراء مكة وسدنة الكعبة بالوراثة . وكان جده عبد المطلب بن هاشم ، وهو مواطن ثرى جواد ، قد أنقذ البلد من محنة القحط بما جلب من تجارة . ومكة التي أطعمها جود الأب أنقذتها شجاعة الابن . وكانت مملكة اليمن تخضع لحكم أمراء الحبشة المسيحيين . وقد ثارت ثائرة أبرهة والى اليمن لاساءة لحقته ، فعزم على أن يثأر لشرف الصليب فأحاط المدينة المقدسة بكثير من الفيلة وبجيش من الأفريقيين ، وجرت هناك مفاوضات لعقد صلح . وفي الاجتماع الأول طالب جد محمد برد ابل سلبت منه . وتساءل أبرهة : « أتكلمنى فى الابل ، وتسرك الكعبة ، وقد جئت لهدمها ؟ » وأجاب ذلك الزعيم الجريء : « ائى أنا رب الابل ، أما البيت ( الكعبة ) فله أرباب تحميه وتدفع عنه الأذى والدنس » . وقد اضطر الأحباش ، اما لقلة المؤن أو لبسالة القرشيين ، الى التقهقر الزرى الشائن . وقد ازدانت قصة اندحارهم بمعجزة تحليق « الطير الأبايل » فوق هؤلاء الكفرة

« ترميهم بحجارة من سجيل » . وخذل العرب ذكرى هذه النجاة فأخذوا يؤرخون أحداثهم أمدا طويلا بعام الفيل . وقد توجت السعادة العائلية معجد عبد المطلب . فقد امتدت حياته حتى بلغ مائة سنة وعشرا . كما أصبح أبا لست من البنات وثلاثة عشر من الأبناء . وكان عبد الله أحب بنيه إليه ، وكان أجمل شبان العرب وأكثرهم تواضعا . وفي الليلة التي زف فيها الى آمنة وهي من أسرة زهرة النيلة ، قيل بأن مائتي عذراء قضين نحبهن غيرة ويأسا . وقد ولد محمد وهو الابن الوحيد لعبد الله وآمنة — بمكة في السنة الرابعة لموت جستييان وبعد مضي شهرين من هزيمة الأحباش الذين لو قدر لهم النصر ، لدخل الدين المسيحي الكعبة . وحرم محمد في طفولته من أبيه وأمه وجده . غير أن أعمامه كانوا كثيرا ، وكانوا أشداء ، وعند قسمة الميراث لم يحظ اليتيم الا بخمسة جمال وأمة حبشية . وكان أبو طالب ، وهو أعلى أعمامه مقاما ، رائد شبابه وحاميه ، في الداخل وفي الخارج ، في السلم والحرب . وعندما بلغ محمد الخامسة والعشرين ، عمل لخديجة ، وكانت أرملة غنية نبيلة تقطن مكة . وقد كافأت أماته بعد وقت قصير بأن وهبتة يدها ومالها . ويردد عقد الزواج ، في بساطة الأسلوب العتيق ، الحب المتبادل بين محمد وخديجة ، ويصفه بأنه من أفضل الشبان في قبيلة قريش . ويحدد العقد صداقا قدره اثنتا عشرة أوقية من الذهب وعشرون جملا . وقد دفع عمه الكريم هذا الصداق . وبهذا الزواج استرد محمد بن عبد الله مركز أجداده . وقنعت هذه السيدة الراجحة العقل بفضائله الشخصية ،

حتى نزلت عليه في الأربعين من عمره الرسالة ، وبلغ الناس دين القرآن .

وطبقا لما رواه أصحابه ، كان محمد يتميز بجمال الخلقة . وهي نعمة يندر أن يمتنها الا من حرم منها ، وقبل أن يتكلم استمال ، كخطيب الى جانبه مودة سامعية في مجلس خاص أو عام . وكان أصحابه تبهرهم هيئته وجلال منظره وعيناه النافذتان وابتسامته العذبة ولحيته المرسلة ، ومحياء الذي عبر عن كل خلجة من خلجات نفسه ، وحركاته التي أكدت كل لفظ جرى على لسانه . وفي أمور الدنيا العادية اعتصم محمد بأداب قومه بما فيها من رزانة وجلال ، وقد زاد تواضعه وحسن لقائه لفقراء مكة المعدمين من شرف رعايته واحترامه للأغنياء والأقوياء . وأخفت صراحة سلوكه براعة أفكاره . وكان أدبه الجم يرجع الى صداقة شخصية أو حب عام للخير . وكانت له ذاكرة قوية واعية . وكانت دعاياته هينة لطيفة ، وخياله ساميا ، وحكمه على الأشياء واضحا وسريما وفاصلا . وتعطى بشجاعة التفكير والعمل مما . وعلى الرغم من أن خططه ربما اتسعت بالتدريج مع كل نجاح أصابه ، فان أول فكرة واثته عن رسالته المقدسة تحمل طابع الأصالة والعبقرية الفذة . وتربى ابن عبد الله في أحضان أبيل قوم ، ودرب على استخدام أنقى لهجة في العرب . وقد ازدادت طلاقة لسانه بالتزامه الصمت الحصيف في الوقت الملائم . وعلى الرغم من تسنمه ذروة البلاغة فقد عاش أميا بعيدا عن مراكز الحضارة . فلم يتعلم في شبابه فن القراءة والكتابة . وأعفاه الجهل السائد في زمانه من اللوم والخجل . ولكنه حصر في دائرة ضيقة من هذا الوجود وحرّم من تلك المزايا الصادقة

التي تعكس الى عقولنا آراء الحكماء والأبطال . ومع ذلك فقد كانت الطبيعة وأخلاق الناس كتابا مفتوحا أمام ناظريه . وقد لعب الخيال في الملاحظات السياسية والفلسفية التي تسبب الى هذا « الرحالة » العربي ، فهو يقارن بين أمم الأرض ودياناتها ويكشف عن ضعف الملكيات الفارسية والرومانية ، وينظر في شفقة وأسى الى تدهور الأزمنة ، ويعزم على أن يوحد في ظل اله واحد وملك واحد روح العرب المتبعة وفضائلهم البدائية . واذا دققنا البحث لوجدنا ، أنه بدلا من التردد على بلاط الملوك ومعابد الشرق ومعسكراته ، اقتصرت رحلتنا محمد على أسواق بصرى ودمشق ، وأنه لم يكن قد تجاوز الثالثة عشرة من عمره عندما سافر مع قافلة عمه ، وأن واجبه حتم عليه أن يعود توا بعد بيعه تجارة خديجة . وفي هذه الرحلات العابرة السريعة ربما استطاعت عين المبصرة أن ترى أشياء قد لا يراها رفقاؤه الذين هم أقل منه ارهاقا في الحس . وقد تنثر بعض بذور المعرفة في أرض خصبة . ولكن عدم الملمة باللغة السريانية كان لا بد أن يحد من حبه للاستطلاع . واني لا أستطيع أن أرى في حياة محمد ، أو فيما روى ، أن أفقه امتد الى أكثر من حدود العالم العربي . فمن كل فج من هذا العالم المنعزل كان حجاج مكة يجتمعون كل سنة ملبين داعي التقوى والتجارة . وفي هذا الاختلاط الحر بين الجاهل الفخيرة يستطيع المواطن العادي أن يدرس في لغة قومة أحوال القبائل السياسية وأخلاقها وطبائعها وعقائد اليهود والنصارى وطقوسهم . وقد يحمل بعض الأجانب النافمين أو قد يفرون على طلب الضيافة . وقد أشار أعداء محمد الى يهودى والى فارسى والى راهب سورى ، واتهموا

هذا أو ذاك بأنه بذل العون سرا لمحمد في وضع القرآن . ان الحديث يثرى الفهم ويوسع الأفق ، ولكن العزلة مدرسة العبقرية ، والتناسق في أى مؤلف ( كتاب ) يدل على أن صانعه فنان واحد . لقد انكب محمد منذ شبابه الباكر على التأملات الدينية . ففى شهر رمضان من كل سنة كان يعتزل العالم ويهجر زوجه خديجة ، وفى غار حراء على بعد ثلاثة أميال من مكة ، كان محمد يناجى روح الخداع أو الحماة التى لا تقطن السماء وانما تسكن عقل النبى . ويتألف الدين الذى بشر به عشيرته وأمته باسم الاسلام من حقيقة أزلية وقصة ختمية : « لا اله الا الله ، محمد رسول الله » (١) .

ويفخر المدافعون عن اليهود بأننا بينما خدعت الأمم القديمة المتعلمة المستتيرة بخزعבלات الشرك ، فإن أجدادهم البسطاء في فلسطين حافظوا على معرفة الاله الحق وحده وعلى عبادته . وقد يصعب التوفيق بين صفات يهوه الأخلاقية وبين مستوى الفضائل البشرية . أما صفاته الميتافيزيقية فيكتنفها الغموض ، فإن كل صحيفة من أسفار موسى الخمسة أو من سفر الأنبياء تدل على قوته وقدرته . وقد نقشت وحدانية اسمه في أول لوح من ألواح الشريعة ولم تدنس هيكله أية صورة مرئية لكائن غير مرئى . وبعد هدم الهيكل ، طهرت العقيدة اليهودية في المنفى وحددت ، وهذبتهما التقوى الروحية في المعابد ، ولا يمكن أن نبرر ، استنادا الى ما جاء على لسان محمد ، تنديده الدائم بأن يهود مكة أو المدينة كانوا يعبدون «عزيرا» على أنه ابن الله (٢) . ولكن لم يعد

(١) ترجمت كلمات جيبيون بنصها . وهذا هو أسلوب جيبيون في حديثه عن الدين . وقد لا تكون في حاجة الى التعليق عليه ( الترجمة )  
(٢) يشير الى ما جاء في سورة التوبة الآية ٣٠

بنو اسرائيل يعتبرون شعبا . وكانت ديانات العالم ترتكب منكرا من القول وزورا ، على الأقل في نظر النبي ، بافترائها أن الله في عليائه قد اتخذ أبناء وبنات ورفقاء . وكان هذا الاثم في وثنية العرب الفجة صارخا وقحا . ولا يشفع للصائبة أن الكوكب الأول أو العقل احتل الذروة السامية في المراتب السماوية في دينهم . وفي دين المجوس يدل التنازع بين مبدأين على عيب الفاتح وقصه . وكان النصارى في القرن السابع قد رجعوا الى ما يشبه الوثنية دون أن يشعروا . فكانت نذورهم الخاصة والعامة توجه الى البقايا المتخلفة والصور التي وصمت كنائس المشرق بالعار ، لقد احنجب عرش الواحد القهار وراء سحابة من الشهداء والقديسين والملائكة ، وهم موضع تبجيل العوام . وقد أضفى الهراطقة الكوليريديون Collyridians الذين ازدهروا في بلاد العرب ووجدوا فيها مرتعا خصبا ، على مريم العذراء اسم الالهة ومراسم الالهة . وتبدو أسرار التثليث والتجسيد مناقضة لمبدأ وحدانية الله . ففي أبسط معانيهما وأكثرها وضوحا يوجد التثليث ثلاثة آلهة متكافئة . ويتحول عيسى وهو بشر الى أفنوم هو ابن الله . ولن يقنع أى شرح تقليدى أرثوذكسى غير عقل مؤمن . وحسب الاستطلاع والتحرق الذى فاق حد الاعتدال قد مزقا الحجاب عن قدس الأقداس . وكان أصحاب كل مذهب في الشرق على استعداد لأن يعلنوا أن جميع المذاهب خلا مذهبهم ، جديرة بأن توصم بالوثنية وتعدد الآلهة . أما عقيدة محمد فقد خلت من الشك والابهام . والقرآن شهادة مجيدة على وحدانية الله . ورفض بنى مكة عبادة الأصنام من البشر ومن الكواكب والنجوم ، تطبيقا للمبدأ العقلى بأن كل ما ييزغ فهو الى أقول ، وكل

ما يولد فهو الى ممات ، وكل ما يقبل الفساد فهو الى الانحلال والزوال .  
وقد آمن في حماسه العقلى ، كما عبد ، في خالق العالم موجودا خالدا  
لا حد له ولا شكل ولا مكان ولا عقب ولا شبيه ، حاضرا في أسرارنا  
الخفية ، موجودا بطبيعة وجوده ، متصفا بذاته بجميع صفات الكمال  
الذهنى والأخلاقي . وهذه الحقائق السامية ، التى عبر عنها النبى على  
هذا النهج ، آمن بها أصحابه ايمانا لا يتزعزع ، وحددها مفسرو القرآن  
بدقة ميتافيزيقية . وأى فيلسوف يؤمن بوجود اله يمكنه أن يقر بعقيدة  
محمد المألوفة . وهى عقيدة ربما كانت أسمى من عقولنا في الوقت  
الحاضر . فماذا بقى للخيال أو حتى للذكاء ، اذا جردنا هذا الجوهر  
غير المعروف من كل فكرة عن الزمان والمكان وحتى عن الحركة والمادة ،  
والاحساس والتأمل ؟ لقد أكد صوت محمد أول مبدأ للعقل والالهام .  
وتميز أتباعه من الهند الى المغرب باسم الموحدين . وقد زال خطر عبادة  
الأوثان بتحريم الصور والتماثيل . ويعتق المسلمون دون شك أو تردد  
المبدأ القائل بالقضاء والقدر والجبرية المطلقة <sup>(١)</sup> . ولكنهم يناضلون  
متصددين للمعضلات العادية : كيف يمكن أن نوفق بين علم الله الأزلى .  
وبين حرية المرء ومسئوليته عن أعماله . وكيف يوجد الشر في ظل قوة  
قاهرة لا حد لقدرتها ، خيرة لا حد لخيرها ؟

لقد سجل اله الطبيعة وجوده على كل ما خلق . كما دون شريعته  
على قلوب البشر . وكان التذكير بوجوده والسير على هدى شريعته  
هدف جميع الأنبياء في كل العصور ، سواء أكان هذا الهدف حقيقيا

---

(١) هذا الرأى لا يتفق والحقيقة ( المترجم )

أم مزعوما . وقد سمح كرم محمد لمن سبقه من الأنبياء بمثل ما ادعى  
لنفسه من الفضل ، وامتدت سلسلة الوحي من سقوط آدم الى نزول  
القرآن . وفي تلك الفترة أضواء نور النبوة في قلوب  
مائة وأربعة وعشرين ألفا من المصطفين الأخيار ، رفع بعضهم فوق بعض  
بقدر ما منحوا من فضيلة وبركة . وبث ثلثائة وثلاثة عشر رسولا  
برسالات خاصة ليخرجوا مواطنهم من الوثنية والذيلة ، وأملى الروح  
القدس مائة وأربعة مجلدات . وقام ستة من المشرعين ذوى الذكاء الخارق  
بإبلاغ الناس ما أوحى به اليهم على توالى الأزمنة من شرائع مختلفة  
ولكنها كلها تندرج تحت دين واحد لا يتغير . وترفع درجات آدم  
ونوح وإبراهيم وموسى والمسيح ومحمد بعضها فوق بعض . ولكن من  
يغض أو ينكر أى نبي يعد من الكافرين . وكتابات الآباء الروحانيين  
لم تبق الا فى النسخ اليونانية والسريانية المشكوك فيها . وسلوك آدم لم  
يجعله جديرا باعتراف سلالة له بالجميل . وتعاليم نوح السبعة لا يتبعها  
الا طبقة حقيرة عاجزة من المؤمنين فى معابدهم . وذكرى إبراهيم كان  
الصائبة يجعلونها فى غموض فى كلديا وهى موطنه الأصلي . وعاش  
من بين ألوف الأنبياء موسى والمسيح وكانا يحكمان . وتتألف  
بقايا كتبهم المقدسة من العهد القديم والعهد الجديد . وترد قصة موسى  
الاعجازية فى القرآن فى ثوب قدسى جميل . وتشرح صدور اليهود  
الذين فى الأسر للتشفى سرا بفرض عقائدهم على أمم يزدرون أديانها  
الحديثة العهد . وقد علم النبي المسلمين أن يجعلوا مؤسس المسيحية  
تجيلا ساميا خفيا : « انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته



ألقاها الى مريم وروح منه » (١) — « واذا قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين » (٢) . وقد نسبت اليه دون تحفظ عجائب الانجيل الصحيحة والمشكوك فيها . ولم تأنف الكنيسة الغربية أن تأخذ عن القرآن فكرة ولادته دون أب من أم عذراء (٣) ومع ذلك فان عيسى لم يكن الا بشرا سويا ، ولسوف تستخدم شهادته يوم القيامة ضد اليهود الذين رفضوا الايمان به كسبي ، وضد النصارى الذين عبدوه كابن الله . وقد اغتابه أعداؤه الخبيثاء ووشوا به ، وتأمرؤا على حياته . ولكن نيتهم وحدها هي التي أثمت ، اذ وضع على الصليب شبح أو مجرم ، ورفع القديس الطاهر الى السماء السابعة . وكان الانجيل طوال ستائة سنة هو الطريق الحق وسبيل الخلاص ، ولكن المسيحيين نسوا بالتدريج كلا من القانون وسنة نبيهم . وقد علم الغنوصيون النبي محمدا أن يتهم الكنيسة وكذلك الهيكل اليهودي ، بتحريف النصوص المقدسة . لقد ابتهج موسى والمسيح لتقواهما بالبشارة المؤكدة ، وهي أن النبي الذي سيأتي من بعدهما سيكون أعظم منهما وأكثر شهرة . فالوعد الذي ورد في الانجيل عن الروح القدس ( Paraclete ) تمثل أولا في اسم محمد ، وتنفذ فعلا في شخص محمد أعظم رسل الله وخاتمهم .

ويحتاج نقل الآراء الى تشابه في الأفكار وفي اللغة . فحديث فيلسوف ما قد يطرق سدى أذني فلاح . ومع ذلك فما أقل المسافة التي تفصل

(١) سورة النساء آية ١٧١ (٢) سورة آل عمران آية ٤٥

(٣) أشير الى ذلك بمفوض في القرآن ، وقد فسرتها روايات أهل السنة بوضوح أكبر ، وفي القرن الثاني عشر رفض القديس برنارد الولادة العنصرية باعتبارها بدعة جريئة .

بين ذهنيهما اذا قورنت باتصال عقل لا حد له بمقل محدود ، بكلام الله اذا عبر عنه لسان أو دونه قلم . فالوحي الذي نزل على أنبياء بنى اسرائيل أو على حواربي المسيح وكتاب الأناجيل قد لا يتعارض واستعمالهم لقواهم العقلية وذاكرتهم . وقد ترك اختلاف عبقرياتهم طابعا ظاهرا في أسلوب كتب المهددين القديم والجديد وتأليفها . ولكن محمدا قنع بدور أكثر تواضعا ، وأعظم سموا ، الا وهو دور المبلغ فحسب . فمادة القرآن في رأيه أو رأي أتباعه أزلية خالدة محفوظة في جوهر الألوهية ومسطرة بقلم من نور في اللوح المحفوظ الذي سطرت فيه الأقدار الأزلية . وقد حمل جبريل الى السماء الدنيا نسخة منه مكتوبة على الورق في مجلد من الحرير والجواهر . وجبريل طبقا للعقيدة اليهودية قد أرسل من قبل في مهام الأمور . وهذا الرسول الأمين نزل بالسور والآيات منجمة على النبي العربي . وبدلا من تعبير كامل دائم عن الارادة الالهية أظهر محمد آيات من القرآن كلما تراءى له ذلك ، وكان كل وحي يلائم ظروفه السياسية أو هواه . وقد أزيل التناقض باتباع المبدأ التحفظي الذي يقرر أن أى نص في الكتاب الكريم قديس أو يغير بنص لاحق . واجتهد أتباعه في تدوين كلمات الله ورسوله على سعف النخيل وعظام الكنف المأخوذة من الغنم . وأودعت هذه الصفحات دون ترتيب أو ارتباط في صندوق بمنزله عهد بحفظه الى احدى زوجاته . وبعد وفاة محمد بستين ، جمع أبو بكر صديقه وخليفته هذا المجلد المقدس وقام بنشره . وقام بمراجعة هذا العمل الخليفة عثمان في السنة الثلاثين بعد الهجرة . وتؤكد طبعات القرآن على اختلافها تلك الميزة المعجزة لنص موحد لا يتبدل أو يفنى . وبروح الحماسة أو الزهو

أقام محمد صدق رسالته على مميزات كتابه . وهو يتحدى في جرأة الجن والانس على السواء أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو حتى بسورة من مثله . وهو يؤكد أن الله وحده هو الذي يستطيع أن يأتى بمثل هذا العمل الذي لا يبارى ، ويوجه هذا الدليل الى كل عربى ورع ، يتعلق قلبه بالايمان ويمتلئ بالنشوة ، وتطرب أذنه لموسيقى الأصوات ، ولا يمكنه جهله من مقارنة انتاج العباقرة من البشر . وموسيقى الأسلوب وجزالته ، لن يكون لهما عند الترجمة وقع في نفس أوربي كافر . وسوف يتصفح هذا ، في ضجر ، خليطاً متنافراً لا نهاية له من القصص والمواعظ والخطب ، قلما تثير الشعور أو تبعث في النفس فكرة . وقد تزحف أحيانا على الثرى وقد تحلق فيفتقدها المرء بين السحب . وتحفز صفات الاله خيال البشير العربى . ولكن أسمى الأساليب لابد أن تتراجع أمام البساطة الهائلة لسفر أيوب الذى وضع منذ زمن محيق في عين القطر وفي اللغة نفسها . واذا كان أسلوب القرآن يسمو فوق قدرة البشر ، فالى أى ذكاء نادر يجب أن ترجع الياذة هوميروس أو فيليبيات ديموستتيس <sup>(١)</sup> . وفي كل دين تعوض سيرة مؤسسه عن صمت الوحي المدون . وقد كانت أحاديث محمد دروسا عديدة في الصدق ، وأفعاله نماذج كثيرة للفضيلة . وقد قام أصحابه وأزواجه على حفظ آثاره العامة والخاصة ، وبعد مضي مائتين من السنين ثبتت دعائم السنة أو القانون الشفوى بفضل جهود البخارى الذى حقق سبعة آلاف ومائتين وخمسة وسبعين حديثاً صحيحاً اختارها من مجموعة

(١) لا هذا ولا ذاك يستحقان أن يوضعا الى جوار سورة قصيرة من

( المترجم )

القرآن .

تحوى ثلثمائة ألف حديث ما بين مشكوك فيه وزائف . وفى كل يوم كان هذا المحقق الورع يصلى فى حرم مكة ويتوضأ بماء زمزم ، ويضع أوراقه التى انتهى منها على منبر الرسول وعلى قبره . وقد حظى عمله بموافقة الأئمة الأربعة لمذاهب أهل السنة .

لقد أيدت معجزات كثيرة باهرة رسالة الأنبياء القدامى كموسى وعيسى . وكما ألح أهل مكة والمدينة على محمد بأن يأتى بدليل مماثل على رسالته المقدسة ، كأن ينزل عليهم من السماء ملكا ، أو كتابا يحوى ما يوحى به اليه ، أو ينبت فى الصحراء حديقة ، أو يرسل نارا تلتهم البلدة المشركة . وكلما ألحت عليه قريش فى المطالبة بالمعجزات أحاط نفسه بفخر غامض من الرؤيا والتنبؤ ، ولجأ الى البراهين العقلية فى عقيدته معتصما بعناية الله الذى يرفض تلك الآيات والمعجزات التى تنقص من قدر الايمان وتزيد فى جسامه الكفر . ولكن نعمة دفاعه سواء كانت غاضبة أو متواضعة تنبئ عن ضيقه . وهذه المواضع التى تشير الى العتاب ثبت دون ريب وحدة القرآن . أما أتباع محمد فهم أكثر منه ايمانا بقدرته على الاتيان بالمعجزات ، وتزداد ثقتهم وايمانهم كلما ابتعدوا عن زمان مآثره الروحية ومكانها . انهم يؤمنون أو يؤكدون أن الأشجار سارت للقاءه ، وأن الأحجار حيته ، وأن الماء نبع من بين أصابعه ، وأنه أطعم الجائع ، وشفى المريض وأحيا الميت ، وأن رافدة من الخشب تأوهت تشوقا اليه ، وأن الجمل شكى اليه ، وأن كنف الشاة أخبرته أنها مسمومة ، وأن الكائنات الحية والجامدة كانت تخضع على السواء لرسول الله . ثم ان رؤياه التى رأى فيها أنه أسرى به ليلا ، وصفت حقا بأنها أمر تم فعلوا بالجسد . فحمله حيوان غريب اسمه

البراق من المسجد الحرام بمكة الى المسجد الأقصى في بيت المقدس .  
وفي صحبة جبريل صعد السموات السبع على التوالي وتقبل تحيات  
النقاء والأنبياء والملائكة ، كل في قصره ، ورد التحية . وبعد السماء  
السابعة سمح لمحمد وحده أن يتقدم . وقد مر بحجاب الوحدة وهو  
قاب قوسين أو أدنى من العرش ، وشعر ببرودة اخترقت قلبه عندما مست  
كتفه يد الله . وبعد هذا الحديث الودي على الرغم من أهميته . هبط  
محمد ثانية الى بيت المقدس وركب البراق وعاد الى مكة . وأتم في  
عشر ليلة رحلة لا تتم الا في آلاف من السنين . وطبقا لرواية أخرى أفهم  
الرسول ، في جمع عام ، قريشا ، في تعذيبهم الخبيث له ، فانشق قرص  
القمر اطاعة لكلمته التي لا ترد ، وهبط الكوكب المطيع من موضعه في  
السماء وطاف بالكعبة سبع مرات وحيا محمدا بلسان عربي ، وأنقص  
فجأة من حجمه ودخل من الرقبة ليخرج من كم القميص . ويجد العامة  
متعة في هذه الحكايات العجيبة . ولكن أكثر علماء الاسلام رزانة يقلدون  
تواضع نبيهم ويشيرون اما الى ساحة العقيدة أو التفسير . وقد  
يتذرعون بأنه لا حاجة الى خرق قوانين الطبيعة عند نشر دين من  
الأديان . وأن ديننا لا تكتنفه الأسرار والغموض يمكن تبرير ما فيه  
المعجزات ، وأن سيف محمد لم يكن أقل في قدرته من عصا موسى .

## شريعة محمد

ان تعدد الخرافات وتنوعها يثقل كاهل الوثني ويشتت فكره ، ولقد نسج في جوهر الشريعة الموسوية ألف طقس من أصل مصرى . كما تبخرت روح الانجيل وسط أبهة المحافل الكنسية ومهرجاناتها . وقد مال نبي مكة ، اما بدافع الهوى أو السياسة أو الوطنية ، الى اصفاء القدسية على الطقوس العربية وعادة زيارة الحجر الأسود في الكعبة . ولكن تعاليم محمد نفسه تفرس ورعا أكثر بساطة وأكثر تعقلا أو التثاما مع العقل : فالصلاة والصوم والزكاة هي واجبات المسلم الدينية . وهو يشجع على التعلق بالأمل في أن الصلاة تقربه الى الله وأن الصوم سيصل به الى باب الجنة وأن الزكاة ستسمح له بالدخول .

وطبقا لقصة الأسراء أمر النبي عندما كلمه ربه على اقتراد أن يفرض على أتباعه خمسين صلاة في اليوم . واتباعا لنصيحة موسى طلب التخفيف من هذا العبء الذي لا يمكن احتماله . وقد أقص العدد تدريجا الى خمس . ولا يقبل من تاركها عذر من عمل أو لهو أو زمان أو مكان . وتكرر صلاة المؤمن في الفجر وفي الظهر وفي العصر وفي المغرب وفي العشاء . وحتى في وقتنا هذا فان السائح الأوربي الذي فتر فيه الحماس الديني ، ليستشعر شيئا من الرفعة والسمو حين يرى شدة خشوع الأتراك والفرس ويقظتهم في صلاتهم . والوضوء هو مفتاح الصلاة . وفي القرآن أمر صريح بتكرار غسل اليدين والوجه والجسم . وكان العرب قديما يفعلون ذلك . وهناك نص صريح باباحة التيمم اذا تعذر الماء . وقد حددت السنة أو الاجتهاد ألفاظ الصلاة وحركانها سواء

في الركوع أو القيام أو السجود . وينساب الدعاء والضراعة الى الله في ابتهالات قصيرة حارة . ولا يوهن من حماسهم أية طقوس مهما كانت مضنية . وكل مسلم مسئول بنفسه عن أمور دينه وواجباته الدينية . ووجد أنه من الضروري ، بين أناس لا يؤمنون الا في وجود الله وحده ورفضون استخدام الصور — الحد من شطحات الخيال وذلك بتوجيه العين والفكر نحو « قبلة » أو موضع ظاهر في الأفق . وكان النبي يبيل أولا الى ارضاء اليهود فاختار بيت المقدس ، ولكنه رجع بسرعة الى قبلة أكثر التثاما مع ميوله الطبيعية . وتنتج خمس مرات في كل يوم ، عيون الأمم في اصطخر وفاس ودلهي في خشوع الى حرم مكة المقدس . وجدير بالذكر أن كل بقعة ظاهرة صالحة لأداء الصلاة فيها ، فيؤدي المسلم صلاته سواء في حجرته أو في الطريق العام . وللتمييز بين المسلمين وبين اليهود والنصارى خصص يوم الجمعة من كل أسبوع لاقامة صلاة جامعة اعترافا بفائدة هذا النظام . فيجتمع الناس في المسجد ويرقى الامام ، وهو شيخ مبجل ، المنبر لبدأ الصلاة ويلقي الخطبة . ولكن الدين الاسلامي لا يعرف الكهنوت ولا القرايين . وتنظر روح التعصب المنطلقة باحتقار الى الكهنة وعبيد الخرافات .

كان النبي ييغض ما يقوم به الزهاد والنسائك من تكفير اختياري ، فيه تعذيب لأنفسهم بنية احاطتها بهالة من القدسية في حياتهم ، وقد لام بعض أصحابه لأنهم نذروا في حق الامتناع عن اللحم والنساء والنوم ، ونادى بقوة أنه لن يسمح بقيام رهبنة في دينه . ولكنه فرض صوم ثلاثين يوما من كل سنة ، وألح في النصح باتباع هذا الأمر كنظام يطهر النفس ويقهر البدن ، وكترويض نافع على اطاعة أوامر الله ورسوله . ففي شهر رمضان يمتنع المسلمون من الفجر الى

غروب الشمس عن الطعام والشراب والنساء والاستحمام والتعطر ،  
أعنى عن كل غذاء يعيد الى المرء قوته ، وعن كل لذة تشبع حواسه .  
وفى دورة السنة القمرية قد يأتى رمضان أحيانا فى قر الشتاء وأحيانا  
فى حر الصيف ، حيث يجب على هذا الشهيد الصابر أن يرقب انتهاء  
نهار قائظ طويل ممل دون أن يطفىء ظمأه بقطرة من الماء ، وكان  
تحريم الخمر مقصورا على فئة من القساوسة والنساك ، فقير محمد  
وحده ذلك وجعله قانونا عاما واجب الطاعة . وقد حرم جزء كبير من  
سكان العالم — اطاعة لأمره — استعمال ذلك الشراب النافع  
( أحيانا ) وان يكن ضارا خطيرا فى أغلب الأحيان ، وقد يخرق الفاسق  
دون ريب هذه القيود الشاقة وقد يجد المنافق مخرجا . ولكن المشرع  
الذى سن هذه القيود لا يمكن حقا أن يتهم بأنه استمال أتباعه بالتساهل  
فى اشباع شهواتهم البدنية . ويمتد البر عند المسلمين الى عالم الحيوان .  
ويؤكد القرآن مرارا أن اغاثة الفقير والمسكين ليست فضلا ومنة ،  
وانما هى واجب معلوم لا يمكن الفكاه منه . وربما كان محمد هو  
المشرع الوحيد الذى حدد مقدار الزكاة بالدقة ، وقد يختلف المعيار  
 باختلاف المال : مقداره ونوعه ، فقد يكون تقودا ، أو حنطة  
أو ماشية أو فاكهة أو تجارة ، ولكن المسلم لا يكون منفذا للشرع  
الا اذا أخرج عشر ماله أو إرادته . فان اتهمه ضميره بغش أو ظلم  
ارتفع القدر الى الخمس <sup>(١)</sup> طبقا لفكرة رد المظالم . فالبر والاحسان

(١) حفزت الغيرة ماراتشى Maraeci الى تعداد صدقات الكاثوليك  
فى رومه ، على أنها أكثر كرما وجودا . حيث فتح خمسة عشر مستشفى  
ضخم للآلاف من المرضى والحجاج ويدفع الصداق لآلاف وخمسمائة عذراء  
كل سنة . وقد أسست ست وخمسون مدرسة خيرية لكلا الجنسين ،  
ومائة وعشرون جمعية أخوية للتخفيف من عوز اخوانهم . الخ . وأعمال  
البر فى لندن أكثر من ذلك . ولكنى أخشى أنه يجب أن ينسب هذا الى  
الروح الانسانية فى الشعب أكثر منه الى ديانتته .



أساس العدالة ، طالما حرم علينا أن تؤذى من تجب علينا معونته .  
وقد يكشف لنا نبي عن أسرار السماء ويرفع الحجاب عن غيب  
المستقبل ، ولكنه في تعاليمه الأخلاقية لا يستطيع إلا أن يردد ما يدور  
بخلدنا .

ويحى الأمل في الثواب والخشية من العقاب الركنين الأساسيين  
في الاسلام وفرائضه الأربعة العملية . وقد ارتكزت العقيدة عند  
المسلمين في خشوع على الحساب في اليوم الآخر . ولم يجرؤ النبي  
على تحديد زمن هذه « الواقعة » الرهيبة بالدقة ، على الرغم من أنه  
يشير في غموض الى علاماتها في السماء والأرض ، وهي علامات  
زوال العالم عندما تدمر الحياة وتعود الخليقة سيرة الفوضى البدائية  
الأولى . ويوم ينفخ في الصور تبدأ عوالم جديدة في الظهور ، ويقوم  
الملائكة والجن والناس من قبورهم وتتحد الروح والجسد مرة أخرى .  
وجدير بالذكر أن المصريين كانوا أول من آمن بفكرة البعث . وقد  
حنطت أجسادهم وبنيت الأهرام لتحافظ على الجسد ، المعقل  
القديم للروح ، لفترة امتدت ثلاثة آلاف سنة . غير أن هذه محاولة  
جزئية وغير مجدية . وقد أظهر محمد روحا فلسفية أعظم عندما اعتمد  
على قدرة الخالق التي لا حد لها ، والذي يستطيع بكلمة منه أن يحيى  
المعظام وهي رميم ، وأن يجمع الذرات التي لا حصر لها والتي لم تعد  
تحتفظ بشكلها أو مادتها . ومن الصعب الجزم بشيء عن حال الروح  
في البرزخ . ولا يستطيع من يؤمنون إيمانا مطلقا بطبيعتها اللامادية  
أن يفقهوا كيف يمكنها التفكير أو العمل دون عون من الحواس .

ويأتى الحساب بعد اتحاد الروح والجسد مرة أخرى . وفي تقليده

للصورة المجوسية رسم النبي بأمانة طرق السير في الدعوى ، ولم ينس  
 اجراءاتها البطيئة المتتالية ، مما هو مألوف في محكمة دنيوية . وقد وجه  
 اليه أعداؤه المتعصبون اللوم لأنه بعث ، حتى فيهم أنفسهم ، الأمل  
 في النجاة ، حيث أكد أسوأ ( هرطقة ) في الوجود : وهي أن أى انسان  
 يؤمن بالله ويعمل صالحا ، من الممكن أن ينتظر في اليوم الآخر حكما  
 يصدر في صالحه . ولا يتفق هذا الاعتدال المنطقي مع  
 طبيعة التعصب . كما أنه ليس من المحتمل أن رسولا من السماء  
 ينتقص من قيمة رسالته وضرورتها . ويؤكد القرآن أن الايمان بالله  
 لا يمكن أن يفترق عن التصديق بمحمد . وأن الأعمال الصالحة هي  
 التى أمر بها . وهذان الشرطان يعينان اعتناق الاسلام . وقد دعى  
 الى اعتناقه جميع الأمم وجميع المذاهب سواء بسواء . ويكون  
 العذاب المقيم جزاء عما هم الروحى . على الرغم من أن لهم عذرا من  
 الجهل ، وعلى الرغم من أنهم يتسمون بالفضيلة . وان الدموع التى  
 ذرفها محمد على قبر أمه التى منع من الدعاء لها ، تظهر تباينا مؤثرا  
 بين انسانيته وحياسته . فمصير الكفار عام . أما درجة اثمهم وعقابهم  
 فتقاس بمقدار البينات التى كذبوا بها ، وضلال العقائد التى  
 اعتنقوها ، أما المقار الأبدية للنصارى واليهود والصابئة والمجوس  
 وعبداء الأوثان فقد رصت بعضها تحت بعض في قرار الجحيم . وقد  
 خصص أسفل ذلك في جهنم للنافقين الكفرة الذين تستروا وراء قناع  
 من الدين . وبعد أن يحاسب أكبر قدر من الناس بسبب معتقداتهم  
 وحدها ، يحاسب المؤمنون الصادقون على أعمالهم . ويوزن الخير  
 والشر الذى عمله كل مسلم بميزان دقيق حقيقى أو مجازى . ويسمح

بطريقة غريبة بالتعويض عن الاساءات . فيقدم المسيء قدرا مساويا من حسناته الى من أساء هو اليه . فان لم يكن له حسنات على الاطلاق . وضع على سيئاته قسط مساو من سيئات المعتدى عليه . وتبعا لرجحان كفة الاثم أو الفضيلة يكون النطق بالحكم . وعلى الجميع دون تمييز أن يملأوا على صراط حاد خطر نصب فوق الهاوية . أما البريء فسيلج باب الجنة منتصرا سالكا طريق محمد . ويقع المذنب في أولى طبقات جهنم السبع وأقلها سعيرا . وتختلف الفترة اللازمة للتكفير من تسعمائة سنة الى سبعة آلاف عام . ولكن النبي قطع وعدا حكيما بأن جميع أتباعه مهما كانت سيئاتهم سسينجون بإيمانهم وبشفاعته من الخلود في النار . وليس بعجيب أن تؤثر الخرافة تأثيرا قويا على مخاوف من يؤمنون بها . إذ الخيال البشرى يستطيع أن يصور بدقة شقاء الدار الآخرة أكثر من أن يصف سعادتها . وباستعمال النار والظلام وهما عنصران بسيطان يمكن أن نخلق شعورا بالألم يزداد الى درجة لا حد لها ، إذا فكرنا أنها مستمران الى الأبد . ولكن عين الفكرة تنتج أثرا عكسيا على استمرار السرور . فأكثربهجتنا الحالية مستمد من التخلص من الشر أو المقارنة بين الخير والشر . ومن الطبيعي جدا أن يطيل نبي عربى الوقوف ، جذلا ، عند الحداثق والعيون والأنهار في الفردوس . ولكنه بدلا من الهام ساكنى الجنان ذوقا رفيعا للموسيقى والعلوم ، وللحديث والصدافة ، يسهب دون فائدة في وصف اللؤلؤ والماس وثياب الخز ، وقصور الرخام وصحاف الذهب ، وأنواع الخمور الفاخرة . والموائد الشهية الأنيقة والخدم الكثرين ، وكل صنوف الترف الحسى الثمين الذى يملأه صاحبه حتى في عمره القصير

الذى يعيشه على الأرض . ويكون لأفقر مؤمن سبع وعشرون حورية أو فتاة من ذوات العيون السود والجمال الوضاء والشباب الفض وطهارة العذارى والحساسية العالية . وستطول كل لحظة من حياته حتى تصبح ألف سنة ، وستقوى حواسه مائة مثل لكى يصبح جديرا بهنائه . وعلى الرغم من تعصب الدهماء تفتح أبواب السماء للجنسين على السواء . ولكن محمدا لم يحدد رفقاء الأنثى فى الجنة لكيلا يثير غيرة أزواجهن السابقين أو يظن فى سعادتهن اضطرابا ان خيل اليهن أن زواجهن سيكون أبديا . وقد أثار هذا الوصف الحسى للجنة غضب الرهبان ، أو بالأحرى حسدهم : فهم يذمون دين محمد ، ويضطر الذين يدافعون فى تواضع عن ديارته أن يلجأوا الى الاعتذار الضعيف بأن كل هذا مجاز ورموز . ولكن أصحاب الرأى الأصح والأكثر تماسكا يلتزمون ، دون استحياء ، بالتفسير الحرفى للقرآن الكريم : فما الفائدة من بعث الجسد ان لم يعد اليه استخدام أفضل ملكاته . واتحاد المتعة الحسية والذهنية أمر ضرورى لتتام سعادة الحيوان المزدوج ، وهو الانسان الكامل . ولكن التمتع فى جنات محمد لن ينحصر فى اشباع اللذة المترفة . فقد أعلن النبى فى جلاء أن القديسين والشهداء الذين ينعمون برؤية الله سوف ينسون ويزدرون كل الألوان الدنيا من السعادة .

## هجرة محمد من مكة إلى المدينة

كان أول اقتصار وأشقه على محمد أنه كسب الى جانبه زوجته ومولاه وتلميذه وصديقه ، لأنه قدم نفسه أول ما قدم — بوصفه رسولا نبيا ، الى أولئك الذين كانوا على علم تام بصفاته وأحواله

بوصفه بشرا . على أن خديجة آمنت بصدق رسالة زوجها واعتزت .  
أما زيد المطيع المحب فقد أغراه أمله في الحصول على حريته (١) .  
أما الشاب اللامع على بن أبي طالب ، فقد اعتنق مبادئ ابن عمه بروح  
البطل الشاب . وقد دعم ثراء أبي بكر واعتداله وصدقه دين محمد  
الذي قدر له أن يخلفه . وقد استمال أبو بكر عشرة من أشرف مكة  
وحثهم على الاستماع الى دروس محمد الخاصة . واستجاب هؤلاء  
لصوت العقل والحماسة ، ورددوا ركن العقيدة الأصلية الأساسية « لا اله  
الا الله ، محمد رسول الله » . وقد كوفئوا على إيمانهم حتى في هذه  
الحياة الدنيا ، بالثراء والأمجاد ومناصب الشرف : قيادة الجيوش  
وحكم الممالك . وقد مرت ثلاثة أعوام هادئة اعتنق فيها الدين الجديد  
أربعة عشر ، هم باكورة رسالته . وفي السنة الرابعة أعلن محمد دعوته  
وقرر أن يظهر عشيرته على نور الحقيقة الإلهية . فأقام وليمة من شاة  
وصاع من لبن ، كما يقول الرواة ، للاحتفاء بأربعين ضيفا من بني  
هاشم . وخطب فيهم : « يا بني عبد المطلب ، اني والله ما أعلم انسانا في  
العرب جاء قومه بأفضل مما جئتمكم به ، قد جئتمكم بخير الدنيا  
والآخرة . وقد أمرني ربي أن أدعوكم اليه . فأياكم يجيئني الى هذا  
الأمر ويؤازرني عليه فيكون وصيى ووزيرى وأخى (٢) ، فلم ينطق  
أحد بشيء ، وساد الصمت دهشة وحيرة وازدراء ، حتى قطعت في  
النهاية شجاعة على وحيته ، وهو عندئذ شاب في الرابعة عشرة من  
عمره ، هذا الصمت وقال : « أنا يا رسول الله عونك ، أنا حرب على

(١) اعتنق زيد قبل البعثة ( المترجم ) \*

(٢) آثرنا هنا ايراد النص العربى الذى نقل عنه جيون ( المترجم ) \*

من حاربت » ، وقد تقبل محمد هذا العرض مشرحا . وصاح أبو لهب بأبي طالب ساخرا : أسمعت ما قال ابن أخيك ! انه يأمرك أن تسمع لابنك وتطيع . وفي نغمة أكثر جدية ، نصيح أبو طالب ابن أخيه أن يترك هذا الأمر الذي لا يمكن تحقيقه . وأجاب محمد عمه وحاميه الذي كان يرعاه ، في تعصب وجراءة : « دع عنك النصيح ، والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته » (١) . واستمر محمد ينشر دعوته عشر سنين . وسار بخطى وثيدة مضنية في داخل مكة ، هذا الدين الذي انتشر فيما بعد في مشارق الأرض ومغاربها .

ولكن محمدا استمتع بمنظر جماعته القليلة من الموحدين وهي تنمو وتنتشر . وكان أتباعه يجلبونه بوصفه نبيا . وكان يقدم اليهم في الوقت المناسب الغذاء الروحي المستمد من القرآن . ويمكن تقدير عدد أتباعه من معرفة أن ثلاثة وثمانين رجلا وثمان عشرة امرأة هاجروا الى الحبشة في السنة السابعة من البعثة . وقد قوى حزيه واعتز الاسلام باعتناق عمه حمزة واعتناق عمر الاسلام ، وكان هذا رجلا

(١) رواية جيبون تختلف كل الاختلاف عما جاء في المصادر العربية فنقلنا النصوص العربية . وجاء في سيرة ابن هشام ( ج ١ ص ٢٦٥ ) : « ثم ان أبا طالب عثر عليهما ( النبي وعلى ) وهما يصليان ، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم ، يا ابن أخى ، ما هذا الدين الذى أراك تدين به ؟ ، فقال النبي : أى عم ، هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا ابراهيم ، بعثنى الله به رسولا الى العباد . . فأجاب أبو طالب أى ابن أخى : انى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه ولكن والله لا يخلص اليك بشئ نكرهه ( يصل اليك أذى ) ما بقيت » . وذكروا أنه قال لعلي : « ما هذا الدين الذى أنت عليه ؟ فقال يا أبت آمنت بالله وبرسول الله ، وصدقت بما جاء به وصليت معه لله ، واتبعته . فقال له : أما انه لم يدعك الا الى خير فالزمه » .

عنيدا شديد المراس ، وجاء اسلامهما في الوقت المناسب . وقد أبدى عمر في خدمة الاسلام الحمية نفسها التي كان قد أبداهما للقضاء عليه . ولم تقف دعوة محمد عند قبيلة قريش أو أرباض مكة ، ففي أيام الأعياد العظيمة ، وأيام الحج ، كثيرا ما زار الكعبة وتحدث الى الوافدين من كل قبيلة ، وحض الناس في أحاديثه الخاصة وخطبه العامة ، على الايمان بالله واحد وعبادته . وقد أكد حرية الضمير ، ورفض استعمال العنف الديني وعيا منه بقضيته وبضعفه . ولكنه دعا العرب الى التوبة ، وحثهم على تذكر مصير الوثنيين القدامى من عاد وثمود ، الذين محاهم العدل الالهي من على وجه الأرض .

واستبدت الخرافة والحسد بأهل مكة ، فتنشددوا في كفرهم برسالة محمد ، وتظاهر شيوخ هذه البلدة من أعمام النبي بازدراء ما يدعيه طفل يتيم من أنه يريد اصلاح بلده . وكان بعضهم يصيح بأعلى صوته ردا على خطب محمد عن التقوى والصلاح في الكعبة : « أيها المواطنون والحجاج ، لا تستمعوا الى هذا الساحر الذي يقرر بكم ، ولا تعيروا بدعه الملحدة أذنا صاغية . والزموا عبادة اللات والعزى » . ومع ذلك فقد بقي ابن عبد الله عزيزا أثيرا لدى الشيخ المسن ( أبي طالب ) الذي دافع عن شرف ابن أخيه ورد عنه اعتداءات قريش التي طال حقد ها وحسدا لبني هاشم لتفوقهم وسيادتهم . وقد اصطبغ حقد قريش بصبغة الدين . وفي زمن أيوب كان للحاكم العربي أن يعاقب على تهمة الالحاد ، وارتكب محمد جريمة ترك الآلهة الوثنية وانكارها ، الا أن سياسة مكة في ذلك الوقت كانت غير حازمة ، فاضطر رؤساء قريش ، بدلا من توجيه الاتهام الى آثم ، أن يستخدموا وسائل الاقناع أو العنف . وكثيرا ما تحدثوا

في ذلك الى أبى طالب لائمين ومنذرين : « ان ابن أخيك سب ديننا ، وسفه أعلامنا وضلل آباءنا ، فاما أن تكفه عنا ، واما أن تخلى بيننا وبينه ، فانك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه » (١) . وان استمر ، فسرفع سيوفنا ضده وضد أتباعه وستكون أنت مسئولا عن دم مواطنيك ) ولكن مركز أبى طالب واعتداله حالادون عنف التحزب الدينى . وهاجر أشد أتباع محمد عجزا وجبنا الى الحبشة . وخرج النبى نفسه الى الأماكن القريبة من مكة والى شعابها . ولما كان النبى لا يزال يمتد على مؤازرة أسرته ، فقد تعاهدت سائر قريش على مقاطعة بنى هاشم — ألا يبيعوهم أو يشتروا منهم شيئا وألا يزوجوهم أو يتزوجوا منهم ، بل يطاردوهم بروح عدائية لا تلين ولا تتثنى ، حتى يسلموا اليهم محمدا ليقتلوه . وقد كتبوا بذلك صحيفة علقوها في جوف الكعبة لتكون أمام أعين الناس . وطاردت رسل قريش المسلمين في منفاهم في قلب أفريقية . وحاصروا النبى وأشد أتباعه اخلاصا ، فمنعوا عنهم الماء وأذكوا نار العداء بينهم ، وأمعنوا في الأذى والسباب . وقد أعادت هذنه مشكوك فيها مظاهر الوفاق حتى ترك موت أبى طالب محمدا تحت رحمة أعدائه وفوتهم ، في الوقت الذى حرم فيه النبى من السعادة المنزلية بفقد زوجه الوفيصة الكريمة ، « خديجة » . وقد تولى أبو سفيان رئيس فرع بنى أمية ، زمام الحكم في مكة . ولما كان يشتعل حماسا لعبادة الأوثان ، كما كان عدوا لدودا لفرع بنى هاشم فقد عقد جمعية من قريش وحلفائها ليقرروا مصير

(١) سيرة ابن هشام ( ج ١ ص ٢٧٧ ) . أوردنا هنا النص الأصيل في العربية ، وتجاوزنا عن عبارة جيبون وهى لا تخرج عنه .



الرسول . وقالوا ان سجنه قد يثير حماسه اليأس . أما نقي خطيب  
 بليغ متعصب فقد ينشر الشر في جميع أنحاء الجزيرة العربية . ومن  
 ثم اتفقوا على قتله ، كما وافقوا على أن يغمد في صدره سيف من كل  
 قبيلة ليتفرق دمه بين القبائل جميعا ، فيحار بنو هاشم ممن يثأرون .  
 ولكن كشف عن هذه المؤامرة ملك أو جاسوس ولم يبق لمحمد من  
 سبيل غير الهجرة . وفي سكون الليل خرج سرا من داره مهاجرا  
 مع صديقه أبي بكر ، وكان القنصل يراقبون باب داره . ولكن عليا  
 خدعهم وهو يرقد على فراش النبي ، وقد التف بيردته الخضراء . وقد  
 احترمت قريش تقوى الشاب البطل ، ولكن بعض الأبيات التي نظمها  
 على ، والتي وصلت إلينا ، ترسم صورة تثير الانتباه لقلقه ورقته ،  
 وبقينه الديني . وبقي محمد وصاحبه ثلاثة أيام في غار جبل ثور على  
 بعد فرسخ من مكة . وفي مساء كل يوم كانا يتلقيان الأخبار سرا من  
 ابن أبي بكر وابنته التي كانت تحمل اليهما كمية من الطعام . وقد  
 بحثت قريش بحثا جادا في كل موضع بجوار مكة ، ووصلوا الى مدخل  
 الغار . ويقال ان العناية الالهية هي التي خدعت قريشا بنسج  
 عنكبوت وعش يمامة أقنعاهم بأن المكان مهجور لم يلجه أحد .  
 وقال أبو بكر وفرائصه ترتعد : نحن اثنان فقط . وأجاب النبي :  
 « هناك ثالث ، انه الله نفسه » (١) . وسرعان ما خفت المطاردة وخرج  
 المهاجران من بين الصخور وركبا ناقتيهما . وفي طريقهما الى المدينة

---

(١) « الا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين  
 اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا ٠٠٠ »  
 الآية ٤٠ سورة التوبة .

لحق بهما رسل قريش . وقد خلاصا من أيديهم بالدعوات والوعود . وكان من الممكن في هذه اللحظة الخطيرة ، أن تغير حربة أحد الأعراب تاريخ العالم . وقد اتخذت هجرة النبي من مكة الى المدينة مبدءاً للتقويم الهجرى المشهور الذى لا يزال بعد مضى اثنى عشر قرناً ، يميز الشهور القمرية فى الأمم الاسلامية .

وكان من الجائز أن يوآد دين القرآن فى مهده ، لولا أن يثرب احتضنت عن ايمان واجلال أولئك المهاجرين الأطهار من مكة . كانت مدينة الرسول أو المدينة — وكانت تسمى يثرب قبل أن يباركها عرش النبي — موزعة بين قبيلتى الأوس والخزرج . وكان من الممكن اشعال النزاع الوراثى لأقل سبب . وكان حلفاؤها المتواضعون مستعمرتين من اليهود كاتنا تفخيران بالانتساب الى أسرتين من الأحبار . ودون أن يقنع اليهود العرب باعتناق الديانة اليهودية ، أدخل اليهود فى المدينة الميل الى العلم والدين ، مما ميز المدينة بانها بلد « الكتاب » . وقد اعتنق الاسلام بعض من أنبل مواطنيها عندما ذهبوا للحج الى مكة واستمعوا الى دعوة محمد . ولما عادوا الى المدينة ، نشروا الايمان بالله ورسوله . وعقد وقد منهم حلقا جديدا فى اجتماعين سريين عقدا ليلا على تل فى أرباض مكة . ففي المرة الأولى أكد عشرة من الخزرج واثنان من الأوس ، وقد توحدوا ديناً وحياً — أكدوا باسم أزواجهم وأطفالهم واخوانهم الغائبين انهم سيؤمنون بالقرآن ويتبعون تعاليمه . أما الاجتماع الثانى فكان اجتماعاً سرياً سياسياً ، وهو أول شرارة حيوية أطلقت فى الامبراطورية العربية . فقد عقد ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان من المدينة اجتماعاً رهيباً مع النبي وأقاربه وأتباعه .

وتماهد الفريقان وأقسما أيما الولاء المتبادل ووعدوا باسم المدينة ، أنه اذا هاجر النبي ، فانهم يستقبلونه كحليف ، ويطيعونه كزعيم ، ويدافعون عنه الى آخر نقطة من دمائهم ، كما يدافعون عن أزواجهم وأطفالهم . ولكنهم سألوه في قلق يدفع السرور الى النفس : ( ولكن ان دعاك وطنك ، أترك حليفك الجديد ؟ وأجاب محمد مبتسما « كل شيء عام مشترك بيننا . فدمكم دمي وفي هلاككم هلاكى . وقد ربط بيننا رباط الشرف والمنفعة . فأنا صديقكم وعدو عدوكم » <sup>(١)</sup> — وصاح أعضاء وفد المدينة : ولكن ان قتلنا في خدمتك فما جزاؤنا ؟ فأجاب النبي : « الجنة » ، فقالوا : مد يدك ، ومد النبي يده فأعادوا عليه قسم الاخلاص والولاء . وقد أقر أهل المدينة الذين اعتنقوا الاسلام هذا العهد بالاجماع . لقد سرهم أن يهاجر الرسول اليهم ، ولكنهم ارتعدوا خوفا على سلامته وانتظروا قدومه على أحر من الجمر بصبر نافذ . وبعد رحلة سريعة ، ولكنها خطيرة ، على ساحل البحر توقف النبي في قباء على مسافة ميلين من المدينة . ودخل المدينة من هذا المكان علانية بعد مضي ستة عشر يوما من مغادرته مكة . وتقدم خمسمائة من أهل المدينة لاستقباله ، وقوبل بهتافات الولاء والوفاء المتقدة . وكان يركب ناقة ويحشى رأسه بمظلة ، وقد نشرت أمامه عمامة تقوم مقام اللواء أو الراية . واجتمع حوله أشجع أتباعه الذين فرقهم العاصفة . وقد ميز بين المسلمين — المتساوين مهما تباينت

---

(١) قارن هيكل « حياة محمد » ( بيعة العقبة الثانية ) ص ٢٠١ وما بعدها « بل الدم الدم والهدم الهدم . أنتم منى وأنا منكم ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالتهم » ( المترجم ) .

جدارتهم ، باسم المهاجرين والأنصار ، أغنى اللاجئين من مكة .  
والأعوان في المدينة . ولازالة بذور الحقد والغيرة . آخى النبي بشرعة  
الانصاف بين أتباعه الأساسيين . وربط بينهم بحقوق الأخوة  
وواجباتها . ولما وجد على نفسه بدون لقب نبيل أعلن النبي في رقة  
أنه سيكون رفيق هذا الشاب النبيل وأخاه . وقد توج هذا  
التدبير بالنجاح . ونظر الناس الى هذه الأخوة المقدسة بعين الاعتبار  
والاجلال في الحرب والسلم . وتنافس الفريقان في مباراة كريمة في  
مجال الشجاعة والولاء . ولم يمكر صفو هذا الوفاق غير مرة واحدة .  
بسبب نزاع طارئ بسيط ، حين غاب أحد زعماء المدينة عجرة هؤلاء  
الغرياء . ولكن الاشارة الخفية الى طردهم قوبلت بالاسستياء  
والاستكار ، وعرض ابن الرجل نفسه في لهفة أن يضع رأس أبيه  
تحت قدمي النبي .

ومنذ أن استقر النبي بالمدينة تولى أمور الدنيا والدين . وكان من  
الكفر أن يستأنف المرء حكم قاض ينزل عليه وحى الحكمة الالهية .  
واقنتي محمد . اما بالشراء أو الهبة ، قطعة صغيرة من الأرض كانت  
ملكا ليتين ، وبنى في هذه البقعة المباركة بيتا ومسجدا كانا في  
بساطتهما البدائية أعظم جلالا من قصور ملوك آشور ومعابدها .  
وقد نقش على خاتمه المصنوع من الذهب أو الفضة لقبه كرسول  
الله . وعندما كان يصلى أو يعظ كل أسبوع ، كان يتكىء على جذع  
نخلة . وبعد مضي وقت طويل سمح لنفسه أن يستخدم كرسيا أو منبرا  
من الخشب الخشن غير المصقول . وبعد حكم دام ست سنوات ،  
وقف ألف وخمسمائة من المسلمين يحملون أسلحتهم في الميدان

يجددون بين الولاء . وأكد زعيمهم مرارا وتكرارا عزمهم على الدفاع عنه ، حتى يلقي كل منهم حتفه ، أو تحل الرابطة نهائيا . وفي عين هذا المعسكر رأى رسول من مكة ما أذهله من اصفاء المؤمنين الى كلمات الرسول والتعلق بنظراته ، والتشوف الذي أظهره أتباعه في جمع رضابه أو شعرة سقطت على الأرض من شعره ، أو الماء الذي توضع به ، كأنهم يشتركون بذلك الى حد ما ، في بركات النبوة . فقال : « رأيت كسرى فارس وقيصر رومه ، ولكنى لم أرقط ملكا بين رعاياه مثل محمد بين أصحابه » ، بديهى أن الحماس المشتعل الصادر عن التقوى والورع يعمل بنشاط أكبر وصدق أعظم من عبودية البلاط الشكلية الباردة .

### (١) الجهاد في سبيل الله

تجيز الطبيعة لكل امرئ أن يدافع بقوة السلاح عن نفسه وعن ماله ، وأن يصد أو يحول دون عنف أعدائه ، الى الحد الذى يرضى فيه عن نفسه ويشبع الرغبة فى الانتقام . وفى المجتمع العربى الحر فرضت واجبات الرعية والمواطنين قيادا واهيا . وقد سلب مال محمد واضطر الى الهجرة للنجاة من أذى مواطنيه وهو يقوم بنشر دعوة سليمة كلها خير ، وقد رفع شعب مستقل ، طواعية واختيارا ، ذلك المهاجر الى مصاف الملوك . ومنحه الحق العادل فى عقد الأحلاف وعلان الحرب ، هجومية كانت أو دفاعية . وكملت الحقوق الانسانية

---

(١) العنوان فى النص الانجليزى : « محمد يعلن الحرب على الكفار » .  
( الترجمة )

ودعمتها قوة الهمة سامية . واتخذ النبي في المدينة ، من الآيات القرآنية التي أوحى اليه بها آنذاك ، نعمة أكثر قسوة وشدة ، مما ثبت أن اعتداله السابق كان نتيجة ضعفه (١) . لقد جرب وسائل الاقناع ومضى زمن الاحتمال . فأمر الآن أن ينشر دينه بحد السيف ، وأن يدمر آثار الوثنية . وأن يهاجم الكفار دون نظر الى الأيام الحرم أو الشهور الحرم . وينسب النبي الشريعة الدموية نفسها التي يلح عليها القرآن مرارا وتكرارا الى التوراة والانجيل . ولكن هدوء الانجيل قد يساعد على تفسير نص مبهم ذكر فيه أن عيسى جلب الى هذه الأرض سيفاً لا سلاماً (٢) . وعلينا ألا نخطئ بين أخلاق المسيح التي تجلّى فيها الصبر والتواضع وبين حماس الأمراء والأساقفة ، وتعصبهم ، فهم الذين جلبوا العار على أتباعه . وقد يستطيع محمد ، في شن حرب دينية ، أن يجد قدوة أكثر صلاحية في موسى وقضاة بنى اسرائيل وملوكهم . ولكن قوانين اليهود الحربية ما زالت أكثر

(١) لم يتحرر جيبون وجه الدقة ولا الحقيقة في هذا الموضوع . أنظر ميكل : « حياة محمد » الفصل ١١ « أول العهد بيثرب » ص ٢١٥ . وقد اجتزأنا منه العبارات التالية : « كان النبي جنوحاً الى السلم ، راغباً عن القتال ، مقتصدًا طول حياته أشد القصد فيه ، غير لاجئ اليه الا لضرورة تقتضيه الدفاع عن الحرية دفاعاً عن الدين وعن العقيدة . ولم يفكر الا في توفير الطمأنينة لمن يتبعونه ، وكفالة الحرية لهم في عقيدتهم ، ككفالتها لغيرهم في عقيدتهم . ولهذا أبيع القنال ، ودفع المعتدى ، حتى لا يفتن أحد عن دينه ، ولا يظلم أحد بسبب عقيدته أو رايه » .

قال تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » ، سورة الحج آية ٣٩ . « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » . سورة الأنفال آية ٣٩ .

(٢) يشير جيبون الى ما ورد في انجيل متى ، الاصحاح العاشر ٣٤ - من قول السيد المسيح : « لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاماً على الأرض ، ما جئت لألقى سلاماً بل سيفاً » .

جموداً من قوانين المشرع العربي <sup>(١)</sup> . سار رب الجيوش بنفسه على رأس الكتائب اليهودية ، وإذا امتنعت بلدة أعمل السيف في جميع المذكور دون تمييز . وقد كتب الدمار على القبائل السبع في كنعان ، وما كانت التوبة ولا التحول الى الديانة اليهودية بمناعتهم من مصيرهم المحتوم ، وهو ألا يترك مخلوق حياً داخل حدودهم . أما أعداء محمد فقد عرض عليهم اختياراً عادلاً : الاسلام ، أو الجزية . أو القتال . فانهم اعتنقوا الاسلام ، حظوا بالمزايا المادية والروحية ، نفسها التي حصل عليها أتباعه الأول ، وساروا تحت اللواء ذاته لينشروا الدين الذي اعتنقوه . وكانت مصلحة النبي تملئ عليه سماحته . ومع ذلك فيندر أن يكون قد وطئ بقدميه عدواً ذليلاً . ويظهر أنه بعد دفع الجزية يستطيع أقل رعاياه كفراً وانما أن يستروا على عباداتهم أو على الأقل عقيدتهم المعيبة . وفي الشهور الأولى من حكمه أعلن محمد الحرب المقدسة ونشر رايته البيضاء أمام أبواب المدينة . واشترك الرسول المجاهد بنفسه في تسع معارك أو <sup>(٢)</sup> حصارات . وفي عشر سنين قام هو نفسه أو أتباعه بخمسين حملة حربية . وواصل العربي الجمع بين مهنة التجارة والسلب . وكان في خروج النبي في اشتباكات صغيرة ، للدفاع عن قافلة أو مهاجمة أخرى ،

---

(١) يقرأ أتقياء المسيحيين في هذا العصر الفصلين العاشر والعشرين من سفر تثنية الاشتراع ( التوراة ) مع التعليقات العملية الموجودة في يوشع وداود ، وغيرها ، في زعم أكثر منهم في ارتياح . ولكن أساقفة الأزمنة السابقة وأخبار اليهود قد قرعوا طبول الابتهاج والنجاح في الكنيسة والهيكل .

(٢) أي خمسين غزوة وسرية . والغزوة هي التي قادها الرسول بنفسه ، أما السرية فكان يقودها أحد أتباعه .

تدريب لجنوده واعداد لهم لفتح بلاد العرب . وقد نظم توزيع الغنائم بقانون سماوى حيث جمعت الأسلاب كلها بأمانة فى مكان واحد . واحتفظ النبى بخمس الذهب والفضة والأسرى والقطعان والمنقولات والعقار ، لاتفاقه فى أوجه البر والصدقة ، ووزع الباقي بالتساوى على الجنود الذين أحرزوا النصر أو قاموا بحراسة المعسكر . وكان نصيب الشهيد من الغنائم يسلم الى أرملته وأطفاله اليتامى ، وأعطى الفارس سهمين ، أحدهما له والآخر لراحلته ، وقد شجع هذا على زيادة عدد الخيالة . وجاء العرب الرحل من كل فج وانضموا تحت راية الدين والأسلاب . وقد أحل الرسول نكاح الأسيرة كزوجة أو سرية . وهذا التمتع بالجمال والمال لم يكن الا طرازا يسيرا من بهجة الفردوس التى أعدت لشهداء العقيدة الشجعان . ويقول النبى : « اعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف . ما من مكلم يكلم فى سبيل الله الا جاء يوم القيامة وكله يدمى ، اللون لون الدم ، والريح ريح المسك » (٢) . وقد اشتعلت أرواح العرب الجريئة حماسا . وارتسمت صورة العالم غير المرئى بقوة فى خيالهم ، وأصبح الموت الذى كانوا يحقرونه على الدوام هدفا مرغوبا فيه . وينص القرآن بأجلى بيان على القضاء والقدر والجبرية التى قد تفضى على الجد والفضيلة ، اذ سيطر التأمل فى العقيدة على أعمال الانسان وتصرفاته . ومع ذلك فان الايمان بالقضاء والقدر والجبرية فى كل زمان زاد من شجاعة

---

(٢) ورد فى الجهاد أحاديث نبوية كثيرة ، ويبدو أن جييون اجتزأ عبارات من عدة أحاديث . وأوردنا هذا الحديث بنصه العربى ، وهو أقرب الى الفاظ جييون .



العرب والترك . ولقد تقدم أصحاب محمد الأولون الى ميسان القتال في ثقة لا تعرف الخوف ايمانا منهم بأنه ليس هناك من خطر حيث تنعدم الفرصة ، فقد كتب عليهم الموت حتى في مضاجعهم ، والا فهم في مأمن ، ولن تنال منهم سهام الأعداء .

وربما قنعت قريش بهجرة محمد ، لو لم يرهم ويقض مضاجعهم اتقام عدو قادر على أن يعترض طريق تجارتهم مع الشام في مرورها بالمدينة في الذهاب والاياب . وكان أبو سفيان نفسه مع ثلاثين أو أربعين من أتباعه على رأس قافلة تتألف من ألف بعير وقد مكنه حسن حظه أو حذقه وبراعته ومعرفته بدروب السير من أن يهرب من يقظة محمد . ولكن رئيس قريش علم أن اللصوص المقدسين قد أعدوا كميناً في انتظار عودته . فأرسل رسولا الى اخوانه في مكة . وثار تائرة قريش خوفا على فقد تجارتهم ومؤنهم ، الا اذا سارعوا لنجدته بجيش مكة . وكانت كتيبة محمد المقدسة تتألف من ثلثائة وثلاثة عشر رجلا ، منهم سبعة وسبعون من المهاجرين والباقي من الأنصار . وكانت ابلهم سبعين بعيرا جعلوا يعتقبونها أى يتبادلونها : ( واشتهرت جمال يشرب في الحروب ) . وقد بلغ من فقر أتباعه الأولين أن اثنين منهما فقط ظهرا في الميدان على ظهور الخيل . وفي وادي بدر الشهير الخصب ، وهو على ثلاث محطات من المدينة ، أخبره عيونه بأن القافلة تقترب على أحد الجانبين ، وعلى الجانب الآخر تتقدم قريش بمائة من الفرسان وثمانائة من الرجال . وبعد نقاش قصير ضحى بزخرف الثروة والمال طلبا للمجد والثأر . ثم حفر خندقا صغيرا يحضى فيه الجنود . وكان هناك مجرى من الماء العذب ينساب خلال

الوادي . وعندما رأى النبي جموع قريش تهبط من التلال رفع يديه الى السماء قائلاً : « اللهم ان هذه قريش جاءت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك . اللهم فنصرك الذي وعدتني . اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد » . ( الشجاعة يا أبنائي . ضموا صفوفكم وسددوا سهامكم ، اليوم يومكم ) . وبعد أن نطق بهذه الكلمات اعتلى عريشا أو منبرا ومعه أبو بكر ودعا في التو أن يساعد جبريل وثلاثة آلاف من الملائكة . وعندما نظر الى ميدان القتال رأى المسلمين يكاد يغمى عليهم والعدو يضغط عليهم . وفي هذه اللحظة الحاسمة وثب النبي من عريشه وامتطى جواده وأخذ حفنة من الرمال ورماها في الهواء صائحا : « شامت الوجوه » . وقد سمع كل من الجيشين صوته الذي كان يدوى كالرعد . ورأوا بسخيلتهم الفرسان من الملائكة . فارتعدت قريش وولت الأدبار . وقتل سبعون رجلا من أشجع شجعانها . وازدان أول نصر للمسلمين بسبعين أسيرا من قريش ، وقد سلبت وأخذت جثث الموتى من قريش ومثل بها ، وعوقب بالاعدام اثنان من أبغض الأسرى الى النبي . وعوضت فدية الآخرين ، وكانت أربعة آلاف درهم من الفضة ، الى درجة ما ، عن افلات القافلة . ومع أن غير أبي سفيان اكتشفت عبثا طريقا آخر عبر الصحراء على شط الفرات ، فقد أدركتهم يفضة المسلمين . وكانت الغنيمة ثمينة ، اذ كان نصيب الرسول منها عشرين ألف درهم من الفضة وهو الخمس (١) . وقد استبد الخنق بأبي سفيان نتيجة الخسارة العامة والخاصة ، فجمع

(١) بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة ، فلقبيهم على ماء من مياه نجد فأصاب تلك العير وما فيها من فضة كثيرة . ( المترجم )

جيشا من ثلاثة آلاف مقاتل ، منهم سبعمائة يلبسون الزرد . ومائتان  
يمتطون ظهور الخيل ، كما أخذ معه في حملته هذه ثلاثة آلاف بعير .  
وكان مع زوجه هند خمس عشرة من سيدات قريش يضرين على  
الدفوف باستمرار لالهاب الحماس في الجنود ، ولتمجيد هبل أحب  
آلهة الكعبة الى قلوب الناس . ورفع راية الله ورسوله تسعمائة  
 وخمسون من المؤمنين . ولم يثر عدم التناسب في العدد انزعاجا أكثر  
 مما أثار في بدر . وتغلب شعور المسلمين بأن النصر سيكون لهم على  
 كل شيء عداه . ودارت المعركة الثانية على جبل أحد ،  
 على بعد تسعة أميال شمال المدينة . وتقدم جيش قريش على شكل  
 هلال . وتولى خالد ، وهو أشجع محاربى العرب وأكثرهم توفيقا ،  
 قيادة جناح الخيالة الأيسن . واتخذ جنود محمد أماكنهم بمهارة  
 على سفح الجبل ، يحسب ظهورهم فرقة تتألف من خمسين من الرماة .  
 وعند هجوم المسلمين زحزح الوثنيون عن أماكنهم وتحطم قلب جيش  
 قريش . ولكن المسلمين عندما بدأوا في مطاردة عدوهم فقدوا ميزة  
 مواقعهم . وترك الرماة مراكزهم ، وأغرقت الأسلاب المسلمين فعصوا  
 قائدهم وأشاعوا الفوضى في صفوف اخوانهم . والتف خالد الجريء  
 بخيله حول الجناح والمؤخرة وصاح أن محمدا قد قتل . وكان النبي  
 قد جرح حقا في وجنته بضربة رمح . وكسرت سنتان من أسنانه  
 برمية من حجر . ومع ذلك وفي وسط هذا الاضطراب واليأس كان  
 يوبخ المشركين لقتالهم نيبا . وبارك اليد الحية التي جفت دمه  
 ونقلته الى مكان أمين . واستشهد من المسلمين سبعون رجلا تكفيرا  
 عن ذنوب الأمة . وقال النبي انهم سسقطوا مشى كل واحد منهم

يحتضن أخاه . وقد مثلت نساء مكة المتوحشات بجثث القتلى ، ولاكت هند كبد حمزة عم النبي . وكان من الممكن للكفار أن يمجّدوا خرافاتهم وأن يشبعوا جنونهم لولا أن المسلمين سرعان ما انضموا بعضهم الى بعض في ميدان القتال . وكان ينقص قريشا الشجاعة أو القدرة على حصار المدينة . وفي السنة التالية هوجمت المدينة بجيش يتألف من عشرة آلاف مقاتل . وقد سميت هذه الغزوة بأسماء مختلفة فسميت بغزوة الأحزاب نسبة الى الأحزاب التي سارت تحت راية أبي سفيان أو غزوة الخندق اشارة الى الخندق الذي حفر أمام المدينة . وكان عسكر المسلمين ثلاثة آلاف . وقد أظهر محمد حكمة في رفضه الالتحام مع العدو في معركة عامة . وظهرت شجاعة على في مبارزات فردية . ولما طال أمد الحرب حتى دامت عشرين يوما حدث انفصال نهائي بين الحلفاء . وهبت ريح عاصفة وسقط المطر والبرد فاقتلعت خيامهم . وأشعل خصم ماكر خصوماتهم الشخصية . وفقدت قريش أملها في تحطيم عرش محمد أو منع انتصاراته بعد أن هجرها حلفاؤها ، فلم تعد قادرة على أن تصمد أمام قوة ابنها الذي نفته ، والذي أصبح ذا قوة لا تقهر .

ويكشف اختيار بيت المقدس كأول قبلة للمسلمين عن ميل محمد الى اليهود . وما كان أسعدهم من أجل مصالحهم المادية لو أنهم رأوا في النبي العربي أمل اسرائيل والمسيح المنتظر ، ولكن عنادهم قلب وده الى كراهية دائمة لا تلين . فطارد هذا الشعب المنكود الى آخر لحظة من حياته . وبوصفه رسولا وقاتلا مظفرا امتد اضطهادهم الى الدار الآخرة . وكان بنو قينقاع يسكنون المدينة ويحتمون بها .

فاتهرز النبي فرصة اضطراب نشأ مصادفة ، ودعا بنى قينقاع الى اعتناق الاسلام أو الحرب . وصاح اليهود وهم يرتدون : يا ويلنا انا نجعل استعمال الأسلحة ونريد أن نستمع على دين آبائنا وعبادتهم ، فلم تضطرونا الى هذه الضرورة وهى الدفاع الشرعى عن أنفسنا ؟ وقد انتهى هذا النزاع الذى لا تكافؤ فيه فى خمسة عشر يوما . وقد رفض محمد مدة طويلة أن يستجيب لرجاء حلفائه ، وأخيرا وافق على انقاذ حياة الأسرى . ولكن صودرت أموالهم واستعملت أسلحتهم بفعالية أعظم فى أيدي المسلمين . وخرجت هذه المستمرة التى تتألف من سبعمائة من المنفيين مع نسائهم وأطفالهم يطلبون ملجأ على حدود الشام . أما جريمة بنى النضير فقد كانت أشد وأنكى . اذ أنهم تأمروا على قتل النبي حين جاءهم فى حديث ودى ، فحاصر حصنهم ، وكان على مسافة ثلاثة أميال من المدينة . وقد ضمنت لهم مقاومتهم المستميتة تسليما مشرفا . فسمح للحامية أن تخرج بكل مظاهر التكريم الحربى ، ينفخون فى أبواقهم ويدقون طبولهم . ولما كان اليهود قد حرضوا قريشا على الحرب وانضموا اليها ، فسرعان ما ابتعدت الأحزاب عن الخندق حتى سار محمد ، قبل أن يضع سلاحه ، فى اليوم نفسه لقطع دابر بنى قريظة . وبعد مقاومة دامت خمسة وعشرين يوما استسلموا دون قيد أو شرط . وكانوا يعتمدون على شفاعة حلفائهم القدامى فى المدينة . ولا بد أنهم كانوا يعلمون أن التعصب يمحو المشاعر الانسانية . فنطق شيخ مبجل كانوا قد ارتضوا حكمه بوجوب قتلهم ، فاقتيد سبعمائة من اليهود مكبلين بالأغلال الى سوق المدينة ، وهناك هبطوا أحياء الى القبور التى

حفرت لتكون جدثا لقتلاهم ودفنهم . ورأى الرسول دون تأثر تقنيل أعداء لا حول لهم ولا قوة . وورث المسلمون أغنامهم وجمالهم . وكان أعظم جزء ذى قيمة من الأسلاب ثلثمائة قميص من الزرد وخمسمائة حربة وألف رمح . وعلى مسيرة ستة أيام الى الشمال الغربى من المدينة تقع بلدة خير ، وهى بلدة قديمة غنية كانت مركز اليهود فى بلاد العرب . وكانت المزارع والقطعان تملأ المنطقة . فهى بقعة خصبة فى الصحراء تقوم على حراستها ثمانية حصون بعضها منيع عزيز المال . وكانت قوة محمد تتألف من مائتى خيال وألف وأربعمائة من المشاة . وفى ثمانية حصارات منتظمة شاقة متتالية ، تعرض المسلمون للخطر والارهاق والجوع ويئس أكثرهم شجاعة من نجاح المشروع . ولكن الرسول قوى من ايمانهم وعزائهم ، وأشار الى على ابن أبى طالب كقدوة ، وقد منحه النبى فى ذاك الهجوم لقب «أسدالله» . وقد يكون من الممكن أن نصدق أن عليا ضرب زعيما يهوديا ضخيم الجسد فشجه الى صدره بسيفه الذى لا يقهر . ولكننا لا نستطيع أن نمتدح تواضع هذه القصة الرومانسية التى تمثلها . وقد انتزع أحد أبواب الحصن ورفعها بيده اليسرى متخذا إياه درعا ضخما <sup>(١)</sup> وبعد سقوط الحصون استسلمت بلدة خير . وقد عذب رئيس القبيلة فى حضرة محمد ، لاجباره على الاعتراف بكنوزه . وكوفى الرعاة والمزارعون بتسامح مؤقت ، وأجيز لهم طالما رضى عنهم الفاتح ، تسمية ثرواتهم مناصفة لفائدتهم وفائدته . وفى خلافة عمر نقل يهود خير الى

(١) يقال ان ابا رافع مولى النبى روى أنه حاول ومعه سبعة رجال فيما بعد رفع هذا الباب من الأرض فلم يوفقوا . كان أبو رافع شاهداً عيان على قوة على ، فمن الذى يشهد لأبى رافع ؟ .

الشام . وزعم هذا الخليفة أن ذلك كان بأمر من النبي في مرض موته :  
أن يبقى دين واحد ، وهو الدين الحق ، في بلاد العرب وهي موطنه  
الأصلى .

ولى النبي محمد وجهه خمس مرات في اليوم والليلة شطر مكة .  
وكانت أقدس الحوافز وأقواها تستحثه على أن يدخل منتصرا تلك  
البلدة وذاك الحرم الذى أخرج منه . وكانت الكعبة تداعب خياله  
في منامه ويقظته . وقد اقلب حلم لا معنى له الى رؤيا ونبوءة . ونشر  
اللواء المقدس . وجاء دون تحفظ وبسرعة كبيرة ، وعد من النبي  
بالظفر . وكان موكله من المدينة موكب حج سلمى تحف به الجلالة .  
وسبق الموكب تسعون جملا منتقا ومزينة ، كأنها « هدى بالغ الكعبة »  
وحفظ للمنطقة المقدسة حرمتها ، وسرح الأسرى دون فدية ليعلموا  
عن تسامحه وورعه . ولكن سرعان ما هبط محمد الى الوادى وأصبح  
على مسيرة يوم من مكة حتى صاح : « لقد لبست قريش جلود  
النمور » . اذ اعترضت قريش سبيل تقدمه بأعدادها وغناها المعتاد .  
وقد يتخلى العرب الرجل عن قائد يتبعونه أملا في الأسلاب ، أو قد  
يخوفونه ، ولكن ذلك المتعصب الجريء اقلب الى سياسى حذر متشد .  
فتفاوض في المعاهدة عن لقبه كرسول الله . وعقد مع قريش وحلفائها  
هدنة لمدة عشر سنوات ، تعهد فيها برد اللاجئين الذين يعتقون  
الاسلام الى مكة . واشترط فقط للسنة المقبلة شرطا متواضعا ، وهو  
دخول مكة كصديق والبقاء بها ثلاثة أيام لاتمام مراسم الحج . وأظلت  
سحابة من العار والأسى تقهر المسلمين . ولكن أشعل منظر  
مكة ايمان الحجاج مرة أخرى . فأغمدوا سيوفهم وطاقوا

سبع مرات حول الكعبة في أثر النبي ، وتراجعت قريش الى التلال .  
 وخرج محمد من مكة في اليوم الرابع بعد تقديم الأضحيات المعتادة .  
 وقد أثر ورعه في الشعب . أما أعداؤه من الرؤساء فقد خافوا أو  
 انقسموا أو اقتنعوا . وتظلى خالد وعمر ، وهما اللذان فتحا الشام  
 ومصر فيما بعد ، في أنسب الأوقات عن قضية الوثنية الخاسرة . وزادت  
 قوة محمد بخضوع القبائل لسلطانه . فحشد عشرة آلاف جندي لفتح  
 مكة . وكان من السهل اتهام عبدة الأوثان ، وهم الجانب الضعيف ،  
 بأنهم خرقوا الهدنة . وقد ساد هذه الحملة عاملان : الحماسة والنظام ،  
 ودفعها بها الى الأمام ، وقد أخفى السر حتى أعلنت عشرة آلاف من  
 النيران الموقدة الى قريش التي ارتاعت دهشة ، هدف العدو واقترب  
 قواته التي لا سبيل الى قهرها . وقدم أبو سفيان المتعجرف مفاتيح  
 مكة الى محمد ، وأبدى إعجابه بالأسلحة والرايات التي مرت أمامه  
 على هيئة استعراض . ولاحظ أن ابن عبد الله قد استولى على ملك  
 قوى ، واعترف تحت سيف عمر بأن محمدا رسول الله ، وأن الله هو  
 الإله الحق . لقد دنس رجوع ماريوس وسلا بدم الرومان ولكن انتقام  
 محمد كان يخفزه حماس ديني . وكان أتباعه ممن أصابهم الأذى  
 يتوقون الى القيام بمذبحة أو متعها تبعا لأمره ، وبدلا من السير وراء  
 أهوائهم أو أهوائه الشخصية (١) عفا المهاجر الذي عاد منتصرا عن  
 ذنوب أهل مكة ، ووحد الأحزاب فيها ، ودخلت جنوده مكة في ثلاث

---

(١) بعد فتح مكة ، يمثل النبي محمد في قصة قولنير ، وهو ينفذ  
 أبشع الجرائم . ويعترف قولنير بأنه لا سند له من الحقيقة أو التاريخ .  
 وهو لا يستطيع الا أن يزعم أن هن يشن حربا على وطنه تحت اسم الله =



فرق . وقتل ثمانية وعشرون بسيف خالد ، وأصدر النبي أمرا بقتل أحد عشر رجلا وست نساء . ولكن لام قائده على قسوته . ان كثيرين من أبغض الناس اليه مدينون بحياتهم لسماحته أو احتقاره . وخر رؤساء قريش سجدا تحت قدميه فقال : « ما تظنون أنى فاعل بكم » فأجابوا : « أخ كريم وابن أخ كريم » ، وأجاب النبي : « لن تذهب ثقتكم عثا . اذهبوا فأنتم الطلقاء » . وقد استحق أهل مكة العفو عنهم باعتناقهم الاسلام . وبعد نفى دام سبع سنوات ، أصبح المهاجر الناصر لدين الله أميرا على قومه ورسولا اليهم ، ولكن الثلثمائة والستين صنما التى كانت فى الكعبة حطمت تحطيا مخزيا مزريا . وطهر بيت الله وزين . وقام النبي باتمام مناسك الحج ليكون قدوة للأجيال التالية . وصدر قانون أبدى بالألتأ قدم كافر هذه البلدة المقدسة قط .

حدد فتح مكة ديانة القبائل العربية وولاءها بعد أن كانت من قبل تمثل لفصاحة النبي أو قوة أسلحته ، أو تفعل أمر هذه وتلك . تبعا لتقلبات الحظ . ولكن استمرت بقية معاندة تصر على التمسك بدين الآباء والأجداد وبحريتهم . وقد اشتقت حرب حين اسمها من أحد هذه الأصنام التى نذر محمد أن يدمرها ، والتى أقسم حلف الطائف على أن يدافع عنها . فسار أربعة آلاف من عبدة الأوثان خفية ليفاجئوا القائد المظفر . وقد تولاهم الحزن والأسى ،

يستطيع أن يرتكب أى شئ ، وليس فى هذا القول انصاف أو فلسفة . ومن المؤكد أن بعض الاحترام واجب نحو شهرة الأبطال وأديان الأمم - وقد أخبرنى بعضهم أن سفير تركيا فى باريس أظهر أشد استياء عند عرض هذه القصة التراجيدية .

ورثوا لقريش واحتقروها بسبب إهمالها وتراخيها . غير أنهم اعتمدوا على رغبات ، وربما على مساعدة ، قوم كفروا منذ مدة قصيرة بالهتيم وطأطأوا الرأس أمام عدوهم . ورفع النبي رأيتى مكة والمدينة ، وزاد عدد من البدو من جيشه وأمدوه بقوة . وداخل قلوب اثني عشر ألفا من المسلمين غرور أثيم بأن قوتهم لا غالب لها . فهبطوا وادى حنين دون احتراس أو حذر . وكانت المرتفعات قد احتلها رماة السهام ورماة المقاليع التابعون للأحلاف . وضغط العدو على المسلمين فاضطرب نظامهم وخاتتهم شجاعتهم ، وابتسمت قريش وهى ترى الدمار الذى يهددهم . وأحاط الأعداء بالنبي وهو على بغلته البيضاء ، وحاول أن يلقي بنفسه على أسنة حراهم طلبا لموت مجيد ، فوضع عشرة من أصحابه الأوفياء أجسادهم وسلاحهم بينه وبين العدو . فسقط ثلاثة منهم تحت قدميه وصاح محمد من الغضب مرارا وفى أسى : « أنا محمد بن عبد الله ، أنا رسول الله ، أيها الناس تمسكوا بدينكم ، اللهم عونك » وجعل العباس وهو عم النبي ، وقد امتاز كأبطال هوميروس بصوته الجمهورى يردد من قصة الربوة ، نعم الله ، والوعود التى وعد بها الله عباده المؤمنين ، فتراكض المسلمون الفارون من كل فج الى اللواء المقدس ولاحظ محمد فى سرور أن نار الحماسة التهمت مرة أخرى وحمى الوطيس . وكان تصرفه والاقتراء به سببا فى كسب المعركة ، فقلب الهزيمة الى نصر . ثم انه حث جنوده المنتصرين على أن ينتقموا ممن ألحق بهم العار انتقاما لا هوادة فيه . ومن ميدان القتال فى حنين سار بسرعة الى حصار الطائف ، وهى تبعد ستين ميلا الى الجنوب الشرقى من مكة .

وهى قلعة قوية تنتج أراضيها الخصبة فاكهة الشام فى قلب الصحراء القاحلة . وقدمت له قبيلة صديقة مدربة على فنون الحصار عددا من أدوات الحصار وآلات الحرب . وكذلك خمسمائة من الصناع المهرة . لكن منحة الحرية التى عرضها على عبيد الطائف ذهبت سدى . كما لم تجد مخالفته لقوانينه حيث أئلف بساكنها . كذلك لم يجد نفعا حفر العمال للأرض وتقدم الجنود لمهاجمة أية فتحة فى الحصون . وبعد حصار دام عشرين يوما أمر النبى بالتقهقر ، ولكنه تقهقر يردد أنغام النصر متظاهرا بأنه يدعو الله لهداية هذه البلدة الكافرة وسلامتها . وقد بلغت الأسلاب فى هذه الحملة الموفقة ستة آلاف أسير وأربعة وعشرين ألف جبل وأربعين ألف شاة وأربعة آلاف أوقية من الفضة . وقد اشترت قبيلة كانت تحارب فى حنين أسراها بالتضحية بأصنامها . وقد عوض محمد هذه الخسارة بالتنازل للجنود عن نصيبه فى الغنائم ، وود من أجلهم لو أن له من القطعان عدد أشجار تهامة ليقسمه عليهم . وبدلا من صب العذاب على قريش العاتية حاول أن يقطع ألسنتهم على حد تعبيره هو نفسه ، وأن يضمن ولاءهم بقدر عظيم من الجود . فمنح أبا سفيان وحده ثلثمائة بعير وعشرين أوقية من الفضة . واعتنقت مكة فى اخلاص ديانة القرآن المربحة .

وشكا المهاجرون والأنصار من أنهم ، وهم الذين احتملوا العبء أهملوا ساعة النصر . وأجاب قائدهم الحصيف : « ويحكم دعونى أولف قلوب أولئك الذين كانوا أعداء الى وقت قريب ، أولئك المشكوك فى إيمانهم ، بهبة من متاع زائل . وانى لأضع حيساتى ومالى فى حماكم . فأنتم أصحابى فى المنفى وفى الحكم وفى الجنة » . وتبعه

وفد الطائف من الذين خشوا تجدد الحصار قائلين : هبنا يا رسول الله هدية لمدة ثلاث سنين مع السماح لنا باتباع ديننا القديم . ورد النبي : لا أسمع بشهر أو حتى بساعة . فطلبوا اعفاءهم من فرض الصلاة . وأجاب النبي « أما الصلاة فانه لا خير في دين لا صلاة فيه » . بذلك استسلموا في صمت . فهدمت معابدهم . وصدر حكم مماثل نفذ في جميع أنحاء بلاد العرب على جميع الأصنام . واستقبلت رسل محمد على شاطئ البحر الأحمر والمحيط والخليج الفارسي بتحيات شعوب وفية . وكان عدد السفراء الذين ركعوا أمام عرش المدينة مثل عدد التمر الذي يسقط من النخل . اذا تم نضجه ، كما يقول المثل العربي . وخضعت الأمة كلها لله ولسلطان محمد . وألغى اسم الجزية البغيض . واستخدمت الزكاة والعشور في خدمة الدين سواء قدمت طوعية أو بعد تردد . وصحب النبي في حجه الأخير ( حجة الوداع ) مائة وأربعة عشر ألفا من المسلمين .

وعندما رجع هرقل منتصرا من حربه مع الفرس استضاف في حمص أحد رسل محمد الذين بعث بهم لدعوة الأمراء والأمم الى اعتناق الاسلام . وعلى هذا الأساس افترض حماس العرب أن الامبراطور اعتنق الاسلام سرا . وود اليونانيون في غرورهم أن يزورهم أمير المدينة بنفسه . وقد قبل محمد هبة ثمينة من الأرض الخصبة وملجأ مأمونا في ولاية سوريا . ولكن صداقة محمد وهرقل لم تدم طويلا . فقد أشعل الدين الجديد روح السلب والنهب في العرب أكثر من أن يهدئها . وقد أتاح قتل أحد الرسل فرصة طيبة ومبررا لغزو منطقة فلسطين التي

تمتد شرقى نهر الأردن فصار إليها ثلاثة آلاف جندي . وعهد النبي  
براية الجهاد الى زيد بن حارثة . وقد بلغت دقة النظام أو شدة الحماس  
في هذا الدين الصاعد أن أنبل الزعماء ، عملوا دون تردد كجنود تحت  
أمرة رجل كان مولى للنبي ، على أن يظفه في حالة موته جعفر بن أبي  
طالب ثم عبد الله بن رواحة على التوالي . فان توفي ثلاثتهم ، سمح  
للجنود بأن يختاروا قائدهم . وقد سقط القادة الثلاثة في موقعة  
مؤتة . وهى أول معركة حربية اختبرت فيها شجاعة المسلمين ضد  
الجيوش الأجنبية . وسقط زيد كجندي في الصفوف الأمامية ، ومات  
جعفر ميتة الأبطال : موتاً يظد الذكر ، حيث فقد يمينه فنقل الراية  
الى اليسرى ، فلما قطعت هذه احتضن الراية بعضديه الداميتين حتى  
وقع على الأرض مشخياً بخمسين جرحاً نبيلاً . وصاح عبد الله الذى  
تقدم ليشغل المكان الخالى : تقدموا ، تقدموا في ثقة ، اما النصر  
واما الجنة ، وقد فصلت حربة أحد الروم في هذا الاختيار . ولكن  
خالداً وهو أحد الذين آمنوا في مكة ، ألقى اللواء من السقوط .  
وقد تحطمت تسعة سيوف في يده . وقاومت بسالته المسيحيين وردتهم  
على أعقابهم على الرغم من أنهم كانوا أكثر عدداً . وفى المجلس  
الحربى الذى عقد ليلاً وقع الاختيار على خالد ليشغل مركز القيادة .  
وحددت المناورات البارعة التى قام بها فى اليوم التالى الموقف ، فاما  
انتصار العرب أو تهقيرهم . وقد اشتهر خالد بين اخوانه وأعدائه  
بلقبه المجيد : « سيف الله » . ووصف محمد وهو على المنبر فى نشوة  
النبوة ، أكاليل الفار على رءوس الشهداء الذين أنعم الله

عليهم (١) ولكنه كان اذا ما خلا الى نفسه ، أظهر المشاعر البشرية العادية . وفاجأه أحد أتباعه ذات مرة وهو يبكي ابنة زيد . فسأله وقد استولى عليه الدهش : ماذا أرى ؟ ورد النبي : انك ترى صديقا يبكي فقد أعظم أصحابه وفاة . وبعد فتح مكة تظاهر ملك العرب بأنه يريد أن يعرقل استعداد هرقل للحرب ، فأعلن الحرب علانية على الروم ، دون أن يحاول أن يخفى مشاق مثل هذه الحملة وأخطارها .. وأصاب المسلمين قنوط : وتعللوا بنقص المال والخييل والمؤن ، وزعموا أن الوقت وقت حصاد ، واحتجوا بقيط الصيف . ورد النبي مستاء : « نار جهنم أشد حرا » . وأنف النبي أن يجبرهم ، ولكنه بعد أن رجع عاقب أعظمهم اثنا بعدم حضور الصلاة معه خمسين يوما . وقد رفعت خيانتهم من قدر أبي بكر وعثمان وأصحابه المخلصين ، الذين وقفوا بحياتهم وأموالهم على خدمة الاسلام . وكان جيش المسلمين يتألف من عشرة آلاف من الخيالة وعشرين ألفا من الرجال . وكانت متاعب الطريق مؤثرة حقا ، وزادت رياح الصحراء اللافة والحاملة للأوبئة من متاعبهم وظمئهم . وتعاقب عشرة رجال بالتناوب على البعير الواحد . وأجبرتهم الضرورة الملحة على أن يشربوا الماء الموجود في معدة هذا الحيوان النافع . وفي منتصف المسافة بين المدينة ودمشق وعلى مسيرة عشرة أيام من أيهما ، حطوا رحالهم بالقرب من نخيل تبوك وعين مائها .

---

(١) في سيرة ابن هشام ج ٣ ، ص ٤٣٦ ، قال رسول الله « لقد رفعوا الى في الجنة ( الفواد الشهداء الثلاثة ) فيما يرى النائم ، على سرر من ذهب » .

ورفض النبی أن يتابع السير بعد ذلك المكان . وقد أعلن انه مقتنع بالنوايا السلمية للإمبراطور . والأرجح أنه خشي الحشود الحربية التي أعدها له إمبراطور المشرق . ولكن خالدا النشيط الجريء نشر الرعب حوله . فتقبل النبی خضوع القبائل والمدن من نهر الفرات الى أيلة على رأس البحر الأحمر . وبادر النبی بتأمين رعاياه من المسيحيين على أنفسهم وحرية تجارتهم وملكية أمتعتهم وسلمهم ، والنساح نحو دينهم . وقد حال ضعف اخوانهم في بلاد العرب دون الوقوف في وجه مظامعه ، كما أحب عدو اليهود أتباع المسيح . وكان من مصلحة الفاتح أن يعرض شروطا سخية عادلة لأقوى دين في العالم .

## وفاء النبی

تكافأت قوة محمد ، حتى بلغ الثالثة والستين من عمره ، مع متطلبات أعباء رسالته الروحية والدينية . وكان من الممكن أن تثير أزمات الصرع — وهو ادعاء سخي من اليونانيين — الشفقة لا الكراهية . ولكنه اعتقد اعتقادا جازما أن امرأة يهودية دست له السم في خير انتقاما منه . وخلال سنوات أربع ضعفت صحته واشتدت علته . وانتابته الحمى لمدة أربعة عشر يوما ، وحرمته أحيانا من اعمال عقله . وعندما أدرك اقتراب منيته ، قام يلفن اخوانه درسا فيما تتسم به الفضيلة أو التوبة من تواضع . فقال من فوق المنبر : « أيها الناس : من كنت جلدت له ظهرا بغير حق فهذا ظهري فليقتص مني . ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضي فليستقد منه . ومن

أخذت له مالا فهذا مالى فليأخذ منه ، ولا يخش الشحاء فهي ليست من شأنى » . وعلا صوت من بين الجمهور : أجل ، أنت مدين لى بثلاثة دراهم من الفضة . وأصغى محمد الى هذا الادعاء ودفع الدين وشكر الدائن لأنه طالبه به فى هذه الدنيا ولم يطالبه به يوم الحساب . ورأى الموت يقترب منه فتلقيه بعزيمة وهدوء . وأعتق عبيده وكانوا سبعة عشر رجلا واحدى عشرة امرأة كما ورد فى الروايات . وأعطى أوامر دقيقة فيما يتبع فى دفنه . وخفف من لوعة أصحابه الباكين حوله ومنحهم بركة السلام . وقد أدى بانتظام الى اليوم الثالث قبل وفاته صلاة الجماعة . ويظهر أن اختبار أبى بكر ليحل محله فى الصلاة بالناس كان إشارة الى أن ذلك الصديق الوفى القديم سيخلفه فى أمور الدين والدنيا . وكان النبى قد أبى — وكان حكيما فى ذلك — أن يحتل ما يشبه تعيين صريح من مخاطرة وحقد . وفى وقت خيل للناس أن ملكاته الذهنية قد ضعفت ، طلب قلما وحبرا ليكتب أو بالأحرى ليملى كتابا مقدسا يوجز فيه كل ما أوحى به اليه ويكملة . وقام نزاع بين الحاضرين فى الحجرة هل ينبغى أن يسمح له فى هذه الحالة بأن يتعدى سلطان القرآن . واضطر النبى أن يؤنب أتباعه على العنف الذى لا يليق بهم . وإذا نحن اعتمدنا ، أقل اعتماد على الروايات التى وصلت إلينا عن طريق أزواجه وأصحابه . فانه احتفظ وسط عشيرته بمقام النبوة وبايمانه المتحمس ، الى آخر لحظة من حياته . فوصف زيارات جبريل الذى ودع الدنيا وداعا أبديا . وعبر عن ثقته القوية ، لا فى رحمة ربه فحسب ولكن فى رضاه أيضاً . وكان قد ذكر فى حديث عائلى أن ثمة امتيازاً خاصاً به ، ذلك أن ملك الموت لم يكن ليقبض



روحه دون استئذانه . وقد أعطى الاذن . وفي الحال عانى محمد ألم  
الاحتضار ، وكان رأسه يستند الى صدر عائشة أقرب زوجاته الى  
قلبه ، وأغمى عليه من شدة الألم . فلما أفاق شخص يبصره الى سقف  
الدار ، بنظرة ثابتة . ولكن بصوت ضعيف نطق بآخر كلمات فاه بها ،  
كلمات متقطعة ولكنها واضحة : اللهم .. اغفر لى .. أجل انى آت ..  
الى الرفيق الأعلى من الجنة . وعلى هذا النهج قضى نحبه فى سلام  
على بساط فرش على الأرض . وقد أوقف هذا الحادث سفر حملة  
لفتح سوريا . وكان الجيش يعسكر أمام أبواب المدينة . والتف الزعماء  
حول نبيهم وهو يجود بروحه . وملئت المدينة أو بالأحرى منزل  
الرسول بمنظر من الحزن الصاخب أو اليأس الصامت . واستطاع  
التعصب وحده أن يشير الى شعاع من الأمل والمواساة « كيف يمكن  
أن يموت شاهدنا وشفيعنا ووسيطنا عند الله . قسما بالله انه ليس بيت  
ولكنه كموسى وعيسى فى اغماء مقدسة ، وأنه سيعود سريعا الى  
شعبه الوفى : » وتغاضى الناس عن الأدلة الملموسة . وسل عمر سيفه  
وهدد بقطع رأس كل كافر يجرو على القول بأن محمدا قد مات . وقد  
هدأت رزاة أبى بكر واعتداله ، من هذا الاضطراب ، وقال أبو بكر  
لعمر وللجهور : « من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان  
يعبد الله فان الله حى لا يموت » .

ثم تلا قوله تعالى : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل  
أفأين مات أو قتل اقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن  
يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين » . ( آل عمران ١٤٤ ) .  
ودفن النبي فى ورع وجلال بيد أقرب الناس اليه ، فى البقعة

نفسها التي قبض فيها . وقد أصبحت المدينة مكانا مقدسا ، لموته ودفنه بها . وكثيرا ما انحرف عدد غفير ممن يقصدون مكة للحج ، عن طريقهم ليقفوا طواعية في خشوع أمام القبر البسيط الذي دفن فيه النبي .

## أخلاق محمد وعيانه الشخصية

في ختام حياة محمد ، ربما كان على أن أزن أخطائه وفضائله ، وأن أقدر أيهما أجدر بهذا الرجل الغريب : لقب المتحمس أم لقب الدجال . ولو كنت أعرف ابن عبد الله معرفة وثيقة لظل الأمر شاقا على ، ولكان النجاح غير مؤكد . فما بالك بعد اثني عشر قرنا وأنا أتفحص ظله بصعوبة خلال سحب من النور المقدس . ولو استطعت بحق أن أرسم له صورة في موقف ما أو في فترة محددة ، فإن هذا الرسم لن يمثل تماما الرجل المتعبد في غار حراء ، والبشير النذير الذي كان ينشر دينه في مكة ، وفاتح الجزيرة العربية . ويظهر أن هذا الرجل الذي قام بأعظم ثورة في العالم كان تقيا ورعا ميالا الى التأمل بطبيعته . وعندما رفعه زواجه فوق الحاجة والموز ، ابتعد عن طريق الطموح والشح . لقد عاش بريئا طاهرا حتى بلغ الأربعين . وكان من الممكن أن يموت دون أن يعرف اسمه . ان وحدانية الله التي دعا اليها هي فكرة ملائمة للطبيعة والعقل . وربما علمته محاسنة عابرة مع اليهود والنصارى ازدهاء الوثنية في مكة وكراهيتها . وكان من واجبه كرجل ومواطن أن ينشر نظرية الخلاص ، وأن ينقذ وطنه من وهدة الاثم والخطيئة . وقد يحول النشاط الذهني المركز على موضوع واحد

الالتزام العام الى رسالة خاصة . وقد يشعر المرء بأن الأفكار التي تصدر عن الادراك أو الخيال ان هي الا وحي من السماء . وقد يفنى أعمال الفكر في غمار النشوة والرؤيا ، وعندئذ قد يوصف الشعور الداخلي ، أى الناصح الخفى ، بأنه ملك من ملائكة الله له شكله وسماته . وبين الحماس والدجل خطوة زلقة خطيرة . ولدينا فى « راعية » سقراط المقدسة مثل جدير بالذكر ، يوضح كيف يمكن أن يخدع رجل عاقل نفسه ، وكيف يمكن كذلك أن يخدع رجل طيب أناسا آخرين ، وكيف ينام الضمير فى حالة مختلطة وسط بين خداع النفس والاحتياى الارادى . ومهما يكن من شىء فقد يؤمن الأبرار بأن حوافز محمد الأصيلة كانت ترجع الى حب الخير الطاهر الحقيقى . ولكن أى مبشر من بنى آدم لا يستطيع أن يحب الكفار الذين يرفضون مزاعمه ويسفهون أدلته ويهددون حياته . ويجوز أن يصفح عن أعدائه الشخصيين ، ومن الجائز شرعا أن يبغض أعداء الله . وتأجج فى نفس محمد انفعالات عنيفة هى انفعالات الكبرياء والثأر . وربما تآقت نفسه — مثل نبى نينوى — الى ابادة أعدائه الذين استنكر أعمالهم . وقد حول ظلم مكة واختيار المدينة المواطن العادى الى أمير ، والبشير المتواضع الى قائد الجيوش . ولكن سيفه أحيط بهالة من القداسة . فان الاله الذى يتلى علما آثما بالوباء والزلازل تعذيبا لهم ، قد يثير الحمية فى صدور عباده المخلصين ليؤدبوا العالم أو يهدوه الى دين جديد . واضطر محمد فى تدبير شؤنه السياسية ، الى أن يخفف من حدة النعصب ، وأن يتمشى الى حد مامع نزوات أتباعه وأهوائهم ، بل يستخدم رذائل البشر كوسيلة لانقاذهم . وكثيرا ما كان استخدام الخداع والخيانة والقسوة والظلم أدافا لنشر الدين . وقد

أمر محمد بقتل اليهود والوثنيين الذين فروا من ميدان القتال . ولا بد أن أخلاق محمد ، قد شابتها بعض شائبة نتيجة لتكرار هذه الأعمال . ومن العسير أن يعوض التخلق بالأخلاق الفاضلة الشخصية والاجتماعية اللازمة للاحتفاظ بسمعة نبي أمام الأتباع والأصحاب ، عن آثار هذه العادات الضارة الا بقدر ضئيل . كان الطموح هو الهوى الذى سيطر على محمد فى سنواته الأخيرة . وقد يظن رجل السياسة أنه ( أى الدجال المنتصر ) قد ارتاح فى أعماق نفسه الى حماسه فى شبابه . والى تصديق أتباعه لدعوته ، أولئك الذين آمنوا به <sup>(١)</sup> ، وقد يلحظ الفيلسوف أن تصديق أصحابه لدعوته ونجاحه فيها قد يدعمان ويؤكدان صدق رسالته السماوية . وأن مصلحته ودياقته قد ارتبطتا برباط لا تنفصم عراه ، وأن ضميره هداه الى الاقتناع بأنه هو وحده الذى أعفاه الله من وجوب اتباع تلك القوانين الأخلاقية . واذا احتفظ بأثارة من براءته الأصلية فقد تجاوز سيئاته كدليل على اخلاصه . وقد تعتبر فنون الخداع والكذب أقل اثما اذا استخدمت لدعم الحق . ومن الجائز أن محمداً كان يرتعد أمام شناعة وسائله لو لم يكن راضياً عن أهمية هدفه وعدالته ، وأستطيع أن أكشف حتى فى فاتح أو قسيس عن كلمة أو فعل يتسم بالروح الانسانية الحقة . ان قرار محمد ، الذى حرم بمقتضاه ، التفريق بين الأم وأولادها عند بيع الأسرى ، قد يمنع أو يخفف أى لوم يوجهه اليه أى مؤرخ .

---

(١) فى موضع من مؤلفاته الضخمة ، يقارن قولتير بين النبي فى شيخوخته وبين الفقير « المشعوز » الذى يخلع سلسلته من عنقه ليضرب بها اخوانه فى آذانهم .

كان محمد حكيما في احتقاره لأبهة الملك . ولم يأتف رسول الله من القيام بالأعمال المنزلية التي كان يقوم بها عادة الخدم : لقد أوقد النار وكس الدار وحلب الشاة ، وخصف نمله ، ورقع رداءه المصنوع من الصوف بيده . وكان لا يقر طريقة الرهبان والنسك في تعذيب النفس تكفيرا والتماسا للمنزلة الرفيعة . ولكنه قنع دواما دون مشقة أو زهو بالطعام البسيط ، شأن الجندي والعربي . أما في المناسبات الجليلة فكان يمد لأصحابه سباطا يتسم بالبساطة مع وفرة الطعام . أما في حياته الخاصة فكثيرا ما كانت تمر عدة أسابيع دون أن توقد نار في داره . وفي تحريمه الخمر كان مثالا يحتذى . وكان ينسك رmqه بقدر معتدل من خبز الشعير . غير أنه كان يحب اللبن والشهد ويسر بهما . أما طعامه العادي فكان التمر والماء . أما الطيب والنساء فهما المتعتان اللتان تطلبتهما نفسه وطبيعته ، ولم يحرمهما دينه . وقد قرر محمد أن هذه المتع البريئة كانت تقوى من عزيمته في خشوعه وتقواه . والجو الحار يلهب دم العربي . وقد لاحظ الكتاب في العالم القديم أن نضارة العربي تدل على حبه للشهوات . وقد حدث الأحكام المدنية والدينية التي وردت في القرآن من افراط العرب في شهواتهم . فأنهى باللائمة على نكاح المحارم . ووضع حدا لتعدد الزوجات الذي لم يكن له حدود ، فجعل الحد الأقصى أربع زوجات أو محظيات شرعيات . وبين حقوقهن العادلة في الصداق والمعاشرة بالعدل . ولم تلق حرية الطلاق تشجيعا . وجعل الزنا جريمة عقابها الاعدام . وعاقب الفسق بالجلد مائة جلدة لكلا الجنسين . وكانت هذه وأمثالها شريعة النبي الهادئة المعقولة . ولكنه في سلوكه الخاص لم يكبح شهوته

كرجل . أو أساء استعمال مراعيه كنبى ، وكأن وحيا خاصا أعفاه من القيود التي فرضها على أمته ، فترك الجنس اللطيف دون تحفظ لرغبات النبى (١) . وقد أثار هذا الامتياز الفريد حسد أتقياء المسلمين أكثر مما أثار استيائهم ، كما أثار تبجيلهم أكثر مما أثار حسدهم . وإذا تذكرنا أنه كان لسليمان الحكيم سبعمائة زوجة وثلثمائة من الحظايا لامتمدحنا تواضع النبى العربى الذى لم يتخذ أكثر من سبع عشرة أو خمس عشرة زوجة ، وقيل ان إحدى عشرة زوجة كن يقمن معه فى المدينة فى مساكن مستقلة حول بيت الرسول . واستمتعت كل منهن ، فى دورها ، بلقائه كزوج . والشئ الغريب جدا أنهن كلهن كن أرامل ماعدا عائشة بنت أبى بكر فقد كانت دون ريب عذراء عندما بنى بها محمد ، وكان لها من العمر تسع سنين . ( وهذا النضج المبكر أثر من آثار الجو الحار ) . وقد حظيت عائشة بمكانة سامية لشبابها وجمالها وروحها . وكان الرسول يحبها ويثق بها . وبعد موت النبى استمرت ابنة أبى بكر تحظى بالتبجيل وقتا طويلا كأُم المؤمنين . غير أن سلوكها ذات مرة كان غير واضح وغير حكيم : فقد تركت مصادفة وراء القافلة وكانت القافلة تسير ليلا . وفى الصباح عادت الى الخيام

---

(١) أعمى النعصب الأوربي جميع الكتاب عن فهم الحكمة فى تعدد زوجات النبى ، وقد كن جميعا أرامل ما عدا عائشة ، كما لاحظ ذلك جيبون نفسه الذى شاد بوفاء النبى لخديجة فى حياتها وبعد موتها . وهم يرفضون أن يذكروا أن النبى عند هجرته كان قد جاوز الثانية أو الثالثة والخمسين . والمعروف أن الجسم يتحل سريعا فى الجو الحار . وهؤلاء الأوربيون أنفسهم أول من لاحظ تقشف النبى وزهده . وبهجده الذى أتعب جسده . قال تعالى : « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » . وكنر لفظ الكتاب الأجانب عن زوجات النبى ، ولا بد أن جيبون نقل عنهم . والواقع أنه كان وراء كل زيجة حافز إنسانى أو سياسى ، والرسول أبعد ما يكون عما ظنه هؤلاء الكتاب . ( الترجمة )

في صحبة رجل . وكان محمد بطبيعته غيورا ، ولكن الوحي الالهي أكد له براءتها ، فعاقب من اتهمها . ونزل تشريع ينشر الطمأنينة في الحياة الزوجية ، وهو ينص على أنه لا يحكم بادانة امرأة الا اذا كان قد رآها أربعة من الرجال وهي ترتكب فعلا جريمة الزنى <sup>(١)</sup> . وفي مغامراته مع زينب زوجة زيد ، ومع مارية القبطية ، جاريته المصرية ، نسي النبي في غرامه مقتضيات سمعته ، ففي دار زيد مولاه المعتق وابنه بالتبني ، رأى محمد جمال زينب في ثوب فضفاض ، فاستغرق في صيحات ابتهاج ورغبة . وقد فهم المعتق الذليل أو المعترف بالجميل مغزى ما رأى ، وتراجع دون تردد أمام حب مولاه . ولكن لما كانت علاقة البنوة قد أثارت بعض الشك والاستياء فقد هبط جبريل من السماء ليعلن موافقة الله على هذا العمل ، ويطلب التبني وليوجه الى النبي لوما هادئا على قلة ثقته في عفو ربه <sup>(٢)</sup> . ثم ان حفصة بنت عمر احدى زوجات النبي فاجأته وهو على سريرها في أحضان مارية سريته المصرية . فوعدت بكتمان الخبر والعفو . وأقسم النبي أنه سيتخلى نهائيا عن تملك مارية . ولكن كلا الجانبين نسيا ما وعدا به . وهبط جبريل مرة أخرى من السماء بآيات من القرآن ليحله من قسمه ويحثه على حرية التمتع بسرياته وحظاياه دون التفات الى صياح زوجاته . وفي مكان منعزل عاش النبي مع مارية لمدة ثلاثين يوما لتنفيذ أوامر جبريل . وعندما أشبع حبه وانتقامه ، دعا أزواجه

(١) يشير جيبون هنا الى حديث الامك ، وما تعلق به من أحكام وردت في الربع الأول من سورة النور .

(٢) للرد على هذه الافتراءات انظر هيكل « حياة محمد » ، ص ٤٤٤ وما بعدها ( المترجم ) .

الاحدى عشرة للمثول بين يديه وأنهن على عصيانهن وحماقتهن ،  
وهدهن بالطلاق في هذا العالم والعالم الآخر ، وهو قرار رهيب ،  
اذ أن زوجات النبي لا يحل لهن الزواج من غيره بعد طلاقهن منه .  
وقد تخفف الرواية التي تصف قوة محمد الطيمية أو الشاذة من  
افراطه في شهواته . فقد قيل انه جمع قوة ثلاثين رجلا من بنى آدم  
ومن الممكن أن يناقش النبي هرقل البطل اليوناني في أعماله الثلاثة  
عشر . ولكن هناك دفاعا أكثر جدية وتهذيبا يمكن استنتاجه من  
وفائه لخديجة . فطوال هذا الزواج الذي دام أربعاً وعشرين سنة ،  
امتنع زوجها الشاب عن حقه في الزواج من أخرى ، ولم يوجه اهانة  
الى كرامة هذه السيدة الجليلة أو رقتها بوجود ضرة لها . وبعد موتها  
وضعها زوجها بين فضليات النساء الأربع ، مع أخت موسى وأم عيسى  
وابنته فاطمة أحب بناته اليه . قالت عائشة ذات مرة في طيش الشباب  
النضر : ألم تكن عجوزا شمطاء ؟ ألم يبدلك الله خيرا منها ؟ وأفاض  
محمد في الاعتراف بجميلها : كلا والله . لم يبدلني الله قط خيرا منها .  
آمنت بي عندما كذبنى الناس . وسدت خلتي عندما كنت فقيرا  
مضطهدا في هذا العالم (١) .

---

(١) أمين دويدار : « صور من حياة الرسول » ، دار المعارف ،  
القاهرة . ١٩٥٨ ، ص ٩١ . وروى الإمام أحمد عن عائشة ، قالت : كان  
النبي صلى الله عليه وسلم اذا ذكر خديجة أثني عليها أحسن الثناء .  
( قالت ) : ففرت يوما فقلت : ما أكثر ما تذكرها ! حمراء الشدقين !  
قد أبدلك الله خيرا منها ! قال : « ما أبدلني الله خيرا منها ! وقد آمنت  
بي اذ كفر بي الناس ، وصدقني اذ كذبنى الناس ، وواستني بماله  
اذ حرمني الناس ، ورزقني الله ولدها . اذ حرمني أولاد النساء » .  
( المترجم )



« وعلى الرغم من تعدد زوجاته فإن محمدا لم يترك وارثا . وفي عام ٦٥٥ أو ٦٥٦ ، أصبح صهره على أمير المؤمنين ولكن أبناءه لم يحتفظوا بالخلافة » .

## نفوذ محمد

ان عبقرية محمد جديرة منا بكل اعجاب . ولكن نجاحه هو الذي جذب اعجابنا بدرجة فائقة . فهل أصابنا الدهش لأن جهورا غفيرا اعتنقوا آراء رجل متعصب فصيح واتبعوا أهواءه ؟ لقد استخدم أسلوب الاغراء نفسه في مذاهب ( الهرطقة ) في الكنيسة مرارا وتكرارا من زمن الرسل الى عصر الإصلاح الديني . فهل يبدو أنه مما لا يكاد يصدق أن يقبض مواطن عادي على السيف والصولجان وأن يخضع وطنه ، وأن يقيم مملكة باتصاراته الحربية ؟ لقد ظهر على مدارج التاريخ في الأسرات الحاكمة في الشرق مئات من الفاصيين الذين حالفهم التوفيق والذين نشأوا من أصل أكثر ضعة ، وتغلبوا على عقبات أشد ، ولعبوا دورا أكبر في الامبراطوريات والفتوحات . لقد مرن محمد على الحرب وعلى الدعوة سواء بسواء . ان اجتماع هذه الصفات المتعارضة رفع من شأنه كما عاونه على النجاح . وتفاعلت القوة والاقناع ، والحماس والخوف بعضها مع بعض باستمرار ، فذلت كل عقبة أمام قوتها القاهرة . لقد دعت صيحته العرب الى الحرية والى النصر ، الى الحرب والى الاسلاب ، الى اشباع رغباتهم المحببة الى نفوسهم في هذا العالم وفي الدار الآخرة . وكانت القيود التي فرضها ضرورة لدعم مركز النبوة ، ولتدريب الناس على الطاعة . وكانت العقبة الوحيدة في طريق نجاحه هي عفيده المعقولة المنطقية عن

وحدانية الله وكماله . وليس انتشار دينه هو الذى يدعو الى العجب والدهشة وانما بقاءه . فان نفس الطابع النقى الكامل ، الذى نزل به فى مكة والمدينة لا يزال محفوظا ، بعد مرور اثنى عشر قرنا من الثورات والتقلبات ، فى قلوب المؤمنين بالقرآن من هنود وأفريقيين وأتراك . ولو أن الرسولين المسيحيين القديسين بطرس وبولس استطاعا أن يعودا الى الفاتيكان لسألا عن اسم الاله الذى يعبد فى هذا المعبد الفخم بهذه الطقوس الخفية . وقد تصيهم دهشة أقل فى اكسفورد وجنيف ، وربما كان عليهما أن يتصفحا عقيدة الكنيسة وأن يدرسا تعليقات فقهاء المسيحية ، التى دونت على كتاباتهما وعلى كلمات معلمهما ( السيد المسيح ) . ولكن قبة أيا صوفيا فى تركيا ، وهى أعظم رواء وأكبر حجما تمثل البناء المتواضع الذى شيده محمد فى المدينة بيديه . وقد وقف المسلمون بالاجماع يقاومون الاغراء الذى ينزل بعقائدهم وتقواهم الى مستوى حواس الانسان وخياله . فشهادة « ألا اله الا الله وأن محمدا رسول الله » هى الشهادة الاسلامية البسيطة التى لا تتغير . فصورة الاله فى الأذهان لم تصبها مهانة قط بتمثيلها بوثن يراه الناس . والأمجاد التى أسبغت على النبى لم تتعد قط حدود الفضائل البشرية . وحصرت تعاليه الحية اعتراف أصحابه بفضله فى داخل حدود العقل والدين . والحق أن شيعة على قدسوا ذكرى بطلهم وزوجه وأبنائه حتى أن بعض علماء الفرس يزعمون أن الجواهر المقدس قد حل فى أشخاص الأئمة . ولكن أهل السنة رفضوا خزعبلاتهم رفضا باتا . وقد كان الحادهم تحذيرا جاء فى الوقت الملائم ضد عبادة القديسين والشهداء . وأثارت القضايا الميتافيزيقية الخاصة

بصفات الله الاضطراب في المدارس الاسلامية والمسبجة سواء بسواء. ولكنها لم تستول قط على عقول الجماهير أو تعكر صفو الهدوء في الدولة . وسبب هذا الاختلاف الهام هو التفريق أو التوحيد بين الصفة الزمنية والصفة الدينية . وكان من مصلحة الخلفاء الذين خلفوا النبي وأمرء المؤمنين أن يحولوا دون أحداث أى بدع في الدين ، ألا يشجعوا الناس عليها ، فلا يعرف المسلمون طوائف الكهنة ونظامهم وطموحهم الزمنى والروحي . أما فقهاء الشرع (يقصد الأئمة) فهم هداة المسلمين ومرجعهم في أمور دينهم . ومن المحيط الأطلسى الى نهر الكنج يقر المسلمون بأن القرآن هو قانونهم الأساسى ، لا في أمور دينهم فحسب، ولكن في كلا التشريعين المدنى والجنائى . وتحصى ارادة الله القوية المعصومة القوانين التى تنظم أعمال البشر وأحوالهم ، غير أن هذا الخضوع للدين قد يقترن ببعض المساوىء العملية . فكثيرا ما ضلل المشرع الأسمى هواه وهوى وطنه . فالنظم التى تلائم صحراء العرب قد لا تلتئم مع ثراء أصفهان والآستانة ولا عدد سكانها . وفى هذه الأحوال يضع القاضى بكل اجلال المصحف الشريف فوق هامته ولكنه يستبدل به تفسيراً بارعا أكثر ملاءمة لمبادئ العدالة وعادات العصر وسياسته .

وثمة نقطة أخيرة نعرض لها فى أخلاق محمد ، تلك هى أثره النافع أو الضار على السعادة العامة . ومن المحقق أن ألد أعدائه مرارة وتمصبا من النصارى واليهود سيقولون بأنه حمل رسالة زائفة ليغرس عقيدة تهدى الى الرشد لا تقل فى كمالها الا عن عقيدتهم . وقد افترض محمد ورعا منه ، كأساس لدينه ، صدق وحيهم القديم ، وقديسيته وفضائلها

مؤسسى الديانات السابقة ومعجزاتهم . وهكذا حطمت أصنام العرب أمام عرش الله وقد قامت الصلاة والصوم والزكاة وهى الفنون المحمودة أو البريئة للورع مقام دم الضحايا البشرية ، ورسم ثواب الله وعقابه.. فى الدار الآخرة فى صور بلاغية تلأثم تماما جيلا غارقا فى شهواته . ومن المحتمل أن محمدا كان لا يستطيع أن يفرض نظاما أخلاقيا وسياسيا يطبق فى وطنه ، ولكنه بث فى المسلمين روح البر والمحبة ، وحث الناس على ممارسة الفضائل الاجتماعية ، وحد بقوانينه وشريعته من التعطش للتأثر وظلم الأراامل واليتامى . وقامت بين القبائل المتعادية وحدة فى الدين والطاعة ، ووجهت الشجاعة التى كانت تذهب سدى فى المنازعات الداخلية ضد العدو الخارجى ، ولو أن الحاضر كان أقل قوة لكان من الجائز أن تزدهر بلاد العرب المتمتعة بالحسرية والاستقلال فى الداخل ، القوة فى الخارج ، على يد جماعة أبنائها من الحكام . ولكنها فقدت سلطانها لاتساع فتوحاتها وللمسرة التى تمت بها هذه الفتوحات. فاتشرت عشرات من مستعمرات هذه الأمة فى أرجاء الشرق والغرب واختلط الدم العربى بدم الأسرى ومعتقى الاسلام . وبعد الخلفاء الراشدين الأربعة نقل مقر الخلافة من المدينة الى وادى دمشق ، ثم الى شاطىء دجلة ، ودنست حرب فاجرة المدينتين المقدستين وحكمت عصا فرد من الرعية - وربما عصا أجنبى غريب - حكمت بلاد العرب. وبعد أن استيقظ بدو الصحراء من حلم السيطرة عادوا الى استقلالهم الانعزالى القديم .

## الفصل الحادى والخمسون

٦٣٨

مصر مكتبة الاسكندرية

حذف الفصلان الحادى والخمسون والثانى والخمسون ، وهما يتناولان قصة الفتوحات العربية وامتداد سلطان العرب وحضارتهم الى افريقية واسبانيا . وقد عاق تقدمهم الى فرنسا انتصار شارل مارتل فى معركة بواتيه سنة ٧٣٢ . وبعد ان انتشروا غربا أصبحت غزواتهم تقع - ان اردنا الدقة - خارج الامبراطورية الرومانية . وقد قمنا هنا بابرار قطعة من الفصل الحادى والخمسين لأنها تصف تدمير مكتبة الاسكندرية . فقد كان هذا العمل على الأقل رمزا لافول نجم الثقافة القديمة . وهذا أمر لا يمكن اغفاله ، على حد تعبير جيبون . وقد هيات له الاقصوصة السبيل ليؤدى واجب النجبة والأجلال للمرة الأخيرة ، لتلك الآداب التى كانت عماد حياته وفكره . ومنها تغب ، كما فعل من أى شىء آخر ، اضمحلال الحضارة وسقوطها . ومع ذلك فهو يوجه سهام نقده الى هذه القصة ، وإن الفكر الحديث ليؤيده فيما ساوره من شك فيها .

### مكتبة الإسكندرية

لا بد أن يخيب ظن القارئ بى اذا مرت مر الكرام بمصير مكتبة الاسكندرية ، كما يصفه العلامة أبو الفرج . وكان عمرو أكثر حبا للاستطلاع وأكثر تحررا من بقية أصحابه . وكان يحلو له فى أوقات فراغه أن يتحدث الى يوحنا آخر تلاميذ أمونيوس الذى استمد لقب فيلوبونس مما بذله من جهود فى أبحاثه فى النحو والفلسفة . وقد شجعت يوحنا أحاديثه التى تتسم بالالفه ورفع الكلفة

مع عمرو ، على أن يطلب منه هدية لا حد لقيمتها عنده هو ، ولكنها حقيرة في نظر المتبررين — ألا وهي المكتبة الملكية ، وكانت الشيء الوحيد من أسلاب الاسكندرية الذي لم تمسه يد الفاتح ، ولم تقع عيه عليه . وكان عمرو ميالا الى اجابة عالم النحو الى رغبته . ولكن نزاهته ودقته أبنا أن يتنازل عن أى شيء مهما كان تافها دون اذن من الخليفة . وقد ألهم جهل المتعصبين رد عمر المشهور : « ان كانت هذه المؤلفات اليونانية تنفق وكتاب الله فلا فائدة منها ولا حاجة بنا الى حفظها وان كانت تخالفه ، فهي ضارة ويجب اعدامها » ... وقد نفذ حكمه في طاعة عمياء فوزعت هذه المجلدات المكتوبة على الورق أو الرق على حمامات المدينة ، وكان عددها أربعة آلاف حمام . وقد بلغت هذه المؤلفات من الكثرة حدا لا يصدق ، بحيث أن ستة أشهر لم تكن كافية الا بصعوبة لاستهلاك هذا الوقود الثمين . ولما كان تاريخ أبى الفرج قد قدم للعالم باللغة اللاتينية ، فقد تكرر نقل هذه الحكاية عنه . كما رثى كل باحث في غضب وقور لهذه الخسارة التى لا تعوض ، ولضياع مثل هذا العلم والفن والعبقرية القديمة . ولكنى أميل بشدة — وهذا رأيي الخاص — الى انكار هذه الواقعة ونتائجها كلية . فالواقعة حقا غريبة . يقول أبو الفرج نفسه : « اقرأ وتعجب ! » ويرجح رواية هذا المؤرخ الأجنبى الوحيد الذى كتب بعد ستة قرون على أرباض ميديا صمت مؤرخين أقدم منه ، وكلاهما مسيحي ، وكلاهما مواطن مصرى . وأقدمهما البطريق يوتخيوس الذى أفاض فى وصف فتح الاسكندرية . ويتناقض رأى عمر القاسى مع شريعة فقهاء المسلمين الصحيحة السليمة . فهم بقررون فى جلاء أن

كتب اليهود والمسيحيين الدينية التي تم الاستلاء عليها بحق الفتح لا يجوز مطلقا احراقها . أما كتب العلوم الدنسة الأخرى ، ككتب التاريخ والشعر والطب والفلسفة ، فمن الجائز استخدامها لينتفع بها . المؤمنون . وقد يعزى الى خلفاء محمد الأول حماس أشد تدميرا . ولكن في هذه الحالة كان من المنتظر أن تؤدي قلة المادة الى سرعة اخماد الحريق . ولن أعدد الكوارث التي حلت بمكتبة الاسكندرية ، كالحريق الذي أشعله قيصر عمدا دفاعا عن نفسه ، والتعصب الضار لدى المسيحيين الذين وجهوا حماسهم الى تدمير آثار الوثنية . ولكنا اذا ما هبطنا شيئا فشيئا من عصر الأنطونيين الى زمن تيودوروس . فسنعلم من عدد كبير من الشهود المعاصرين أن القصر الملكي ومعبد سرايس لم يكونا يحويان الأربعمئة ألف أو السبعمئة ألف مجلد التي جمعها حب البطالة للاطلاع وسخاؤهم . ومن الممكن أن الكنيسة والدار البطيركية قد ازداتنا بذخائر من الكتب . ولكن ان كانت المجلدات الضخمة التي ألقت في النزاع الذي أثاره أتباع آريوس أو أتباع الطبيعة الواحدة ، هي التي أحرقت حقا في حمامات الاسكندرية ، فقد يسلم الفيلسوف ، وعلى شفثيه ابتسامة ، بأن هذا كان في النهاية من مصلحة البشرية . واني آسف من صميم قلبي لما أصاب المكتبات التي هي أعظم قيمة ، في غمرة الخراب الذي نزل بالامبراطورية . ولكنى عندما أعدد بشكل جدي ، تعاقب الأجيال ، وما ضيع الجهل وكوارث الحرب ، فاني لن أعجب لضياع ما فقد ، ولكن لبقاء الكنوز التي وصلت إلينا . لقد طمس النسيان وفائع كثيرة هامة وغريبة . فمؤرخو رومه الثلاثة قد وصلوا الى أيدينا في حالة

يرثى لها . وقد حرمتنا من كثير من المؤلفات البهيجة من الشعر اليونانى  
الغنائى الأرجوزى والمرحى . ومع ذلك فينبغى أن نذكر مع الحمد  
والشكر أن كوارث الأيام وأحداثها قد تركت لنا مؤلفات كلاسيكية  
كانت لها الصدارة باجماع الآراء ، فى العالم القديم ، من حيث  
العبقريّة والشهرة . فمعلمو المعرفة القديمة الدين وصلوا إلينا كانوا  
قد تصفحوا وقارنوا كتب أسلافهم . فلا يمكن أن يزعم أحد حقاً  
أن نظرية هامة أو كشفاً نافعاً فى الفن أو الطبيعة قد حرمت منه القرون  
الحديثة المحبة للاستطلاع .



# اضمحل الامبراطورية فى الشرق

## الفصل الثالث والخمسون

(٩١٢ - ٩٨٨)

- حال الامبراطورية الشرقية فى القرن العاشر . ثروة
- الامبراطورية ومصنوعاتها وايراداتها . القصر الامبراطورى .
- نسيان اللغة اللاتينية . احياء العلوم اليونانية .
- انحطاط اللوق .

يبدو أن شعاعا من الضوء التاريخى يخرق ظلام القرن العاشر . فنحن نفتح فى اجلال وشغف المجلدات الملكية التى دبجها قسطنطين بورفروجيتيوس ، والتى ألفها بعد أن تقدمت به السن ، لتعليم ابنه ، وهى تعد بأن تبسط حال الامبراطورية الشرقية فى الحرب والسلم ، وفى الداخل والخارج . وفى أول هذه المجلدات يصف الامبراطور بدقة رواء الطقوس الكنسية ومراسم القصر الملكى طبقا لما اعتاده هو وأسلافه . وفى المجلد الثانى من هذه المؤلفات يحاول الكاتب أن يستعرض بدقة الولايات فى كل من أوربا وآسيا ، وكان يطلق عليها عندئذ اسم « ثيمس » Themes . وقد ورد فى المجلد الثالث من هذه المجموعة التعليمية التى يمكن أن تنسب الى قسطنطين أو الى أيه ليو ، وصف لفن التكتيك الحربى عند الرومان ونظام الجنود وترتيبهم ، والعمليات الحربية الرومانية فى البر والبحر . وفى المجلد

الرابع — وهو يبحث في ادارة الامبراطورية — يكشف المؤلف عن أسرار السياسة البيزنطية في علاقاتها الودية والعدائية مع أمم العالم . وربما عادت الجهود الأدبية ونظم القانون العملية والزراعة والتاريخ في عصر ما ، على الرعاية بفائدة ، وعلى أمراء مقدونية بالمجد . فالكتب الستون الملكية <sup>(١)</sup> ، وهي تحوى القانون المدنى وأحكامه ، دونت شيئا فشيئا في عهد الأباطرة الثلاثة الأول من هذه الأسرة السعيدة . واجتذب فن الزراعة اهتمام أفضل القدماء وأعقلهم فتسلوا بها في أوقات فراغهم . كما جرت أفلامهم بالكتابة فيه . وقد تضمنها كتاب قسطنطين المسمى « فن وعلم الزراعة » . وبأمر منه صنت النماذج التاريخية للفضيلة والرذيلة في ثلاثة وخمسين مجلدا ، فأصبح من الممكن لأى مواطن أن يطبق على معاصريه أو على نفسه دروس الماضى وعظاته . وهكذا هبط أمبراطور الشرق من مشرع فى عليائه ، الى وظيفة معلم أو كاتب ، وهى وظيفة جد متواضعة . وإذا كان خلفاؤه ورعاياه لم ينتبهوا الى رعايته الأبوية ، فقد نرث نحن هذا التراث الخالد وتنعم به . والحق أن فحصا أكثر دقة قد يقلل من قيمة الهبة ومن عرفان الخلف . وقد نرثى لفقركنا وجهلنا مع أننا نملك هذه الكنوز الثمينة . وسيمحو الإهمال أو الازدراء مجد مؤلفيها الزائل وستهبط « البازيليك » الى نسخة بالية من قوانين جستينيان ، فهى ترجمة مهلهلة وناقصة لها باللغة اليونانية . وكثيرا ما غطى التعصب فيها على حكمة علماء القانون المدنى القدامى . وقد خنق تحريم الطلاق تحريما باتا ومنع

---

(١) Basilics كتب القوانين البيزنطية . نسبىة الى الامبراطورية باسيلئوس الأول ( بازيل ) القرن التاسع الميلادى .

التسرى ، وكذا أخذ فائدة عن الأموال ، خنق حرية التجارة وسعادة الفرد . وعند تصفح كتب التاريخ قد يتعجب أحد رعايا قسطنطين من فضائل اليونان والرومان التي لا يستطيع أن يحاكيها . وقد يتعلم الى أى حد من النشاط والرفعة قد سما الخلق البشرى في العالم القديم . ولكن لابد أنه كان ثمة أثر عكسى ، نتيجة لإصدار طبعة جديدة من حياة القديسين ، صدرت الأوامر أو التعليمات بإعدادها الى مستشار الامبراطورية الأكبر . وزاد من هذا الرصيد الكئيب من الخرافات ما أضيف اليه من أساطير سيمون « المترجم الحرفى » *Metaphrast* وهي خزعبلات منمقة . وإن امجاد هذا السجل كله ومعجزاته لا تساوى في نظر الحكيم غناء مزارع واحد يزيد في هبات الخالق ويزود اخوانه بالطعام . ومع ذلك فقد بذل المؤلفان الملكيان لكتاب « فن وعلم الزراعة » جهدا أكبر في شرح الفن المدمر الذى كان يلحق من أيام زينوفون باعتباره فن الملوك والأبطال . ولكن كتاب « فن التكتيك » *Tactics* الذى سطره ليو وقسطنطين قد خلط بمزيج أقل قيمة استقياه من العصر الذى عاشا فيه . وقد خلا من العبقرية الأصيلة خلوا تاما ، فانهما لم يزيذا على أن يقلدا ضمنا القواعد والحقائق العامة التي أكدتها الانتصارات . وخلا الكتاب من البراعة في الأسلوب أو في المنهج ، وخلط الكاتبان دون تبصر بين نظم بعيدة متنافرة ، وبين كئائب اسبرطه ومقدونية ، وفيالق كاتو وتراجان ، وأوغسطس وتيودوسيوس . وقد يتساءل المرء بحق عن تقع هذه المبادئ الحرية أو على الأقل عن أهميتها . لقد أملى العقل والمنطق الأهمية النظرية العامة لهذه المبادئ ولكن فضلها وصعوبتها تظهران عند تطبيقها .

فان اعداد الجندي يعتمد على التدريب أكثر منه على الدراسة .  
ومواهب القائد قد اخصت بها تلك العقول الهادئة ، ولكنها العقول  
سريعة البت ، التي أوجدتها الطبيعة لتقرر مصير الجيوش والأمم .  
والهدوء عادة من عادات الحياة ، أما سرعة البت فهي ومضة بنت  
لحظتها . ويمكن أن ندرج المعارك التي فاز فيها قائد ما حفظ دروس  
التكتيك ، في عداد الملاحم الشعرية التي أوجدتها قواعد النقد  
الأدبي . وكتاب المراسم ان هو الا سرد ممل ، ولكنه ناقص ، للطقوس  
المزرية التي دنست الكنيسة والدولة منذ الانحطاط التدريجي لنقاوة  
الأولى ، ولقوة الثانية . وقد نستبشر خيرا باستعراض الولايات  
أو المديریات ، ليزودنا بمعلومات حقيقية ونافعة ، كتلك التي تعنى  
الحكومة وحدها بالحصول عليها ، بدلا من تلك الخرافات المنوثة  
عن أصول المدن ، والمقطوعات الشعرية الخيثة عن رذائل سكانها .  
وربما كان يسعد المؤرخ أن يسجل مثل هذه المعلومات ، وينبغى  
ألا يلام على صمته ، اذا كانت أطرف المسائل وأهمها : مثل عدد  
سكان العاصمة والولايات ، ومقدار الضرائب والایرادات ، وعدد  
الرعايا والأجانب الذين يعملون تحت لواء الامبراطورية ، قد أغفلها  
ليو الفيلسوف وابنه قسطنطين . ويشوب بحثه في « الادارة العامة »  
الشوائب نفسها ، ومع ذلك فهو يتميز بشيء غريب يستوجب الثناء .  
فقد تكون آثار الأمم وتاريخها القديم موضع شك وارتباب ،  
أو أسطورية ، ولكن جغرافية العالم المتبرير وأخلاقه قد وصفت  
بدقة عجيبة . ومن هذه الأمم كان الفرنجة وحدهم أهلا لأن يكتبوا  
بدورهم عن عاصمة الشرق ويصفوها . فقد صور أسقف كريمونا ،

سفير أونو العظيم ، حالة القسطنطينية حوالى منتصف القرن العاشر ، وأسلوبه فى هذا مشرق ، وسرده للحوادث مثير ، وبصره بالأمر حاد . بل ان تعصب ليوتبراند <sup>(١)</sup> وأهواءه تحمل الطابع الأصيل للحرية والعبقرية . ومن هذا الرصيد الهزيل من المواد المحلية والخارجية سنتقصى شكل الامبراطورية البيزنطية وجوهرها . والولايات والثروة والحكومة المدنية ، والقوة الحربية ، وأخلاق اليونانيين وآدابهم ، على مدى سنة قرون ، من حكم هرقل الى نجاح الفرنجة أو اللاتين فى غزو الامبراطورية .

بعد تقسيم الامبراطورية تقسيما نهائيا بين أبناء تيودوسيوس ، انتشرت فى الولايات جماعات من البرابرة من سكيزيا وألمانيا ، وقضت على امبراطورية رومه القديمة قضاء مبرما . وكان ضعف القسطنطينية يهتفى وراء اتساع ممتلكاتها ، فلم تنتهك حدودها أو على الأقل لم تمس . وقد اتسعت ملكة جستان بضم أفريقية وإيطاليا . وهذا عمل باهر . ولكن تملك هذه الفتوحات الجديدة كان مؤقتا غير دائم ، إذ انتزعت جيوش العرب حوالى نصف الامبراطورية الشرقية . وفتح الخلفاء الراشدون الشام ومصر ، وغزت قواتهم الولاية

---

(١) Liutprand ٩٧٢/٩١٢ كاتب حوليات ايطالى تعتبر مؤلفاته أهم مصادر تاريخ إيطاليا والامبراطورية فى القرن العاشر ، انضم الى بلاط أونو الأول الذى عينه أسقف فى كريمونا ، وأوفده فى ٩٦٨ الى القسطنطينية ليطلب يد أميرة يونانية للأمير الذى أصبح فيما بعد أونو الثانى . وتتلون كتابات هذا المؤرخ وفقا لعداواته وولاءاته وتعصبه الشخصى ( ضد اليونان مثلا ) ، ولكنها مع ذلك من أهم المراجع .  
( الترجمة )

الرومانية التي كانت قد أصبحت مملكة القوط في أسبانيا ، وأخضعها . ولم تكن جزر البحر المتوسط بآمن من سفنهم الحربية . ومن محطاتهم البحرية البعيدة ، من موانئ جزيرة كريت وقلاع كيليكيا كان الأمراء المواليون أو الثائرون يوجهون الاهانات للامبراطور وعاصمته . وقد أعيد تنظيم الولايات التي بقيت خاضعة للأباطرة ، وطبعت بطابع جديد . فحل مكان اختصاصات الرؤساء والقناصل جديد . فحل مكان اختصاصات الرؤساء والقناصل والكوتات ، « نظام الولايات Themes » أو الحكومات العسكرية التي سادت زمن خلفاء هرقل والتي وصفها قلم الكاتب الملكي . ان منشأ الولايات التسع والعشرين ( اثنتى عشرة في أوروبا وسبع عشرة في آسيا ) غامض ، واشتقاق الكلمة مشكوك فيه أو نزوى . وكانت حدود الولايات تعسفية وغير مستقرة . ولكن بعض الأسماء الخاصة التي قد تكون أشد غرابة في آذاتنا اشتقت من خصائص وصفات الفرق التي احتفظ بها على نفقة الأجزاء المختلفة لحراستها . ذلك أن غرور أمراء اليونان أمسك في أعظم لهفة بطيف الفتوحات وبذكرى الممتلكات الضائعة . فشأت ميزوبوتاميا جديدة على الشاطئ الغربى للفرات . ونقل اسم صقلية وحاكمها الى شريط ضيق في كالابريا ، وارتقت قطعة صغيرة من دوقية بنفنتوم Beneventum الى مركز ولاية لومبارديا ولقبها . وعند انهيار الامبراطورية العربية كان من الممكن لخلفاء قسطنطين أن يطلقوا العنان لكبريائهم في فتوحات أكثر استقرارا ، فان انتصارات تقفور ، ويوحنا جيمسكى وباسيليوس الثانى أحييت أمجاد الاسم الرومانى ووسعت من حدوده . فعادت ولاية كيليكيا وأنطاكية العاصمة وجزيرتا كريت وقبرص الى الولاء للمسيح والقيصر ،

وضم ثلث ايطاليا الى عرش الامبراطورية ، ودمرت مملكة بلغاريا ، وامتد سلطان آخر ملوك الأسرة المقدونية من منبع دجلة الى أرباض رومه . وفي القرن الحادى عشر تلبد الجو بظهور أعداء جدد وحدثت نكبات جديدة . فاكسح المغامرون من النورمان البقية الباقية من ايطاليا ، كما اقتطع الفاتحون الأتراك جميع الولايات الآسيوية تقريبا من جسم الامبراطورية الرومانية . وبعد هذه الخسائر ظل أباطرة الأسرة الكومنينية يحكمون من الدانوب الى الموره . ومن بلجراد الى نيقيا وطرابزون وهرمياندر المتعرج . وكانت الولايات الشاسعة ، وهى ولايات تراقيا ومقدونية واليونان تخضع لصولجانهم . واقرن امتلاك قبرص ورودس وكريت بامتلاك الجزر الخمسين فى بحر ايجيه أو البحر المقدس . وفقت بقايا امبراطوريتهم مساحة أكبر مملكة فى أوربا .

## ثروة الإمبراطورية ومصنوعاتها وإيراداتها

ربما كان من حق هؤلاء الأمراء أن يقرروا فى عزة وكرامة وصدق أنهم وحدهم . من بين ملوك الدول المسيحية الأوربية ، تملكوا أعظم مدينة وأوفر إيرادات وأكثر الولايات ازدهارا وسكانا . وقد تدهورت مدن الغرب وسقطت باضحلال الامبراطورية وسقوطها . وما كانت أطلال رومه أو الأسوار المبنية من الطمى والأكواخ الخشبية وأرباض لندن وباريس الضيقة، تقول ما كانت هذه كلها لتهىء اللاتينى الغرب لكى يتأمل موقع القسطنطينية واتساعها ، وقصورها وكنائسها الفخمة وفنون وترف شعب لا يحصى عديده . وربما اجتذبت كنوزها

الفرس والبلغار والعرب والروس الى المغامرة بغزوها ، غير أن قوتها  
العذرية البكر صدت ، ولا تزال تبشر بأن تصد ، مثل هذه المغامرة ،  
ولكن الولايات كانت أقل حظا وأقل منعة . ويندر أن نجد قلة  
من المناطق والمدن لم يدنسها بعض المتبررين المتوحشين الذين  
يتحرقون الى السلب والنهب ، لأنهم لا يأملون في امتلاك شيء . ومنذ  
زمن جستيان بدأت الامبراطورية الشرقية في الانحدار عن مستواها  
السابق . وكاب قوى التدمير فيها أشد فعالية من قوى الاصلاح .  
وزادت مساوئ الطغيان المزمنة في الحكومة والكنيسة من مرارة  
كوارث الحرب . فكثيرا ما جرد وزراء الملك الأسير الذي كان قد  
هرب من أيدي المتبررين ، وأودعوه السجن ، وقد ساعدت الخرافات  
اليونانية على استرخاء الذهن في الصلاة ونحول الجسم وذبوله  
بالصيام . وعظمت كثرة الأديرة والأعياد كثيرا من الأيدي العاملة ،  
وأضاعت كثيرا من الأيام ، مما كان يمكن استخدامه والانتفاع به في  
الأغراض الدنيوية ، ومع ذلك فإن رعايا الامبراطورية البيزنطية كانوا  
لا يزالون أكثر الأمم مهارة وجدا . وقد باركت الطبيعة بلادهم  
فمنحتهم مزايا التربة والمناخ والموقع . وكانت طباع الصبر والمسألة  
فيهم ، أكثر نفعا لتشجيع الفنون وحياتها من الروح الحربية وفوضى  
الاقطاع في أوروبا . وقد زادت الكوارث التي حلت بالولايات التي  
فقدت دون أمل في استرجاعها ، من سكان الولايات التي بقيت تابعة  
للإمبراطورية ، ومن ثرائها ، حيث تسلس الكاثوليك في سوريا ومصر  
وأفريقية هربا من بير الخلفاء ، وهرعوا الى ولاء أمرائهم وصحبة  
أخوانهم . وحملوا معهم ثرواتهم المنقولة التي أفلتت من يد الظالمين ،



فلطفت من قسوة اغترابهم . وتلقفت القسطنطينية في أحضانها التجارة التي أدبرت عن الأسكندرية وصور . كما أكرمت وفادة زعماء أرمينيا وسكيثيا الذين فروا من الاضطهاد العدائي أو الدينى . وتشجع أتباعهم على تشييد مدن جديدة وزراعة الأراضى القاحلة . وقد احتفظ كثير من الأماكن في كل من أوروبا وآسيا بأسماء هذه المستعمرات القومية أو عاداتها أو على الأقل ذكرها . بل إن القبائل المنبرية التي كانت قد استقرت بقوة السلاح داخل حدود الامبراطورية استردت شيئاً فشيئاً قوانين الكنيسة والدولة . وطالما بقوا منفصلين عن اليونانيين ، قدمت ذريتهم طرازا من الجنود الأمناء المطيعين . وإذا كان لدينا مادة تكفى لاستعراض الولايات التسع والعشرين في الامبراطورية البيزنطية ، فقد يكتفى حيناً للاستطلاع ببعض الأمثلة المنتقاة . ومن حسن الحظ أن أنصح ضوء هو ذلك الذى قدر له أن يلقى على الولاية التي تثير أعظم اهتمام ، فإن اسم البلوبونيز ( شبه جزيرة المورة ) سوف يثير انتباه قارئ الآداب الكلاسيكية .

وفى وقت مبكر يرجع الى القرن الثامن ، أثناء حكم معطى الأيقونات ( الصور المقدسة ) الذى ساد فيه الاضطراب ، انتشرت فى بلاد اليونان حتى وفى المورة ، بعض العصابات السكلافونية التي سبقت أعلام البلغار الملكية . وكان أجنب العصر القديم من أمثال كادموس وداناوس Danaus وبيلويس Pelops قد غرسوا فى هذه التربة الخصبة بذور السياسة والعلم ، ولكن برايرة الشمال اقتلعوا ما تبقى من جذورها الذابلة الواهنة . وقد غير هذا الغزو من الاقليم والسكان ، ودنس الدم اليونانى . ودمغ أعظم نبلاء

المورة كبرياء بأسماء الأجانب والعبيد ، وقد طهر الأمراء الذين جاءوا بعد ذلك الى حد ما ، البلاد من المتبررين بجدهم واجتهادهم ، أما البقية المتواضعة منهم فقد أقسمت يمين الطاعة وفرضت عليها الجزية والخدمة العسكرية . وما أكثر ما جددوا هذه المواثيق ، وما أكثر ما حشوا فيها . وحدث أن اشترك في حصار باتراس ، في اتفاق غريب ، السكاليون في المورة ، وعرب أفريقية . وفي آخر مرحلة من مراحل محنة المواطنين رفع من شجاعتهم ما وقر في أذهانهم من خيال ورع ، باقتراب والى كورته ، ومن ثم شنوا هجوما جريئا حالفهم فيه التوفيق . فرحل الأجانب على سفنهم وخضع الثوار ، ونسب مجد ذلك اليوم الى طيف أو رجل غريب حارب في مقدمة الصفوف في زى القديس أندرو ( أندراوس ) الرسول . فزين ضريحه الذى يحوى رفاقه بأسلاب النصر . ونذر الجنس المقهور نفسه الى الأبد لخدمة كنيسة باتراس الجامعة وأتباعها . وكثيرا ما اضطرب السلام في شبه الجزيرة بقيام قبيلتين من السكلافيين بالثورة بالقرب من هيلوس ولقديمون Lacedaemon . وعابوا في بعض الأحيان ضعف الحكومة البيزنطية ، وفي أحيان أخرى قاوموا ظلمها ، حتى انتزع في النهاية اقتراب اخوانهم والمعادين لهم قرارا بابويا حدد حقوق وواجبات العزارين Ezzerites والميلنجيين Milengi وحددت الجزية السنوية التى فرضت عليهم بألف ومائتى قطعة من الذهب . ومن بين هؤلاء الغرياء ميز ليوتبراند مؤرخ الامبراطور ومؤلف الجغرافية ، بدقة جنبا محليا ، ربما كان أصيلا ، وربما كان ينتسب الى حد ما برباطة الدم ، الى الهيلوت Helots ( أرقاء اسبرطة القديمة )

الذين أودوا كثيرا . وقد حرر كرم الرومان ، ولا سيما أوغسطس ، المدن الساحلية من سلطان اسبرطة . وقد رفع بقاء هذه الميزة من شأنهم وشرفهم بلقب Eleuthero أو « اللاكونيين الأحرار » . وفي زمن قسطنطين يورفيروجينيتوس أطلق عليهم اسم ماينوتيس Mainotes وتحت هذا الاسم دنسوا ادعاءهم الحرية بما اقترفوا من نهب قاس وحشى لكل من تحطمت سفينته على شواطئهم الصخرية ، وقد امتدت رقعتهم التى انعدمت فيها الجيوب وكثر فيها الزيتون الى رأس ماليا . وقد قبلوا رئيسا أو أميرا من الوالى البيزنطى . وكانت الجزية القليلة وقدرها أربعمائة قطعة من الذهب ، رمز حصانتهم أكثر منها رمز تبعيتهم . وقد تمسك أحرار لاكونيا بطابع الرومان والتزموا بديانة اليونان طويلا . قد حملهم حماس الامبراطور باسيليوس على التعميد وفقا لديانة المسيح . ولكن مذابح الالهة فينوس ونبتيون بقيت موضع تبجيل هؤلاء الأتباع الرفيعين خمسمائة سنة بعد مصادرتها أو تحريمها فى العالم الرومانى . وقد أحصى فى ولاية المورة أربعون مدينة كانت لا تزال قائمة . ومن الممكن أن توضع حالة تدهور اسبرطة وأرجوس وكورنث فى القرن العاشر فى مركز وسط بين بهائها القديم وخرابها الآن . كان واجب الخدمة العسكرية الشخصى أو بوساطة نائب مفروضا على أراضى الولاية أو قطائعها . وحدد مبلغ خمس قطع من الذهب ضريبة رأس على كل مستأجر ثرى . واشترك فى ضريبة الرأس هذه أفراد أقل ثراء . وعند اعلان حرب على ايطاليا أعفى أهل المورة من الاشتراك فيها مقابل تقديم هبة اختيارية مقدارها مائة رطل من الذهب ( أربعة آلاف جنيه

استرليني) وألف حصان بأسلحتها وعدتها . وكانت الكنائس والأديرة تقدم حصتها . فابتز ربح حرام نتيجة بيع المناصب الكنسية ، وفرض على أسقف ليوكاديا المعوز أن يكون مسئولا عن منحة قدرها مائة قطعة من الذهب .

كانت ثروة الولاية وحصيلة الإيرادات تعتمد على انتاج التجارة والصناعة ، وكان انتاجا جيدا ووفيرا . ويمكن أن تتبع معالم السياسة الكريمة في قانون يعنى بحارة المورة وصناع الورق من الرق والثياب الأرجوانية . من دفع ضريبة الرأس ، وهذا الامتياز يمكن أن يطبق أو أن يمتد من قبيل الانصاف الى صناع الكتان والصوف ولا سيما صناع الحرير . وقد ازدهرت صناعة الكتان والصوف في بلاد اليونان منذ زمن هوميروس . أما الصناعة الأخيرة ، صناعة الحرير ، فقد ترجع الى عصر مبكر هو عصر جستنيان . وكانت هذه الفنون التي مارسها أهل كورنث وطيبة وأرجوس موردا للرزق والعمل لعديد من الناس ، من الرجال والنساء والأطفال الذين وزعوا تبعا لسنهم وقوتهم . وعلى حين كان كثيرون منهم عبيدا أرقاء لأفراد من الناس ، فإن سادتهم الذين أداروا العمل وتمنعوا بالربح كانوا من طبقات حرة نبيلة . ومما لا ريب فيه أن الهدايا التي قدمتها سيدة غنية كريمة من المورة الى الامبراطور باسيليوس ، ابنها بالتبني ، كانت من نسج اليونان . وقدمت دانيليس Danielis بساطا من الصوف الناعم حاكى في رسمه نمط ذيل الطاووس المرقط . وكانت مساحته تكفى لفرش أرضية كنيسة جديدة ، شيدت تكريما « للآب والابن والروح القدس » ، وميكائيل رأس الملائكة والنبي اليشع ، كما قدمت

ستمائة قطعة من الحرير والتيل ذات فوائد وأوصاف مختلفة . وقد صبغت القطع الحريرية بصباغة مدينة صور كما زينت بأشغال الابر . وقد بلغ التيل درجة من الدقة بحيث كان يمكن أن تطوى قطعة كاملة منه وتوضع في جوف عصا . ويميز مؤرخ صقلي في وصفه للمصنوعات اليونانية أثمانها تبعا لوزن الحرير وجودته ودقة نسيجه وجمال ألوانه ، وذوق تطريزه ومواده . وكان المألوف أن خيطا واحدا أو خيطا مزدوجا أو خيطا مثلثا كاف في النسيج العادي ، ولكن اجتماع ستة خيوط يكون قطعة أمتن نسيجا وأعلى ثمنا . ومن بين الألوان يشيد المؤرخ متكلنا الفصاحة بوهج اللون القرمزي الناري أو بهاء الأخضر الرقيق . وقد طرز الوشي اما بالحرير أو الذهب . وامنازت الزخرفة الجميلة التي تحاكي الأزهار على زخرفة أكثر بساطة تتألف من خطوط ودوائر . وكثيرا ما تلالأت الملابس التي تصنع للقصر أو للمذبح بالأحجار الكريمة ، كما نظمت الصور والأشكال عليها في عقود من لآلى الشرق . وكانت اليونان وحدها حتى القرن الثاني عشر من بين جميع الأقطار المسيحية في أوربا ، تمتلك تلك الحشرة التي علمتها الطبيعة ، كما كان لديها أولئك الصناع الذين دربهم الفن على توفير أسباب هذا الترف الرشيق . ولكن هذا السر أخذته العرب نتيجة حذقهم وجدهم . وأنف خلفاء المشرق والمغرب أن يأخذوا من الكفار أثاثهم وثيابهم . ففي أسبانيا اشتهرت مدينتا ألميريا ولشبونة بصنع الحرير واستعماله وربما تصديره . وكان النورمان أول من أدخل الحرير في صقلية . وهجرة التجارة هذه تميز انتصار روجر ( ملك صقلية النورمانى ) في العزوف عن الأعمال العدوانية العادية

العقيدة في كل عصر . وبعد نهب كورنث و أثينا وطيبة أبحر نوابه بعدد من النساجين والصناع من كلا الجنسين ، وهذا رمز للنصر يجلب المجد لصاحبه والثناء على الامبراطور اليوناني . وكان ملك صقلية يدرك قيمة هذه الهدية . وعند إعادة الأسرى استثنى فقط صناع طيبة وكورنث من الذكور والاناث الذين كانوا يعملون ، كما يقول المؤرخ البيزنطي ، نحت امرة سيد متبربر ، شأن الأرترين الذين عملوا قديما في خدمة دارا . وأقيم بناء فخم في قصر بالرمو لهذه الجالية المجدة . وقام أبناؤهم وتلاميذهم بنشر هذا الفن استجابة للطلب المتزايد في العالم الغربي . ويمكن أن نرجع اضمحلال أنوال صقلية الى اضطرابات والى منافسة المدن الايطالية . وفي عام ١٣١٤ اخضرت لوكا Lucca وحدها ، من بين أخواتها من الجمهوريات ، هذه الصناعة المربحة وأدت ثورة داخلية الى تشتيت الصناع ، فنزحوا الى فلورنسة وبولونا والبندقية وميلان ، بل الى أفطسار تقع وراء جبال الألب . وبعد مرور ثلاث عشرة سنة على هذا الحادث نصت قوانين مودينا على غرس شجر التوت وعلى تنظيم المكوس المقررة على الحرير الخام . ويلاحظ أن الأجزاء الشمالية أقل ملاءمة لتربية دودة القز . ولكن انتاج ايطاليا والصين أثرى صناعة فرنسا وانجلترا ، وزودها بكل ما تحتاج اليه من الحرير .

ولا مفر من تكرار الشكوى من أن المذكرات الهزيلة الغامضة التي كتبت في ذلك الوقت لا تعطينا تقديرا جيدا لضرائب الامبراطورية اليونانية ، ولا لايراداتها ولا لمواردها . فمن كل ولاية في أوروبا وآسيا صبت نهيرات من الذهب والفضة في المستودع الامبراطوري فيضا

موسميا وفيرا . وزاد في عظمة القسطنطينية نسيبها انفصال  
الفصون من الجذع . وقصرت قواعد الطغيان الدولة على العاصمة ،  
والعاصمة على القصر ، والقصر على شخص الامبراطور . زار سائح  
يهودي في القرن الثاني عشر المشرق ، وذهل اعجابا بالثراء البيزنطي .  
فيقول بنيامين من بلدة توديلا : « الى هنا ، الى عروس المدائن ، يؤتى  
سنويا بما يجي من الامبراطورية اليونانية . فترى القلاع العالية  
ملئية بالخزائن النفيسة من الحرير والثياب الأرجوانية والذهب . ويقال  
ان القسطنطينية قدمت كل يوم الى ملكها عشرين ألف قطعة من  
الذهب ، تجبي من الحوانيت والحانات والأسواق . ومن التجار  
الذين يقدون من فارس ومصر ، ومن روسيا والمجر ، ومن ايطاليا  
وأسبانيا ، ليزوروا العاصمة بطريق البحر أو البر » . ويعتبر اليهودي  
بلا ريب حجة وثقة في كل الأمور المالية . ولكن لما كانت الثلثائة  
 وخمسة وستون يوما تنتج ايرادا سنويا يزيد على سبعة ملايين من  
الجنيهات الانجليزية ، فان رغبة تراودنى ، على الأقل ، في انقاص  
أيام الأعياد الكثيرة في التقويم اليونانى . وتعطى ضخامة الكنز الذى  
ادخرته تبودورا وباسيليوس الثانى فكرة باهرة ، ولكنها غير محددة  
عن مواردها ومصادرها . وحاولت أم ميكائيل قبل أن تعتزل في  
دير ، أن تحد أو تفضح اسراف ابنها العاق ببيان أمين عادل عن  
الثروة التى ورثها ، ومقدارها مائة ألف وتسعة آلاف رطل من الذهب  
وثلثمائة ألف رطل من الفضة ، وهى حصيلة حسن تديرها هى وزوجها  
الراحل . ولا يقل بخل باسيليوس عن شجاعته وحظه الحسن . فقد  
دفعت مرتبات جيوشه المظفرة ومكافآتها دون أن يمس كنز يقدر

بمائتي رطل من الذهب ( حوالى ثمانية ملايين من الجنيهات  
الاسترلينية ) خبأه فى مقصورات تحت الأرض فى القصر . وتأبى  
السياسة الحربية علما وعملا مثل هذا الاكتناز للثروة . فنحن أكثر  
ميلا الى حساب الثروة القومية فى ضوء حسن استخدام الأموال  
العامة واساءة استخدامها . ولكن آراء القدامى لا يزال يعتصم بها  
ملك يرهب أعداؤه جانبه ، وجمهورية لها احترامها عند حلفائها .  
وقد بلغ كل منهما الغاية التى ينشدها من القوة الحربية والهدوء  
الداخلى .

### القصر الامبراطورى

ومهما يكن من أمر الأشياء التى تحتاجها الدولة للاستهلاك فى  
الحاضر ، أو يحتفظ بها للاستعمال فى المستقبل ، فقد كان أول وأقدس  
مطلب هو توفير أبهة الامبراطور ولهوه . وحكمته وحدها هى التى  
تحدد مدى نفقاته الشخصية . وكان أمراء القسطنطينية بعيدين كل  
البعد عن البساطة الطبيعية ، غير أنه ، مع كراهة الفصول ، حفزهم حسن  
الذوق أو طراز العصر الى الالتجاء الى جو أبقى من دخان العاصمة  
وصخبها . فقد تمتعوا حقا ، أو تظاهروا بالتمتع ، بعيد قطاف العنب  
فى الريف . وأثلج صدورهم فى وقت فراغهم رياضة القنص ، وقطعوا  
وقتهم فى صيد السمك ، وهو أكثر هدوءا ، وحمتهم الظلال من  
الشمس فى قيظ الصيف ، وأنعشهم النسيم العليل الذى يهب من  
البحر . وغطت دورهم الريفية الفخمة الشسواطىء والجزر فى أوربا  
 وآسيا . وبدلا من ذلك الفن الذى يعمل فى استحياء ويجاهد سرا فى



أن يخفى نفسه ، ويزوق المناظر الطبيعية ، عملت الأبنية الرخامية في حدائقهم على عرض ثروة الأمير وجهد المهندس . وقد جعلت صروف الثورات والمصادرات المتتالية من الامبراطور مالكا لعدد كبير من الدور الفخمة في العاصمة وضواحيها . وقد خصصت اثنتا عشرة منها لوزراء الدولة . أما القصر الكبير ، المقر الرئيسى للامبراطور ، فقد ثبت في مكانه نفسه أحد عشر قرنا بين حلبة السباق وكنيسة أيا صوفيا والحدائق التى تدرجت شرفاتها العديدة هابطة الى شواطئ بحر مرمرة . كان البناء القديم الذى شيده قسطنطين الأول نموذجا لقصور رومه أو منافسا لها ، ولكن التحسينات التى أدخلها تدريجا خلفاؤه ، تطلعت الى أن تنافس عجائب العالم القديم . وفى القرن العاشر أثار القصر البيزنطى اعجاب اللاتين على الأفل ، وذلك بتفوقه الذى لا ريب فيه فى المتانة والحجم والعظمة . ولكن جهود مثل هذا العدد الكبير من السنين وكنوزها قد أنتجت كومة شاسعة غير منتظمة . وقد تميز كل بناء على حدة بطابع زمانه ومؤسسه . وقد يبرر ضيق المكان فى وقت ما أن يهدم الامبراطور — وربما كان يخفى رضاه — ما شيده أسلافه . وقد سمح اقتصاد الامبراطور ثيوفيلوس بمجال أكثر حرية وسعة فى الترف والبهاء الداخلى . وقدم سفير مقرب ، وكان قد أدهش العباسيين بكبريائه وكرمه ، قدم بعد عودته ، نموذجا لقصر كان خليفة بغداد قد شيده حديثا على شواطئ الدجلة . فحوكى النموذج فى التو وزيد عليه . وأضيفت الى مباني ثيوفيلوس الجديدة بعض الحدائق وخمس كنائس . وقد امتازت احدى هذه الكنائس بحجمها وجمالها ، وكان يعلوها ثلاث قباب ، وارتفع السقف ، وهو من نحاس

مذهب ، على أعمدة من الرخام الايطالى ، ورصعت الجدران برخام مختلف الألوان . ويواجه هذه الكنيسة رواق نصف دائرى على هيئة حرف السين اليونانى ويحمل اسسه . ويقوم على خمسة عشر عمودا من رخام فريجيا . وشيدت الأقبية تحت الأرض على النسق نفسه . وزين الميدان أمام الرواق بنافورة ، وازدان الحوض من جميع جوانبه بصحائف الفضة . وفى أول كل فصل امتلأ الحوض لا بالماء ، وإنما بأجمل الفواكه التى تركت للجماهير لادخال السرور على قلب الأمير . وقد تمتع بهذا المنظر الصاحب من فوق عرش تلالاً بالذهب والجواهر ، رفعه درج من الرخام الى مستوى شرفة عالية . وجلس تحت العرش الضباط والحرس والحكام وزعماء فرق السيرك . أما الدرجات الدنيا من السلم فقد احتلها الشعب ، واحتشد فى أسفل السلم أعداد غفيرة من الراقصين والمغنين والممثلين الايسائيين . وأحاطت بالميدان دار العدالة والترسانة وأماكن العمل واللهو المختلفة . وسميت الغرفة الأرجوانية بهذا الاسم لأن الامبراطورة نفسها كانت توزع فيها كل عام بيدها ، العباءات القرمزية والأرجوانية . وحوى القصر عددا كبيرا من الأجنحة توائم الفصول المختلفة ، وازدانت بالرخام السماقى والرسوم وأعمال النحت والفسيفساء مع اسراف فى الذهب والفضة والأحجار الثمينة . واستغل الامبراطور فى بلوغ مستوى الفخامة التى تخيلها ، مهارة من جاد به عصره من فنانيين ومن صبرهم . ولكن كان الذوق الآثينى لا بد أن يزدري هذه الجهود التافهة الكبيرة النفقة ، من ذلك شجرة من الذهب تظل أغصانها وأوراقها سريا كبيرا من الطير تفرد أنعاما مصطنعة ، وأسدان من الذهب الخالص الطبيعى يحملقان ويزاران كما يفعل أقرانهما فى الغابة . ولم يكن خلفاء ثيوفيليوس من أباطرة الأسرتين

البازيلية والكومينية أقل شوقا الى تخليد ذكرى اقامتهم في هذا القصر . وقد شرف أعظم أجزاء القصر فخامة وبهاء باسم « المائدة الذهبية » وتلقى أثرياء اليونان ونبلاؤها في تواضع يليق بهم الى محاكاة مليكهم ، فكانوا اذا مروا بالطرقات في ثيابهم الحريرية المزركشة منتظين جيادهم أخطأهم الأطفال فظنوه ملوكا . وثمة سيدة من الموره كانت تعتر بذكريات طفولة باسيلوس المقدوني ، وحضرها حنانها ، أو غرورها الى أن ترى عظمة ابنها بالتبني ، وقد أبى عليها سنها أو كسلها تحمل متاعب ركوب الخيل أو العربات في قطع خمسمائة ميل من باتراس الى القسطنطينية . فكان هودج دانيليس ، أو محفطها الناعمة ، محمولة على أكتاف عشرة من العبيد الأشداء ، ولما كان استبدالهم يتم على مسافات قصيرة ، فقد وقع الاختيار على فرقة مكونة من ثلثمائة من الرقيق للقيام بهذا العمل . وقد استقبلت في القصر البيزنطي بها يليق بجلال النبوة وكرامة الملكة . ومهما تكن مصادر ثرائها ، فإن هداياها كانت تليق بمقام الملك . وقد وصفنا فيما سبق مصنوعات الموره الدقيقة العجيبة من الكتمان والحريير والصوف . وكانت هديتها التي لاقت أعظم قبول تتألف من ثلثمائة شاب وسيم منهم مائة من الخصيان . ويقول المؤرخ : « لأنها لم تكن تجهل أن هواء القصر يلائم أمثال تلك الحشرات أكثر من ملاءمة ملبة الراعى لذباب الصيف » . وطوال حياتها وهبت ليو ، ابن باسيلوس ، معظم ضياعها في الموره ، كما اختارته في وصيتها وريثا وحيدا لها . وبعد تنفيذ وصاياها ضمت الى ممتلكات الامبراطور ثمانون فيلا أو مزرعة وأعتق السيد الجسديد ثلاثة آلاف من رقيق دانيليس وتلقهم الى ساحل ايطاليا لانشاء مستعمرة منهم هناك . ومن ثراء هذه السيدة العادية

يمكن أن تقدر ثروة الأباطرة وجلالهم . ولكن استمتاعنا محصور في دائرة ضيقة . ومهما تكن قيمة ترف الحياة ، فإن الفرد المطلق التصرف في ثروته يستطيع أن ينعم بهذا الترف نعيما أكثر براءة وأمنا ، مما يفعل الأمين على الأموال العامة .

وفي ظل الحكم المطلق الذي يسوى بين امتيازات الرفيع والوضيع ، يكون الملك هو المنبع الوحيد للشرف . ويتوقف مركز الفرد في القصر وفي الامبراطورية على الألقاب والمناصب التي يمنحها أو يسلبها الملك بإرادته المطلقة . وكان « قيصر » ، طوال ألف سنة من عصر فسبازيان الى زمن الكسيوس كومنينوس ، هو الشخص الثاني ، أو على الأقل في الدرجة الثانية ، بعد أن أضفى ، في حرية أوسع ، لقب أوغسطس ، وهو أسمى الألقاب ، على أبناء الملك الذي يتربع في دست الحكم وعلى اخوته . ولكي يراوغ ، دون أن ينكث عهدا قطعه على نفسه مع حليف قوى ، هو زوج أخته . ولكي يكافئ ورع أخيه اسحق دون أن يخلق لنفسه ندا ، أدخل الكسيوس الماكر منصبا جديدا عاليا . وقد مكنته المرونة السعيدة للغة اليونانية من أن يؤلف بين اسمي أوغسطس الامبراطور ( Sebastos and Autocrator ) وأخرج مزجهما اللقب الرنان : سيباستوكراتور Sebastocrator وبهذا اللقب سما فوق مرتبة « قيصر » درجة واحدة من درجات العرش : ورددت الابتهاجات العامة اسمه ، ولم يميزه عن « الملك » غير بعض الزخارف الغريبة التي تزين الرأس والقدمين ، فكان الامبراطور وحده ، هو صاحب الحق في ارتداء الحذاء المرتفع ذي اللون الأرجواني أو الأحمر ، والتاج المحبوك على طراز ملوك فارس . وهو قلنسوة عالية على شكل هرم من القماش

أو الحرير تكاد تخفى تحت عدد كبير من اللآلئ والجواهر . ويتكون التاج من دائرة أفقية يعلوها فوسان من الذهب ، وفي القمة أى فى نقطة تقاطعهما ، كرة أو صليب . كما يتدلى منها خيطان أو هذبان من اللؤلؤ على كلا الخدين . وبدلاً من اللون الأحمر ، كان لون الحذاء المرتفع الذى يلبسه « السياستوكراتور » أخضر . ووزعت الجواهر الثمينة باقتصاد أكبر على أكاليهم المفتوحة أو تيجانهم . وإلى جانب « القيصر ، وفى مرتبة أقل منه ابتدع خيال الكسيوس Protosebastos و Panhypersebastos ما قد يرضى الأذن اليونانية مغزاهما وجرسهما . وهما ينطويان على سمو وأفضلية على اسم « أوغسطس » البسيط . فانحط ، بذلك أول لقب مقدس حملة أمير روماني ، ليخلع على الأقارب والخدم فى البلاط البيزنطى . وتمتدح ابنة « الكسيوس » فى سرور وحنان هذا التدرج الماهر فى مراتب الطموح والمجد ، ولكن المهارة فى خلق الألفاظ شئ مستطاع لأحقر القدرات ، وقد أثرى بسهولة هذا المعجم الأجوف بسبب كبرياء خلفائه . فمنحوا ذوى الحظوة من أبنائهم وأخوتهم لقباً أكثر سمواً ، هو لورد أو المستبد (Despot) وميز حامله بشعارات جديدة وامتيازات جديدة ، وجاء ترتيبه مباشرة بعد شخص الامبراطور نفسه . وهذه الألقاب الخمسة وهى (١) دسپوت (٢) سيبا ستوكراتور ، و (٣) قيصر و (٤) بانهيپر سياستوس ، و (٥) بروتوسياستوس ، اقتصرت عادة على أقارب الأباطرة من جهة الدم ، بوصفهم منبثقين من صاحب الجلالة . ولكن لما كانوا لا يقومون بإداء أى عمل منتظم ، فقد كان وجودهم عبثاً ونفوذهم مزعزعا . ولكن فى كل مملكة يجب أن يتقاسم وزراء القصر والخزانة والجيش

والأسطول سلطات الحكومة الأساسية وأن يضطلعوا بأعبائها . ومن الممكن أن يوجد اختلاف في الألقاب وحدها ، وعلى كـر العصور انحط أصحاب ألقاب Count و Prefect و Praetor و Quaestor دون أن يشعر أحد وسما خدمهم فوق رؤوسهم الى أعلى مراتب الشرف في الدولة .

١ - ففي مملكة يكون الأمير فيها هو كل شيء تعتبر ادارة شئون القصر ومراسمه أكثر الادارات اعتبارا . فالكوروبالاتا Curopalata الذي اشتهر في عصر جستنيان حل محله بروتوفستيارى Protovestiare وكانت وظيفته مقصورة أولا على حفظ ثياب الامبراطور . ومن هنا امتد نفوذه على عدد من خدم الأبهة والترف . وكانت له الصدارة وهو مسك بصولجانه الفضى في المقابلات الخاصة والعامة .

٢ - في النظام القديم الذي وضعه قسطنطين كان لقب Logothete أو المحاسب يطلق على من يتسلم الأموال . وكان كبار الموظفين يسمون « لوحوثيتى » الأملاك ، والبريد ، والجيش ، والخزانة الخاصة والعامة ، ويشبه اللوجوثيتى العظيم ، وهو الحارس الأعلى للقوانين والايادات ووزير الخزانة Chancellor في الممالك اللاتينية . وكانت عينه اليقظه تراقب الادارة المدنية . وكان يعاونه . مع الخضوع لسلطانه ، الابارخ Eparch أو محافظ المدينة ، والأمين الأول ، وحاملو الختم الخاص ، والسجلات ، وحامل العبر الأرجوانى أو الأحمر ، الذى كان مخصصا للتوقيع المقدس . توقيع الامبراطور وحده . وكان يطلق على من يقدم السفراء الأجانب ويترجم لهم ، لقب القواص العظيم Chiauss والترجمان Dragoman ، وهما لفظان من أصل تركى وما زالا من الإلفاظ المألوفة في الباب العالى .

٣ — ومن سلك الخدمة المتواضعة في الحرس ارتقى الخدم  
أو الحجاب « Domestics » ، دون أن يحسوا ، الى مراتب القواد ،  
وكثيرا ما كانت الولايات الحربية في الشرق والغرب وكتائب أوروبا  
منقسمة بعضها على بعض ، حتى أسندت في النهاية الى الحجاب الأعظم  
قيادة القوات البرية قيادة عامة مطلقة . وكان على البروتوستراتور  
Protostrator بحكم مهامه الأصلية أن يساعد الامبراطور عندما يمتطى  
جواده ، ثم أصبح يوما بعد يوم نائب « الحجاب الأعظم » في  
المبدان ، ثم امتد سلطانه حتى شمل الاصطبلات والخيالة وحاشية  
الملك التي ترافقه للقنص أو الصيد بالباز . وكان الستراتوبيدارخ  
Stratopedarch هو كبير قضاة المسكر ، وكان البروثوسپاتيرى  
Protospathaire يرأس الحرس ، وكان الكونستابل والأيتريارخ العظيم  
Aeteriarch والاكوليت Acolyth على الترتيب هم رؤساء الفرقة  
والبرابرة والفارانجى أو الأنجليز ، أعنى المرتزة الأجانب الذى كونوا  
بعد انهيار الروح القومية عصب الجيوش البيزنطية .

٤ — كانت القوات البحرية تحت قيادة الدوق العظيم ، وفي أثناء  
غيابه كانت القوات تحت امرة نائبه العظيم Drungaire . واذا غاب  
حل محله الأمير أو الاميرال وهو اسم من أصل عربى . ولكنه دخل  
في جميع اللغات الأوروبية الحديثة . ومن هؤلاء ومن كثيرين غيرهم  
— من العبت احصاؤهم — تكونت طوائف الموظفين المدنيين  
والعسكريين . وقد أنفق في تحديد مراتبهم ومرتباتهم ، وأزيائهم ،  
وألقابهم والتحيات المتبادلة فيما بينهم ، وأسبقية كل منهم ، جهد  
دقيق أكثر مما ينفق في دعم دستور أمة حرة . وكاد هذا النظام أن

يصل الى ذروة الكمال ، عندما دفن الى الأبد هذا البناء الذى لا أساس له ، هذا الأثر من آثار الكبرياء والعبودية تحت أطلال الامبراطورية .

ان خشيتنا من أناس لا يختلفون عنا في طبيعتهم البشرية وتملقنا اياهم ، تقول ان هذا التملق وتلك الخشية قد دنستا واتهكنا حرمة أسمى الألقاب وأكثر الوقفات وداعة وتواضعا وخشوعا ، مما لا يجيزه التقى والورع الا ل مقام الله سبحانه وتعالى . وقد نقل دقلديانوس عن العبودية الفارسية طريقة السجود على الأرض وتقييل أقدام الامبراطور . واستمرت وتضخمت حتى آخر عصور الملكية اليونانية . وباستثناء أيام الآحاد ، التى أبطلت فيها هذه المراسم لأسباب دينية ، فرض هذا الأسلوب المهين من التحية على جميع من يدخل الى الحضرة الملكية من أمراء يلبسون التيجان والحلل الأرجوانية ، وسفراء يمثلون ملوكا مستقلين ، مثل خلفاء آسيا ومصر وأسبانيا وملوك فرنسا وإيطاليا وأباطرة رومه القديمة من اللاتين . وقد أظهر ليوتبراند أسقف كريمونا فيما قام به من أعمال ، روح الفرنجة الحرة ، وحافظ على مقام سيده أوتو . ولكن إخلاصه لا يستطيع أن يخفى المذلة التى لحقته فى أول مرة مثل فيها بين يدى الامبراطور . فعندما اقترب من العرش أخذت طيور الشجرة الذهبية تصدح بأنعامها ، وصاحبها زئير الأسد من المصنوعين من الذهب . وأجبر ليوتبراند واثنان معه على الانحناء والسجود ، ومس الأرض بجمته ثلاث مرات ، ثم نهض واقفا . وفى هذه الفترة القصيرة رفعت آلة العرش من الأرض الى السقف ، وظهر الامبراطور فى حلة جديدة أعظم بهاء ، تحف به



الكبرياء والجلال ، وانتهت المقابلة في صمت . وفي هذه القصة الأمانة الغريبة يصف أسقف كريسونا مراسم البلاط البيزنطى : ولا تزال باقية في الباب العالى . وقد حافظ عليها في القرن الماضى أدواق موسكو أو روسسيا . وبعد سفر طويل بالبر والبحر من البندقية الى القسطنطينية ، وقف السفير أمام الباب الذهبى حتى اقتاده الضباط المخصصون لذلك الى قصر الضيافة الذى أعد لاستقباله . ولكن هذا القصر كان سجنًا . وقد منع حراسه الغيورون كل اتصال اجتماعى بينه وبين الأجانب أو الأهالى على السواء . وفي أول مقابلة قدم هدايا سيده ، وكانت تتألف من عبيد وأوان من ذهب وأسلحة ثينة . وبدأ لعينيه ، وهو يرى المرتبات العالية التى تدفع للضباط والجنود مبلغ ثراء الامبراطورية . وقد دعى الى وليمة ملكية حضرها سفراء الأمم ، واتخذ كل منهم مكانه تبعا لاحترام اليونانيين له أو احتقارهم اياه . وبعث الامبراطور من مائدته الخاصة ، كعلامة بينة على الرضا ، بصحاف خاصة كان قد تذوقها . ومنح المقربين منه عند انصرافهم أثوابا تكريما لهم . وفي كل صباح ومساء قام خدمه من المدنيين والعسكريين بواجبهم . وكانت مكافآتهم على جهودهم هى رؤية مولاهم ، وقد يحظون بابتسامة منه . وكان يعطى أوامره بإيلاء أو بإشارة . ولكن كل عظمة على ظهر الأرض كانت تقف صامتة خاشعة في حضرته . وفي مواكبه العادية أو غير العادية التى تخترق العاصمة ، يسمح للعامة برؤية شخصه وارتبطت مراسم السياسة بطقوس الديانة . ونظمت أعياد التقويم اليونانى زياراته لأهم الكنائس . وفي تلك الأمسيات التى تسبق هذه المواكب أعلن البشير الرغبة الملكية الكريمة أو الورعة،

ومن ثم أخلت الطرقات وطهرت ، ونثرت الأزهار على الأرصفة ،  
وعرض أثمن الأثاث وصحاف الذهب والفضة والأسجاف الحيرية  
على النوافذ والشرفات ، وصمتت الألسنة بعد أن قضى النظام الصارم  
على صخب الشعب . وبدأ السير بتحرك الضباط العسكريين على رأس  
جنودهم يتبعهم في خط طويل القضاة ووزراء الحكومة المدنية .  
وقام على حراسة شخص الامبراطور خصيانه وخدمه . وعند باب  
الكنيسة يتلقاه البطريق وقساوسته بكل تبجيل . ولم تترك الهاتفات  
دون تنظيم لأصوات الجماهير الخشنة التى تنطلق تلقائيا . وخصصت  
أحسن الأماكن لوقوف فرق من طوائف السيرك الرمادية والخضراء  
وسكنت منازلهم الحامية التى كانت تهز العاصمة ، دون أن يشعر  
أحد ، وتحولت الى تنافس فى العبودية . ومن كلا الجانبين تردد فى  
نعمات متجاوبة مديح الامبراطور . ووجه شعراؤهم وموسيقيوهم  
جوقاتهم . وكان موضوع كل أغنية الدعاء بالنصر وطول العمر  
للإمبراطور . وترددت هذه الهاتفات عينا فى المقابلات والولائم  
والكنائس . وكدليل على السلطان الذى لاحد له كررت باللغات  
اللاتينية والقوطية والفارسية والفرنسية ، وحتى بالانجليزية ، على  
ألسنه المرتزة الذين مثلوا تلك الأمم حقيقة أو تصنعا . وقد جمع قلم  
قسطنطين بورفيرو جيتيوس هذا العلم ، علم المراسم والملق ، فى مجلد  
ضخم تافه . وأجاز غرور الأزمنة التالية اضافة ملحق واف له . ومع  
ذلك كان يستطيع أى أمير فى تأملاته الهادئة أن يتذكر أن هذه الهاتفات  
قد وجهت الى كل شخص وكل حكم . واذا كان قد ارتقى من بين  
الصفوف الدنيا ، فقد يتذكر أن صوته كان أعلى الأصوات وأكثرها

حماسة في اللحظة نفسها التي كان يحقد فيها على سلفه أو يتآمر على حياته .

يقول قسطنطين ان أمراء الشمال من الأمم التي لم تحظ بإيمان أو مجد ، كانوا يتوقون الى خلط دمائهم بدم القياصرة بالزواج من عذراء من الأسرة المالكة ، أو بزواج بناتهم من أمير روماني . ويكشف هذا الملك الهرم في نصائحه لابنه عن أسرار السياسة والكبرياء ، ويشير الى أفضل الأسباب التي تبرر في لباقة رفض هذه المطالب التي تجاوزت حد المعقول والمألوف . يقول هذا الملك الرزين ان كل حيوان تحفره طبيعته الى أن يبحث عن قرينه من بين الحيوانات التي تتسبب لفصيلته . وقد وزعت الاجناس البشرية في قبائل مختلفة باختلاف اللغة والدين والمعادن . فالنظرة اللائقة الى لقاء السلالة تحفظ الانسجام في الحياة العامة والخاصة . أما اختلاط الدم الأجنبي فهو مصدر النزاع والشفاق . وبهذا وأمثاله اهدت على الدوام آراء الرومان العقلاء وطبقوها في سلوكهم . فحرم فقهاؤهم الزواج بين المواطنين والأجانب . وفي الأزمنة التي اتسمت بالحرية والفضيلة ، كان عضو مجلس الشيوخ يحتقر أن يزوج ابنته من أحد الملوك . وقد دس مجسد ماركوس أنطونيوس بزواجه من مصرية . واضطر الامبراطور تيتوس تحت تأثير لوم الشعب أن يطرد بيرنيكي رغم انه وأنفها (١) . وقد قوى من هذا التحريم الدائم موافقة قسطنطين العظيم

(١) سويتونيوس ، سيرة تيتوس ، الفصل السابع ، تخلى عن بيرنيكي Berenice مرغما وهي مرغمة - هل اشرت فيما سبق الى أن هذه اليهودية الجميلة كانت في ذلك الوقت قد بلغت من العمر أكثر من خمسين سنة ؟ وقد كان حكيما من راسين أنه أغفل ذكر سننها ووطنها .

الخرافية . وقد وجه تحذير خطير لسفراء الأمم ولاسيما أمم الكفار أن مثل هذا الزواج الغريب قد حرمه مؤسس الكنيسة والمدينة . وقد نقش هذا القانون الخالد على مذبح أياصوفيا . وتقرر أن يحرم الأمير الملحد الذي قد يندس جلال الرداء الأرجواني من حقوق الرومان المدنية والكنسية . ولو أن اخوة زائعين لقنوا السفراء شيئا من التاريخ البيزنطى ، لأمكنهم أن يسيروا الى ثلاثة أمثلة جديدة بالذكر خولف فيها هذا القانون الذى لا وجود له الا فى الخيال ، وهذه الحالات الثلاث هى : زواج ليو أو بالأحرى أبيه قسطنطين الرابع من ابنة ملك الخزازيين Chazars ، وزواج حفيدة رومانوس بأمير البلغار ، وزواج بيرتا ، وهى أميرة فرنسية أو ايطالية من رومانوس الشاب وهو ابن قسطنطين بورفيروجيتوس نفسه .

## نسيان اللغة اللاتينية

أصدر كراكلا مرسومه المشهور ، الذى خول رعاياه من بريطانيا الى مصر ، الحق فى حمل اسم الرومان والتمتع بامتيازاتهم ، ونص فيه على أن ملك الشعب يجوز أن يتخذ مقره الدائم أو المؤقت فى أية ولاية من الوطن المشترك . وعند قسمة الامبراطورية الى شرقية وغربية احتفظ فى شىء من الارتياب بوحدة مثالية ، ففى ألقابهم وقوانينهم ودياناتهم أعلن خلفاء أركاديوس وهونوريوس أنهم زملاء فى المرتبة نفسها لا يفصل بينهم شىء ، وأنهم يحكمون مشتركين على العالم الرومانى كله ، وكذا على مدينة رومه ، اللتين تحدهما القيود نفسها . وبعد سقوط المملكة الغربية، استقرت مهابة الحطة الأرجوانية فى

أمراء القسطنطينية وحدهم . ومن بين هؤلاء ، وبعد فرقة دامت ستين سنة ، كان جستنيان أول من استعاد سلطانه على رومه القديمة ، وأكد بحق الفتح لقبه المقدس الا وهو امبراطور الرومان . وقد حفز الغرور أو السخط أحد خلفائه وهو كونستانز الثاني الى أن يهجر البسفور التراقي ، وأن يعيد الى التبر مجده القديم . ويقول مؤرخ بيزنطى فى خبث : أنها لمغامرة جريئة مسرفة ، فكأنه قد سلب عذراء جميلة ناضرة ليضفى بهاء ورواء على قبج عجوز شطاء أو بالأحرى ليفضحه . ولكن اللومباردين شهرؤا سيوفهم فى وجهه وحالوا دون استقراره فى إيطاليا ، فدخل رومه . لا منتصرا ، بل لاجئا . وبعد زيارة قصيرة امتدت اثنى عشر يوما نهب عاصمة العالم القديم وهجرها الى الأبد . وقد اشتعلت الثورة فى إيطاليا وتم انفصالها نهائيا بعد قرين تقريبا من فتح جستنيان ، الذى يمكننا أن نرجح نسيان اللغة اللاتينة بالتدريج الى زمانه . فهذا المشرع وضع كتابه المسمى « بالمبادئ » وقانونه وتعليقاته بلغة شاد بها على أنها اللغة الحقيقية والعامة للحكومة الرومانية ، اللغة المقدسة للقيصر والسناتو فى القسطنطينية لغة المعسكرات ودور القضاء فى الشرق . ولكن هذه اللهجة الغريبة كان يجهلها أهل الولايات الآسيوية وجنودها ، ولم يكن يجيد فهمها أكثر شراح القانون ووزراء الدولة . وبعد نزاع قصير تغلبت الطبيعة والعادة على النظم التى فرضها البشر . وحرصا على نفع رعاياه ، نشر جستنيان مؤلفاته باللغتين اللاتينية واليونانية وترجمت على التوالى أجزاء كثيرة من فقهه . ثم نى الناس الأصول ودرسوا الترجمة . وحظيت اللغة اليونانية التى تسحق الصدارة لميزاتها

الأصيلة بمركز قانوني وشعبي في المملكة البيزنطية . وقد باعد مولد  
 الأمراء الذين جاءوا بعد ذلك ومقارهم ، بينهم وبين اللاتينية . وقد  
 اعتبر العرب تيريوس ، واعتبر الايطاليون موريس ، أول القياصرة  
 اليونانيين . وأنها أسسا أسرة جديدة وامبراطورية جديدة . وقد تمت  
 هذه الثورة الصامتة قبل موت هرقل . غير أنه تخلفت بقايا من اللغة  
 اللاتينية في مصطلحات الفقه وفي مراسم القصر . وبعد أن استعاد  
 شارلمان وكل أوتو الامبراطورية الغربية اكتسبت لفظتا « فرنجة » ،  
 « ولاتين » دلالة واحدة ، وأطلقتا على نفس الرقعة من الأرض ،  
 وأكد هؤلاء المتبربرون المتعطرسون — وقد يكون لهم بعض  
 الحق — دعواهم العريضة في أنهم أصحاب لغة رومه  
 وممتلكاتها . لقد عابوا على أجنب المشرق أنهم خلعوا عنهم  
 لباس الرومان ولغتهم . ويبرر هذا التصرف العقول كثرة اطلاق اسم  
 « انيرنانيين » عليهم . ولكن هذا الاسم الشائن رفضه الأمير والشعب  
 الذي سمي به . ومهما كانت التغيرات التي أتت بها مر القرون ، فقد  
 تمسك أباطرة المشرق بانحدارهم من أوغسطس وقسطنطين ، وادعوا  
 أن الملك فيهم لم ينقطع . وفي أحط فتره من فترات الانهيار بقي اسم  
 « الرومان » لصيقا ببقايا الامبراطورية الشرقية .

وينما كانت اللاتينية هي لغة الادارة في حكومة المشرق ، كانت  
 اليونانية لغة الفلسفة والأدب . ولم يكن في الامكان اغراء أصحاب  
 هذه اللغة الفنية الجميلة بالحقد على علم مستعار منهم أو على ذوق  
 تلاميذهم الرومان الذي جاء نتيجة التقليد والمحاكاة . وبعد اندثار  
 الوثنية وضياح سوريا ومصر ، وفناء مدارس الاسكندرية وأثينا ،  
 تسلت الدراسات اليونانية الى بعض الأديرة ، وفوق كل شيء الى

الكلية الملكية بالقسطنطينية ، التي أحرقت في زمن ليو الأيسورى . وكان رئيس هذه المدرسة يسمى بالأسلوب الأجوف الذى ساد فى ذلك العصر « شمس العلوم » وكان زملاؤه الاثنا عشر ، وهم أساتذة العلوم فى الكليات المختلفة ، يطلق عليهم أسماء البروج الاثنى عشر . وكانت المكتبة ، وهى تحوى سنة وثلاثين ألفا وخمسة مئة مجلد . مفتحة الأبواب لأبحاثهم ، وكانوا يستطيعون أن يطلعوا الزائر على مخطوط قديم لهوميروس ، على بكرة من الرق طولها مائة وعشرون قدما . وقيل انها أمعاء ثعبان ضخمة . ولكن القرنين السابع والثامن كانا فترة نزاع وظلام ، فأحرقت المكتبة وأغلقت الكلية ، ودمغ محطمو الأيقونات بأنهم أعداء الحضارة القديمة . وقد حط من قدر أمراء الأسرتين الهرقلية والإيسورية جهلهم الشائن بالآداب واحتقارهم لها .

## إحياء العلوم اليونانية

نستطيع أن نتبع فى القرن التاسع أول خيوط لفجر إحياء العلوم . فبعد أن هدأت حدة التعصب عند العرب ، تطلع خلفاء المسلمين الى غزو فنون الامبراطورية . لا ولاياتها . وأشعل تلهفهم الشديد على الاطلاع روح المنافسة فى الاغريق من جديد ، ونفض الغبار عن مكتباتهم القديمة ، وعلمهم كيف يقدررون ويكافئون الفلاسفة الذين كانت جهودهم الى تلك اللحظة لا تلقى من جزاء غير لذة الدرس وبذل الجهد فى طلب الحقيقة . وكان قيصر بارداس ، عم الامبراطور ميخائيل الثالث ، حاميا كريما للآداب . وهذا هو اللقب الوحيد الذى خلد ذكره وغفر له طموحه . ولقد تحول فى بعض الأحيان جزء ضئيل جدا من خرائن ابن أخيه عن خدمة الرذيلة والطيش . وفتحت مدرسة فى قصر ماجنورا

Magnaure . وألهب وجود بارداس نفسه حمية المدرسين والطلبة . وكان على رأسهم الفيلسوف ليو ، رئيس أساقفة سالونيك . وكانت براعته الهائلة في الفلك والرياضيات موضع اعجاب الأجانب الوافدين من الشرق . وزاد من قيمة هذا العلم الذى تكتنفه الأسرار ، سذاجة العامة وسرعة تصديقهم ، حيث يذهب بهم الظن فى تواضع الى أن كل علم ارتفع عن مستوى علمهم لا بد أن يكون الهاما أو سحرا ، وتحت الحاح الامبراطور وتوسلاته هجر صديقه فوتيوس المشهور حرية الحياة المدنية ، حياة الجد والدرس . واعتلى كرسي البطريق ، ولكنه طرد من حظيرة الكنيسة ، ثم رد اليه اعتباره فى مجامع الشرق والغرب . وباغتراف الأعداء من القساوسة ، أنفسهم ، لم يكن أى فن أو علم ، خلا قرص الشعر ، غريبا على هذا الباحث الذى أحاط بكل شئ علما . وكان عميقا فى تفكيره لا يميل القراءة ، فصيحاً فى خطابه وفى أسلوبه . وبينما كان فوتيوس يشغل وظيفة بروتوسباثير ، أعنى قائد الحرس ، أرسل سفيرا الى خليفة بغداد ، فكانت تسليته فى الساعات المملة التى قضاها فى المنفى ، أو قل فى هذا الحبس ، هى أن يؤلف بطريقة سريعة كتابه « المكتبة » ، « وهو أثر خالد لسعة الاطلاع والقد ، استعرض فيه مائتين وثمانين من الكتاب والمؤرخين والخطباء والفلاسفة وعلماء اللاهوت ، دون أى نهج منظم . وهو يختصر كتاباتهم أو نظرياتهم ويقيم أساليبهم وشخصياتهم ويصدر حكمه ، حتى على آباء الكنيسة ، فى حرية مهذبة كثيرا ما تتخطى حدود الخرافة أو العقيدة فى تلك الأيام . وقد عهد اليه الامبراطور باسيلوس الذى كان يندب قصور تعليمه ، بتربية ابنه وخليفته ليو الفيلسوف . وكان حكم هذا الأمير وحكم ابنه قسطنطين بورفيروجينيتوس من بعده ، من أفضل الفترات



فى تاريخ الأدب البيزنطى ، وبفضل سخائهما أودعت كنوز العصور  
 القديمة فى المكتبة الامبراطورية ، وبفضل أقلامهما أو أقلام أنصارهما ،  
 نشرت هذه الكنوز فى مقنطقات ومختصرات يمكن أن تشبع حب  
 الجمهور للاطلاع ، دون أن تكدر راحته أو خموله وفضلا عن  
 مجموعة القوانين Basilics ، نشرت بالقدر نفسه من الجهد  
 مؤلفات فى الزراعة والحرب ، وفى فن تغذية الجنس البشرى وفى  
 اهلاكه ، واختصر تاريخ رومه وبلاد اليونان فى ثلاثة وخمسين فصلا  
 أو عنوانا لم ينج منها من عوادى الدهر سوى اثنين فقط ، ( عن  
 السفارات وعن الفضائل والردائل ) . ويستطيع القراء من كل  
 الطبقات أن يتأملوا صور العالم القديم ، وأن يطبقوا المواعظ  
 أو التحذيرات الواردة فى كل صحيفة ، وأن يتعلموا كيف يعجبون ،  
 أو ربما يقلدون ، نماذج عصور أكثر اشراقا . ولست أريد الافاضة  
 فى الحديث عن مؤلفات اليونانيين فى العصر البيزنطى . أولئك الذين  
 استحقوا الى حد ما ، بانكباهم على دواة القدامى ، أن يذكرهم  
 المحدثون وأن يعرفوا لهم فضلهم وجليلهم . ومن الممكن أن يستمتع  
 الباحثون فى عصرنا هذا بالفائدة التى يجنيها المرء من كتاب  
 ستوبايوس Stobaeus وهو كتاب عادى فى الفلسفة ، ومن معجم  
 سويداس Suiclos النحوى والتاريخى ، ومن ألفيات  
 تزتريس Tzetzes التى تحوى ستمائة قصة تتألف من اثنى عشر ألف  
 بيت من الشعر ، ومن تعليقات يوستاثيوس Eustathius رئيس  
 أساقفة سالونيك على هوميروس . وأخرج لنا يوستاثيوس  
 هذا ، بفضل غزارة علمه وسعة اطلاعه ، أسماء أربعمائة

كاتب ومراجعهم . ومن هؤلاء الأصلاء ومن ذلك العدد الوفير من الشراح والنقاد يمكن أن نكون فكرة عن قيمة الثروة الأدبية التي وجدت في القرن الثاني عشر . فقد كانت القسطنطينية تزدهر بعبقريّة هوميروس وديموستين وأرسطو وأفلاطون . ومهما كان استمتاعنا بثروتنا الحالية أو ايماننا لها ، فعلىنا أن نعبط الجيل الذي كان في مقدوره بعد أن يقرأ تاريخ ثيوبومپوس وخطب هيريديس وقصص ميناندر الهزلية ، وأناشيد ألقايوس وسافو . وتشهد الجهود القيمة التي بذلها الشراح ، لا على وجود المؤلفات الكلاسيكية اليونانية فقط ، ولكن على شغف الناس بها أيضا . ويمكن أن نستدل على المعارف العامة في ذلك العصر من مثالين لسيدتين عظيمتين عالمتين هما الامبراطورة يودوكيا Eudocia والاميرة أناكومينا Anna Comnena . فعلى الرغم من أنهما كانتا ترفلان في الدمشق وفي الحرير ، فانهما بذلتا جهدا في تعلم الفلسفة وعلوم البلاغة . وكانت اللهجة السائدة في المدينة همجية خشنة ، ولكن أحاديث القصر والكنيسة ، أو على الأقل لغة الانشاء فيهما ، استخدمت أسلوبا أصح وأكثر دقة ، الى حد القول في بعض الأحيان ، بأنها تطاكي نماذج أتيكا في نقائها .

## فساد النوق

تطلب مناهج تعليمنا الحديث الامام بلغتين لم تعودا حيتين ، وهو عمل شاق ولو أنه ضروري ، وقد يستنفد وقت الطالب الشاب ويطنفء جذوة حماسه . وقد بقي الشعراء والخطباء ردحا طويلا من الزمن

سجناء لهجات أسلافنا الغربيين المتبريرة التي ينقصها الانسجام والرشاقة ، ولما لم يكن لديهم مبادئ أو قواعد يهجون عليها أو أمثلة يقتدون بها ، فقد أسلموا عقريتهم لقوى خيالهم واجتهادهم الفجة المحطية . ولكن اليونانيين في القسطنطينية ، بعد أن طهروا لغتهم العامية مما ألم بها من شوائب ، حفظوا باستعمال لغتهم القديمة في طلاقة ، كما نعموا بأفضل ما دبحه الفن البشرى ، وبالأطلاع على آثار الملحنين الأجلاء الذين أسعدوا الأمم الأولى أو علموها . ولكن هذه المزايا تحمل على المزيد من لوم الشعب المنحل وجلب العار عليه . لقد وضعوا أيديهم الميتة على كنوز آباءهم دون أن يرثوا الروح التي أبدعت ذلك التراث المقدس وتفتحته . لقد قرأوا وقرطوا وجمعوا ، ولكن أرواحهم المتداعية بدت عاجزة عن التفكير والعمل سواء بسواء . لقد توالى عشرة قرون دون أن يتم كشف واحد يرفع من كرامة الجنس البشرى ، أو يزيد من سعادته . ولم تضاف فكرة واحدة الى المذاهب الفكرية في العالم القديم . وتعاقبت طائفة من التلاميذ الصابرين الذين أصبحوا بدورهم معلمين للجيل التالى الذليل . ولم ينج من زوايا النسيان والاهمال ، كتاب واحد في التاريخ أو الفلسفة أو الأدب ، بفضل جمال أسلوبه أو أصالة خياله أو دقة شعوره ، أو حتى النجاح فى محاكاته . أما فى النشر فقد يعنى من اللوم أقل كتاب بيزنطة ازعاجا ، بسبب بساطتهم الهزيلة المتواضعة . ولكن الخطباء ، وهم يظنون فى غرورهم أنهم وصلوا ذروة الفصاحة ، فانهم أضحوا أبعد ما يكونون عن النماذج التى يزعمون أنهم يحاكونها . وفى كل صحيفة يؤذى ذوقنا ويسىء الى عقولنا اختيارهم كلمات مهجورة ، وتعبيرات جامدة

معقدة ، وصور متنافرة ، واستخدام صياني للمحسنات الزائفة أو غير  
الملائمة ، ومحاولتهم المضنية للسمو بأنفسهم كى يثيروا دهشة  
القارئ ، ويغلّفوا معنى قافها بدخان من الابهام والمبالغة . ان ثرهم  
ليرتفع الى حد التكلف المريب فى الشعر ، وان شعرهم لينحط الى  
ما دون تفاهة ثرهم وفتوره . لقد صمتت ربّات Muse التراجيديا  
والملاحم والشعر الغنائى ، ولم تحظ بأى مجد . وقلما سما شعراء  
القسطنطينية فوق لفر أو ملحمة شعرية أو مديح أو قصة . لقد نسوا حتى  
قواعد العروض . ومع أن أنغام هوميروس كانت لا تزال تشف آذانهم ،  
فقد خلطوا بين جميع الأوزان والمقاطع فى أغانيهم الهزيلة التى أطلق  
عليها اسم « الشعر السياسى » أو « شعر المدينة » . لقد كانت عقول  
اليونانيين مكبلّة بأغلال الخرافة الوضيعة القاسية التى طوقت بسلطانها  
دائرة العلوم الدنسة « غير المقدسة » . وكان الجدل الميتافيزيقى قد  
أربك أذهانهم . وفى ايمانهم بالأحلام والمعجزات ضيعوا كل مبادئ  
الأخلاق ، وأفسدت أذواقهم عظات الرهبان ، وهى خليط سمج من  
الخطابة والكتاب المقدس . بل ان هذه الدراسات الحقيرة لم يعد  
يرفع من شأنها سوء استغلال العبقريات السامية ، حيث قنع رؤساء  
الكنيسة اليونانية ، فى ضعة ، بالاعجاب بوحي العصر القديم وتقليده .  
ولم تخرج المدارس أو منابر الكنائس من ينافس أثناسيوس  
وكريستوم ( ومعناه فم الذهب ) فى شهرتهما . وفى كل نواحي الحياة  
العملية والفكرية يعتبر تنافس الدول والأفراد أقوى منبع للجهود التى  
تبذل فى سبيل رقى الجنس البشرى . وكانت مدن اليونان القديمة  
خليطا سعيدا من الاتحاد والاستقلال . وقد تجدد ذلك على نطاق

أوسع ، ولكن فى شكل أقل تماسكا ، بين أمم أوروبا الحديثة . فالامتداد فى اللغة والدين والعادات يبعثهم على التأمل فى جدارة كل منهم ، والحكم على اتجاhe ، واستقلال الحكومات واختلاف المصالح يؤكدان حرية كل منهم على حدة ، ويحفزانهم الى بذل الجهد للارتقاء الى قمة المجد . وكان وضع الرومان أقل ملاءمة ، ومع ذلك ففى العصور الأولى للجمهورية ، تلك التى أكدت الطابع القومى ، اشتدت منافسة شبيهة بتلك بين ولايتى لاتيوم وإيطاليا ، وفى الفنون والعلوم كان الرومان يؤملون فى الوصول الى مستوى أساتذتهم اليونان ، أو التفوق عليهم . ولا ريب فى أن إمبراطورية القيصرية عطلت نشاط العقل البشرى وعاقبت تقدمه . وربما أفسح اتساع الإمبراطورية حقا بعض المجال للمنافسة الداخلية ، ولكن عندما اقتصرت الإمبراطورية تدريجيا على الشرق أولا ، وفى النهاية على بلاد اليونان والقسطنطينية ، انتاب مزاج رعايا بيزنطة الوهن والانحطاط ، وهذه هى النتيجة الطبيعية لحالة العزلة والاتصال . وضغط عليهم من الشمال قبائل لا أسماء لها من المتبربرين ، قل أن أدرجهم اليونانيون فى عداد البشر . أما العرب وهم أكثر صقلا ، فقد كانت لغتهم ودينهم عقبة كآداء فى سبيل أى اختلاط اجتماعى . وكان غزاة أوروبا إخوانا لهم فى المسيحية . ولكنهم كانوا يجهلون لغة الفرنجة أو اللاتين ، كما كانت أخلاق هؤلاء الغزاة وصلاتهم فى الحرب والسلم تكاد تكون منقطعة ، مع خلفاء هرقل . إن اليونان وحدهم فى هذا الكون ، هم الذين لم ينل من فخرهم واعتزازهم بأنفسهم أية مقارنة بين فضلهم وفضل غيرهم من الأجانب وجدارتهم ، ومن ثم فلا عجب أنهم أخفقوا فى السباق ،

حيث لا منافس يخفّزهم على الاسراع في الخطى ، ولا حكم يصدر  
الحكم بفوزهم . لقد اختلطت أمم أوروبا وآسيا في الحملات الصليبية  
على الأراضى المقدسة . وفي زمن أسرة كومنين اشتعلت مرة أخرى في  
الامبراطورية البيزنطية ، روح منافسة هزيلة في المعرفة وفي الفضائل  
الحربية .



في الفصل الرابع والخمسين يصف جييون ظهور طائفة Paulicians  
( ٦٠٠ - ٨٨٠ م ) واضطهادهم . وهي فئة من الغنوصيين ، ويشير الى  
ان افكارهم ، كانت تؤذن بطريقة ما بآراء رجال الاصلاح الدينى . وفي  
الفصل الخامس والخمسين يصف جييون استقرار البلغار والكروات  
والمجريين في ولايات الدانوب القديمة ، كما يصف أصل الملكية  
الروسية ، واعتناق الروس والأوروبيين في الشمال للديانة المسيحية .

## الفصل السادس والخمسون (١٠٨٥ - ٨٤٠)

الصدام بين العرب والفرنجة واليونانيين في إيطاليا •  
مجيء النورمان : فتوحات روبرت جيزكارد •

تلاقت أمم العالم الثلاث العظمى : اليونانيون والعرب والفرنجة ، على مسرح إيطاليا . وكانت الولايات الجنوبية التي تؤلف الآن مملكة نابلى ، خاضعة في أكثر الأحيان لأذواق لومبارديا وأمراء بنفنتوم ، الذين بلغوا ، من القوة الحرية حدا مكنهم من أن يصدوا لفترة ما عبقرية شرلمان ، ومن السخاء في وقت السلم ما أتاح لهم أن يحتفظوا في عاصمتهم بأكاديمية تضم اثنين وثلاثين من النحاة والفلاسفة . وخلق تقسيم هذه الدولة المزدهرة ثلاث دويلات : في بينيفينتوم وساليرنو وكابوا . وشجع طموح هؤلاء المتنافسين أو انتقامهم الأعشى — شجع العرب على تدمير ميراثهم المشترك . وطوال فترة من الكوارث امتدت مائتي عام تعرضت إيطاليا لطعنات متكررة لم يستطع الغزاة علاجها بالوحدة والهدوء اللذين قد يتيحهما غزو كامل . وانطلقت سفنهم من ميناء باليرمور مرارا وفي كل سنة تقريبا ، ورحب بها المسيحيون في نابلى . بل إن عرب الأندلس أحيانا كانوا يفرون بمساعدة المسلمين الذين يختلفون معهم في المذهب ، أو بمقاومتهم . وعلى تعاقب أحداث البشر اختفى كمين جديد في الشعاب الكودية<sup>(١)</sup> وانتشر الدم الأفريقي

---

(١) Caudine Forks : ممران جبليان في كمبانيا بإيطاليا •

مرة أخرى على حقول كاناي <sup>(١)</sup> وهاجم ملك رومه ، أو دافع مرة ثانية ، عن أسوار كابوا وتارينوم . وكانت هناك مستعمرة عربية قد انشئت في باري التي تتحكم في مدخل الأدرياتيك . وأثارت أعمال السلب والنهب التي لم يميزوا فيها بين فريق وآخر ، غضب الامبراطورين وألفت بينهما وحتهما على الاتحاد . فقد حلف هجومي بين باسيليوس المقدوني سيد قومه وبين لويس ابن حفيد شرلمان ، وأكمل كل فريق ما كان من نقص عند حليفه . وربما كان من خرق الرأي أن يزحزح له ملك بيزنطة قواته المرابطة في آسيا من مكانها ، من أجل القيام بحملة في إيطاليا ، كما أن قوات اللاتين لم تكن لتكفى ، لو لم تحتل بحريته المشوقة مدخل الخليج . فطوق حصن باري من كل جانب بمشاة الفرنجة وخيالة اليونانيين وغلايينهم . وبعد دفاع دام أربعة أعوام استسلم الأمير العربي لرحمة لويس الذي كان يقود بنفسه عمليات الحصار . وقد تم هذا الفتح الهام بفضل اتفاق الشرق والغرب . ولكن سرعان ما كدرت صفو مودتهم الجديدة شكواهم المتبادلة التي أثارها الحقد والكبرياء . فادعى اليونانيون أن لهم وحدهم فضل الفتح ومجد النصر ، وشادوا بعظمة قواتهم ، وتظاهروا بالسخرية من عدم ضبط النفس والتراخي اللذين أظهرهما حفنة من البرابرة حاربوا تحت لواء الأمير الكارلوفنجي . وجاء رد ذلك الأمير متسما بالبلاغة التي يثيرها السخط والصدق . يقول ابن حفيد شرلمان « .

(١) Cannae : في جنوب شرقي إيطاليا ، معركة هزم فيها هانيبال الرومان ، ٢١٦ ق م . ( الترجمة )



« انا نقر ضخامة معداتكم . فقد كانت جيوشكم حقا كأسراب جراد الصيف التي تحجب ضوء النهار مثل السحب ، وبعد أن تقطع مسافة قصيرة وهي تخفق بأجنحتها تهوى الى الأرض في اعياء وقد تقطعت أنفاسها . وكذلك أتم قد سقطتم الى الثرى بعد مجهود هزيل . لقد هزمكم جنسكم ، وانسحبتم من ميدان القتال لتعملوا السلب والنهب في رعايانا المسيحيين على شاطئ سكلافونيا . وكنا نحن فئة قليلة ، ولكن لم كنا كذلك ؟ لأننى بعد أن مللت انتظار وصولكم سرحت جيئى ، واستبقيت فرقة منتقاة من المحاربين لتواصل حصار المدينة . فاذا كانوا قد انهكوا في ولائمهم السخية في وجه الخطر والموت ، فهل أقصت هذه الولايم من قدرتهم على القتال؟ هل كان صيامكم هو الذى هدم أسوار بارى ؟ ألم يكن هؤلاء الفرنجة الشجعان ، بعد أن نقص عددهم من الاعياء والضعف والكلال ، هم الذين سدوا الطريق في وجه ثلاثة من أقوى أمراء العرب وهزموهم ؟ وألم تكن هزيمتهم هى التى عجلت بسقوط المدينة ؟ لقد سقطت الآن بارى . وان تارينتوم لترتجف ، وستنجو كالابريا . ولو كان لنا السيادة على البحر فلربما أقنعت صقلية من أيدي الكفار . أى أخى ، ( وهو لفظ يسمى الى غرور اليونانيين أشد اساءة ) أسرع فى ارسال نجاتك البحرية ، واحترم حلفاءك ، ولا تثق فى متمليك . »

لقد خبت جذوة هذه الآمال العراض بسوت لويس وانحلال أسرة كارلوفنجيان . ومهما يكن من أمر ذلك الذى يستحق أمجاد النصر ، فقد نعم الامبراطوران اليونانيان باسيلوس وابنه ليو بمزايا اخضاع بارى . واقتنع الايطاليون فى أبوليسا وكالابريا ، أو أجبروا على الاعتراف بسيادتهما . وترك خط تصورى ، يمتد من جبل جارجانوس الى خليج ساليرنو ، الجزء الأكبر من مملكة نابلى تحت سلطان الامبراطورية الشرقية . وفيما وراء ذلك الخط ابتهجت جمهوريتا أو دوقيتا أمالنى ونابلى اللتان لم تودعا قط ولاءهما الاختيارى ، بمجاورتها لملكهما الشرعى . وأثرت أمالنى من تزويدها أوروبا بمنتجات آسيا ومصنوعاتها . ولكن الأمراء اللومباردين فى بينيفتوم وسالرنو وكابوا حيل بينهم ، على رغبهم ، وبين الاخلاط بالعالم اللاتينى ، وكثيرا ما نكثوا فى ايمانهم على قبول الخضوع ودفع الجزية . أما مدينة بارى فقد ارتفع شأنها ، وزادت ثروتها كعاصمة لولاية لومبارديا العسكرية ، ومنح حاكمها العام لقب البطريق Patrician ثم أطلق عليه بعد ذلك اسم فريد هو كاتابان Catapan . وجرت سياسة كل من الكنيسة والحكومة على الخضوع التام لعرش القسطنطينية . وطالما كان الصولجان موضع نزاع بين أمراء ايطاليا ، فإن جهودهم بقيت ضعيفة وعدائية . وقاوم اليونانيون أو تفادوا قوات ألمانيا التى هبطت من جبال الألب يرفرف عليها علم الأباطرة من أسرة أوتو . واضطر أول هؤلاء الأمراء السكسون وأعظمهم الى أن يتخلى عن حصار بارى ، وهرب الثانى بشرفه ، بعد أن فقد أقوى أساقفته وباروناته ، من ميدان القتال الدامى فى كروتونا . وفى ذاك اليوم قلبت شجاعة العرب

ميزان الحرب ضد الفرنجة ، لقد طردت حقاً الأساطيل البيزنطية هؤلاء القراصنة من قلاع إيطاليا وشواطئها . ولكن الشعور بالمصلحة كان أقوى من العقيدة أو الكراهية ، فأرسل والى مصر أربعين ألفاً من المسلمين لمعاونة حليفه المسيحى . وعلل خلفاء باسيلوس أنفسهم بأن غزو لومبارديا قد تحقق ، وأنهم ما زالوا يحتفظون بها بفضل قوانينهم ومناقب وزراءهم ، وعرفان شعوب أنقذوه من الفوضى والظلم . ولكن ربما ألفت سلسلة من الثورات شعاعاً من الضوء على الحقيقة حتى تتكشف لقصر القسطنطينية . فاتضح خداع المملكتين بما أحرزه المعامرون النورمان من نجاح سريع ميسور .

وخرج تطلب الأحداث والمصور فى أبوليا وكالابريا بفارق أسيف بين عصر فيثاغورس وبين القرن العاشر المسيحى ، ففى الفترة الأولى كان شاطئ اليونان الكبرى ( كما كانت تسمى آنئذ ) يزخر بمدن حرة غنية آهلة بالجنود والفنانين والفلاسفة . ولم تكن قوة تارينتوم أو سيياريس أو كروتونا الحربية أقل من مثيلتها فى أية مملكة قوية . أما فى الفترة الثانية فقد خيم الجهل على هذه المدن التى كانت يوماً مزدهرة . كما أفقرها الطغيان ، وأقفرت من سكانها بسبب الحرب الوحشية . ولا يمكن أن نغالى فى اتهام أحد المعاصرين بالمبالغة فى أن أقليما آية فى الحسن والسعة أضحى مقفراً كدنيانا هذه بمد الطوفان العام . ومن بين الأعمال العدوانية التى نشبت بين العرب والفرنجة واليونانيين فى جنوب إيطاليا ، سأختار قصتين أو ثلاثاً تعبر عن عاداتهم الوطنية :

١ — كان مما يدخل البهجة والسرور على قلوب العرب أن يدنسوا الكنائس والأديرة ، وأن ينهبوها سواء بسواء . ففى حصار سالرنو وضع زعيم مسلم فراشه على مائدة القرايين ، وفى كل ليلة افترع على هذا المذبح بكارة راهبة مسيحية . وبينما كان يراود فى عنف احدى العذارى عن نفسها ، وهى تقاومه ، سقطت قطعة من خشب السقف ، وكأنما سددت بمهارة الى رأسه فصرعته . وقد نسب موت هذا الأمير الشهوانى الى غضب المسيح ، الذى ثار فى النهاية للدفاع عن عروسه الوفية .

٢ — حاصر العرب مدينتى بنفتوم وكابوا . وبعد أن استغاث اللبمارديون سدى بخلفاء شلمان ، تضرعوا سائلين رحمة امبراطور اليونان وعونه . وهبط مواطن جرىء من الأسوار واخترق الخنادق ونفذ ما عهد به اليه ، ولكنه سقط فى أيدي المتبررين بينما كان عائدا يحمل الأخبار السارة ، فأمره أن يعاونهم فى تنفيذ مشروعهم وأن يخدع مواطنيه ، وأكدوا له أن الثراء والأمجاد ستكون ثواب غدره . أما اذا ظل على ولائه فلن يكون عقابه الا الموت الزؤام . فتظاهر بالاذعان ، ولكنه عندما أصبح على مسمع من اخوانه المسيحيين فى الحصن صاح بأعلى صوته : « أصدقائى واخوانى ، رابطوا وصابروا ، اعتصموا بمدينتكم ، لقد علم مليكم بمحتكم . وأصبحتم قاب قوسين أو أدنى من النجاة . انى أعرف مصرى وانى لأترك زوجى وأولادى فى رعايتكم » ، وقد أيدت سورة غضب العرب صدق روايته . فاخترقت مائة حربة جسد هذا

المواطن الفدائي ، انه ليستحق أن يعيش في ذاكرة ذوي  
الفضيلة والفضل ، ولكن تكرر القصة نفسها في العصور  
القديمة والحديثة قد يلقي على حقيقة هذا العمل المجيد ظلالة  
من الشك (١) .

٣ — وقد يثير سرد الحادث الثالث ابتسامة وسط أهوال الحرب .  
ذلك أن تيوبولد ، مركيز كاميرينو وسبوليتو عاون ثوار  
بينفنتوم ، ولم تكن قسوته الوحشية مناقضة لأخلاق البطولة  
في ذلك الزمان . فخصى دون رحمة أسراه من الأمة اليونانية  
أو الطائفة اليونانية ، وزاد على هذه الفعلة النكراء دعابة  
ثقيلة قاسية ، قائلا انه أراد أن يقدم للامبراطور عددا من  
الخصيان ، وهم أحسن زينة في البلاط البيزنطي . وقامت  
حامية احدى القلاع بهجوم خارج الحصن ، ولكنها هزمت  
فحكم على الأسرى باجراء العملية المعتادة . ولكن التضحية  
أوقفت باقتحام امرأة هائجة دامية الوجنتين شعناء الشعر ،  
جاءت تولول وتصرخ ، مما أجبر المركيز على الاصغاء الى  
شكواها . فصرخت قائلة : « أهكذا أيها الأبطال العظماء

---

(١) في سنة ٦٦٢ يصف بول الشماس عين المأساة تحت أسوار مدينة  
بينفنتوم نفسها ، ولكن الأشخاص مختلفون ، والجرم منسوب الى اليونانيين  
أنفسهم ، وهو ما تنسبه النسخة البيزنطية الى العرب . وفي الحرب الأخيرة  
مع ألمانيا يقال أن م . داساس M.d'Assas وهو ضابط فرنسي من كتيبة  
أوفيرن استشهد على النهج نفسه . ويمتبر سلوكه أكثر بطولة لأن العدو  
الذي قام بأسره لم يكن يتطلب غير الصمت . ( فولتير ، عصر لويس الخامس  
عشر ، الفصل الثالث والثلاثون ) .

تشنون حرباً ضد النساء ! ضد نساء لم يستن اليكم قط ،  
وكل سلاحهن المنزل والنول ؟ » . وأنكر ثيوبولد الاتهام ،  
واحتج بأنه منذ عصر « الأمازونات »<sup>(١)</sup> لم يسمع قط بحرب  
النساء . فصاحت في ثورة عارمة : « بأي سبيل آخر أشد  
وأنتكى ، يمكنكم النيل منا ؟ وأنى لكم أن تطعنونا في موضع  
أكثر حيوية ، من سلب أزواجنا أعز ما لدينا من مصدر بهجتنا  
وأمل ذريتنا ؟ لقد احتملت في صمت ودون تملسل نهب  
ماشيتنا وقطعاتنا . أما هذه الاساءة القاتلة ، هذه الخسارة  
التي لا تعوض ، فقد فقدت من أجلها صبرى ، وجعلتني استصرخ  
من أجلها عدالة السماء والأرض ! » . وقوبلت فصاحتها  
بعاصفة من الضحك ، وأهاج يأسها الساخر ، وان كان معقولا ،  
مشاعر الفرنجة الفلاظ الأكباد الذين لا تعرف الرحمة سبيلا  
الى قلوبهم . وباتخاذها الأسرى ردت اليها بضاعتها . وبينما هي  
عائدة عودة المظفر الى القلعة ، لحق بها رسول من قبل ثيوبولد  
يسألها عن العقوبة التي يجب أن توقع على زوجها لو قبض عليه  
مرة أخرى حاملا سلاحا ، فأجابت دون تردد : ان اتفق أن  
اقترب هذا الاثم واتتبه سوء الطالع ، فان له عينين وأنفا ويدين  
وقدمين ، وهذه الأعضاء ملك خاص به ، وقد يستحق أن  
يفقدها ان ارتكب جريمة ما ، ولتفضل مولاي بالابقاء على  
ما تدعى أمته الصغيرة أنه ملكها الشرعى الخاص بها<sup>(٢)</sup> .

(١) Amazons فى الأساطير اليونانية ، نساء محاربات من سكيثيا  
بالقرب من البحر الأسود .  
(٢) ليوتبراند ، اذا نوقشت الاباحية والفجور فى هذه القصة =

## مجيء النورمان

ان استقرار النورمان في مملكتي نابلي وصقلية حدث روماتيكي جدا في أصله ، وعلى أعظم جانب من الأهمية في نتائجه ، لكل من إيطاليا والامبراطورية الشرقية على السواء . كانت الولايات اليونانية واللومباردية والعربية الممزقة المنداعية معرضة لكل غاز أو فاتح ، وقد شن القراصنة الاسكندنافيون الذين امتازوا بروح المغامرة ، غاراتهم في البحر والبر ، وبعد أن أعمالوا السلب والنهب والقتل أمدا طويلا ، قبل نورمان فرنسا رقعة واسعة طيبة من الأرض واحتلوها وأطلقوا عليها اسمهم . ونبذوا عادة آلهتهم ليعبدوا اله المسيحيين . وأعلن أدواق نورمانديا أنفسهم أتباعا لخلفاء شرلمان وهيو كابت ( ملك فرنسا ٩٨٧ — ٩٩٦ ) . وقد هذب الجو الدافئ من عنفهم الوحشي الذي جلبوه معهم من جبال الرويج التي يغطيها الجليد ، ولكنه لم يفسده . واختلط رفاق رولو Rollo ، على غير وعي منهم ، بأهل البلاد ونهلوا من عادات الفرنسيين ولغتهم وكياستهم . وفي عصر اشتهر بالحروب ، كان من الممكن أن يدعى النورمان أن لهم القدح المملئ في الشجاعة والمآثر المجيدة . ومن بين خرافات العصر السائدة احتضنوا في حماس ، الحج الى رومة وإيطاليا والأراضي المقدسة . واتعشت أجسامهم وعقولهم بممارسة هذا النشاط الديني .

---

= فيمكنني أن أصرخ مع ستيرن Sterne المسكين أنه من القسوة ألا يسمح لي بأن أنقل في حذر ما يستطيع أسقف أن يكتب دون تردد . وماذا يقول القارئ إذا كنت قد نقلت بقية القصة وما فيها من فحش والفاظ مكشوفة فاضحة . ( أوردها جيبون باللاتينية ، ولم نر ضرورة لآباتها ) .

وكان ركوب المخاطر هو حافزهم ، كما كان الاطلاع على كل جديد جزاءهم الأوفى . وزخر العالم أمامهم بكل ما يدعو الى الإعجاب ويستوجب التصديق ويملا النفس بالأمس والطموح . ودخلوا في أحلاف للدفاع المتبادل . وكثيرا ما أنزل سلاح المحارب العقاب بلصوص الألب الذين خدعهم ثوب الحاج . وفي إحدى هذه الزيارات الورعة الى غار في جبل جارجانوس في أبوليا قدسه شبح ميكائيل رأس الملائكة ، ابتدرهم أجنى يرتدى لباسا يونانيا . ولكن سرعان ما كشف عن هويته ، على أنه نائر هارب ، وعدو لدود للامبراطورية اليونانية ، وكان اسمه ميلو Melo . وكان من مواطني باري النبلاء . وقد اضطر بعد قيامه بثورة فاشلة ، الى البحث عن حلفاء جدد يثأرون لوطنه . وقد أحيا مظهر البسالة في النورمان آماله ، وحثه على البوح بأسراره ، واستمع النورمان الى شكوى هذا المواطن الغيور ، وأصغوا أكثر من ذلك الى وعوده . وكان دليلهم على عدالة قضيته تأكيده على الثروة . وتطلعوا الى الأراضي الخصبة التي يشيع فيها الطغاة المخذشون الظلم على أنها تراث الشجعان . ولدى عودتهم الى نورمانديا أوقدوا نار المغامرة ، وتعاهدت فئة قليلة ، ولكنها جريئة منهم ، بمحض اختيارهم ، على انقاذ أبوليا . وسلك كل منهم طريقا مختلفا في شعاب جبال الألب . وتنكر كل منهم في زى حاج . ولكن زعيم باري رحب بهم على مشارف رومه وأمد المعوزين منهم بالخيول والأسلحة ، وقادهم الى ميدان العمل . وقد تغلبت شجاعتهم في أول صدام ، غير أنه في الالتحام الثاني تكاثرت عليهم جموع اليونانيين ودكتهم آلات الحرب اليونانية ، فتراجعوا ساخطين مولين وجوهم



نحو العدو . وأنهى ميلو المنكود حياته ضارعا متوسلا في البلاط  
الجرماني . أما حلفاؤه من النورمان الذين قطعوا عن أوطانهم ، وحيل  
بينهم وبين الأرض الموعودة فانهم هاموا على وجوههم في تلال إيطاليا  
وأوديتها يكسبون فوت يومهم بسيوفهم . وإلى هذه السيوف الرهيبة  
لجأ أمراء كابوا وبنيفيتوم وساليرنو و نابلى ، كل بدوره ، في  
منازعاتهم الداخلية . وقد ضمنت روح النورمان العالية ودقة نظامهم ،  
النصر للجانب الذى انحازوا اليه . ولحظت سياستهم الحذرة ميزان  
القوى حتى لا تزداد قوة أى من الدول المتنافسة فتجعل عونهم أقل  
أهمية وخدامتهم أقل ربحا . وكان مستقرهم الأول معسكرا قويا وسط  
مستقعات كامبانيا ، ولكن سرعان ما من عليهم سخاء دوق نابلى ببلجا  
أعظم رخاء وأكثر استقرارا . فعلى بعد ثمانية أميال من قصره ،  
وكفلة قوية ضد كابوا شيدت بلدة أفيرسا Aversa وحصنت  
لاقامتهم . وتمتعوا بالغلال والثمار ، والمراعى والآجام في تلك البقعة  
الخصبة كملك خاص لهم ، وقد جذبت أخبار نجاحهم أفواجا جديدة  
من الحجاج والجنود كل عام ، حيث حفزت الحاجة الفقراء ، ودفع  
الأمل الأغنياء ، ولم يصبر أولئك الذين امتازوا بالشجاعة والنشاط  
في نورماندى على حياة الدعة ، وتاقوا الى الشهرة والمجد . وضمنت  
راية أفيرسا المستقلة ملجأ وتشجيعا لطريدى الولاية ، ولكل لاجئ  
هرب من ظلم سادته أو من عدالتهم . وسرعان ما اندمج هؤلاء الرفاق  
الأجانب في عادات مستعمرة الغال هذه ولغتها . وكان أول زعيم  
للنورمان هو الدوق راينولف Rainulf . وفي نشأة المجتمع كان السمو  
في المرتبة هو الجزء الأوفى للجداراة الفائقة وشاهدها .

ومنذ فتح العرب لصقلية كان أباطرة اليونان يتوقون الى استعادة تلك الدرّة الثمينة . ولكن عاق جهودهم ، مهما كانت قوية ، بعد الشقة والبحر . وكم أضافت أسلحتهم الغالية الثمن ، بعد ومضة من النجاح ، صفحات جديدة من الكوارث والخزى ، الى حويلات التاريخ البيزنطى . فقد هلك عشرون ألفا من أحسن جنودهم فى حملة واحدة . وسخر المسلمون المظفرون من سياسة أمة لا تمهد الى الخصيان بحراسة نساءها فحسب ، ولكن بقيادة رجالها أيضا . وبعد حكم دام مائتى سنة دمرت الانقسامات العرب . وحدث أن رفض الأمير سيادة ملك تونس وثار الناس ضد الأمير . واغتصب الزعماء السلطان فى المدائن . واستقل كل ثائر وضع بقرية أو قلعة . وخطب أضعف الأخوين المتنافسين ود المسيحيين . وفى ساعة العسرة كان النورمان على أهبة الاستعداد للخدمة ، وكان لهم نفعمهم . وأفلح أردوين Arduin نائب اليونانيين وترجمانهم فى تجنيد خمسمائة من الفرسان أو المحاربين الخيالة تحت لواء مانياكيس Maniaces حاكم لومباردى . وقبل رسو سفنهم ، كان الخلاف بين الأخوين قد سوى . وعاد اتحاد صقلية وأفريقية وأقيمت حراسة على الجزيرة حتى حافة اليم . وقاد النورمان الطليعة ، وأحسن عرب مسينا بشجاعة عدو لم يخبروا بعد قوته . وفى الصدام الثانى أسقط أمير سرقسطه من فوق جواده ، واخترق جسمه سيف وليم دى أوتفيل . وفى كرة ثالثة تغلبت جرأة رفقاء هذا الأخير على جيش من العرب بلغ ستين ألفا ، ولم يتركوا لليونانيين سوى جهد المطاردة . لقد كان نصرا باهرا ، ولكن قد يقتسم قلم المؤرخ مجده مع حراب النورمان . والحق أن عملهم الأساسى كان

معاونة مانياكيس على الانتصار ، وقد أخضع مانياكيس ثلاث عشرة مدينة والجزء الأكبر من صقلية لطاعة الامبراطور . غير أن شهرته الحرية دنسها نكران الجميل والطفيان . ففي قسمة الأسلاب أهملت استحقاقات قواته المساعدة . ولم يستطع جمعهم أو كبرياؤهم أن يصبر على هذه المعاملة السيئة . فرفعوا عقيرتهم بالشكوى على لسان ترجمانهم . ولكن أهملت شكواهم ، وضرب ترجمانهم ، فاحتل الآلام وحده . وكانت الاهانة والسخط من نصيب أولئك الذين عبروا عن مشاعرهم ، ومع ذلك أخفوا شعورهم حتى دبوا أو اغتصبوا وسيلة تنقلهم في أمان الى البر الايطالى . وشاركهم في سخطهم اخوانهم في أفيرسا . فغزوا ولاية أبوليا رهنا لدينهم . وبعد مرور عشرين عاما من هجرتهم الأولى سار النورمان الى القتال بجيش لا يزيد على سبعمائة من الخيالة وخمسمائة من المشاة . وبعد سحب الكتائب البيزنطية من الحرب في صقلية ، تضاعف عدد جنود بيزنطة حتى بلغ ستين ألفا . وخير الرسول اليونانى النورمان بين الحرب والتقهقر . وصاح النورمان في صوت واحد : « الحرب » . وألقى واحد من أقوى محاربيهم بضربة واحدة من قبضته جواد الرسول اليونانى الى الأرض . غير أنهم سمحوا له بالعودة على جواد آخر . وأخفيت الاهانة عن جنود الامبراطور ، ولكنهم عرفوا معرفة اليقين جراءة أعدائهم في معركتين متواليتين . وفي سهول كاناي هرب جنود آسيا أمام المغامرين الفرنسيين ، وأخذ دوق لومبارديا أسيرا . وأذعن أهل أبوليا لسلطان جديد ونجت أربع مدن فقط ، هى بارى وأتراتو وبرنديزى وتارتوم من الدمار الذى نزل باليونانيين . ومن هذه الفترة يمكن أن تؤرخ استقرار سلطان النورمان

الذى سرعان ما أزرى بالمستعمرة الناشئة في أفيرسا . ووقع الاختيار في انتخاب عام على اثني عشر دوقا . وكان السن والمختد والجدارة هي دعائم هذا الاختيار . وخصصت الجزيرة المفروضة على كل بقعة للاتفاق عليها . وشيد كل دوق قلعة وسط أراضيه ، وعلى رأس أتباعه . وفي مركز الولاية احتفظ بالمقر العام في ملفى Melphi ليكون عاصمة الجمهورية وقلعتها . وخصص فيها لكل دوق من هؤلاء الاثني عشر منزل وحى منفصل . وتولى هذا السناتور العسكرى تدير الشئون الوطنية وأضفى على أولهم رئيس جمهوريتهم وقائدهم لقب دوق أبوليا . وحظى بهذا الشرف وليم « ذو الذراع الحديدية » . وقد وصف في لغة ذلك العصر بأنه أسد في القتال ، وحمل في المجتمع ، وملاك في المجلس . وقد وصف مؤرخ مواطن معاصر عادات مواطنيه وصفا جيدا . يقول مالاترا Malaterra : « ان النورمان شعب خداع واقتحام . ويبدو أن الفصاحة والرياء من صفاتهم الوراثية . وفي مقدورهم أن يتمسكوا ليتمكنوا ، فإذا لم يوجد قانون يحسد من شكيمتهم ، انغمسوا في إباحية الطبيعة والهوى ، ويتظاهر أمراؤهم بامتداح البر العام ، ولكن الشعب يحافظ على التوسط ، أو بالأحرى يؤلف بين النقيضين : الجشع والاسراف . وفي تمطشهم المتلف إلى الثروة والسلطان يحتقرون كل ما في أيديهم أيا كان ، ويؤملون في الحصول على ما يشتهون . ومتعة النورمان في الأسلحة والخيول والثياب المترفة ورياضة القنص والصيد بالباز ، ولكنهم عند الشدائد يستطيعون ، في صبر لا يصدق ، احتمال قسوة المناخ ، ومشاق الحياة العسكرية » .

واستقر نورمان أبوليا على حدود امبراطوريتين . وطبقا لسياسة  
المصر ، قبلوا اقطاعيات الاراضى من ملوك ألمانيا والقسطنطينية .  
ولكن أقوى حقوق هؤلاء المغامرين كان حق الفتح ، فلم يحبوا أحدا .  
قط ولم يثقوا فى أحد قط ، ولم يثق فيهم أحد قط ، ولم يحبهم أحد  
قط . وامتزج احتقار الأمراء بالخوف ، واختلط خوف الأهالى بالحق  
والسخط . وأثار كل شىء مرغوب فيه ، كالحصان والمرأة والبستان ،  
جشع هؤلاء الغرباء وأرضاه . وتلون جشع زعمائهم بلون جميل براق ،  
فسمى طموحا ومجدا . وقد اشترك الاثنا عشر دوقا فى بعض الأحيان  
فى عصبية للظلم والعسف . وفى منازعاتهم الداخلية انصب شقاقهم على  
تقسيم أسلاب الشعب . وقد ووريت التراب فضائل وليم معه فى قبره .  
وكانت مميزات أخيه وخلفه دروجو Drogo تؤهله لتوجيه شجاعة  
أقرانه ، أكثر مما تؤهله للحد من عنفهم . وفى أثناء حكم قسطنطين  
مونوماخوس حاول البلاط البيزنطى ، تحفزه السياسة أكثر من حب  
الخير ، أن يخلص ايطاليا من هذا الشر المقيم ، وهو أشد ضررا من  
حملة من البرابرة ، ولهذا الغرض منح أرجيوس بن ميلو أسمى  
الألقاب وأوسع السلطات . فقد تشفع له ذكرى أبيه لدى النورمان ،  
كما سبق له أن استخدمهم بمحض اختيارهم للقضاء على ثورة  
مانياكيس والانتقام للأضرار الخاصة والعامة التى لحقت بهم . وكان  
هدف قسطنطين أن ينقل هذه المستعمرة المحبة للحروب من الولايات  
الاطالية الى حرب الفرس ، فوزع ابن ميلو ذهب اليونانيين  
ومصنوعاتهم على الزعماء كباكورة العطاء الامبراطورى ، ولكن  
احساس فاتحى أبوليا وروحهم أفسدنا عليه خطته ، فرفضوا هباته .

أو على الأقل مقترحاته ، وأبوا جميعا التخلي عن مستلكاتهم وآمالهم من أجل أمل بعيد في الحصول على ثروات آسيا . وبعد أن فشلت وسائل الاقتناع قرر أرجيروس أن يجبر أو يدمر ، فالتمس من القوات اللاتينية أن تعاونه ضد العدو المشترك . وعقد حلف هجومى بين البابا وبين امبراطورى الشرق والغرب . وكان يجلس على عرش القديس بطرس وفتنذ ليو التاسع ، وهو قديس ساذج يؤهله طبعه الى درجة كبيرة لخداع نفسه وخديعة العالم . فكانت شخصيته الوقورة لا تمانع في أن يقدر باسم التقوى أكثر الوسائل بعدا عن الدين . وتأثرت روحه الانسانية بشكاوى شعب مكلوم ، أو ربما بافتراءاته . وانقطع هؤلاء النورمان الذين لا يعرفون الورع عن دفع العشور . ومن ثم يكون من الجائز شرعا أن يسلم سيف السلطة الزمنية لانزال العقوبة بهؤلاء اللصوص الذين انتهكوا الحرمات الدينية ، وأصموا آذانهم ضد تقرير الكنيسة لهم . وبوصفه ألمانيا من أصل نبيل ومن أقرباء الامبراطور ، فقد كانت أبواب البلاط مفتحة أمامه ، ونال ثقة الامبراطور هنرى الثالث . وفي بحثه عن أسلحة وحلفاء ، حملته حساسه المتأجج من أبوليا الى سسكونيا ، ومن نهر الألب الى نهر التير . وفي أثناء هذه الاستعدادات العدائية ، أفرغ أرجيروس همه في استخدام أسلحة سرية واجرامية . فوقع عدد من النورمان ضحايا الانتقام الخاص أو العام ، وقتل دروجو الشجاع في احدى الكنائس . ولكن روحه عاشت بعده في أخيه همفري ، الدوق الثالث لأبوليا . وحل العقاب بالقتلة ، وطرده ابن ميلو من ميدان القتال ، بعد أن هزم وجرح ، ليخفى عاره وراء أسوار بارى ولينتظر نجدة حلفائه ، التي أبطأ وصولها اليه .

ولكن الحرب مع الأتراك كانت سببا في تشتيت قوة قسطنطين .  
وكان هنرى ذا عقل ضعيف لا يستقر له قرار . أما البابا ، فانه بدلا من  
أن يعبر الألب في عودته ومعه جيش ألماني . اصطحب فقط حرما  
مؤلّفا من سبعمائة من السوابيين وبعض المتطوعين من اللورين . وفي  
تقدمه الذي استغرق زمنا طويلا من بلدة ماتتوا الى تارينتوم ، انضوى  
تحت الراية المقدسة جمع مهوش شرير من الايطاليين . فنام القسيس  
واللص في الخيمة نفسها . واختلطت الحراب بالصلبان في المقدمة .  
وكرر هذا القديس المحارب دروسا كان قد تلقنها في شبابه ، عن نظم  
السير واقامة المعسكرات والقتال . ولم يكن نورمان أبوليا يستطيعون  
أن يجمعوا أكثر من ثلاثة آلاف من الخيالة وحفنة من المشاة ،  
للاشتراك في القتال . وقد اعترض ارتداد المواطنين سبيل وصول  
المؤن اليهم ، وعوق تراجعهم . وثبط من همهم التي لا تعرف الخوف ،  
ما غشيههم ، لأمد قصير ، من رهبة دينية . وما ان اقترب ليو بخيله  
ورجله ، وهو يريد بهم سوءا ، حتى ركعوا دون خزي ولا تخرج أمام  
أبيهم الروحي . ولكن ليو أبى في اصرار وعناد أن يصفح عنهم .  
وتظاهر جنوده الألمان طوال القامة بازدراء قامات خصومهم القصيرة .  
وأبلغ النورمان أن لهم الخيرة بين الموت أو النفي . ولا ثالث لهما ،  
ولكنهم احتقروا الفرار . ولما لم يكن الكثيرون منهم قد تذوقوا الطعام  
طيلة ثلاثة أيام ، فانهم استمسكوا بفكرة موت محقق أكثر يسرا  
وشرفا . فصعدوا تل كيفيتيلا Civitella ثم هبطوا الى الوادي ،  
وهاجموا جيش البابا من جهات ثلاث . والى اليسار وفي  
الوسط هاجم ريتشارد دوق أفيرسا وروبرت جيزكارد الشهير الحشود

الاطالية ، ونجحا في هزيمتهم وتشتيتهم ومطاردتهم . وكان الايطاليون يحاربون دون نظام ، وفروا دون استحياء . ومنيت شجاعة دوق همفري الذى قاد الخيالة فى الجناح الأيمن بتجربة أقى . ووصم الألمان بعدم المهارة فى استخدام الخيل والحرب ، ولكنهم شكلوا ، كمشاة ، صفا قويا لا يمكن اختراقه ، ولم يقو انسان أو حصان أو سلاح على مقاومة سيوفهم الطويلة ذوات المقبضين . وبعد صدام شديد ، أحاطت بهم الفرق التى عادت من عملية المطاردة ، فماتوا فى أماكنهم يخف بهم حسن تقدير أعدائهم وبهجة الأخذ بالثأر . وأغلقت أبواب كيفيتيلا فى وجه البابا فى فراره ، وقد لحق به المنتصرون الأتقياء الذين قبلوا قدميه ، وتضرعوا اليه أن يمنحهم بركته ، وأن يفر لهم ذنوبهم التى جناها عليهم هذا النصر الأثيم . ورأى الجنود أن عدوهم وأسيرهم هو نائب المسيح . ورغم أننا قد تحس هنا سياسة الزعماء أو الرؤساء ، فانه من المحتمل أن عدوى الخزعبلات الشعبية قد سرت الى الجنود . وفى هدأة خلوه الى نفسه ، رثى البابا ذو النية الحسنة لسفك الدم المسيحى الذى يجب أن يحتمل هو وزره . وشعر أنه كان سببا فى هذه الآثام والمخازى . ولما كافت حملته قد باءت بالفشل فقد انطلقت الألسنة تندد بحمله السلاح واشتراكه فى الحرب ، وتقول ان ذلك لم يكن يليق به . وتحت تأثير أمثال هذه الخواطر أصغى الى اقتراح بعقد معاهدة نافعة . فهجر حلفا كان قد دعا اليه باسم قضية الله ، وأقر فتوحات النورمان فى الماضى والمستقبل . ومهما يكن من أمر غاصبى مقاطعتى أبوليا وكالابريا من قبل ، فقد صارتا جزءا من هبة قسطنطين وأملاك القديس بطرس وقد ثبتت المنحة



والقبول مزاعم كل من البابا والمغامرين . وقد وعد كل من الفريقين بأن يساعد الطرف الآخر بالأسلحة الروحية والزمنية . وحددت فيما بعد ضريبة أو جزية أو « بدل خدمة » مقدارها اثنا عشر بنسا ، عن كل قطعة من الأرض يستطع ثمانية من الثيران حرثها في عام . ومنذ هذا الاتفاق المشهود بقيت مملكة نابلى أكثر من سبعمائة عام اقطاعية تابعة للكرسى البابوى .

### فتوحات روبرت جيزكارد

ثار خلاف حول ارجاع نسب روبرت جيزكارد الى الفلاحين أو الى دوق نورماندى . فأرجعته الأميرة اليونانية ، غرورا وجهلا ، الى طبقة الفلاحين ، وسما به رعاياه الايطاليون ، جهلا وملقا الى طبقة النبلاء . ويمكن ارجاع نسب الحقيقي الى الطبقة الثانية أو الطبقة الوسطى من النبلاء المحليين . نشأ فى فئة Valv:ssors أو Bannerets فى أبرشية كوتانسس Coutances فى نورمانديا السفلى . وكانت قلعة أوتفيل مقرهم الكريم . وكان أبوه تانكرد Tancred شخصية بارزة فى بلاط الدوق وجيشه . وكان يقوم على خدمته العسكرية عشرة جنود أو فرسان . وتزوج مرتين ، وفى كلتا المرتين كانت زوجته جد جديدة بمرتبته . ومن هذين الزوجين ولد له اثنا عشر ابنا . وقد ربوا فى داره تحت رعاية زوجه الثانية ، التى لم تكن وقتها تعرف التفرقة . ولكن ماله القليل لم يكن يكفى العدد الكبير من الأبناء الذين امتازوا بالجرأة . انهم تلفتسوا فيما حولهم فلم يروا غير شرور الفقر والتناقر ، ومن ثم عقدوا العزم على

أن يلتصقوا في الحروب الخارجية تراثا أعظم وأمجد . وبقي اثنان منهم  
للمحافظة على أسرته من الاقتراض ولرعاية والدهم في شيخوخته .  
أما الأخوة العشرة . فما إن اشتد عود الواحد منهم واكتملت رجولته  
حتى غادر القلعة ، وعبر جبال الألب وانضم الى معسكر النورمان  
في أبوليا . وكانت الروح الوطنية حافز الاخوة الأكبر سنا ، وكان  
الاخوة الثلاثة الأكبر سنا وهم : وليم ودروجو وهمفري ، جديرين  
بأن يتزعما قومهم ، وأن يؤسسوا الجمهورية الجديدة . وكان روبرت  
هو أكبر أبناء الزوجة الثانية وعددهم سبعة . وأضفى عليه ثناء أعدائه  
الذى لم يأت قط طواعية أو عن طيب خاطر ، مناقب الجندى ورجل  
الدولة . وكانت قامته الطويلة تعلو على أطول قامة في جيشه . وامتازت  
أطرافه بالقوة والرشاقة في تناسب صحيح . واحتفظ حتى أخريات  
أيام حياته بنضارة الصحة وقوة الشخصية . وكان لون بشرته يضرب  
الى الحمرة ، وكنفاه عريضتين ، وشعر رأسه ولحيته طويلا يميل الى  
الصفرة ، وعيناه تقدحان شررا ، وكان صوته ، كصوت أخيل Achilles  
يستطيع أن يفرض الطاعة ويزرع الفزع وسط صخب القتال . وفي  
أيام الفروسية الأولى لم تكن عين الشاعر أو المؤرخ لتخطئ مثل هذه  
الصفات . وكان في مقدورهما أن يلحظا أن روبرت كان يستطيع في  
وقت واحد أن يستل سيفه بيمينه ويقبض على الحربة بيساره ، وأنه  
في موقعة كيفيتلا طرح ثلاث مرات عن صهوة جواده ، وأنه في ختام  
ذلك اليوم المشهود أجمعت الآراء على أنه قد انتزع جائزة الشجاعة  
من بين محاربى الجيش . وكان طموحه الذى لا حد له يتركز على  
شعوره بجدارته الفائقة . وفي جريه وراء العظمة لم تقف قط في طريقه

محاذاير العدالة ، وقلما حركته مشاعر الانسانية ، رغم أنه كان دقيق الحس فيما يمس السمعة والشهرة . وكانت مصلحته العاجلة هي وحدها التي تحدد اختياره للوسائل السرية أو العلنية . وقد أطلق على رب الحكمة السياسية هذا لقب جيزكارد ، وكثيرا ما اختلطت هذه الحكمة السياسية باستخدام أفانين النفاق والخداع . وقد أثنى شاعر أبوليا على روبرت لأنه بزيوليسيس في المكر وشيرون في الفصاحة . ومع ذلك فقد كانت هذه الأفانين تستقر وراء مظهر الصراحة العسكرية . وبعد أن بلغ أسمى المراتب ، لم يوصد أبوابه دون رفاقه الجنود ، وكان كيسا لطيف المعشر معهم . وبينما أغضى عن أهواء وحزازات رعاياه الجدد ، نراه تكلف في لباسه وعاداته وسلوكه ، الاحتفاظ بالطراز المتين في بلده . وقد سلب ونهب بيد جشعة ، حتى يوزع بيده الأخرى ، كرما منه وسخاء . وقد علمته أيام عوزه الأولى الاقتصاد والتدبير . ولم يغفل أن يوجه التفاته الى أرباح التجارة . وقد عذب أسراه عذابا بطيئا في قسوة وحشية لاجبارهم على الكشف عن كنوزهم الدفينة . وقد ذكرت المصادر اليونانية أنه ترك نورمانديا بصحبة خمسة أتباع من الخيالة وثلاثين من الرجالة . بل ان هذا التقدير يبدو سخيا أو مبالغا فيه . وعبر الابن السادس لننكرد دي أوتفيل جبال الألب مرتديا لباس الحجاج ، وجند فرقته العسكرية الأولى من بين المغامرين الايطاليين . وكان اخوته ومواطنوه قد اقتسموا الأراضي الخصبة في أبوليا ، وحافظ كل على نصيبه بروح من الحقد يمليه الجشع . فأجبر هذا الشاب الطموح على التقدم نحو جبال كالابريا . وفي مغامراته الأولى ضد اليونانيين والأهالي ، ليس من السهل تمييز البطل

من اللص . وكان الهجوم المفاجيء على قلعة أو دير ، أو نصب شرك  
لرجل غنى ، و سلب القرى المجاورة للحصول على القوات الضرورى  
— تلك كلها كانت الجهود الغامضة التى شكلت ودربت قواه الذهنية  
والجسدية . وانضى المتطوعون من نورمانديا تحت لوائه ،  
وتحت قيادته اتخذ فلاحو كالابريا اسم النورمان وأخلاقهم . .  
وسمى عبقرية روبرت كلما واتاه الحظ ، فأثار هذا حقد أخيه  
الأكبر . وفى نزاع عابر . هدد هذا الأخ الأكبر حياة روبرت وحد من  
حريته . وبعد موت همفري حال صغر سن أبنائه دون توليهم مقاليد  
الأمور . وزج بهم طموح وصيهم وعيهم الى ضيعة خاصة . ورفع  
جيزكارد على ترس ونودى به « كونت » أبوليا وقائدا للجمهورية .  
وبازدياد سلطانه وقوته شرع ثانية فى فتح كالابريا . وسرعان ما راوده  
الأمل فى أن يحظى بمرتبة تملو به الى الأبد فوق رءوس قرنائهم . وقد  
جلب على نفسه قرارا بابويا بالحرمان لارتكابه بعض أعمال النهب  
وانتهاك حرمت الدين . غير أن نيقولا الثانى اقتنع بسهولة بأن الشقاق  
بين الأصدقاء لابد أن ينتهى الى الأضرار بكل منهم . وأن النورمان  
هم حماة الكرسي الرسولى الأمناء ، وأنه من الأسلم أن تثق فى حلف  
مع أمير ، من أن تطمئن الى نزوات الارستقراطية . وانعقد فى ميلفى  
مجلس مؤلف من مائة أسقف ، وأوقف الكونت مشروعا هاما من  
أجل حماية البحر الرومانى وتنفيذ قراراته . واقتضت سياسته  
واعترافه بحسن صنيع روبرت أن يمنحه وذريته من بعده لقب دوق ،  
مع اقطاعه أبوليا وكالابريا ، وكل أرض فى إيطاليا أو فى صقلية ،  
يمكنه أن يستخلصها من أيدي اليونانيين المنشقين أو العرب الكفار .

وربما كان قرار البابا يبور حروب جيزكارد ، ولكن طاعة شعب حر  
منتصر لا يمكن أن تستخلص على غير رضا منه . وأخفى جيزكارد  
نبأ ترقيته حتى كملت الحملة التالية بفتح كسترا ورجيو . وفي ساعة  
النصر جمع جيشه وطلب الى النورمان أن يؤكدوا قرار نائب المسيح  
بالتصويت عليه . وحيا الجنود بصيحات الفرح دوقهم الشجاع ،  
وأقسم الكونتات قرناؤه السابقون ، يمين الولاء وعلى شرفهم  
إبتسامة جوفاء وفي قلوبهم حقد دفين . وبعد أن تقلد منصبه رسميا  
في هذا الحفل ، لقب روبرت نفسه : « بفضل الله والقديس بطرس ،  
دوق أبوليا وكالابريا ، وصقلية فيما بعد » . وقد استغرقت جهوده  
عشرين سنة حتى يكون أهلا لهذه الألقاب الضخمة ويحققها . وربما  
بدا أن مثل هذا التقدم البطيء في مساحة ضيقة لا يليق بكفاية الزعيم  
وروح الأمة . ولكن عدد النورمان كان قليلا ، ومواردهم ضئيلة ،  
وخدماتهم اختيارية ومزعزعة . وكان يقف في وجه أجراً مشروعات  
الدوق في بعض الأحيان قرار حر يصدر من برلمانه المؤلف من  
البارونات . وقد تأمر الاثنا عشر دوقا الذين وقع الاختيار عليهم في  
انتخاب عام ضد نفوذه . وطالب أبناء همفري بالقصاص والانتقام من  
عمهم الخائن . وكشف جيزكارد سياسته وقوته مؤامرتهم وأخسدهم  
ثورتهم ، وعاقب المجرمين بالموت أو النفي . غير أنه في هذه المنازعات  
الداخلية مرت سنوات دون جدوى وضاعت سدى جهود قومية . وبعد  
هزيمة أعدائه في الخارج وهم اليونانيون واللومبارديون والعرب ،  
تراجعت قواتهم المحطمة الى المدن القوية الزاخرة بالسكان على ساحل  
البحر . وكانوا متفوقين في وسائل التحصين والدفاع . أما النورمان فقد

ألفوا القتال على ظهور الخيل . ولم تكن محاولاتهم البدائية لتتجح لولا المثابرة على الشجاعة . وصمدت ساليرنو على المقاومة أكثر من ثمانية أشهر . ودام حصار بارى قرابة أربع سنوات . وفي أثناء هذه الأعمال كان الدوق النورماندى فى المقدمة عند كل خطر . وكان آخر من ينال منه التعب ، كما كان أكثر الجنود جلدا وصبرا . وبينما كان يضيق الخناق على ساليرنو هشم حجر ضخيم ألقى من الحصن إحدى آلاته الحربية ، وجرحته شظية فى صدره . وأقام أمام بارى فى كوخ حجير أو ثكنة من أغصان جافة مسقوفة بالقش : وهذا مكان مخوف بالخطر ، معرض من كل جانب لقسوة الشتاء وحراب العدو .

وتتفق فتوحات روبرت فى إيطاليا مع حدود مملكة نابلى الحالية . ولم تستطع ثورات سبعائة من السنين أن تفصل بين الأقطار التى وحدها سيفه . وكانت المملكة تتألف من ولايتين يونانيتين : هما أبوليا وكالابريا ، ومن إمارة لومباردية فى ساليرنو ، ومن جمهورية أمالفى ، ومن الأجزاء الداخلية من دوقية بينيفنتوم العتيقة الواسعة . ولم يستثن من قاعدة الخضوع التام الا ثلاثة أقسام ، أعفى الأول الى الأبد والآخران حتى منتصف القرن التالى . ونقل امبراطور ألمانيا الى الحبر الرومانى ، اما على سبيل الهبة أو التبادل ، مدينة بينيفنتوم وما يجاورها . وعلى الرغم من أن هذه الأرض المقدسة تعرضت للغزو فى بعض الأحيان ، فان اسم القديس بطرس كان فى النهاية أقوى من سيف النورمان . وأخضعت مستعمرتهم الأولى فى أفيرسا حكومة كابوا ، وسيطرت عليها ، واضطر أمراؤها الى التسول أمام قصر آبائهم . واحتفظ دوق نابلى ، وهى العاصمة الحالية ، بالحرية التامة

في ظلال شبح الامبراطورية البيزنطية . وثمة أشياء جديدة مما أحرزه  
جيزكارد ، قد تستوقف انتباه القارئ المثلث لحظة ، ليستعرض  
علوم ساليرنو وتجارة أمانف .

١ — ان ظهور الفقه ، كأحد العلوم العقلية ، انما يعنى أن القوانين  
والملكية كان لهما وجود سابق مستقر ، كما أن اللاهوت قد  
يفنى عنه كمال نور العقل والدين . ولكن الساذج والحكيم  
كليهما لابد أن يلتصبا العون من علوم الطب والعلاج . وإذا  
كان الترف يزيد من أمراضنا نحن ، فربما كان أذى الضربات  
والجروح ، أبلغ في عصور المجتمع التي هي أكثر بدانة .  
وقد حملت كنوز الطب اليوناني الى المستعمرات العربية في  
أفريقية وأسبانيا وصقلية . وفي أثناء الاتصالات التي حدثت في  
السلم وفي الحرب ، ظهر قبس من نور المعرفة ، تعهدته ساليرنو ،  
وهي مدينة لامعة ، اشتهر رجالها بالأمانة ونسائها بالجمال .  
وخصصت مدرسة لفن العلاج ، وهي أول مدرسة قامت في  
ظلام القرون الوسطى في أوروبا . وقد طابت نفوس الأساقفة  
والرهبان بهذه المهنة الناجحة المربحة . واستدعى عدد كبير من  
المرضى من أعلى المناصب ومن أقصى الأرض أطباء ساليرنو  
أو زاروهم . وكان هؤلاء الأطباء ينعمون بحماية الفاتحين من  
النورمان . ورغم أن جيزكارد نشأ في  
استطاع أن يتبين فضل الفيلسوف و  
استغرق تسعا وثلاثين سنة ، عاد قسمه  
أفريقية ) من بغداد بعد أن أتقن لغة

ساليرو بأعمال تلميذ ابن سينا في العلاج وبدروسه ومؤلفاته . وظلت مدرسة الطب زمنا طويلا تحت اسم جامعة . ولكن تعاليمها اختزلت في سلسلة من الحكم والأمثال التي جمعت في الأشعار الليونينية <sup>(١)</sup> أو الشعر اللاتيني في القرن الثاني عشر .

٢ — وعلى مسافة سبعة أميال الى الغرب من ساليرو ، وثلاثين ميلا الى الجنوب من نابلي ، كشفت بلدة أمالفى المغمورة عن قدرتها على الجد في العمل ، وعما لقيت من جزاء وفاق لهذا الجد ، وكانت الأرض فيها خصبة ، الا أنها ضيقة الرقعة . ولكن البحر كان قريب المنال مفتوح الأبواب . وكان أهلوها أول من احترف جلب مصنوعات الشرق ومنتجاته الى العالم الغربي . وكانت هذه التجارة المربحة مصدر ثرائهم وحرثهم . وكانت حكومتها شعبية ، يدير شئونها الدوق ، تحت سيادة الامبراطور اليوناني . وضمت أسوار أمالفى خمسين ألفا من المواطنين . ولم تكن هناك مدينة أخرى تفوقها فيما زودت به من الذهب والفضة وأدوات الترف الثينة . ونبغ البحارة الذين جاءوا أفواجا الى مينائها ، فظريا وعمليا ، في فنون الملاحة والفلك . ويرجع كشف البوصلة التي فتحت أقطار الكرة الأرضية الى عبقرتهم أو حسن حفظهم . وقد امتدت

---

(١) Leonine Verse — لون من الشعر الخماسي أو السداسي التفاعيل ، كان سائدا في العصور الوسطى ، يكون فيه المقطع الأوسط والمقطع الأخير من البيت ، من قافية واحدة . ولم يتفق الراي على أصل هذه التسمية . ( الترجمة )



تجارتهم الى سواحل ، أو على الأقل الى بضائع ، أفريقية وبلاد  
العرب والهند . وحظيت جالياتهم فى القسطنطينية وأنطاكية  
وبيت المقدس والاسكندرية بامتيازات المستعمرات المستقلة .  
وبعد ثلثمائة سنة من الرخاء أنهكت أسلحة النورمان أمالفى ،  
ودفعت الغيرة بيزا الى نهجها . لكن الأطلال الباقية من الترسانة  
والكاتدرائية وقصور التجار التى كانت أشبه بقصور الملوك ،  
تضفى ظلالة من المجد على ألف من صائدى الأسماك .

وبقى روجر ، وهو الثانى عشر والأخير من أبناء تانكرد ، زمنا  
طويلا حبيسا فى نورمانديا ، نظرا لصغر سنه وكبر سن أبيه . ولكنه  
بعد ذلك قبل الدعوة الكريمة ، وسارع الى معسكر أبوليا ، وحظى  
فى البداية بتقدير أخيه الأكبر ، الا أنه استنصر منه الحقد والحسد  
فيما بعد ، وكان الأخوان من حيث الشجاعة والطموح على قدر  
سواء . ولكن شباب روجر وجماله وأناقته سلوكه اجتذبت محبة  
الجنود والشعب ، محبة خالصة مجردة ، وكانت النفقة التى سمح بها  
له ولأربعين تابعا معه ، من الضاكة بحيث انحدر من الفتح والغزو الى  
السلب ، ومن السلب الى سرقة الدور . وكانت مفاهيم الملكية آنذاك  
مائعة فضفاضة ، الى حد أنه اتهم بقلم مؤرخه الخاص ، وبأمر خاص  
منه ، بسرقة خيل من اصطبل فى ميلفى . من هنا ترى أن روحه انبثقت  
وسط العوز والعار . ولكنه من هذه الأعمال الحقيرة سما حتى أصبح  
كفئا لشن حرب مقدسة ، جديرا بأن يحظى بمجدها . وكان حماس  
أخيه جيزكارد وسياسته يشجعان غزو صقلية . فبعد أن تقهقر  
اليونانيون ، استرد من عبدة الأوثان — كبرت كلمة قذف تخرج من

أفواه الكاثوليك — خسائرهم وممتلكاتهم . ولكن انقاذ هذه الجزيرة ، الذى حاولته عبثا قوات الامبراطورية الشرقية ، ثم فى النهاية على يد عصبة صغيرة خاصة من المغامرين . وفى أول محاولة له ، واجه روجر ، فى قارب مكشوف ، أخطارا جساما . ونزل الى البر على شاطئ معاد ، ومعه ستون جنديا فقط ، وطارد العرب حتى أبواب مسينا ، ورجع سالما يحمل أسلاب الريف المجاور . وفى حصن ترانى Trani تجلت كذلك شجاعته وصموده . وفى أيام شيخوخته روى فى سرور بالغ ، أنه فى أثناء المحنة التى حلت بهم بسبب الحصار، لم يبق له ولزوجته الكوتيس ، الا عبادة واحدة كانا يتناوبان ارتداءها ، وأنه فى هجوم على الحصن قتل جواده ، وقذف العرب بروجر بعيدا ، وأنه مدين بنجائه الى سيفه ، حيث استطاع أن ينسحب وهو يحمل السرج فوق ظهره حتى لا يبقى أى شئ ولو تافه فى أيدي هؤلاء الأشرار ، رمزا لانتصارهم . وفى حصار ترانى قاوم ثلثائة من النورمان قوات الجزيرة وصدوها عن الحصن . وفى معركة كيراميو Ceramio هزم مائة وستة وثلاثون جنديا مسيحيا — دون أن ندخل فى حسابنا القديس جورج الذى حارب على ظهر جواد فى الصفوف الامامية — خمسين ألفا من الخيالة والمشاة . وبعد المعركة احتفظ لخليفة القديس بطرس بالرايات التى أخذت ، وبأربعة من الابل . ولو أن هذه الأسلاب البربرية عرضت فى الكايتول ، لا فى الفاتيكان ، لأعادت ذكرى الانتصار فى الحرب البونية . ومن المحتمل جدا أن أعداد النورمان هذه ، وهى غير كافية ، تشير فقط الى فرسانهم والى المحاربين ذوى المراتب العالية النبيلة ، وكان يحيط بكل منهم فى

ميدان القتال خمسة أو ستة من الأتباع . ومع ذلك ، ومع الاستعانة بهذا التفسير ، وبعد أن ندخل في حسابنا كل ما تستطيع البسالة والأسلحة والسمعة الطيبة أن تفعل ، فإن هزيمة أمثال هذه الألوف المؤلفة لا تترك للقارىء الحصيف الا أن يختار بين التصديق بالمعجزة أو بالخرافة . وكثيرا ما تلقى عرب صقلية نجدات قوية من مواطنيهم في أفريقية . وفي حصار باليرمو كانت سفن بيزا الحرية تساعد خيالة النورمان ، وقد سما تحاسد الأخوين في ساعة الجد الى مباراة كريمة يتعذر فيها قهرهما . وبعد حرب استمرت ثلاثين عاما حظى روجر بلقب الكونت الأعظم ، وارتقى عرش أكبر جزر البحر المتوسط وأكثرها خصوبة . وأظهر في ادارته روحا كريمة مستنيرة ، أعلى بكثير من المألوف في زمانه ، والمأمول من تعليمه . واحتفظ للمسلمين بحرية ممارسة دينهم والتمتع بممتلكاتهم . وألقى فيلسوف طبيب مسلم من مازارا خطبة رنانة أمام الفاتح ، فدعاه الى البلاط ، وترجم وصفه للأقاليم السبعة الى اللغة اللاتينية ، وفضل روجر كتاب الجغرافى العربى بعد أن تصفحه في جد ، على مؤلفات بطليموس اليونانى . وكانت هناك بقية مسيحية ساعدت على انتصار النورمان ، فكان جزاؤها انتصار الصليب ، فأعيدت الجزيرة الى سلطان الحبر الرومانى ، الذى بادر الى تعيين أساقفة جدد في المدن الرئيسية ، وقنع رجال الدين بالأموال الوفيرة الموقوفة على الكنائس والأديرة . ولكن هذا البطل الكاثوليكي أكد حقوق الحاكم المدنى . وبدلا من التنازل عن المناصب ذوات الرواتب فى الكنيسة ، استغل المزاعم البابوية استغلالا بارعا لمصلحته . ووطد سيادة التاج التى زاد منها قرار بابوى غريب يعلن أن أمراء صقلية نواب دائمون للكرسى الرسولى .

ان فتح صقلية أتى لروبرت جيزكارد بمجد أكبر وبغير أقل .  
وكانت أبوليا وكالابريا لا تتسمان لطموحه ، فقرر أن ينتهز أو يخلق  
أول فرصة لغزو ، وربما لاخضاع ، الامبراطورية الرومانية في  
المشرق . وقد طلق زوجته الأولى ، شريكة حياته المتواضعة ، معتذرا  
بصلة الدم ، وقدر لابنتها بوهيند أن يحاكي أباه اللامع الذكر ،  
لا أن يخلفه . وكانت زوجته الثانية سليلة أمراء ساليرنو . ورضى  
اللومبارد بتوريث ابنهما روجر ، بحكم القرابة الدموية . وحظيت  
بناتهما الخمس بالزواج من أبناء الأشراف . وكانت احداهن مخطوبة ،  
منذ صغرها ، لقسطنطين وهو شاب وسيم ، وابن الامبراطور ميكائيل  
وولى عهده . غير أن ثورة هزت عرش القسطنطينية ، واحتجزت الأسرة  
المالكة — أسرة دوكاس — في القصر أو في أحد الأديرة . وحزن  
روبرت وغضب للعار الذي لحق بابنته ولطرد حليفه . وسرعان  
ما ظهر في ساليرنو يوناني يسمى نفسه بوالد قسطنطين ( ميكائيل ) ،  
وروى قصة مغامراته في سقوطه وهربه . واعترف الدوق بهذا  
الصديق المنكود الحظ ، وأحاطه بمظاهر الأبهة ، وخلق عليه الألقاب  
اللائقة بمكانة الامبراطور . وفي تقدمه المظفر في أبوليا وكالابريا حيا  
الناس ميكائيل هذا بدموعهم وهتافاتهم . وحث البابا جريجورى  
السابع الأساقفة على الوعظ ، والكاثوليك على الحرب ، للمعاونة في  
هذا العمل الورع ، وهو اعادته الى عرشه ، وكانت أحاديثه مع روبرت  
كثيرة وصريحة ، وكانت شجاعة النورمان وكنسوز المشرق تبرر  
وعودهما المتبادلة . وكان ميكائيل هذا — باعتراف اليونانيين  
واللاتين — طبلا أجوف ودجالا ، فهو اما راهب فر من دير ، أو خادم

من خدم القصر ، وقد ابتدع هذه الخدعة جيزكارد الماكر الذى اعتقد أنه بعد أن يضى هذا المطالب بالعرش على جيوش جيزكارد صفة لائقة ، سينزل الدجال من عليائه ، بإشارة من الفاتح ، الى حضيض حياته المغمورة السابقة . ولكن الانتصار هو الحجة الوحيدة التى تحدد ايمان اليوفانيين ، وكان حماس اللاتين أقل بكثير من سذاجتهم ، وقد رغب قدماء المحاربين من النورمان فى التمتع بشار جهودهم ، وارتعد الايطاليون الذين لا يحبون الحروب فرقا من أضرار الحملات البحرية المعروفة وغير المعروفة ، وفى حشوده الجديدة حاول روبرت تجربة أثر الهدايا والوعود ، وفظائع السلطان المدنى والدينى . وربما بررت بعض أعمال العنف ما وجه اليه من لوم ، من أن المسنين وصغار السن قد أجبروا دون تمييز ، على خدمة أغراض أميرهم الذى لا يلين ولا يرحم . وبعد سنتين من الاعداد المتواصل اجتمعت القوات البرية والبحرية فى أوترانتو فى أقصى الجنوب من ايطاليا . واصطحب روبرت زوجته التى حاربت الى جانبه ، وابنه بوهمند ، وممثلا للامبراطور ميكائيل . وقد كون عصب الجيش ألف وثلثمائة فارس من النورمان أو ممن دربوا على نهجهم . وربما وصل فى مجموعه الى ثلاثين ألفا من الأتباع من كل ملة . وقد حمل الرجال والخيول والأسلحة والآلات الحربية والقلاع الخشبية التى تكسوها الجلود على ظهر مائة وخمسين سفينة . وقد صنعت سفن النقل فى موانئ ايطاليا ، أما زوارق الحرب فقد أمدتهم بها جمهورية راجوسا بناء على تحالف بينهما .

وفى مدخل الأدرياتيك يقترب شاطئ ايطاليا وأيبروس كل منهما من الآخر . فلا تزيد المسافة بين برنديزى ودورازو — الممر الرومانى —

على مائة ميل ، وفي أقصى نقطة من أوترانتو تضيق حتى تصل الى خمسين ميلا . وهذه المسافة القصيرة هي التي أوحى الى بيروس ( ملك أبيروس ٢٩٥ — ٢٨٢ ق م ) وبومبي بالفكرة السليمة أو المتطرفة — ألا وهي فكرة تشييد قنطرة . وقبل أن يتم صعود الجود على ظهر السفن أرسل الدوق النورماندى ابنه بوهند ومعه خمس عشرة سفينة حربية ، ليستولى على جزيرة كورفو أو يهددها ، وليرتاد الشاطئ المقابل ، ويختار في جوار فالونا ، ميناء صالحا لانزال الجنود . ومرة النورمان وأنزلوا جنودهم دون أن يروا أحدا من الأعداء . وقد أظهرت هذه التجربة الناجحة اهمال قوة البونان البحرية وانحلالها . وخضعت أبيروس والمدن الساحلية لأسلحة أو لاسم روبرت الذي قاد بنفسه جيشه وأسطوله من جزيرة كورفو ( اتى أستعمل الاسم الحديث ) الى حصار دورازو وهي مفتاح الامبراطورية من الغرب ، وكانت تحف بها شهرة قديمة وتحميها تحصينات جديدة أقامها جورج باليولوغوس ، وهو من سلالة الأشراف . وكان قد أحرز النصر في حروب المشرق — الى جانب حامية كبيرة من الألبانيين والمقدونيين الذين احتفظوا في كل عصر وزمن بأخلاق الجنود . وفي تنفيذ مشروعه هذا . تأمرت على شجاعة جيزكارد كل ألوان الخطر وسوء الطالع . ففي أحسن فصل في السنة ، وبينما كان أسطوله بمحاذاة الساحل ، هبت فجأة عاصفة ثلجية ، وتلاطم الأدرياتيک بريح الجنوب الهائجة ، وأكد تحطيم السفن من جديد سوء سيرة الصخور الأكروكيرونية في العالم القديم . ومزقت الأشرعة والصواري والمجاديف أو اترعت وألقيت بعيدا . وغطى البحر والشاطئ ببقايا السفن والأسلحة وجثث الموتى . وغرق أكبر جزء من المؤن أو تلف . وأتخذ الزورق الحربى الذي

كان يستقله الدوق من برائن الأمواج بعد جهد جهيد . ومكث روبرت سبعة أيام على الرأس المجاور ليجمع شتات خسائره ويرفع من روح جنوده المعنوية . فلم يعد النورمان هم البحارة الشجعان المدربين الذين كشفوا المحيط من الجزيرة الخضراء الى جبال أطلس ، والذين ابتسموا أمام الأخطار الصغيرة في البحر المتوسط . وكم ذرفوا الدمع أثناء العاصفة ، وأزعجهم اقتراب البنادقة الذين استمالهم البلاط البيزنطى بالرجاء والوعود . ولم تكن نتيجة اليوم الأول غير ذات جدوى لبوهنند الشاب الأمرد الذى قاد قوات أبيه البحرية . وبقيت زوارق الجمهورية طيلة الليل فى مراسيها على شكل هلال . وأحرز النصر فى اليوم التالى براعة حركاتها ومواضع الرماة فيها وثقل حراهم والعون الذى أسعفتهم به النار اليونانية . فهربت سفن أبوليا وراجوسا الى الشاطئ ، وقطع المنتصرون جبال سفن كثيرة وجروها وراءهم . وأعمل المهاجمون من البلدة السلب والقتل ، وأشاعوا الذعر واليأس فى خيام دوق النورمان . وتدفقت الى دورازو نجات جاءت فى وقتها المناسب . وما أن فقد المحاصرون السيطرة على البحر ، حتى رفضت المدن الساحلية والجزر امداد المعسكر بالمسال والمؤن . وسرعان ما أصاب المعسكر مرض وبائى . فهلك خمسمائة من الفرسان فى ميتة غير كريمة . وبلغ عدد من دفنوا ( ان كان كل ميت حظى بدفن لائق ) عشرة آلاف شخص . ووسط هذه النكبات بقى عقل جيزكارد وحده قويا لا يقهر . وبينما كان يجمع قوات جديدة من أبوليا وصقلية ، كان يحلم أن يتسلق أسوار دورازو أو يدك أساسها . ولكن جده وشجاعته قوبلتا بشجاعة مساوية وجد أعظم . واندفع

أحد الأبراج وبه خمسمائة جندي على عجلات حتى وصل الى أسفل الحصن . الا أن نزول الباب أو الجسر المتحرك عطلته قطعة خشب ضخمة ، وأحرقت النار اليونانية البرج على الفور .

وبينما كانت الامبراطورية يهاجمها الأتراك من الشرق والنورمان من الغرب ، تنازل خلف ميكائيل لكبر سنه عن الصولجان ، وأسلمه الى ألكسيوس ، وهو ضابط لامع ، وهو الذي أسس أسرة كومنينوس . وتلاحظ الأميرة آن ، وهي ابنته ومؤرخته ، في أسلوبها المتكلف أن هرقل نفسه لم يكن كفوا لهذه الحرب في جبهتين .

وتطبيقا لهذا المبدأ ، توافق على صلح سريع عقده أبوها مع الأتراك ، حتى يستطيع التفرغ لتخليص دورازو بنفسه . وعند ارتقائه العرش وجد ألكسيوس المعسكرات خاوية من الجنود ، والخزانة خالية من الأموال . ومع ذلك كانت خطواته من النشاط والقوة ، ما مكنه أن يجمع في ستة أشهر جيشا من سبعين ألف مقاتل ، وأن يقطع مسافة خمسمائة ميل . وقد حشد جنوده في أوروبا وآسيا من المورة الى البحر الأسود . وظهر جلاله وبهاء ملكه في الأسلحة الموشاة بالفضة والزخارف الثمينة التي ازدادت بها فرق الحرس من الخيالة . وأحاطت بالامبراطور حاشية من النبلاء والأمراء خلع على بعضهم الرداء الأرجواني في تناوب سريع ، ونعموا في غمرة ذلك اللين والرفق ، برغد العيش والقوة . وكان من الممكن أن تلهب حماسهم الشاب حمية الجباهير ، ولكن حبهم للهو وثقورهم من الخضوع كانا يندران بالشر والفوضى . وكانت المطالبة في غير أوانها بعمل سريع حاسم من دواعي بليلة وتشيت فكر ألكسيوس الذي كان في استطاعته أن



يحاصر جيش العدو وأن يقتله جوعاً . ويفتضينا تعداد الولايات عقد مقارنة حزنة بين حدود العالم الرومانى فى الماضى والحاضر . وحشدت فرق المجندين بسرعة وفى فزع ، واشترت حامية الأناضول أو آسيا الصغرى باخلاء مدن احتلها الأتراك فى التو . وتألفت قوة الجيش اليونانى من الفارانجيين ، أى الحرس الاسكندىنافى الذى زادت فى أعداده فيما بعد أفواج من المنفيين والمتطوعين جاءوا من الجزيرة البريطانية تولى Thule . ورزح الدنماركيون والانجليز سويا تحت نير الفاتح النورماندى فأدى ذلك الى اتحادهم . وصمت عصابة من الشباب المغامر على هجر أرض العبودية ، وكان البحر مفتوحاً أمامهم ، وفى طوافهم الطويل زاروا كل شاطئ بعث الى نفوسهم أملاً فى الحرية والانتقام . الى أن التحقوا بخدمة امبراطور اليونان . وكان مستقرهم الأول فى مدينة جديدة على الشاطئ الآسيوى . ولكن سرعان ما استدعاهم ألكسيوس لحراسة شخصه والدفاع عن قصره . وقد ترك ولاءهم وشجاعتهم ميراثاً لخلفائه من بعده . وقد أثار اسم الغازى النورماندى فى نفوسهم ذكرى ما ارتكبوا من أخطاء ، فجدوا السير لللاقة هذا العدو القومى . ولهوا ليستعيدوا فى أيروس ما فقدوا من مجد فى معركة هيستنجز وكان يماون الفارانجيين بعض الفرق من الفرنجة واللاتين . وتآقت نفوس الثوار الذين فروا الى القسطنطينية من طغيان جيزكارد الى اظهار غيرتهم واشباع انتقامهم . وفى هذه الظروف الحرجة لم يحتقر الامبراطور العون المدنس الذى عرضته طائفة Paulicians أو اتباع مانى فى تراقية وبلغاريا . وكان هؤلاء الهرطقة يجمعون بين صبر الشهداء وبين النظام

والبسالة الحققة . وبمقتضى المعاهدة التى عقدت مع الأتراك جىء بعده  
آلاف من الجنود العثمانيين . وكانت سهام الخيالة الذين جاءوا من  
سكيديا تقف فى وجه حراب الخيالة النورمان . وعند ورود الأخبار  
عن هذه الأعداد الرهيبة ، رغم أنها لم تكن قد اقتربت بعد ، عقد  
روبرت مجلسا شهده أكبر ضباطه ، وقال لهم : « انكم ترون ما يحدث  
بكم من خطر داهم لا مفر منه . فالتلال مغطاة بالأسلحة والرايات .  
وامبراطور اليونان قد ألقى الحروب والاتصار . وفى الطاعة والاتحاد  
سلامتنا ونجاتنا . وادى على استعداد أن أترك القيادة لقائد أكثر  
جدارة » . فأكدت له أصواتهم وهتافاتهم ، حتى من أولئك الذين  
يضمرون له العداء ، أنه فى ساعة العسرة هذه حائز على تقديرهم  
وثقتهم . فاستطرد الدوق يقول : « فلنثق فى ثمار النصر ولنقطع على  
الجبنا سبيل الفرار . فلنحرق سفننا وأمتعتنا ولنحارب فى هذه البقعة  
كأنها مسقط رؤوسنا وقبورنا معا » . وقد نال هذا الاقتراح موافقة  
اجتماعية . ودون أن يحصر نفسه فى خطوطه ، انتظر جيزكارد وهو  
متأهب للقتال اقتراب العدو ، وكان يحمى مؤخرته نهر صغير ،  
وقد امتد جناح جيشه الأيمن الى البحر ، كما امتد الأيسر الى التلال .  
وربما لم يكن يدرك أنه فى هذه البقعة عينها تنازع فيصر وبومبى قديما  
حكم العالم .

وقرر الكسيوس ، ضد نصيحة أعقل ضباطه . أن يخاطر بكل شيء فى  
موقعة عامة وحرص حامية دورازو على المعاونة فى انقاذهم بهجوم  
يحمسون توقيته من البلدة . وقسم جيشه الى فرقتين ، وسار بهما ليفاجئ  
النورمان قبيل الصبح فى جهتين مختلفتين . وانتشرت خيالاته الخفيفة

في السهل ، وكون الرماة الخط الثاني . وحطى الفارانجيون بشرف  
الوقوف في المقدمة . وفي أول صدام بين الجيش قتلت فئوس الأجانب  
كثيرا من جيش جيزكارد الذي تناقص الى خمسة عشر ألف رجل . وولى  
الومبارد وجنود كالابريا الادبار في ذلة وهوان ، فرارا الى النهر والبحر .  
ولكن القسرة كانت قد هدمت لتعطل أى هجوم تقوم به العامية . وكان  
الساحل مغطى بيوارج البنادقه الذين أعمالوا آلانهم في هذا الزحام  
المهوش . وأثفدهم ، وهم على حافة الدمار ، روح زعمائهم وسلوكهم .  
وقد صور اليونانيون جايتا Gaita زوجة روبرت في صورة «المازونية»  
المقاتلة ، أو بلاس Pallas أخرى ، أقل مهارة في الفنون من تلك الالهة  
الاثينية ولكنها ليست أقل ارهابا في الحروب . ومع أنها قد أصيبت  
بسهم فانها ثبتت في مكانها وجاهدت بنا ضربت من مثل ، وبنا بذلت  
من نصيح وحض وتحذير ، أن تجمع شتات الجنود الفارين . وقد عاون  
صوتها النسائي الضعيف صوت دوق النورمان وذراعه القوية ، وكان  
هادئا وسط المعمة كما كان عقيما في المجلس . صاح بصوت مدو : « أين  
أين ، المفر ؟ ان عدوكم لا يرحم ، والموت أقل ايلاما من العبودية » .  
وكانت اللحظة الفاصلة . فعندما تقدم الفارانجيون الى خط القتال  
أدركوا أن جناحيهم عاريتان . وقد وقفت قوة الدوق الأساسية وهي  
تألف من ثمانمائة فارس ثابتة لم تمس ، وقد سددت حرايبها . ويصف  
اليونانيون في أسى عميق نزال الخيالة الفرنسية الوحشي ، الذي  
لا يقاوم . ولم يقصر الكسيوس في أداء واجبه كجندي وكقائد ، ولكنه  
سرعان ما رأى الفارانجين يذبحون والأتراك يهربون حتى احتقر  
رعاياه ، ويئس من حظه . ولم يكن في مقدور الأميرة التي ذرفت الدمع

على هذا الحادث المحزن الا أن تشي على قوة جواد أبيها وسرعته ، وعلى نضال والدها القوى ، وقد كادت ضربة من حربة حطمت خوذة الامبراطور أن تلقيه من فوق حصانه . وفي شجاعة يائسة اخترق صفوف فرقة من الفرنجة كانت تعترض سبيل فراره . وبعد أن هام على وجهه يومين وليلتين في الجبال وجد بعض الراحة لجسده لا لقلبه في داخل أسوار ليخنيديوس Lychnidus وقد غاب روبرت المنتصر المطاردة البطيئة الضعيفة التي سمحت لهذه الفريسة الثمينة أن تهرب . ولكنه تعزى عن هذا الأمل الضائع بالأسلاب ورايات القتال وثرء المعسكر البيزنطى وترفه ، وبمجد هزيمة جيش يزيد في العدد على خمسة أمثال جيشه . لقد سقط عدد كبير من الايطاليين ضحايا خوفهم ، ولكن ثلاثين فقط من فرسانه قتلوا في هذا اليوم المشهود . وفي الجيش الرومانى بلغت خسارة اليونانيين والأتراك والانجليز خمسة آلاف أو ستة . واصطبغ سهل دورازو بالدم النبيل والملكى ، وكافت نهاية ميكائيل المحتال أشرف من حياته . ومن المرجح أن جيزكارد لم يحزن لفقد هذا المحتال الثمين الذى استحق ازدراء اليونانيين وسخريتهم . لقد تأبروا بعد هزيمتهم على الدفاع عن دورازو . وحل قائد من البنادقة محل جورج باليولوجوس الذى أخرج من منصبه ، وكان من الحق اخراجه . وقد تحولت خيام المحاصرين الى ثكنات لرد قسوة الشتاء ، وفي رده على تحدى الحامية أشار روبرت الى أن صبره كان على الأقل مساويا لعنادهم . وربما كان قد وثق في المراسلات السرية التى كانت تدور بينه وبين أحد نبلاء البندقية الذى باع المدينة بزواج من عروس غنية نبيلة . وفي سكون الليل تدلت من الأسوار حبال على شكل سلم . فتسلق أهل كالابريا ،

وهم خفاف الأجسام ، فى صمت . واستيقظ اليونانيون على اسم  
الفاتح وأبواقه . ومع ذلك فقد دافعوا عن الشوارع ثلاثة أيام ضد  
عدو أصبح سيد الحصن . ومر ما يقرب من سبعة أشهر بين بدء  
الحصار واستسلام البلدة نهائيا . وتقدم دوق النورمان متوغلا فى  
قلب ألبروس أو ألبانيا . فعبر أول جبال فى تساليا ، وفاجأ ثلثمائة من  
الانجليز فى مدينة كاستوريا ، واقترب من سالونيك ، وألقى الرعب  
فى القسطنطينية . وقد أوقف واجب أكثر الحافا تنفيذ مشروعاته  
الطموحة . فقد نقص عدد جيشه حتى أصبح ثلث عدده الأصلي ،  
نتيجة تحطم السفن والوباء والسيوف . وبدلا من حشد مجندين من  
إيطاليا ، أنبأته رسائل حزينة تفيض بالشكوى بالأضرار والأخطار التى  
نجمت عن غيابه ، مثل ثورة المدن وبارونات أبوليا ، وقلق البابا ،  
واقتراب هنرى ملك ألمانيا أو هجومه . وكان يثق كل الثقة فى أن  
وجوده كاف لاشاعة الاطمئنان العام . فعبر البحر عائدا فى قارب  
صغير واحد وترك بقية جيشه تحت قيادة ابنه والأدواق النورمان .  
وحت بوهند على احترام حرية قرنائهم ، وحت الكونتات على الامتثال  
لسلطة قائدهم . وحذا ابن جيزكارد حذو والده . حتى لقد قارن  
اليونانيون بين هذين المخربين وبين اليسروع والجرادة ، حيث تقضى  
الأخيرة منهما على من ينجو من أسنان الأول . وبمعد أن انتصر فى  
موقعين ضد الامبراطور ، هبط الى سهل تساليا وحاصر لاريسا ،  
مملكة أخيل الخرافية ، وكانت تحوى خزائن المعسكر البيزنطى  
ومستودعاته . ومع ذلك ينبغى ألا نضن بالثناء العادل على ثبات  
ألكسيوس وحصافته ، حيث كان يناضل بشجاعة ضد نكبات الزمان .

ونظرا لفقر الدولة اجترأ على أن يقترض مقتنيات الكنائس التي لا تقع فيها . وحلت بعض قبائل مولدافيا محل المانيين Manichaeans الذين فروا . وحلت نجدة مؤلفة من سبعة آلاف من الأتراك محل اخوانهم الذين فقدوا ، وانتقموا لفقدهم . ودرب الجنود اليونانيون على ركوب الخيل ، ورمى القوس ، وعلى العمل اليومي ونصب الكمائن والتحركات . وعرف ألكسيوس من تجاربه أن خيالة الفرنجة الرهيبة لا تصلح للقتال على الأقدام ، وتكاد تكون حينئذ غير قادرة على الحركة . فأمر رماة السهام في جيشه بأن يسددوا سهامهم الى الخيل لا الى الرجال . وثر أنواعا مختلفة من الحراب والشباك على الأرض التي يتوقع أن يحدث عليها هجوم . وطال أمد الحرب حول لاريسا: يوم لك ويوم عليك . وكانت شجاعة بوهمند ظاهرة بارزة وكثيرا ما حائفه التوفيق ، ولكن معسكره نهب نتيجة خدعة من اليونانيين . وكانت المدينة منيعة . وهجر الكونتات المرتشسون أو الساخطون رايته ، وخانوا الأمانة واندمجوا في سلك الجيش الامبراطورى . وعاد الكسيوس الى القسطنطينية بفوائد النصر لا بشرفه . وأبحر ابن جيزكاراد الى ايطاليا بعد الجلاء عن الفتوحات التي لم يعد في استطاعته الدفاع عنها ، فاحتضنه أبوه الذى قدر كفايته ورثى لكارثته .

ومن بين أمراء اللاتين حلفاء ألكسيوس وأعداء روبرت ، كان أكثرهم نشاطا وقوة هو هنرى الثالث أو الرابع ملك ألمانيا وايطاليا وامبراطور الغرب فيما بعد . وتفيض رسالة ملك اليونان الى أخيه بأحر تعبيرات الصداقة وبأشد الرغبة واللهفة على تقوية حلفهما بكل الروابط العامة والخاصة . وهو يهنئ هنرى بنجاحه في حرب عادلة

تتسم بالتقوى والورع . ويشكو من اضطراب الأمور فى الامبراطورية من جراء مشروعات روبرت النورماندى الجريئة . وينم ثبت هداياه عن عادات ذلك العصر — تاج من الذهب المتوهج ، صليب محلى باللؤلؤ ليعلق على الصدر ، صندوق من مخلفات القديسين وقد كتب عليها أسماء القديسين وألقابهم ، اناء من البللور ، اناء من العقيق ، وبعض العطشور من مكة على الأرجح ، ومائة قطعة من الشياب الأرجوانية . وثمة هدية أكبر قيمة ، هى مائة وأربعة وأربعون ألف قطعة ميزنطية من الذهب ، ومعها توكيد بدفع مائتين وستة عشر ألف قطعة بمجرد دخول جيوش هنرى مناطق أبوليا ، وقطع المواثيق على التحالف ضد عدوها المشترك . وكان ملك ألمانيا فى ذلك الوقت قد دخل لومبارديا على رأس جيش وحلف ، ولهذا قبل هذه الهدايا الكريمة وسار الى الجنوب . وخفف من سرعته صوت المعركة حول دورازو . ولكن أسلحة روبرت أو اسمه حين تعجل العودة الى الميدان . كان لها الأثر نفسه الذى أحدثته الرشوة اليونانية . وكان هنرى خصما لدودا للنورمان حلفاء جريجورى السابع وتابعيه ، وهو عدوه الذى يلين ولا ينثنى . وكان طموح هذا النفس المنعرج وحماسه قد اشعلا منذ وقت قريب ذلك النزاع الطويل بين العرش والقلنسوة . وقد حفر الملك والبابا كل منهما من شأن الآخر . وأجلس كل منهما منافسا على عرش خصمه الروحى أو الزمنى . وبعد هزيمة زعيم الثورة السوابى وموته . هبط هنرى الى ايطاليا ليضع تاج الأباطرة على هامته ، وليطرد من الفاتيكان طاغية الكنيسة . ولكن الشعب الرومانى التفت حول جريجورى . وكان يشد من أزرهم ويقوى من عزائمهم

مدد من المال والرجال يأتيهم من أبوليا ، وفشل ملك ألمانيا ثلاث مرات في حصار مدينة رومة . وفي السنة الرابعة اشترى بذهب بيزنطة ، على ما يقال ، نبلاء رومة الذين كانت مزارعهم وقلاعهم قد دمرت بسبب الحرب . فوضعت تحت تصرفه البوابات والقناطر وخمسون من الرهائن . ورسم كليمنث الثالث ، عدو البابا ، في قصر اللاتيران ، وتوج هذا الحبر المعترف بالجميل ، حاميه في الفاتيكان . واتخذ الامبراطور هنرى مقره في الكايتول كخليفة شرعى لأوغسطس وشرلمان . وكان ابن أخ أو ابن أخت جريجورى لا يزال يدافع عن بقايا « النافورة » Septizonium ، أما البابا نفسه فقد فقد حوصر في قلعة القديس أنجيلو St. Angelo . وكان يضع أمله الأخير في بسالة تابعه النورماندى وولائه . وكانت القطيعة قد دبت بين هذين الصديقين بسبب اساءات وشكاوى متبادلة . ولكن في هذا الظرف الملح كان جيزكارد مدفوعا بضرورة البر بقسمه وبالجرى وراء مصلحته ، وهذه أقوى من أى قسم ، وبجبه للشهرة ، وبعدها للامبراطورين . فرفع الراية المقدسة وصمم على أن يسارع الى نجدة أمير الرسل . فاجتمع له توا أكبر جيش مؤلف من ستة آلاف من الخيالة وثلاثين ألفا من المشاة . ولقى مسيره من ساليرنو الى رومه تشجيعا واستحسانا عاما ووعدا بالعنون الالهى . وارتعد لقدمه هنرى . وهو الذى خرج ظافرا فى ست وستين معركة . فتذكر أن أمورا لا يمكن اغفالها تستدعى وجوده فى لومبارديا ، وحث الرومان على الثبات على ولائهم ، وتراجع بسرعة قبل وصول النورمان بأيام ثلاثة . وفى أقل من ثلاثة أعوام استمتع ابن تانكرد دى أوتفيل بالمجد الذى واثاه من انقاذ البابا واجبار اثنين من الأباطرة فى الشرق



والغرب على الفرار أمام جيوشه المظفرة . ولكن نكبات رومه كدرت صفو النصر الذى أحرزه روبرت . ذلك أن الأعداء تقيوا الأسوار أو تسلقوها ، بمساعدة أصدقاء جريجورى فى رومه ، ولكن حزب الامبراطور كان لا يزال قويا نشيطا . ففى اليوم الثالث هب الأهالى فى شغب عارم . وكانت كلمة بدرت من المنتصر فى غير روية ، دفاعا عن نفسه أو انتقاما من أعدائه ، هى المؤذنة باشعال الحرائق والسلب والنهب . وانهز عرب صقلية ، رعايا روجر ، والقوات المساعدة لأخيه ، هذه الفرصة الذهبية لنهب مدينة المسيحيين المقدسة وتدنيسها . فتعرض الألوف من المواطنين تحت بصر أيهم الروحى . وبأيدى حلفائه للاعتداء أو الأسر أو الموت . والتهمت الحرائق حيا شاسعا من أحياء المدينة يمتد من اللاتيران الى الكوليزيوم ، وأضحى قفرا الى الأبد . وتراجع جريجورى عن تلك المدينة التى أصبح فيها بغيضا ، لا يخشاه أحد بعد اليوم ، ليقتضى بقية أيامه فى قصر ساليرنو . وربما تملق الحبر الماكر جيزكارد منيا اياه بأمل الحصول على التاج الرومانى أو التاج الامبراطورى . ولكن هذه الخطوة الجريئة التى كان من الممكن أن تلهب طموح النورمان ، كان من المحتوم أن تغضب الى الأبد أكثر أمراء ألمانيا ولاء .

\* \* \*

يلخص جيون فى الجزء الباقى من هذا الفصل المنازعات الأخرى التى نشبت بين النورمان وبين الشرق والغرب . وغزا روجر ملك صقلية بلاد اليونان وأنقذ لويس السابع ملك فرنسا سنة ١١٤٦ . وفى مقابل ذلك صد الامبراطور عمانويل النورمان وقام بهجوم على أبوليا وكالابريا ( ١١٤٨ - ١١٥٥ ) . ولم يتقدم خطوة أخرى بمشروعه لاسترداد امبراطورية الغرب . وفى سنة ١١٩٤ فتح الامبراطور هنرى السادس صقلية ولم يات عام ١٢٠٤ حتى كانت قوة النورمان فى منطقة البحر المتوسط قد زالت .



## الفصل السابع والخمسون

(١٠٧٤ - ١٠٩٦)

مملكة الروم • فتح الأتراك بيت المقدس

« كان الأتراك السلاجقة أول من ظهر من الأمم التي قدر لها أن تقضي نهائيا على الامبراطورية الرومانية • وبعد القيام بحملات على هندستان واخضاع فارس هاجموا الولايات الآسيوية • ففي سنة ١٠٧١ وتحت قيادة الب أرسلان هزموا الرومان وأسروا الامبراطور رومانوس ديوجنيس • وفي السنوات العشرين التالية بلغ ازدهار امبراطورية السلاجقة ذروته في عهد ابن أرسلان المسمى ملك شاه • أما الولايات الرومانية في آسيا الصغرى فقد خضعت لسليمان ، وهو من سلالة سلجوق • »

### مملكة الروم

منذ الفتوحات الأولى التي تمت في زمن الخلفاء ، يعتبر استقرار الترك في الأناضول أو آسيا الصغرى ، أفدح خسارة يؤسف لها لحقت بالكنيسة والامبراطورية . وكان سليمان أهلا لأن يلقب بالغازی — البطل المقدس — لنشره الدين الاسلامي . وقد أضيفت مملكته الرومانية أو الرومية الشرقية الجديدة الى جداول الجغرافية في المشرق . وكانت تمتد من الفرات الى القسطنطينية ، ومن البحر الأسود الى حدود سورية . وكانت غنية بمناجم الفضة والحديد والشب والنحاس ، وذات انتاج وفير من الحبوب والكروم ، زاخرة بالماشية

والخيول الأصيلة . وكانت ثروة ليديا وفسنون اليونان وبهاء عصر  
أوغسطس ، تنبع جميعها في بطون الكتب وفي الأطلال التي أحاط بها  
الغموض نفسه في أعين الفاتحين السكوديين . وعلى الرغم من  
انهطاط الأناضول الآن فلا يزال بها بعض المدن الغنية الآهلة بالسكان .  
وكانت في العصر البيزنطي أكثر ازدهارا في العدد والحجم والغنى .  
ووقع اختيار السلطان على نيقيا ، عاصمة بيشينيا ، لبناء قصره وقلعته .  
وكان مقر أسرة الروم السلاجقة يبعد مائة ميل عن القسطنطينية .  
ولم يعترفوا بالوهمية المسيح ، بل سخرؤا منها في المعبد نفسه الذي  
أقراها فيه أول مجمع كاثوليكي عام . وبشر في المساجد بوحدانية الله  
ورسالة محمد ، ودرست العلوم العربية في المدارس ، وحكم القضاة  
وفقا لأحكام القرآن ، وسادت عادات الأتراك ولغتهم في المدن .  
وأقيمت المعسكرات التركمانية هنا وهناك في أرجاء الأناضول ،  
سهولها وجبالها . وتحت شروط قاسية من الجزية والعبودية كان  
اليونانيون المسيحيون يستطيعون أن يتمتعوا بممارسة دينهم . ولكن  
أقدس كنائسهم دنست كما أهين قسيسهم وأساقفتهم . وأكروهوا على  
احتمال فوز الوثنية وردة اخوانهم . وكانت مدية الختان تترك علامتها  
أو أثرها على ألوف كثيرة من أطفالهم . وخصص الآلاف من الأسرى  
لخدمة سادتهم أو لملاذهم . وبعد سقوط آسيا الصغرى بقيت أنطاكية  
على ولائها الأول للمسيح وقيصر . ولكن الولاية المنفردة ظلت بعيدة  
عن كل عون روماني ، وأحيطت من جميع الجهات بقوى اسلامية .  
واستعد فيلاريتوس Philaretus حاكم أنطاكية ، في غمرة  
اليأس ، للتضحية بدينه وولائه ، لولا أن ابنه . حال بينه وبين الوقوع

فى هذا الاثم . وسارع الابن الى قصر نيقيا وعرض أن يسلم هذه الغنيمة الثمينة الى سليمان . فامتطى السلطان الطموح صهوة جواده وفى اثنى عشرة ليلة ، ( لأنه كان يستريح بالنهار ) — قطع رحلة تبلغ ستمائة ميل . وبوغت أنطاكية بالسرعة التى نفذ بها هذا المشروع وبالسرية فيه . ونهج على مثال العاصمة جميع المدن التابعة من اللاذقية الى أرباض حلب . فامتدت فتوحات سليمان وحكمه من اللاذقية الى البسفور التراقى أو « ذراع القديس جورج » . فبلغ طولها مسيرة ثلاثين يوما . وعرضها مسيرة عشرة أيام أو خمسة عشر يوما ، بين صخور ليكيا والبحر الأسود . وضمن جهل الترك بالملاحاة ، لبعض الوقت ، سلامة الامبراطور ، وهى سلامة تتسم بالعار ، ولكن سرعان ما بنى أسطول يتألف من مائتى سفينة بأيدي الأسرى من اليونانيين . فارتعد ألكسيوس فرقا وراء أسوار عاصمته ، وانتشرت رسائله فى جميع أنحاء أوروبا . تستدر عطف اللاتين ، وتصور الخطر المحدق بمدينة قسطنطين ، كما تصور ضعفها ، وتصف ثراءها .

## فتح الأتراك بيت المقدس

ولكن أهم فتح للأتراك السلاجقة كان الاستيلاء على بيت المقدس الذى سرعان ما أصبح مسرح الأمم ، وعند تسليم المدينة الى الخليفة عمر بن الخطاب اشترط سكان بيت المقدس تأمينهم على دينهم وأملاكهم . ولكن هذه الشروط فسرّها سادة كان من الخطر الدخول فى نزاع معهم . وفى السنوات الأربعمائة من حكم الخلفاء كان

الجو السياسى فى بيت المقدس معرضا لتقلبات العواصف والأيام . وكان من الممكن أن يبرر انتزاع ثلاثة أرباع المدينة بزيادة السكان وكثرة من اعتنقوا الدين الاسلامى . ولكن كان هناك حى خاص احتفظ به للبطريرك ورجال الكنيسة وشعبها . وكان ثمن هذه الحماية جزية من قطعتين من الذهب . وقد ترك قبر المسيح وكنيسة القيامة فى أيدي أتباعه . وكان الجزء الأكبر عددا والأعظم اعتبارا من هؤلاء الأتباع غرباء فى بيت المقدس . وقد حفز الفتح العربى على الحج الى الأراضى المقدسة بدلا من ابطاله . وقد غدى هذه الحماسة التى دعت الناس الى تحمل مشاق هذه الرحلات الخطيرة انفعالا متجانسان هما الحزن والغضب . ودأبت أفواج من الحجاج من الشرق والغرب على زيارة القبر المقدس والأضرحة المجاورة ، ولا سيما فى عيد الفصح . وكان اليونانيون واللاتين ، والنساطرة واليعاقبة ، والأقباط والأحباش ، والأرمن والجورجيون — كان كل أولئك يتحملون نفقات الكنائس الصغيرة والقساوسة والفقراء ، كل فى طائفته أو جاليتة الخاصة . وربما صور الانسجام فى صلاة تقام فى عدد كبير من اللغات المختلفة . وفى عبادة يؤديها مثل هذا العدد الغفير من الأمم فى معبد مشترك — صور منظرا يهذب النفوس ويبعث فيها الطمأنينة ولكن روح العداء وشهوة الانتقام زادتا من مرارة الغيرة بين الطوائف المسيحية . وفى مملكة المسيح الذى عذب والذى عفا عن أعدائه ، كان كل فريق يتطلع الى السيطرة والغلبة واضطهاد اخوانه الروحانيين . وقد فاز بهذا التفوق الفرنجة بفضل روحهم وكثرة عددهم . وكان فى عظمة شلمان حماية للحجيج من اللاتين وكاثوليك المشرق .

وقد خفف هذا الامبراطور الورع بصدقائه من فقر قرطاجه  
والاسكندرية وبيت المقدس . فشيّد وجدّد ، من كريم بره ، كثيرا من  
الأديرة في فلسطين . وأكبر هارون الرشيد ، أعظم خلفاء العباسيين ، في  
زميله المسيح سموا ماثلا في العبقرية والقوة . وقوى من صداقتهما  
تبادل الهدايا والأمرى . ودون تنازل عن سلطانه الفعلى قدم الخليفة  
الى الامبراطور مفاتيح القبر المقدس ، وربما مفاتيح بيت المقدس أيضا .  
وعند انحطاط الملكية الكارلوفنجية شجعت جمهورية أمالفى Amalphi  
المصالح التجارية والدينية في المشرق . فنقلت سفنهم الحجاج من  
اللاتين الى شواطئ مصر وفلسطين . واستحقوا بما يجلبون من  
البضائع النافعة رضاء الفاطميين ومخالفتهم . فأقيم مولد عام كل  
سنة على جبل الجلجثة <sup>(١)</sup> وأسس التجار الايطاليون في بيت المقدس  
دير القديس يوحنا ومستشفاه وهو مهد طائفة الرهبان والمحارين التى  
حكمت منذ ذاك الوقت جزيرة رودس ومالطة . ولو أن حجاج  
المسيحين قنعوا بتبجيل قبر المسيح بوصفه رسولا ، لحاكمهم المسلمون  
في ورعهم بدلا من التنديد بهم . ولكن المؤمنين بوحدانية الله ايمانا  
لا هوادة فيه ساءهم أيما اساءة ، أن يمثّل دين ما ولادة الله وموته  
وبعثه . فدمغت أيقونات الكاثوليك باسم الأصنام . وتبسم المسلمون  
في حق وسخرية من اللهب المعجز الذى يشتعل ليلة عيد الفصح في  
القبر المقدس . وظهرت هذه الخدعة التى تتسم بالتقوى لأول مرة في  
القرن التاسع واحتضنها في ورع اللاتين الصليبيون وهى تتكرر كل  
سنة على يد قساوسة اليونان والأرمن والقبط الذين يخدعون النظارة

(١) Mount Calvary موضع صلب المسيح ( المترجم ) .

السذج لمصلحتهم الخاصة ولنفعه طغاتهم . ألت ترى فى كل عصر أن  
الشعور بالمصلحة يدعم مبدأ التسامح ! وقد ازدادت موارد الأمير  
والولة بما ينفعه الحجاج كل عام ، وبما تقدم هذه الألوف الفقيرة  
من الأجانب من رسوم .

وكانت الثورة التى نقلت الصولجان من العباسيين الى الفاطميين  
غنما أكثر منها غرما ، للأراضى المقدسة . فالملك المقيم فى مصر يكون  
أكثر احساسا بأهمية التجارة المسيحية ، كما يكون أمراء فلسطين  
أو ولائها أقرب الى عدالة العرش وقوته . ولكن ثالث الخلفاء الفاطميين  
وهو « الحاكم » الشهير كان شابا منهورا جرده الحاده وطغيانه من  
خشية الله والخوف من الناس . فكان حكمه خليطا سمجا من الرذيلة  
والجهالة . ودون نظر الى العادات المصرية القديمة ، فرض على النساء  
خدرا مطلقا . وأهاج هذا القيد صراخ كل من الجنسين . ولكن هذه  
الصيحات أثارت جنونه . واشتعلت الحرائق فى جزء من القاهرة  
القديمة . واشتبك الحراس والأهالى أياها كثيرة فى صراع دموى . وفى  
البداية أعلن الخليفة عن نفسه أنه مسلم متحمس . فأسس المساجد  
والكليات وفاض خيره عليها . وكذب ألف ومائتان وتسعون نسخة من  
القرآن بحروف من ذهب على نفقته . وأزيلت بأمر منه جميع كروم  
العنب فى الوجه القبلى . ولكن غروره سرعان ما أوحى اليه بالأمل فى  
احداث دين جديد . وتطلع الى شهرة تفوق شهرة أى نبى ، وأطلق على  
نفسه « الصورة المرئية للاله الأعلى » الذى ظهر للمرة العاشرة على  
الأرض فى شخصه الملكى ( ظهر تسع مرات قبله ! ) . وعند النطق  
باسم الحاكم سيد الأحياء والأموات سجد الناس تقديسا له ، وقد



أقيمت طقوسه السرية على جبل بالقرب من القاهرة .. ووقع ستة عشر ألفاً ممن آمنوا به وثيقة إيمانهم . وهناك — حتى اليوم ، شعب محارب قوى الشكيمة ، وهم دروز جبل لبنان ، الذين يؤمنون في خلود طاغية مجنون وألوهيته . وفي صورته القدسية الجديدة كره الحاكم اليهود والنصارى كمباد لآلهة تنافسه الربوبية ، بينما كانت هناك بقايا من التعصب تدافع عن شريعة محمد ، وفي كل من مصر وفلسطين حظى اضطهاده القاسى العشوم ببعض الضحايا أو الشهداء وبكثيرين ممن آمنوا به . وأغفلت الحقوق العامة والامتيازات الخاصة لأتباع المذاهب المختلفة على حد سواء وصدر قرار عام حرم عبادة الأهالي والأجانب . فهدم من أساسه معبد العالم المسيحى بأسره ، وأعنى به كنيسة القيامة ، وعطلت المعجزة الضوئية في عيد الفصح ، وأنفق جهد كبير دنس في تدمير الفار المنحوت في الصخر ، والذي يكون حقاً القبر المقدس . وعندما حمل الى أوربا هذا الخبر الأليم أصاب أمم أوربا الذهول والأسى . وبدلاً من حمل السلاح للدفاع عن الأرض المقدسة ، قنعوا باحراق اليهود أو نفيهم ، على زعم أنهم المستشارون السريون لهذا الزنديق المتبربر . ولكن الكوارث التى حلت ببيت المقدس خفف منها الى حد ما تقلب الحاكم نفسه ، أو ندمه على ما جنت يده . وكان القرار الملكى بإعادة الكنائس قد وقع ، حين قتل هذا الطاغية على يد رجال أرسلتهم أخته للقضاء عليه . أما الخلفاء الذين أتوا بعده فقد جددوا مبدأ التسامح الدينى والسياسى . فعاد التسامح المطلق ثانية . وبمعاونة من امبراطور القسطنطينية الورع أعيد بناء القبر المقدس من بين الأطلال والخرائب . وبعد فترة من

الانقطاع عاد الحجاج بشغف أكبر الى المائدة الروحية . وفي الرحلة البحرية الى فلسطين كانت الأخطار كثيرة ، وفرص النجاة نادرة . ولكن اعتناق المجر للدير المسيحي فتح طريقا آمنا بين ألمانيا وبلاد اليونان . وقد خفف القديس ستيفن St. Stephen ، رسول مملكته ببره واحسانه ، على احواله المرتحلين وكان لهم خير مرشد في رحلتهم . ومن بلغراد الى أنطاكية قطعوا ألفا وخمسمائة ميل من الأراضي المسيحية وساد الحماس للحج بين الفرنجة أكثر مما كان في العصور الأولى . فغصت الطرق بجساهير الرجال والنساء من كل طبقة ، من أولئك الذين أعلنوا أحترارهم للحياة حين قبلوا قبر مخلصهم . وبذد الأمراء والبطارقة العناية بممتلكاتهم . وكانت الأعداد الغفيرة من قوافل الأنقياء مقدمة للجيش الجرارة التي سارت في العصر التالي تحت لواء الصليب . وقبل أول حرب صليبية بنحو ثلاثين سنة ، قام رئيس أساقفة منتر Mentz وأساقفة أترخت وبامبرج وراتيسبون بهذه الرحلة الشاقة من نهر الرين الى نهر الأردن . وقد بلغ عدد أتباعهم سبعة آلاف شخص . وفي القسطنطينية أكرم الامبراطور وفادتهم . ولكنهم تفاخروا باظهار ثرواتهم . فحفز ذلك العرب الجفافة الغلاظ على مهاجمتهم ، فاستلوا سيوفهم بعد تردد يلبه الشك ، واحتلوا الحصار في قرية « كفر نعموم » <sup>(١)</sup> Capernaum حتى أنقذهم الوالي الفاطمي بعد أن اشتروا حمايته . وبعد زيارة الأماكن المقدسة أبحروا الى إيطاليا . ولكن بقية يائسة من ألفى نفس هي التي عادت الى أوطانها سالمة . وكان انجولفوس Ingulphus أحد أمناء وليم الفاتح ، أحد

(١) « موضع قديم في منطقة الجليل في فلسطين » .

أولئك الذين ائتركوا فى هذه القافلة . وهو يلاحظ أنهم عندما خرجوا من نورماندى كانوا ثلاثين فارسا هماما كامل العدة . ولكن أولئك الذين عبروا الألب منهم فى عودتهم كانوا عشرين متسولا ، يتوكأ كل منهم على عكازته ويحمل مخلاته على ظهره .

وبعد هزيمة الرومان ، كدر الأتراك صفو الهدوء الذى نعم به الخلفاء الفاطميون ، واتجه أحد نواب ملك شاه واسمه أنسىز Atsiz الخوارزمى الى سوريا على رأس جيش قوى وأخضع دمشق بالسيف والمجاعة . أما حمص والمدائن الأخرى فكانت تدين بالولاء لخليفة بغداد وسليطان فارس . وتقدم هذا الأمير المظفر دون مفاومة الى ضفاف النيل . وكان الفاطميون يعدون العدة للفرار الى قلب أفريقية ، ولكن زنج الحرس وسكان القاهرة قاموا بهجوم مستميت صدوا فيه الأتراك عن حدود مصر . وأطلق هذا القائد ، فى تقهقره ، لجنوده المنان فى اعمال السلب والنهب والقتل ، ودعى قاضى بيت المقدس وأعيان المدينة الى معسكره ، فلقوا حتفهم ، وأعقب ذلك القضاء على ثلاثة آلاف من المواطنين . وقد لقيت قسوة أنسىز أو هزيمته جزاءها على يد السلطان توكوش Toucush أخى ملك شاه الذى أعلن سيادته على سوريا وفلسطين ، وكان يحمل لقباً أعلى ويقود قوات أكبر . وقد حكم السلاجقة حوالى عشرين سنة فى بيت المقدس . ولكن السلطان الوراثنى فى المدينة المقدسة ومنطقتها وضع فى يد الأمير أورتوك Ortok أو ترك له ، وهو رئيس احدى القبائل التركمانية . وقد أسس أولاده — بعد طردهم من فلسطين — أسرتين على حدود أرمينية ، وآشور ، وقد حزن المسيحيون الشرقيون والحجاج اللاتين لهذا التغيير الذى وضع على رقابهم نيرا حديديا ، وأخضعهم لهؤلاء الأجانب الوافدين

من الشمال ، بدلا من الحكم النظامي والحلف القديم المعقود مع خلفاء الفاطميين . وكان السلطان العظيم قد أخذ في بلاطه ومعسكره ينفون الفرس وعاداتهم الى حد ما ، ولكن أكثرية الأمة التركية ولا سيما القبائل الرعوية ، كانت لا تزال موصومة بوحشية البادية . فمن نيقيا الى بيت المقدس كانت أقطار غربي آسيا مسرحا للمشاحنات الخارجية والداخلية . ولم يكن لدى رعاة فلسطين الذي كان لهم سلطان مزعزع على حدود مشكوك فيها — لم يكن لديهم فسحة من الوقت أو القدرة على انتظار الثمار البطيئة لحرية التجارة أو حرية العقيدة . أما الحجاج الذين وصلوا الى بيت المقدس بعد اجتياز أخطار لا حصر لها ، فقد وقموا فريسة النهب على يد الأفراد ، أو الظلم من جانب الحكومة ، وكثير ما سقطوا صرعى الجوع والمرض قبل أن يسمح لهم بالوقوف أمام القبر المقدس . وقد دفعت روح الهسجية البدائية أو الحماسة الجديدة التركمان الى اهانة رجال الدين من كل مذهب . ولقد سحب البطريق من شعر رأسه على افريز الطريق ، وألقى به في قبو مظلم لاتزاع فدية عنه باثارة الشفقة في قلوب أتباعه . وكثيرا ما عطلت العبادة المقدسة في كنيسة القيامة نتيجة لوحشية سادة البلاد . وحفرت هذه القصة المثيرة للشفقة الملايين من أهل المغرب للسير تحت لواء الصليب لاثاذا الأرض المقدسة . ومع ذلك فما أتفه كل هذه المساويء والشرور ، اذا قيست بسيئة واحدة مما اقترفه الحاكم بأمر الله واحتمله المسيحيون اللاتين في صبر وجلد ! لقد أهاجت سيئة أقل اثارة غضب أبنائهم الذين كانوا أسرع منهم الى الغضب . ولقد انبثقت روح جديدة من الفروسية الدينية وتسلط البابوية . وقد مس وتر من أوتار الاحساس المرهف ، وظل هذا الوتر يتردد حتى اهتز له قلب أوروبا .

# الحروب الصليبية

## الفصل التاسع والخمسون

(١٢٤٨ - ١٢٩١)

- القديس لويس والحربان الصليبيتان السادسة والسابعة
- ضياع انطاكية • ضياع عكا والأرض المقدسة

أهاج استيلاء الأتراك على بيت المقدس الحماس الدينى والدينوى معا فى غرب أوروبا ، مما أشعل الحروب الصليبية • وفى عام ١٠٩٩ استرد جودفرى دى بويون بيت المقدس ، وأقيمت مملكة هناك • وفى سنة ١١٨٧ فتح صلاح الدين بيت المقدس وقضى على هذه المملكة • وباء بالفشل ما تلا ذلك من جهود لاستعادة هذه المدينة •

يبدأ جيبون وصفه للحروب الصليبية فى الفصل الثامن والخمسين • وهو يؤجل الى فصل تال ( الفصل الستون ) وصفه للحرب الصليبية الرابعة لما لها من أثر مباشر على مصير الامبراطورية الرومانية • وقد أثبتنا هذا الفصل كاملا •

## القديس لويس والحربان

### الصليبيتان السادسة والسابعة

من بين الحروب الصليبية السبع ، شن لويس التاسع ملك فرنسا الحربين الأخيرتين . وفقد هذا الملك حريته فى مصر وحياته على ساحل أفريقية . وبعد مضى ثمان وعشرين سنة على وفاته رفع الى مصاف القديسين فى رومه ، وعثر له بسهولة على خمس وستين معجزة ،

وأقسم الشهود أغلظ الإيمان على صحتها ، لدعم مركز هذا القديس الملكى . ويقدم صوت التاريخ شهادة أعظم شرفا اذ يقول بأنه جمع الفضائل كلها بوصفه ملكا وبطلا ورجلا . وبأن حبه للعدالة الخاصة والعامة خفف من روحه العسكرية ، وبأن لويس كان أبا لشعبه ، وصديقا لجيرانه ، ومصدر رعب للكفرة . الا أن الخرافات وحدها بسا لها من قوة جبارة أفسدت عقله وقلبه . ولقد دفعه ورعه الى الاعجاب برهبان القديس فرانسيس والرهبان الدومينيكان المتسولين ومحاكاتهم . وطارد فى حماس قاس أعمى أعداء الدين . ونزل أفضل ملك عن عرشه مرتين لينصرف الى مغامرات فارس متجول . ولو كان من يؤرخ له من الرهبان ، لقمع بأن يكيل الثناء لأجدر خلق فيه بالازدراء . ولكن جوانفيل Joinville النبيل الشهم الذى شارك القديس لويس فى أسره وكان صديقه الحميم ، رسم صورة حقيقية واقعية لطبيعة لفضائل القديس لويس ونقائصه على السواء . ومن هذه المعلومات الموثوق بها قد نتعلم الارتياح فى الأفكار السياسية التى رمى بها مرارا أولئك الذين قاموا بحملات صليبية من الملوك ، من رغبة فى الحد من سلطان تابعيهم العظام . ولقد جاهد لويس التاسع أكثر مما جاهد أمراء القرون الوسطى ليسترد امتيازات التاج وكللت جهوده بالنجاح . غير أن ذلك تم فى أرض الوطن ، لا فى بلاد المشرق حيث حظى بتلك الامتيازات لنفسه ولذريته من بعده . وكان النذر أو العهد الذى قطعه على نفسه نتيجة لحماسه ومرضه . واذا كان هو المحرك لهذا الحماس الجنونى المقدس فانه كذلك وقع فريسة له وجردت فرنسا من جنودها وكنوزها توطئة لغزو مصر . لقد زخر بحر

قبرص بألف وثمانمائة من المراكب ، مع خمسين ألف رجل ، على حد قول أكثر الاحصاءات تواضعا . وإذا كان لنا أن نثق في اعترافاته ، كما يرويها الغرور الشرقي ، فإنه أنزل الى البحر تسعة آلاف وخمسمائة من الخيالة ومائة وثلاثين ألفا من المشاة ، قصدوا الى الحج تحت لوائه . وكان لويس أول من قفز الى البحر بكامل سلاحه ، ترفرف أمامه رايته المقدسة . وعند أول هجوم على دمياط هجر المسلمون وهم يرتعدون فرقا المدينة المنيعه التي كلفت سلفه حصارا دام ستة عشر شهرا . ولكن دمياط كانت أول فتوحه وآخرها معا . ، ذلك أنه في الحملتين الصليبيتين الخامسة والسادسة أدت نفس الأسباب في البقعة نفسها الى كوارث ماثلة . ونتيجة للبطء القاتل ظهر الوباء في المعسكر . ثم تقدم الفرنجة من شاطيء البحر الى عاصمة مصر ، وجاهدوا جهادا كبيرا في التغلب على فيضان النيل الذي جاء في غير أوانه والذي كان يعترض طريق تقدمهم . وتحت بصر مليكم الجريء أظهر نبلاء فرنسا وفرسانها احتقارهم للخطر وللنظام . فاقترح أخو الملك ، كونت دارتوا ، بلدة المنصورة في شجاعة لا تبالى . وأعلن الحمام الزاجل الى سكان القاهرة أن كل شيء انتهى . ولكن جنديا انتزع الصولجان فيما بعد ، ضم صفوف الفارين . وكان الجزء الأكبر من جيش المسيحيين متخلقا كثيرا جدا عن مقدمته . فهزم دارتوا وذبح . وصبت النيران اليونانية دون انقطاع على الغزاة . وكانت السفن المصرية تتحكم في النيل والأغراب يتحكمون في الأراضي المنبسطة . وقطعت كل المؤن . وزاد كل يوم يسر من خطر المرض والجوع . وبدأ التفهقر ضروريا متعذرا في الوقت نفسه . ويعترف كتاب المشرق

بأنه كان من الممكن أن يهرب القديس ، لو أنه أراد التخلي عن رعاياه  
فأخذ أسيرا كما أسر الجزء الأكبر من نبلاته ، وقتل دون رحمة  
أو شفقة كل من لم يستطع أن يشتري حياته بخدمة أو فدية . وزينت  
أسوار القاهرة برعوس القتلى المسيحيين ، وكبل ملك فرنسا بسلاسل  
وأغلال ثقيلة . ولكن القائد الكريم المظفر ، وهو حفيد لأخ من أخوة  
صلاح الدين أرسل لأسيره الملكى ثوبا فاخرا من ثياب الأشراف واشترى  
لويس سلامته وسلامة جنوده برد دمياط ودفع أربعمئة ألف قطعة من  
الذهب . وفى أحضان الترف والنعيم اللذين عاش فيهما الأبناء المنحلون  
لرفقاء نور الدين وصلاح الدين كانوا غير قادرين على الوقوف أمام  
زهرة فرسان أوروبا . لقد انتصروا بأسلحة عبيدهم أو مماليكهم  
التتار الأشداء الذين كانوا قد اشتروهم وهم فى نضارة الصبا من  
التجار السوريين ، ثم دربوا فى المعسكرات وفى قصر السلطان .  
ولكن سرعان ما قدمت مصر مثلا جديدا لخطر العصابات  
البريتورية . وقد ثار غضب تلك الوحوش الضارية ، التى قد  
أطلقت ضد الأجانب ، لتلتهم ولى نعمتها الذى أحسن إليها ، قتل  
توران شاه ، وهو آخر أسرته ، وهو يحمل اكليل النصر ، ودخل أكثر  
السفاحين جراحة غرفة الملك الأسير بسيوف مسلولة وأيديهم ملطخة  
بدم مليكهم . ولكن حزم لويس فرض عليهم احترامه . وتغلب جشعهم  
على قسوتهم وحماستهم ، فنفذت المعاهدة وسمح لملك فرنسا وبقيّة  
جيشه بأن يبحروا الى فلسطين . وقد أضاع لويس أربع سنوات داخل  
أسوار عكا عاجزا عن زيارة بيت المقدس ، غير راغب فى العودة الى  
أرض الوطن دون أن يحقق مجدا .

وبعد ست عشرة سنة من الحكمة والدعة حفزت ذكرى الهزيمة



لويس الى أن يقوم بالحملة السابعة والأخيرة من الحروب الصليبية . وكانت ماليته قد انتظمت ، ورقة مملكته قد اتسعت ، كما شب جيل جديد من المحاربين ، ومن ثم تجددت في نفسه الثقة فأبحر على رأس ستة آلاف من الخيالة وثلاثين ألفا من المشاة . وقد حفزه ضياع انطاكية الى القيام بهذه الحملة . وأغراه أمل زائف في اعتناق ملك تونس المسيحية ، بالتوجه الى الشاطئ الأفريقي . وقد هونت قصة كنز طائل على عسكره تأجيل رحلتهم الى الأرض المقدسة . وبدلا من أن يجد ملكا يقتق المسيحية ، قابله حصار طويل ، قضى فيه الفرنسيون نحبهم وهم يلهثون على الرمال المحرقة . ولفظ القديس لويس أنفاسه الأخيرة في خيمته . وفور وفاته أصدر ابنه وخليفته الأمر بالتقهقر . وفي ذلك يقول كاتب رشيق : « هكذا قضى ملك مسيحي نجهه على مقربة من أطلال قرطاجة ، وهو يشن حربا على أتباع محمد في بلد كانت ديدو<sup>(١)</sup> قد أدخلت اليه معبودات سوريا » .

## ضياع أنطاكية

لا يمكن أن يتدع دستور أظلم أو أسخف من ذلك الذي يقضى على أهل البلاد بالعبودية الدائمة في ظل سلطان مطلق متعسف لشرذمة من الأجانب والعبيد . ومع ذلك فنلك ، أو شيء منها ، كانت حال مصر طيلة أكثر من خمسمائة عام . فقد ارتقى أشهر السلاطين من أسرته

(١) Dido في الأساطير الرومانية ، أميرة من صور أسست مدينة قرطاجة وأصبحت ملكة عليها . ويقول فرجيل في الأنيادة انها رحبت بأنياس عندما قدم الى قرطاجة بعد سقوط ترواده ، وانها وقعت في غرامه ، وانها قتلت نفسها حين غادرها . ( الترجمة )

الممالك البحرية والبرجية من بين عصابات التتار والقوقاز . وكان يخلف البكوات الأربعة والعشرين ، أى الرؤساء العسكريين ، على الدوام ، لا أبناءهم ، ولكن خدمهم أو مواليتهم . وكانوا يبرزون صك حريتهم الأعظم ، وأغنى معاهدتهم مع السلطان سليم الأول . ولا يزال امبراطور تركيا يكتفى من مصر باعتراف هزيل بالخضوع والجزية . وباستثناء فترات متقطعة من السلام والنظام ، تميز حكم هاتين الأسرتين بالسلب والنهب وسفك الدماء . ولكن عرشهم على الرغم من اهتزازه كان يعتمد على دعائمين من النظام والشجاعة . وامتد سلطانهم على مصر والشام وبلاد العرب والنوبة . وزاد عدد ممالكهم من ثمانمائة الى خمسة وعشرين ألفا من الفرسان . وزاد عدد جيوشهم بفرق محلية بلغت مائة وسبعة آلاف من الرجال ، يعاونهم بين الحين والحين ستة وستون ألفا من الأعراب . وأمرأ هذا مبلغهم من القوة والحيوية لا يستطيعون أن يحتملوا زمنا طويلا وجود دولة مستقلة من أعدائهم على شواطئهم . وإذا كان مصير الفرنجة قد تأخر حوالى أربعين سنة ، فهم مدينون بذلك الى عدم استقرار حكم الممالك والى غزو المغول . والى معاونة كانت تأتيهم بين الفينة والفينة من حجاج محاربين . وسيلحظ القارئ الانجليزى بين هؤلاء اسم الملك ادوارد الأول الذى حمل الصليب فى حياة والده هنرى . وفك الحصار عن عكا على رأس ألف من الجنود . وسار هذا الأمير الذى قدر له فيما بعد أن يفتح ويلز واسكتلنده ، حتى بلغ الناصرة على رأس جيش مؤلف من تسعة آلاف . وكان ينافس عمه رتشارد شهرته . وانتزع بشجاعته هدنة مدتها عشر سنين . ولكنه نجا بجرح خطير من

خنجر قاتل متعصب . أما أنطاكية التي كان موقعها أقل تعرضا لكوارث الحرب المقدسة ، فقد احتلها وخربها نهائيا البندقدار ، أو بيبرس سلطان مصر وسوريا ، وقضى على الدولة اللاتينية التي كانت أول مستقر للمسيحية . وكاد سكانها ينقرضون بعد قتل سبعة عشر ألفا وأسر مائة ألف منهم . أما البلاد الواقعة على الساحل مثل اللاذقية وجبله وطرابلس وبيروت وصيدا وصور ويافا والقسلاص الحصينة التابعة لفرسان « الاستارية » والمعبد فقد سقطت كلها تباعا . وانحصر وجود الفرنجة في بلدة عكا وفي مستعمرة القديس يوحنا ، في هذه البلدة التي كانت تسمى في بعض الأحيان باسمها الكلاسيكي :  
Ptolemais

## ضياح عكا والأرض المقدسة

بعد سقوط بيت المقدس أصبحت عكا وهي على بعد سبعين ميلا من القدس ، عاصمة اللاتين المسيحيين . وازدادت بالمباني القوية الفخمة وقنوات المياه وميناء صناعية وسور مزدوج . وزاد في عدد سكانها سيل لا ينقطع من الحجاج واللاجئين . وفي الفترات التي هدأت فيها أعمال العدوان ، اتجهت تجارة الشرق والغرب الى هذه المحطة الملائمة . وكان يمكن لسوقها أن تقدم انتاج كل مناخ . وكان بها مترجمون لكل لسان . ولكن في هذا المجتمع الذي التقت فيه كل الأمم انتشرت كل الرذائل بين أتباع عيسى ومحمد . فكان أهل عكا من النساء والرجال يعتبرون أكثر الخلق فسادا . ولم يكن من المستطاع أن يصلح سلطان القانون من سوء استخدام الأديان . وكان

بهذه البلدة ملوك كثيرون ، ولكن لم تكن بها حكومة . فملوك بيت المقدس وقبرص ، وأمراء بيت لوسيجنان وأمراء أنطاكية ، وكوتات طرابلس وصيدا ، والرؤساء العظام كفرسان اليمارستان والمعبد ، ورهبان التيوتون ، وجمهوريات البندقية وجنوه ويزا ، ومندوبو البابا وملوك فرنسا وانجلترا — كان لكل منهم سلطان مستقل . وكانت هناك سبع عشرة محكمة تتحكم في رقاب العباد . ووجد كل مجرم الحماية في الحى المجاور . وكثيرا ماتفجرت الأحقاد الدفينة بين الأمم في أعمال العنف وسفك الدماء . وأشبع بعض المغامرين الذين دنسوا الصليب حاجتهم الى المال بنهب القرى الاسلامية ، لما لم يتقاضوا أجورهم .

وقد سلب المسيحيون تسعة عشر تاجرا من سوريا كانوا يتجرون في ظل الثقة المتبادلة ، وشنقوهم . وقد برر رفض القيام بالترضية الواجبة هجوم السلطان خليل الذى سار ضد عكا في ستين ألفا من الفرسان ومائة وأربعين ألفا من الرجال . وكانت مدفعيته ( ان صح هذا التعبير ) ضخمة وثقيلة . فقد حملت أجزاء آلة واحدة على مائة عربية . وخدم المؤرخ الملكى أبو الفداء في فرق حماه فكان شاهد عيان لهذه الحرب المقدسة . ومهما كانت مساوىء الفرنجة فقد اشتعلت شجاعتهم حساسة ويأسا . غير أن الشقاق الذى دب بين السبعة عشر رئيسا مزق شملهم . وتغلبت عليهم قوى السلطان من كل جانب . وبعد حصار دام ثلاثة وثلاثين يوما اقتحم المسلمون السور المردوج . واستسلمت القلعة الرئيسية لمدافعهم . وقام المساليك بهجوم عام . وسقطت البلدة عنوة . وكان القتل أو الأسر هو مصير ستين ألفا من

المسيحيين . وصمد دير ، أو بالأحرى ، قلعة فرسان المعبد ثلاثة أيام أخرى . ولكن سهما أصاب الرئيس الأعلى ، وبقي على قيد الحياة عشرة فقط من خمسمائة فارس . وكان هؤلاء العشرة أتبع حظا من ضحايا السيف ، حيث امتدت حياتهم حتى لقوا حتفهم على المقصلة في ذلك العمل الظالم القاسي ، ألا وهو اهدار دم كل الطائفة . وقد استطاع ملك بيت المقدس والبطريق والرئيس الأعلى لرهبان البيمارستان أن يشقوا طريقهم الى الشاطئ . ولكن البحر كان هائجا والسفن غير كافية ، ففرق عدد كبير من الفارين قبل أن يصلوا الى جزيرة قبرص التي قد تخفف من ألم لوسيجنان لفقد فلسطين . وقد هدمت بأمر من السلطان كنائس المسيحيين وحصون المدن اللاتينية . ولكن حافزا من الخوف أو الجشع ما زال يفتح الطريق الى القبر المقدس أمام بعض الحجاج الأتقياء العزل . وخيم صمت حزين موحش على الشاطئ الذي كان لفترة طويلة حديث العالم أجمع .



## الفصل الستون

(٨٧٥ - ١٢٠٤)

**انشقاق اليونانيين واللاتين وعناؤهم • الحرب  
الصليبية الرابعة • تحالف الفرنسيين والبنادقة وسيروهم الى  
القسطنطينية • فتح القسطنطينية ونهبها على يد اللاتين •**

جاء انفصال الكنيسة اليونانية عن الكنيسة اللاتينية في أعقاب  
إعادة شرملمان للامبراطورية الغربية مباشرة . ولا يزال ثمة عداوة ديني  
وقومي يفرق بين أكبر جماعتين في العالم المسيحي . وعجل انشقاق  
القسطنطينية — حيث أبعدت أكثر حلفائها تقعا واستفزت أعظم أعدائها  
خطرا — باضمحلال الامبراطورية الرومانية في الشرق وسقوطها .  
وفي خلال هذا التاريخ . كثيرا ما تبدت كراهية اليونانيين للاتين  
واضحة جلية . وقد نشأت الكراهية في الأصل من ازدراء العبودية ،  
ثم أذكأها بعد عصر قسطنطين . غرور المساواة أو السلطان . وفي  
النهاية ضاق صدرهم بديثار رعاياهم المنسردين التحالف مع الفرنجة .  
وكان اليونانيون يفاخرون في كل عصر بتموقهم في المعارف الدنيوية  
والدينية . وبأنهم كانوا السابقين في تلقى نور المسيحية . وبأنهم أعلنوا  
قرارات المجامع السبعة العامة ، وبأنهم وحدهم أصحاب لغة الكتاب  
المقدس والفلسفة . وما كان ينبغي للمتبربرين التائهم في ظلام الغرب  
أن يدعوا أنهم يقوون على الجدل في القضايا العويصة الخفية في علم  
اللاهوت . ولكن هؤلاء المتبربرين احتقروا بدورهم طيش أهل الشرق

المقرون بالخبث والقلق ، كما احتقروا فيهم أنهم مبدعو أفانين الهرطقة ، على حين حددوا في أنفسهم البساطة التي جعلتهم يقنعون بتقاليد الكنيسة الرسولية . ومع ذلك ففي القرن السابع أصلحت مجامع أسبانيا ومن بعدها مجامع فرنسا ، أو أفسدت ، مذهب نيقيا في ذلك الموضوع الغامض الخاص بالاقنوم الثالث في الثالث . ففي الجدل الطويل الذي ثار في الشرق حددت بدقة طبيعة المسيح ومولده ، والعلاقة المعروفة بين الآب والابن ، في صورة باهتة أمام العقل البشري . وكانت فكرة الولد أقل تماثلا « مع الروح القدس » الذي لم ير فيه الكاثوليك هبة أو صفة الهية ، ولكنهم اعتبروه مادة ، وشخصا ، والها . وهو لم يولد ، ولكنه انبثق على حد التعبير الارثوذكسي . ولكن هل انبثق من الآب فقط ، أو ربما كان ذلك بوساطة الابن ؟ أو من الآب والابن ؟ وتمسك اليونانيون بالرأي الأول وقال اللاتين بالرأي الثاني وأشعلت اضافة كلمة ( وابنه Filioque ) الى عقيدة نيقيا نار الخلاف بين الكنائس الشرقية والغالية . وفي بداية النزاع تظاهر الأحمبار الرومان بالتزام جانب الحيراد والاعتدال ، وشجبوا تلك البدعة ، ولكنهم أذعنوا لمشاعر اخوانهم فيما وراء الألب . وكانوا على ما يبدو ، يودون أن يسدلوا ستارا من الصمت والرفق على هذا البحث الذي لا ضرورة له . وفي الرسائل المتبادلة بين شرملان وليو الثالث أظهر البابا تسامح السياسة وهبط الامبراطور الى أهواء القساوسة وتعصبهم . ولكن عقيدة رومه القويمة استسلمت تلقائيا لدوافع سياستها الزمنية . ونقشت في رمز الفاتيكان كلمة « وابنه » التي رغب ليو في محوها ورتلت في صلواته . واعتبرت



عقيدة أثناسيوس وعقيدة نيقيا هي العقيدة الكاثوليكية التي لا خلاص لأحد إلا إذا آمن بها . ويتلقى كل من أتباع البابا والبروتستانت اللغات ، كما يلعبون اليونانيين الذين ينكرون انبثاق الروح القدس من الآب ومن الابن سواء بسواء . ولا تقبل أركان العقيدة هذه شيئا من المهادنة . ولكن قواعد النظام لا بد أن تختلف في الكنائس البعيدة المستقلة . وقد يجيز منطق رجال الدين أنفسهم أن الخلاف لا مفر منه ولا ضرر فيه . وقد فرض الخداع أو الخرافة في رومه على قساوستها وشمامستها عدم الزواج كواجب مقدس . ولكن بين اليونانيين اقتصر عدم الزواج على الأساقفة . ولكن يعوض المركز السامي عن هذه الخسارة أو يقضى عليها التقدم في العمر . ورجال الدين في الأبرشيات — وهم الذين يطلق عليهم اسم الآباء — ينعمون بصحبة زوجاتهم اللاتي دخلوا بهن قبل دخولهم في سلك الوظائف الدينية . وقد ثار جدل عنيف في القرن الحادي عشر حول موضوع القربان المقدس وقد افترض في الشرق والغرب أن جوهر القربان المقدس يتوقف على استعمال الخبز المخمر وغير المخمر . أيجوز لى ، في تاريخ جدى ، أن أذكر اللوم العنيف الذى وجه الى اللاتين الذين وقفوا أمدا طويلا موقف الدفاع ؟ لقد أهملوا ، طبقا للارادة الرسولية ، الامتناع عن المنخقة وعن الدم . وصاموا — وهذه عادة يهودية — يوم السبت من كل أسبوع . وأباحوا في الأسبوع الأول من الصوم الكبير استعمال اللبن والجبن . وسمح لرهبانهم الضعفاء بتذوق اللحوم . واستعمل دهن الحيوان بدلا من الزيوت النباتية لقلتها . واختص الأساقفة باستعمال الزيت المقدس أو المسح به في التعميد . وتحلى

الأساقفة بالخواتم بوصفهم أعراس كنائسهم . وقد حلق القساوسة لحامهم وعمدوا بالغطاس مرة واحدة . هذه الجرائم وأمثالها هي التي أهاجت غيرة بطارقة القسطنطينية ، والتي بررها بنفس الحماس علماء الكنيسة اللاتينية .

ان التعصب والكراهية القومية عاملان قويان في احتدام كل نزاع . ولكن يمكن أن تتبع السبب المباشر لانشقاق اليونانيين ، في المنافسة التي دبت بين الزعماء الدينيين الذين قالوا بتفوق العاصمة القديمة ، وسموها على ما عداها ، وبين الذين قالوا بسيادة العاصمة الحاكمة وبأنها لا تقل مكانة عن أية عاصمة أخرى في العالم المسيحي . فحوالي منتصف القرن التاسع ، رقى فوتيوس ، وهو رجل علماني طموح وضابط في الحرس والأمين الأول — رقى لكفائته وحظوته الى وظيفة بطريق القسطنطينية ، وهذا مركز مرغوب فيه . لقد تفوق في العلم ، حتى في علم الكنيسة على رجال الدين في عصره . وكانت طهارة أخلاقه فوق كل اتهام . ولكن تنصيبه حدث في عجلة ، وشاب رفعه الى هذا المنصب بعض الشوائب . كما أن سلفه المعزول ، اجناتبوس ، كان يؤيده عطف الجماهير عليه وعناد أتباعه الذين لجئوا الى تحكيم تقولا الأول وهو س أشد الأحبار الرومان كبرياء وطموحا ، وقد اتهم الفرصه المواتية ليقضى في أمر منافسه في الشرق وليصمد حكما بادانته . وزاد في مرارة هذا النزاع تخاصم آخر على من تكون له الولاية على ملك البغار والأمة البغارية . فاعتناق البغار المسيحية منذ وقت قريب لم يكن ذا قيمة في نظر أى من الحبرين ، الا اذا استطاع أن يعد المؤمنين الجدد بين رعاياه الخاضعين لسلطانه . وقد

انتصر البطريق اليونانى بمعونة من البلاط الملكى ، ولكنه فى هذا الصراع العنيف كان بدوره قد خلع خليفة القديس بطرس وأشركت الكنيسة اللاتينية فى تهمة الهرطقة والانشقاق . ولقد ضحى فوتيوس بسلام العالم فى مقابل حكم قصير مؤقت مزعزع . فسقط بسقوط حاميه القيصر بارداس : وقام باسيلئوس المقدونى بإجراء عادل ، فأعاد اجناتئوس الذى لم يحظ سنه ومركزه باحترام لائق . ومن ديره أو سجنه استدر فوتيوس بشكاياته المثيرة للشفقة وتملقه الماكر عطف الامبراطور . وقل أن أغض منافسه عينيه حين أعيد ثانية الى كرسى القسطنطينية . وبعد موت باسيلئون عانى فونئوس من تذبذب البلاط ومن جحود تلميذه الملكى . فعزل البطريق مرة ثانية ، وربما ندم فى الساعات الأخيرة من حياته ، وهو فى عزلته ، على ما كان ينعم به من حرية فى حياته العادية الجادة . وفى كل ثورة تقبل رجال الدين فى خضوع ، همس الامبراطور وإشارته . وكان ثمة مجمع يتألف من ثلثمائة من الأساقفة على استعداد دائم للترحيب بانتصار فونئوس القديس أو التنديد بسقوط فوتيوس اللعين . أما البابوات فقد أعراهم وعد خادع بنجدة أو مكافأة ، بأن يتقبلوا هذه التصرفات المتباينة . وحظيت مجامع القسطنطينية بموافقتهم عن طريق رسائلهم أو على أيدي نوابهم . ولكن البلاط والأهالى واجناتئوس وفوتئوس وقفوا وقفة رجل واحد ضد مزاعم البابوات : فأهين قساوستهم أو سجنوا ، ونسى الروح القدس ، وضمت بلغاريا الى الأبد الى العرش البيزنطى . وطال أمد الانشقاق ، لأنهم أنحوا بأشد اللائمة على تصيب بطريق عدة مرات على نهج غير سليم . وقطع ظلام القرن العاشر وفساده كل صلة بين

الأمّتين ، ولكنه لم يسمح ما في النفوس . ولكن عندما أعاد سيف النورمان كنائس أبوليا الى حظيرة رومه ، أُنذرت رسالة وقحة من بطريق اليونان : رعاياه النازحين من أبوليا بأن يتجنبوا أخطاء اللاتين ويقتوها . ولم يعد جلال رومه في صعوده يستطيع أن يحتمل بذاءة نائر ما ، فأصدر نواب البابا في قلب القسطنطينية قرارا بحرمان ميخائيل كيرولاريوس من الكنيسة . وبعد أن استراحوا من وعثاء السفر . وضعوا على مذبح أيا صوفيا قرارا قاسيا باللعنة والحرمان ، يحدد الهرطقات السبع المهلكات التي يعتنقها اليونانيون ، وتلقى الى الأبد بالمعلمين الآثمين وبأتباعهم الأشقياء في حظيرة الشيطان وأعوانه . وتبعا لحاجة الكنيسة أو الدولة أعيدت أحيانا الصلات الحسنة . فاستخدمت أحيانا لغة التسامح والوفاق : ولكن اليونانيين لم يرجعوا قط عن أخطائهم . ولم يبطل البابوات قط حكمهم وقرارهم . وبهذه الصاعقة يمكن أن نُورخ وصول الشقاق الى ذروته . وفقد زادت كل خطوة طسوحة قام بها أحبار رومه من هذه الفرقة . وخجل الأباطرة وارتعدوا من المصير الحفير الذي لاقاه اخوانهم ملوك ألمانيا ، وساء الناس ما لرجال الدين في الكنيسة اللاتينية من سلطة زمنية ، وما تتسم به حياتهم من روح حربية .

## عداء اليونانيين واللاتين

أذكت الحملات الثلاث الأولى الى الأرض المقدسة روح الكراهية بين اليونانيين واللاتين ، فعدت البغضاء سافرة واضحة . واحتال ألكسيوس كومنينوس لكي تنفيب على الأقل العصبية أولو القوة من

الحجاج ، وتآمر خليفته عمانوئيل واسحق أنجيلوس مع المسلمين بنية القضاء على أعظم أمراء الفرنجة . وقد عاونهم في سياستهم الشريرة المعوجة كل فئات رعاياهم في طاعة جادة راضية ويمكن ارجاع جزء كبير من هذا المزاج العدائى الى الاختلاف فى اللغة واللباس والعادات ، وهى التى تفرق بين أمم العالم وتباعد بين بعضها بعضا . وأصاب كبرياء الملك وحذره جرح عميق لاقتحام جيوش أجنبية مملكته ، وادعائهم حق المرور فى ممتلكاته وعبور أسوار عاصمته . وقد أهين رعاياه ونهبوا . سلمهم الأجانب المتوحشون القادمون من الغرب . وزاد من شدة الكراهية التى يضرها اليونانيون ذوو النفوس الضعيفة حسدهم الدفين لمشروعات الفرنجة الجريئة الورعة . ولكن هذه الأسباب الدنيوية للعداء القومى دعمها وألهمها سم الحماس الدينى . وبدلا من أن يستقبلهم اخوانهم المسيحيون فى الشرق بمظاهر المودة والعطف والكرم ، درب كل لسان على أن يردد اسم المشق والهرطيق ، وهى كلمات أقسى على أذن المؤمن صحيح الايمان . من لفظتى الوثنى والكافر . وبدلا من الشعور بالمحبة نحوهم ، لاتفاقهم فى الدين والعبادة بصفة عامة ، أظهروا لهم البغضاء لاختلافهم فى بعض القواعد التنظيمية أو المسائل اللاهوتية ، مما يسكن أن يختلفوا فيه هم أو معلومهم عن الكنيسة الشرقية . ففى الحرب الصليبية التى قام بها لويس السابع ، غل رحال الكنيسة اليونانية مذابحهم وطهروها ، لأن قسا فرنسا دنسها بتقديم قربان عليها . وفد شكاف فرديريك بارباروسا مما احتملوا من اساءات على أيدي اليونانيين وألستهم بسبب الحقد الغريب الذى أظهره الأساقفة والرهبان

اليونان الذين أثارت دعواتهم وعظاتهم الأهالي ضد المتبريرين  
الملحدين . وقد انهم البطريق بأنه أعلن أن المؤمنين يستطيعون أن  
يحفظوا بغفران جميع ذنوبهم بالقضاء على المنشقين قضاء مبرما . وقد  
أهاج متحس اسه دوروثيوس Dorotheus مخاوف الامبراطور  
واستعاد ثقته بنبوءة أكد فيها أن المنشق الجرمانى بعد أن يهاجم أبواب  
بلاخرناى Blachernae سيصبح مثلا فريدا للانتقام الالهى .  
وكان مرور هذه الحيوش الضخمة أمرا نادرا وخطيرا ، غير أن الحرب  
الصليبية خلقت كثيرا من الصلات الودية بين الأمتين . وزادت من  
معرفة بعضهم بعضا ، دون أن تقلل من الحزازات بينهم . وقد تطلب  
ثراء القسطنطينية وترفها جلب منتجات جميع الأمم والأجواء اليها .  
وأحدث دهاء سكانها العديدين وجهودهم توازنا بين هذه الواردات .  
وكان موقع القسطنطينية يجتذب تجارة العالم . وكانت تجارتها في كل  
فترات وجودها في أيدي الأجانب . وبعد انهيار أمالفى أقام أهل  
البندقية ويزا وجنوه مصانعهم وجالياتهم في عاصمة الامبراطورية .  
وقد كوفئت خدماتهم بألقاب الشرف وبالحصانة . فحصلوا على حق  
ملكية الأراضي والدور وتكاثرت أسرهم بالزواج من سكان البلاد .  
وبعد السماح للمسلمين ببناء مسجد ، أصبح من المحال منع قيام  
كنائس تمارس الطقوس الرومانية . وكانت زوجتا عمانويل كومنينوس  
من الفرنجة : كانت الأولى أختا لزوجة الامبراطور كونراد ، وكانت  
الثانية ابنة أمير أنطاكية . وقد زوج ابنه ألكسيوس من ابنة فيليب  
أوغسطس ملك فرنسا ، كما تفضل بتزويج ابنته من مركز موتفترات  
الذى تعلم في قصر القسطنطينية وحظى فيه على القاب الشرف . لقد

واجه اليوناني أسلحة الغرب وتطلع الى امبراطوريته . وكان لشجاعة الفرنجة اعتبارها عنده ، وقد وثق في أمانتهم . ولكن عبقريتهم العسكرية لقيت جزاء غير مناسب باسناد المناصب المريحة اليهم ، كوظائف القضاة ورؤساء الخزانة . وقد طلب عثاقويل الى البابا عقد حلف بينهم ، ولكن أصوات الشعب اتهمته بالانحياز الى أمة اللاتين والى دينهم . وفي أثناء حكمه وحكم خليفته ألكسيوس من بعده . تعرض اللاتين في القسطنطينية للقذف كأجانب وهراطقة ومحظوظين . ولقد كفروا عن هذا الجرم المثلث أشد تكفير في الاضطراب الذي أعلن عودة أندرونيكوس واستيلاءه على العرش . حيث قام الأهالي بشجيرة مسلحة . وأرسل لهم الطاغية من ساحل آسيا جنوده وسفنه لمعاوتهم على الانتقام الوطنى . ولم تؤد مقاومة الأجانب اليأسه الا الى إثارة جنون السفاحين وشحنه خناجرهم . ولم يكن فى استطاعة السن أو الجنس أو صلاب الصداقة أو القرابة أن تنقذ ضحايا الكراهية القومية والجشع والحماس الدينى . فذبح اللاتين فى بيوتهم وفى الطرقات ، وتحول حيهم الى رماد ، وأحرق رجال الدين منهم فى كنائسهم ، والمرضى فى مستشفياتهم ويمكن تقدير عدد القتلى اذا عرفنا عدد الذين شملتهم الرأفة فيبعوا الى الأتراك كركيق ، وكان عددهم يقرب من أربعة آلاف . وكان القساوسة والرهبان أكثر الناس صخبا ونشاطا فى القضاء على المنشقين . وكانوا يرتلون صلاة الشكر لله عندما تفصل رأس كاردينال رومانى ، نائب للبابا ، عن جسده وتربط الى ذيل كلب وتجر فى طرقات المدينة وسط السخرية الوحشية . أما أكثر الأجانب يقظة واتباها ، فقد تراجعوا الى سفنهم عند أول

انذار ، وهربوا من مشهد الدم مخترقين البسفور . وفي أثناء فرارهم  
أحرقوا وسلبوا مائتي ميل من الساحل ، وأنزلوا انتقاما قاسيا برعايا  
الامبراطورية الأبرياء ، واختصوا القساوسة والرهبان بأشد الانتقام .  
وعوضوا عن فقدان أملاكهم وأصدقائهم بما جمعوا من أسلاب . وعند  
عودتهم أظهروا ايطاليا وأوربا على ثروات اليونانيين وضعفهم ، وعلى  
حياتهم وشرهم ، وصوروا مساوئهم على أنها أخلاق الهراطقة  
المنشقين الأصلية . لقد أضاعت وساوس الصليبيين الأولين أجمل  
فرصة لفتح الطريق الى الأرض المقدسة بالاستيلاء على القسطنطينية ،  
والآن دعت ثورة داخلية الفرنسيين والبنادقة ، بل تكاد تكون قد  
أجبرتهم ، على غزو الامبراطورية الرومانية في المشرق .

وفي استعراضى لسلسلة الأمراء البيزنطيين ، كشفت عن رياء  
أندرونيكوس وطموحه وطغيانه وسقوطه . وأندرونيكوس هذا  
هو آخر رجل حكم القسطنطينية من أسرة كومنينوس . وقد أقيمت  
العرش تلك الثورة التي ألقت بأندرونيكوس على أم رأسه . ورفعت  
من شأن اسحق أنجيلوس . وهو من سلالة بنات هذه الأسرة الملكية  
عينها . وربما وجد من جاء بعد طاغية مثل نيرون الطريق معبدا لأن  
يكون أهلا لاحترام رعيته ومحبتهم . وكان لهم الحق أحيانا في أن  
يحزنوا على ادارة أندرونيكوس . وكان في استطاعة الطاغية  
ذى العقل السليم القوى أن يدرك ارتباط مصلحته بالمصلحة العامة .  
وينسا أرب كل من أثار مخاوفه . فانه كان في مقدور الأهالي الآمنين  
والولايات البعيدة أن يباركوا عدالة مولاهم التي لا تلين . ولكن من  
جاء بعده ، امتلا قلبه غرورا وحقدًا على السلطة العليا ، وكانت تنقصه



الشجاعة والقدرة على الاضطلاع بها . فكانت مساوئه ضارة مؤذية للبشر ، وفضائله ( ان كانت له فضائل ) لا خير فيها لأحد . وقد أبى اليونانيون الدين أرجعوا الى تقصيره جميع الكوارث التي حلت بهم ، أن ينسبوا اليه أى نفع عابر أو أى خير طارىء فى تلك الأيام . وغط اسحق فى سات عميق على عرشه ولم يكن يوقظه الا صوت اللهو . وقد استمتع فى أوقات فراغه بالمسثلين الهزلين والمهرجين . وحتى فى نظر هؤلاء كان الامبراطور موضع سخرة واحتقار . وقد فاقت مبانيه وولائمه نماذج الترف المنكى . وبلغ عدد خصيانه وخدمه عشرين ألفا . وقد ترتفع نفقة قصره وموائده اليومية وهى أربعة آلاف رطل من الفضة ، فتبلغ أربعة ملايين من الجنيهات الانجليزية فى السنة . وقد أعانه السلب والنهب على التحفيف من فقره . واشتد السخط العام بالقدر نفسه على ما شاب جمع الدخل وطرق انفاقه من شوائب . وبينما كان اليونانيون يعدون أيام عبوديتهم ، تنبأ له رجل متملق كافأه برفعه الى كرسى البطريق . بحكم طويل مظفر يستد الى اثنين وثلاثين عاما ، يمتد فيه سلطانه الى جبال لبنان والى ما وراء الفرات . ولكن الخطوة الوحيدة التى قام بها لتحقيق هذه النبوءة هى ارسال بعثة فحمة تبعث على الخجل الى صلاح الدين بطلب اليه اعادة القبر المقدس ، وتعرض على عدو المسيحية حلفا دفاعيا هجوميا . وتحطت بقايا الامبراطورية اليونانية وأصبحت خرابا يابا فى أيدى حقيرة غير جديرة ، مثل أيدي اسحق وأخيه . فغضب أمير يحصل الاسم نفسه من عائلة كومنينوس جزيرة قبرص التى يثير اسمها معانى الرشاقة والسرور . وقد أدى ارتباط غريب للحوادث الى أن سيف

أميرنا الانجليزى ريتشارد منح هذه الجزيرة الى بيت لوسيجنان  
تعويضا لهم عن فقد بيت المقدس .

وقد أصيب شرف المملكة فى الصميم ، وهددت سلامة العاصمة ،  
بسبب قيام البلغار وأهل ولاشيا بثورة . فمنذ انتصار باسيلوس الثانى  
احتملوا أكثر من مائة وسبعين سنة ، حكم أمراء يزنطة المائع .  
ولم تتخذ خطوات جدية لفرض سلطان القانون والأخلاق على هذه  
القبائل المتوحشة . وسيقت قطعانهم وماشيتهم ، وهى مورد رزقهم  
الوحيد بأمر من اسحق لتزيد فى أبهة الزواج الملكى . ونفذ صمير  
محاريبهم الأتداء لانعدام المساواة فى الجيش . فيما يتعلق بالرتب  
والرواتب . وتمسك بطرس وأساز Asan وهما اثنان من  
رؤسائهم الأقوياء ومن سلالة الملوك القدامى ، بحقوقهما الخاصة  
وبالحرية القومية . وأذاع دجالوهم المشعوذون على الملأ أن حاميه  
المجيد القديس ديمتريوس قد تخطى الى الأبد عن اليونانيين . واندلعت  
نيران الثورة من شواطئ الدانوب الى تلال مقدونية وتراقيا . وبعد  
مقاومة ضئيلة أذعن اسحق أنجيلوس وأخوه لاستقلالهم . ودب اليأس  
الى قلوب جنود الامبراطورية عندما رأوا عظام زملائهم وقد تناثرت  
فوق ممرات جبل هاموس . ووطدت دعائم مملكة بلغاريا الثانية بفضل  
أسلحة جون أو جوانيس وسياسته . وأرسل ذلك المتبربر الماكر بعثة  
الى البابا أنوسنت الثالث لتعلن أنه ابن أصيل لرومه من جهة النسب  
والدين . وتسلم فى خشوع من البابا الأذن بصك النقود وحمل ألقاب  
الملك ، وتعيين رئيس أساقفة أو بطريق من اللاتين . وفاخر الفاتيكان  
بهذا الفتح الروحى فى بلغاريا ، وقد كان ذلك أول بوادر الانشقاق .

ولو أن اليونانيين كان في مقدورهم المحافظة على الامتيازات للكنيسة ،  
لكانوا تخطوا في سرور عن حقوق الملكية .

وكان البلغار من الخبث لدرجة أنهم كانوا يدعون بطول البقاء  
لاسحق أنجيلوس ، أقوى ضمان لحريتهم ورخائهم . ومع ذلك فقد  
نظر رؤسائهم بعين الاحتقار الى أسرة الامبراطور وشعبه . دون تمييز  
بينهما . قال أسان لجنوده : « في جميع اليونانيين ينجم عن المناخ  
والخلق والتربية نفس الثمار » . وأضاف هذا المحارب : « انظروا الى  
حربتي والى الرايات التى ترفرف فى الهواء . انهما مختلفان فى اللون  
فحسب ، ولكنهما مصنوعتان من الحرير عينه . وهما من ابداع الصانع  
نفسه . وليس للخط الأرحوانى أى ثمن أعلى أو قيمة أكبر من قيمة  
نظرائه » . وقام فى أثناء حكم اسحق عدد من أدعياء الملك ، ولكنهم  
سقطوا الواحد تلو الآخر . وقد اضطر أحد القواد الى شق عصا الطاعة  
وجلب الدمار على نفسه ، وكان قد وقف فى وجه أساطيل صقليه ،  
بسبب انكار الامبراطور لجميله وعدم اعترافه بفضله . وأثارت دعة  
الامبراطور المترفة المؤامرات السرية والمظاهرات الشعبية . وقد  
أنقذت الصدقة الامبراطور ، أو أنه مدين بنجاته لخدمه . وفى النهاية  
قضى عليه طموح أخيه الذى أنساه الأمل فى الحصول على تاج مؤقت ،  
أواصر القربى والولاء وروابط الصداقة . فبينما كان اسحق فى أودية  
تراقيا يتابع لهوه البرىء الذى لا خير فيه ، وأعنى به الصيد والقنص ،  
لبس أخوه ألكسيوس أنجيلوس التاج باجماع أصوات المعسكر .  
ورضخت العاصمة ورجال الدين لهذا الاختيار . ودفع الغرور  
الامبراطور الى رفض اسم آبائه ليحمل اسم أسرة كومنينوس ،

وهو اسم ملكى رفيع . لقد استنفدت ألفاظ الاحقار في وصف أخلاق  
لسحق الحقيرة . ويسكنى أن أضيف أنه في أثناء حكم داه ثمان سنوات  
دأبت رذائل زوجته يوفروسيني Euphrosyne المترجلة على معاونة  
ألكسيوس وكان أخقر من أخيه . وكان أول نبأ تلقاه الامبراطور  
المخلوع عن سقوطه هو تألب الحرس عليه ومطاردتهم له . حيث لم  
يعودوا مواليين له . فقر أمامهم أكثر من خمسين ميلا حتى وصل  
الى بلدة ستاجيرا في مقدونية . ولكن قبض على هذا الهارب  
دون هدف أو أتباع ، وحمل الى القسطنطينية ، وسلمت عيناه ،  
وسجن في برج قصي ، مع زاد يسير من الخبز والماء . وفي  
الوقت التى شبت فيه هذه الثورة كان ابنه ألكسيوس ، الذى  
رباه أبوه ليحمل التاج ، في الثانية عشرة من عمره . ولكن  
لم يمسه أذى . وهبطوا به الى مرتبة التابع الذى يسير في ركاب  
النصر والسلام على السواء . ولكن بينما كان الجيش يعسكر على  
شاطئ البحر ، سرت سفينة ايطالية لهذا الأمير الشاب سبيل الهرب .  
وفى زى بحار عادى أفلت من عيون أعدائه ، وعبر الدردنيل ، ووجد  
ملجأ آمينا في جزيرة صقلية . وبعد أن أدى فروض التحية لمقر الرسل  
وطالب بحماية البابا انوسنت الثالث ، قبل ألكسيوس دعوة كريمة من  
أخته ارين Irene زوجة فيليب السوابى ، ملك الرومان ،  
ولكن بينما كان يخترق ايطاليا سمع أن زهرة فرسان الغرب قد  
احتشدوا في البندقية لاقاذ الأرض المقدسة . فلسع في صدره بريق  
من الأمل ، لعله يسكن من استخدام سيوفهم التى لا تقهر في إعادة  
والده الى عرشه .

## الحرب الصليبية الرابعة

بعد انقضاء نحو عشر سنوات أو اثنتى عشرة سنة على ضياع بيت المقدس ، ارتفع صوت « رسول » أو داعية ثالث يهيب بنبلاء فرنسا أن ينفروا الى الحرب المقدسة . وربما كان هذا الداعية أقل تطرفا من بطرس الناسك ، غير أنه كان أقل قدرا بكثير من القديس برنار ، كخطيب وكسياسي . لقد هجر قميس أمي في ضواحي باريس يدعى فولك دي نيللي ، واجباته الكنسية ليقوم بعمل دى طابع أكثر جاذبية ألا وهو عمل مبشر شعبي متجول . وذاعت شهره فديسيته وكراماته في أنحاء البلاد . وكان قاسيا ، غنيفا في خطبه ضد ردائل العصر واستمالات عظاته التي كان يلقيها في شوارع باريس قلوب اللصوص والمرايين والمومسات ، بل وكبار رجال الجامعة وطلابها . وسرعان ما اعتلى البابا انوسنت الثالث كرسى القديس بطرس حتى أعلن في ايطاليا وألمانيا وفرنسا وجوب القيام بحرب صليبية جديدة . وقد أطنب هذا الخبر الفصيح في وصف خراب بيت المقدس وانتصار الوثنية والعار الذي ألحق بالعالم المسيحي . واقترح ، كرما منه وفضلا ، غفران الذنوب ، ومحو جميع السيئات ، لكل من خدم في فلسطين سنة بنفسه أو ستين عن طريق نائب عنه ، وكان فولك دي نيللي من بين مندوبي البابا وخطبائه — أكثر الذين تفخخوا في البوق المقدس صخبا وتوفيقا ، وكانت ظروف أعظم ملوك أوروبا تقف حائلا دون الاستجابة الى هذه الدعوة المقدسة : كان الامبراطور فردريك الثاني لا يزال طفلا ، وكانت مملكة ألمانيا تتنازعها أسرتان منافستان في برنزيك وسوابيا ، أغنى الحزبين الشهيرين حزب

الويلف والجبليين . أما فيليب أوغسطس ملك فرنسا فقد سبق له النهوض بهذه المهمة ، وكان من العسير اغراؤه بأن يلقي بنفسه الى التهلكة من جديد . ولكن طموحه الى الحمد والثناء لم يكن أقل من طموحه الى القوة والسلطان . فخصص في سرور وانشراح مبلغا دائما من المال للدفاع عن الأرض المقدسة . أما ريتشارد ملك انجلترا فقد نهل حتى ارتوى من المجد والكوارث التي أصابته في مغامرته الأولى ، واتخذ موقف السخرية من دعوة فولك دي نيللي الذي لم يكن يستشعر الحياء في حضرة الملوك . وقال له بلاتناجين<sup>(١)</sup> : « انك تنصحني بأن أطرد بناتي الثلاث : الكبرياء والجشع والافتقار للشهوة . اني أوصي بها الى أكثر الناس جدارة بها . اني أوصي بكبريائي لفرسان المعبد ، وبجشعي الى رهبان سيستو Cisteaux ( وهم فرع من رهبان البندكت ) وبحب الشهوة للقساوسة » . ولكن الوعظ وجد أذنا صاغية لدى كبار التابعين وأمراء الطبقة الثانية . كان ثيوبالد Theobald الباسل ، كوفت شامبانيا ، سباقا في هذا الزحف المقدس . لقد تشجع هذا الشاب الذي كان في الثانية والعشرين من عمره بنماذج فريدة من تاريخ أسرته . فقد اشترك أبوه في الحرب الصليبية الثانية . وقضى أخوه الأكبر نجه في فلسطين بعد أن حمل لقب ملك بيت المقدس . وتعاهد ألفان ومائتان من الفرسان على الولاء له والعمل تحت لوائه . وقد تفوق نبلاء شامبانيا في كل فنون الحرب . ومكنه زواجه من وارثة عرش ناغار من أن يجند فرقة من أبناء غسقونيا الأشداء من جانبي جبال البرانس . وكان رفيقه في

(١) Plantagenet . اسم الأسرة المالكة في انجلترا من ١١٥٤ - ١٣٩٩

أو أي فرد من أفرادها - المقصود هنا ريتشارد . ( الترجمة )

الحرب لويس ، كونت بلوا وشارتر . وكان لويس من سلالة ملكية كذلك ، لأن هذين الأميرين كانا من أبناء عسومة ملكى انجلترا وفرنسا ، فى وقت معا . ومن بين العدد الغفير من القساوسة والأمراء الذين حذوا حذو هذين الأميرين ، امتاز فى رأى مولدا وجدارة ، ماثيو من مقاطعة منتورنسى وكذا سيمون دى منتفورت الشهير . وهو الذى صب العذاب على طائفة الهرطقة الألبجوا Albigois ، ونيل مقدام هو جفرى من فيلياردوين ، وهو مارشال شامبانيا الذى تفضل فكذب أو أملى فى أسلوب بلده وعصره الذى ينقصه الصقل ، وصفا أصيلا للمجائس والأعمال التى اشترك فيها بنصيب يذكر . واتشح بالصلب فى الوقت نفسه بلدوين ، كونت فلاندرز الذى كان قد اقترن بأخت تيوبولد . وكذلك فعل أخوه هنرى وأشهر فرسان هذه الولاية الغنية المجدة ومواطنيها . وأوفى الرؤساء فى المباريات العسكرية بكل الجهود التى أعلنوها فى الكنائس ونوقشت العمليات الحربية مرارا فى اجتماعات كبيرة قرروا فيها محاولة انقاذ فلسطين من مصر . وهى قطر أشرف على الدمار بسبب القحط والحروب الداخلية منذ موت صلاح الدين . غير أن المصير الذى لقيه عدد كبير من الجيوش الملكية كان خير شاهد على المشاق والأخطار التى تكتنف الحملات البرية . وإذا كان « الفلمنج » يسكنون على شاطئ المحيط ، فإن بارونات فرنسا لم يكن لديهم السفن ، كما كانوا يجهلون الملاحة . ولهذا وافقوا على القرار السليم باختيار ستة نواب أو ممثلين ، كان من بينهم فيلياردوين ومنحهم سلطة توجيه التحركات العسكرية وضمان ذمة الأحلاف ، بالطرق التى يرونها وفق تقديرهم . وكانت الحكومات البحرية فى إيطاليا هى الوحيدة التى تملك وسائل نقل

المحاربين المقدسين وأسلحتهم وخيولهم . فسافر النواب الستة الى البندقية ليطلبوا العون من تلك الجمهورية القوية باثارة نوازع التقوى أو حوافز المصلحة .

وذكرت فيما سلف أنه عند غزو أثيلا لايطاليا ، هرب من المدن التي سقطت في يد أثيلا في القارة ، أولئك البنادقة الذين شيدوا مدينة البندقية واختبئوا في سلسلة من الجزر الواقعة عند رأس الادرياتيک . وفي وسط هذه المياه وهم أحرار فقراء ، مجدودون ممتنعون في مواقعهم . انحاز بعضهم بالتدريج الى بعض ليكونوا جمهورية ، ووضع أول حجر في تأسيس مدينة البندقية في جزيرة ريالتو . ثم خلق منصب دائم ، هو وظيفة دوق أو دوج ، بدلا من اختيار اثني عشر تربيونا كل عام . ومع أن البنادقة يقيمون على حدود امبراطوريتين ، فانهم فاقروا في ثقته بأن استقلالهم الدائم يرجع الى نشأة مدينتهم . فحریتهم العتيقة قررها السيف ضد اللاتين ، وقد يبررها القلم . وقد أغضی شلمان نفسه عن أي ادعاء يفرص سلطانه على جزر خليج الادرياتيک . وهزم ابنه بيبي Pepin في هجومه في « اللاجون » Lagunas أو القنوات . حيث كانت عسيقة بدرجة تعوق اجتياز الفرسان لها ، على حين أنها ضحلة الى حد يحول دون دخول السفن اليها . وطوال عصر القياصرة الجرمان تميزت أراضي الجمهورية بوضوح عن مملكة ايطاليا . ولكن أهل البندقية اعتبروا أنفسهم واعتبرهم الأجانب ، كما اعتبرهم سادتهم وحكامهم ، جزءا لا يتجزأ من الامبراطورية اليونانية . وعلامات خضوعهم لليونان في القرنين التاسع والعاشر كثيرة لا تقبل الجدل . فالألقاب الجوفاء والأمجاد الذليلة ، التي سادت في بلاط بيزنطة والتي جرى وراءها في طموح شديد حكام البندقية . كانت



كلها تحط من قدر حكام أى شعب حر . ولكن أغلال هذه التبعية التى لم تكن قط مطلقة أو فاسية ، تراخت دون أن يشعر بها أحد بسبب طموح البندقية وضعف القسطنطينية . فخفت فروض الطاعة حتى أضحت مراسم احترام ، وسال الامتياز فأضحى حقا ، ودعم استقلال الممتلكات الخارجية حرية الحكومة الداخلية . فطأطأت مدينتان ساحليتان هما استريا ودالماتيا ، الرأس لسادة الأدرياتيک . وعندما حمل البنادقة السلاح ضد النورمان دفاعا عن ألكسيوس . لم يكن الامبراطور يهيب بهم بوصفهم رعايا ينبغى عليهم أداء واجبهم نحوه ، ولكن بوصفهم حلفاء أوفياء يستفرخ كرمهم وعرفانهم للجميل . وكان البحر الادرياتيکى ارثا خاصا بهم . والحق أن البنادقة تركوا الأجزاء الغربية من البحر المتوسط من تاسكانيا الى جبل طارق لمنافسيهم من سكان بيزا وجنوه . ولكنهم حصلوا من قديم على حصّة مجزية من تجارة اليونان ومصر . وزاد ثراؤهم بازدياد الطلب عليها فى أوربا . ويرجع تاريخ مصنوعاتهم الحربية والزجاجية ، وربما نظام مصارفهم كذلك ، الى زمن سحيق جدا . وقد استمتعوا بشمار جدهم فى رفاهية حياتهم الخاصة والعامة . ولتوطيد مكانة رايتهم ، والانتقام لما يسيبهم . ولحماية حرية الملاحة ، كانت جمهورية البندقية تستطيع أن تقذف الى البحر بأسطول مكون من مائة سفينة حربية مجهزة بالرجال والعناد . وكما واجهت قواتها البحرية اليونان والعرب والنورمان . كما عاونوا الفرنجة فى سوريا على احضاع الشاطيء . ولكن حماسهم لم يكن نزقا أعمى ، ولم يكن دون هدف ، فعند فتح صور اشتركوا فى حكم هذه المدينة التى كانت تعتبر أول مركز للتجارة فى العالم .

وكانت سياسة البندقية تتميز بجشع الدولة التجارية وغطرسة الدولة البحرية . ولكن طموحها كان يتسم بالحزم والرزاقية ، ولم تنس قط أنه ان تكن السفن الحربية نتيجة لعظمتها وضمانا لتلك العظمة ، فان السفن التجارية هي سبب تلك العظمة ومعناها الذى لا ينضب . وفى عقيدتها الدينية تعجبت البندقية انشقاق اليونان دون أن تخضع خضوعا ذليلا لحبر رومه . ويبدو أن اتصالاتهم الحرة مع الكفار فى كل مكان ، خففت منذ البداية من غلواء الخرافة أو العقيدة . وكانت حكومتها فى البداية مزيجا غير محكم من الديمقراطية والملكية . وكانت الجمعية العمومية هي التى تنتخب الدوج . وطالما كان الدوج محبوبا وموققا فانه تمتع بجلال الأمير وسلطانه ، غير أنه فى الثورات المتكررة كان يخلع أو ينهى أو يقتل نتيجة لظلم الجماهير أو عدالتها . وفى القرن الثانى عشر نشأت الطبقة الأرستقراطية الحاكمة التى أحاطت الدوج بجلال أخوف ، وسلبت الشعب كل نفوذه .

### مخالف الفرنسيين مع البنادقة

عندما وصل السفراء الستة للحجاج الفرنسيين الى البندقية . أكرم وفادتهم ، فى قصر سان مارك ، الدوج الذى كان يتربع فى دست الحكم آنذاك ، وكان اسمه هنرى داندولو ، وقد لمع فى أخريات حياته ، كواحد من أبرز الشخصيات فى عصره . وعلى الرغم مما ناء به من عبء السنين وفقدان البصر ، احتفظ داندولو بقواه العقلية سليمة وبشجاعته ورجولته . وكان يحمل بين جنبيه روح البطل الطموح التواق الى تمييز عصره ببعض المنجزات التى تبقى على الزمن ، كما كان يتحلى بحكمة المحب لوطنه ، الذى يود أن يسي

شهرته على مجد الوطن ومصالحته . فأتى على حماس البارونات ومبعوثيهم ، وشجاعتهم وثقتهم الكريمة ، قائلاً انه لو كان فردا عاديا لتمنى أن ينهى حياته في الدفاع عن مثل هذه القضية ، مع مثل هؤلاء الرفاق ، ولكنه خادم الجمهورية ولا بد من بعض التروى لاستطلاع رأى زملائه في مشروع خطير كهذا . وعلى الفور ناقش المقترحات الفرنسية الحكماء الستة الذين كانوا قد عينوا حديثا للإشراف على الإدارة في حكومة الدوج . ثم اطلع عليها الأربعون عضوا في مجلس الدولة . وفي النهاية أحيلت الى الجمعية التشريعية المؤلفة من أربعمائة وخمسين ممثلا ينتخبون سنويا من الأحياء الستة في المدينة . وكان الدوج لا يزال الرئيس الأعلى للجمهورية في الحرب والسلام . وكانت شهرة داندولو وشخصيته تدعمان سلطته الشرعية . ونوقشت في هذا الاجتماع ووزنت حججه المتعلقة بالمصلحة العامة وتمت الموافقة عليها . وفوض في ابلاغ المبعوثين بالشروط التالية للمعاهدة : وهي أن يجمع المحاربون الصليبيون في البندقية في يوم عيد القديس يوحنا في السنة المقبلة ، على أن تعد سفن ذات قاع مستو لنقل أربعة آلاف وخمسمائة جواد وتسعة آلاف تابع ، وأن يجهز عدد كاف من السفن لنقل أربعة آلاف وخمسمائة فارس وعشرين ألفا من المشاة . وفي مدى تسعة أشهر يزودون بالمؤن ، وينقلون الى أية جهة تقتضيها خدمة الرب والعالم المسيحي . وعلى جمهورية البندقية أن تشترك بحملة مكونة من خمسين سفينة حربية . كما اشترط أن يدفع الحجاج قبل ابحارهم خمسة وثمانين ألفا من المراكات الفضية . وأن تقسم جميع الفنوحات في البحر والبر بالتساوى بين الحلفاء . كانت الشروط قاسية ولكن

الظروف ملحة . وكان استعداد البارونات الفرنسيين لبذل المال لا يقل عن استعدادهم لبذل الدم . وعقدت الجمعية العمومية اجتماعا للموافقة على المعاهدة ، واحتشد عشرة آلاف من المواطنين في كنيسة سان مارك الفخمة وفي الميدان ، ولقن المندوبون النبلاء درسا جديدا في التواضع أمام جلال الشعب وعظمته . وقال مارشال شامبانيا : « أيها البنادقة العظام ، لقد أوفدنا أعظم بارونات فرنسا وأكثرهم قوة لئلا نرجو عون سادة البحر لانتفاذ بيت المقدس . وقد أمرونا أن نخسر ساجدين تحت أقدامكم ولن نرفع رءوسنا عن الأرض حتى تعدونا بأن تنتقموا معنا لما لحق المسيح من إساءات » . وقد قوبلت فصاحة المبعوثين ودموعهم وبزتهم العسكرية وضراعتهم . باستحسان تام وصياح عام ، وصفه جيفرى بأنه كان أشبه شيء بهزة زلزال . واعتلى الدوج المبجل المنصة ليسنح الموافقة على مطلبهم ، مرددا دوافع الشرف والفضيلة ، التي تليق بمقام جمعية شعبية . وكتبت المعاهدة على رق ووثقت بالإيمان والاختاء وقبلها الجانبان ، ممثلو فرنسا وممثلو البندقية ، ودموع الفرح تنهر من عيونهم . وأرسلت إلى رومه لتتال موافقة البابا انوسنت الثالث . وافترض ممثلو البندقية من التجار ألفين من المراكات لدفع النفقات المبدئية للحملة . وعاد اثنان من المبعوثين عبر جبال الألب ليعلن نجاح الوفد . أما رفقاؤهم الأربعة فبقوا للقيام بمحاولة عقيمة لاثارة روح الحماس والمنافسة في جمهوريتي بيزا وجنوه .

ولفى تنفيذ المعاهدة عقبات وتأجيلات غير متوقعة . وطوف تيبوت كوت شامبانيا الذي وقع عليه الاختيار بالاجماع ليكون قائدا عاما

للحلفاء — طوق المارشال بذراعيه ، وأقر كل ماتم . ولكن صحة ذلك الأمير الشجاع كانت قد بدأت في الانحلال . وسرعان ما فقد الأمل في شفائه . وكان يرثى مصيره الذي جاء قبل أوانه ، وبدلاً من أن يستشهد في ميدان القتال ، حكم عليه بالموت على فراش المرض . وقام هذا الأمير ، وهو يجود بروحه ، بتوزيع كنوزه على أتباعه العديدين الشجعان ، الذين أقسموا في حضرته على الوفاء بنذره ونذورهم ، ولكن المارشال يقول ان بعضهم قبل الهدايا وحنث في يمينه . وعقد أولو العزم من أبطال الصليب اجتماعاً في سواسون لاختيار خلف له . وبلغ انعدام الكفاية أو التحاسد أو العزوف والتراخي بين أمراء فرنسا حداً لم يخرجوا معه برجل يجمع بين المقدرة والرغبة في تحمل عبء قيادة الحملة . فرضوا بانتخاب أجنبي هو بونيفاس ، مركز موتفيرات ، وهو من سلالة الأبطال ، وقد برزت شهرته في الحروب والمفاوضات في تلك الأيام . ولم يملك هذا الأمير الإيطالي لورعه أو طموحه الا أن يقبل هذه الدعوة الثييلة . فبعد أن زار البلاط الفرنسي حيث استقبل كصديق وقريب اتشح في كنيسة سواسون بصليب الحجاج وتسلم عصا القيادة وعبر في التوجبال الألب للاستعداد لهذه الحملة البعيدة في المشرق . وقبيل عيد العنصره رفع رايته وتقدم نحو البندقية على رأس الإيطاليين . وسبقه ، أو جاء بعده ، كونت فلاندرز وكونت بلوا وأبرز بارونات فرنسا . وزاد في أعدادهم انضمام الحجاج الألمان الذين شاركوهم في الهدف والبواعث . وقد وفي أهل البندقية بتعهداتهم ، بل زادوا عليها . فشيدت اصطبلات للخيول وثكنات للجنود ، وامتلات المخازن بوفرة من المؤن والعلف . وكان

الأسطول المعد لنقلهم من سفن وزوارق حربية على أهبة الاستعداد  
للإبحار حالما تتسلم جمهورية البندقية الأسلحة وأجور النقل . ولكن  
هذا الأجر جاوز الى حد كبير طاقة الصليبيين المجتمعين في البندقية .  
فالفلنچ الذين كانت مناعتهم لحكامهم اختيارية ومزعزعة أبحروا على  
سفنهم لقطع الرحلة الطويلة في المحيط والبحر المتوسط . وآثر  
كثيرون من الايطاليين والفرنسيين القيام برحلة أقل نفقة وأعظم راحة  
من مرسيليا وأبوليا الى الأرض المقدسة . وربما شكوا كل حاج من أنه  
بعد أن قدّم كل ما طلب منه . قد بات كذلك مسؤولا عن النقص الذي  
حدث بسبب غياب اخوانه في الدين . وكانت الأواني المصنوعة من  
الذهب والفضة والتي قدمها الزعماء بسخاء الى خزانة سان مارك  
تضحية كريمة . ولكنها غير كافية . وبعد بذل كل تلك الجهود بلغ  
النقص في الأجر المتفق عليه أربعة وثلاثين ألفا من الماركات . وقد ذلّل  
الدوج بسياسته ووضيته هذه العقبة . فاقترح على البارونات أنهم  
ان اشتركوا في اخضاع بعض مدن ألمانيا الثائرة فانه سوف يسافر هو  
نفسه للاشتراك في الحرب المقدسة . وسيحصل لهم من الجمهورية  
على تأجيل طويل الأمد . حتى يتاح فتح يّتى بمال وفيه يكفى لسداد هذا  
الدين . وبعد شك وتردد كبير فضلوا قبول الاقتراح بدلا من احباط  
المشروع كله . ووجهت أول أعمال عدائية قام بها الأسطول والجيش  
ضد زارا Zara : وهي إحدى المدن الحصينة على شاطئ  
سكلافونيا . وكانت قد طرحت ولاءها للبندقية وطلبت الحماية من  
ملك المجر . وحطم الصليبيون السلاسل التي تغلق الميناء ، وأنزلوا  
خيلهم وجنودهم وآلاتهم الحربية على الشاطئ ، وأجبروا السكان بعد

دفاع دام خمسة أيام على التسليم بلا قيد أو شرط وقد أبقي الصليبيون على حياتهم ولكنهم عاقبوه على ثورتهم بنهب دورهم وهدم أسوار مدينتهم . وكان فصل الشتاء قد أقبل ، فقرر الفرنسيون والبنادقة قضاءه في مرفأ أمين وقطر يعمه الرخاء . غير أن منازعات قومية صاخبة بين الجنود والبحارة عكرت صفو راحتهم . ذلك أن الاستيلاء على زارا بذور الشقاق والشعور بالخجل . حيث دنست أسلحة الحلفاء منذ البداية بدم المسيحيين ، لا بدم الكفار . ودخل ملك المجر ورعاياه الجدد تحت راية الصليب . وزاد من شكوك الأتقياء خوف الحجاج المترددين وتقاعسهم . وأصدر البابا قرارا بحرمان الصليبيين الزائفين الذين نهبوا وقتلوا اخوانهم المسيحيين . ولم ينج من هذه الصاعقة الروحانية غير مركيز بونيفاس وسيمون دي مونتفورت ، الأول لغيابه عن الحصار ، والثاني لرحيله نهائيا من المعسكر . وكان من الممكن أن يصفوا انوسنت عن الفرنسيين . وأن يقبل توبتهم وخضوعهم . ولكن عنت أهل البندقية والأسباب التي أبدوها أثارت تأثيره ، فقد رفضوا الاعتراف بخطئهم كما أبو قبول عفوهم ، أو السماح لقسيس أن يتدخل في شئونهم الدنيوية .

وقد أحيا حشد له مثل هذه القوة الرهيبة برا وبحرا آمال ألكسيوس الشاب ، فتوسل في البندقية وفي زارا ، الى جيوش الصليبيين أن تعمل على عودته ، وعلى انقاذ والده . وأوصى فيليب ملك ألمانيا خيرا بهذا الأمير الشاب . وأثارت ضراسته وحضوره شفقة المعسكر . وتبنى قضيته وتولى الدفاع عنه مركيز مونتيفرات ودوج البندقية . وربط حلف مزدوج ، كما ربطت مكانة قيصر ، بين أسرة

الامبراطور وبين أكبر أخوين لبونيفاس ، وكان ينتظر أن يحظى  
بمملكة جزاء هذه الخدمة الهامة . وكان طموح داندولوا أكثر نبلا ،  
فقد تاق الى الحصول على فوائد تجارية ضخمة لوطنه ، وعلى ممتلكات  
تزيد من قوة البندقية . واستطاع نفودهما أن يحقق استقبالا كريما  
لسفراء الكسيوس . وأثارت ضخامة مقترحاته بعض الشك ، ولكن  
استطاعت البواعث والجوائز التي عرضها أن تبرر أى تأخير لهذه  
القوات وتوجيهها وجهة أخرى ، وهى المخصصة أصلا لتخليص بيت  
المقدس . وتعهد الكسيوس ، باسمه واسم أبيه ، وبمجرد جلوسهما  
ثانية على عرش القسطنطينية ، بإنهاء شقاق اليونانيين الذى طال أمده ،  
وبإخضاع شحصهما وشعبهما لسلطان الكنيسة الرومانية الشرعى ، كما  
وعد بأن يدفع فورا مائتى ألف من الماركات الفضية لقاء المتاعب التى  
يحتملها الصليبيون ، وأن يسافر معهم بشخصه الى مصر ، أو — اذا  
رأوا أن ذلك مما يعود عليهم بفائدة أكبر — أن يدفع طوال سنة كاملة  
نفقات عشرة آلاف رجل . وأن يخصص طوال حياته خمسمائة فارس  
للخدمة فى الأرض المقدسة . وقبلت جمهورية البندقية هذه الشروط  
المفزية . واستمال الدوج المركز بفصاحته كونت فلاندرز وكونت بلوا  
وكونت سان بل St. Pol مع ثمانية من بارونات فرنسا الى قبول  
الاشتراك فى هذا المشروع المجيد . فعقدت معاهدة هجومية دفاعية  
تم توثيقها بأيمانهم وأختامهم . وكان يسيطر على كل فرد فيهم ،  
تبعا لمركزه وخلقه ، الأمل فى الحصول على فائدة عامة أو خاصة  
بما يحرز من شرف العمل على إعادة ملك منفى ، وسيطر على آخرين ،  
وكانوا مخلصين ، أنه من المحتمل أن جهودهم فى فلسطين قد تكون



عقيدة لا طائل تحتها ، وأن الاستيلاء على القسطنطينية يجب أن يسبق وأن يمهّد لاسترداد بيت المقدس . ولكن هؤلاء كانوا رؤساء أو قرناء لفريق قوى من الأحرار والمتطوعين الذين يفكرون ويتصرفون وفقا لمصلحة أنفسهم . أما الجنود ورجال الدين فقد كانوا منقسمين ، ولو كانت ثمة أغلبية كبيرة تقر التحالف ، فإن عدد المعارضين كان عظيما ، وحججهم قوية لها اعتبارها . لقد روع أكثرهم جرأة واقداما بما سمعوا من قوة القسطنطينية البحرية ومنعتها . ولكن مخاوفهم استترت أمام العالم ، وربما أمام أنفسهم ، وراء اعتراضات أكثر وقارا واحتراما . أملاها الدين والواجب . فاعتذروا بقديسية نذورهم التي جعلتهم يتركون أوطانهم وأسرانهم لانتفاذ القبر المقدس . ولا يجوز أن تغير سياسة البشر ونصائحهم الغامضة الملتوية ، من وجهة مسعى تتيجه النهائية في يد الله سبحانه وتعالى . وقد لاقوا من وخز الضمير ولوم البابا ، جزاء خطيئتهم الأولى في هجومهم على زارا . ومن ثم لا يجوز أن يفسوا أيديهم مرة ثانية في دم اخوانهم المسيحيين . لقد أعلن الحبر الرسولي في رومه رأيه . ولا يجوز أن ينزعوا حق الانتقام بالسيف ، من اليونان لانشقاقهم أو بسبب الاغتصاب المشكوك فيه لعرش بيزنطة . وبناء على ذلك انسحب من المعسكر كثيرون من الحجاج ممن امتازوا بالشجاعة والورع . وكان تراجع هؤلاء أقل ضررا من المعارضة السافرة أو الخفية لفريق من المخالفين جاهدوا في كل فرصة أن يشيعوا الفرقة في الجيش وأن يحبطوا المشروع .

## الإبحار إلى القسطنطينية

وعلى الرغم من هذا الانقسام ألح أهل البندقية بشدة على إبحار الأسطول والجيش . وكان تحسب البنادقة لخدمة الأمير الشاب يخفى كراهية عادلة لأمته وأسرته . لقد شق عليهم إيثار ييزا عليهم منذ عهد قريب ، وهى التى تنافسهم فى الميدان التجارى . وكان لديهم رواسب قديمة من الاساءات يريدون تصفيتها مع بلاط ييزنطه . ولم يحاول داندولو أن يحد من انتشار القصة التى سارت على ألسنة الناس ، من أن الامبراطور عمانويل سمل عينيه مرتكباً بذلك جريمة الخيانة والاعتداء على حرمة سفير . ولم يكن أحد قد رأى منذ قرون حملة مماثلة تبجر فى بحر الادرياتيك ، مكونة من مائة وعشرين سفينة من ذوات القاع المستوى لنقل الخيل ، ومائتين وأربعين ناقلة حملت رجالاً وأسلحة ، وسبعين سفينة تحمل المؤن ، وخمسين سفينة ضخمة من زوارق الحرب قد أعدت اعداداً هائلة للملاقاة الأعداء . وبينما كانت الريح رخاء والسماء صحوا والماء أملس ناعماً شخصت كل عين عجباً وسروراً بمنظر البهاء الحربى والبحرى الذى اقتشر على اليم . ونسقت دروع الفرسان ، وهى زينة وعدة للدفاع فى وقت معا ، على جوانب السفن . ورفرفت أعلام الأمم والأسر فى المؤخرة . وحل محل مدفعيتنا الحديثة ثلثمائة آلة لالقاء الأحجار ورمى السهام . وخفت أنغام الموسيقى من متاعب الطريق . وارتفعت روح المغامرين بالتأكيد المتبادل بأن أربعين ألفاً من أبطال المسيحيين كمو لفتح العالم بأسره . وكانت رحلة الأسطول من البندقية وزارا موفقة تحت اشراف مرشدين من

البنادقة بلغوا الذروة في المهارة والخبرة . ونزل الحلفاء أولا في دورازو في نقطة داخل حدود الامبراطورية اليونانية . وقدمت لهم جزيرة كورفو مستقرا ومقاما للراحة . وطاقوا دون أن يمسهم أذى حول رأس ماليا الخطر ، وهو أقصى نقطة في المورة . وهبطوا على جزيرتي نجروبونت وأندروس . ورسّت سفنهم في أييدوس على الشاطئ الأسوي للدرنيل . وكانت مقدمات الفتح هذه سهلة ، وتمت دون سفك للدماء ، حيث تغلبت على اليونانيين في الولايات ، الذين كانت تعوزهم الشجاعة أو الوطنية ، فوى لا قبل لهم بمقاومتها . وربما برر امثالهم وجود ولى العهد الشرعى . ولقى هذا الامتثال جزاءه في تواضع اللاتين ودقة نظامهم . وعندما توغلوا داخل الدردنيل انحصرت قواتهم البحرية في قناة ضيقة . وأظلم سطح الماء لكثرة الأشرعة التي تجل عن الحصر . ثم انتشرت سفنهم مرة أخرى في بحر مرمره . فعبروا هذا البحر الهادى حتى اقتربوا من الساحل الأوروبى عند كنيسة القديس ستيفن على بعد فراسخ ثلاثة الى الغرب من القسطنطينية . وقد حذرهم الدوج الرزين من الانتشار في أرض معادية أهلة بالسكان . ولما كانت مؤنهم قد تقصت فقد قرروا أن يملئوا سفن التسوين في وقت الحصاد من الجزر الخصبة في بحر مرمره . وبناء على هذا القرار اتخذوا طريقهم ، ولكن عاصفة شديدة بالاضافة الى قلقهم وملهم ، ألقت بهم الى جهة الشرق ، فاقربوا من الشاطئ ومن المدينة ، الى حد التراشق بالحجارة والسهام بين السفن والحصن . وعندما ساروا بمحاذاة المدينة حدقوا النظر في اعجاب بعاصمة الشرق ، أو الأخرى أن تقول ، بعاصمة العالم ، وهى ترتفع من تلالها السبعة

وتطل من عليائها على قارتي أوروبا وآسيا ، وقد كست الشمس بأشعتها الذهبية القباب الضخمة والمنارات العالية لخمسمائة قصر وكنيسة ، وانعكست صورها على صفحة الماء . وقد ازدحم الجنود والنظارة على الأسوار . وعندما رأى الصليبيون أعداءهم ، وكانوا يجهلون طباعهم ، حل الفرع بكل قلب ، وأدركوا أنه منذ بدء الخليقة لم يقم مثل هذا العدد القليل من المحاربين بمثل هذا المشروع . ولكن الأمل والشجاعة طردا هذا الخوف المؤقت . ويقول مارشال شامانيا ان كل رجل ركز بصره على سيفه أو حربته التي كان عليه أن يستخدمها بعد وقت قصير في النزاع المجيد . وألقى اللاتين مراسيهم أمام خلقدونية . وترك البحارة وحدهم على السفن ، ونزل الجنود والخيول والأسلحة في أمان الى البر . وفي أحد القصور الامبراطورية المترفة ذاق البارونات أول ثمار نجاحهم . وفي اليوم الثالث تحرك الأسطول والجيش الى ناحية اسكدار ، ضاحية القسطنطينية في آسيا . وفاجأ ما يقرب من ثمانين فارسا من الفرنسيين فرقة مؤلفة من خمسمائة خيال من اليونانيين وهزموها . وفي فترة اقامتهم التي دامت تسعة أيام ، فاض المعسكر بكمية كبيرة من المؤن والعلف .

وقد يبدو غريبا في وصفى لغزو امبراطورية عظيمة انى لم أتعرض لذكر العقبات التي كان يجب أن تقف في وجه هؤلاء الأجانب وأن تحول دون نجاحهم . والحق أن اليونانيين لم يكونوا أهل حرب ، ولكنهم كانوا أثرياء مجدين خاضعين لارادة رجل واحد ، اذا كان لهذا الرجل أن يتوجس خيفة من عدوه البعيد عنه ، أو يجد في نفسه الشجاعة لملاقاة هذا العدو اذا اقترب من شخصه . لقد قابل ألكسيوس الغاصب

أول نبأ عن تحالف ابن أخيه مع الفرنسيين والبنادقة بالسخرية ، وقد أقنعه متملقوه أنه في احتقاره هذا شجاع ومخلص . وفي ختام الولاية كل مساء كان يعلن ثلاثا ، خيبة فآل برابرة الغرب . وكان هؤلاء البرابرة قد أزججتهم حقا أخبار بحريته . وكان من المستطاع حشد أسطول من قوارب الصيد الألف وستائة في القسطنطينية لاغراقهم في الأدرياتيك أو منعهم من دخول الدردنيل . ولكن أية قوة يمكن أن تكون غير ذات وجود أو قيمة ، نتيجة إهمال الأمير وفساد وزرائه وارتشائهم . الحق إن الدوق أو الأميرال العظيم عرض للبيم في مزاد شائن يكاد يكون علانية ، الأشرعة والصواري والجمال ، واحتفظ بالغابات الملكية لغرض أكثر أهمية ، ألا وهو الصيد . ويقول نيكيتاس Nicetas إن الخصيان كانوا يحرسون الأشجار كأنها آجام مقدسة للعبادة . وقد أيقظ حصار زارا وسرعة تقدم اللاتين ألكسيوس من أحلام كبريائه . وما إن رأى الخطر محدقا . حتى أدرك أنه لا مفر منه ، وتلاشى غروره وكبرياؤه في يأس وقنوط ذليل . لقد احتمل أن يعسكر هؤلاء البرابرة المحترقون على مرأى من قصره . واختبأ فزعه تحت ستار رقيق من الأبهة التي أحاطت ببعثة ضارعة أوفدها إلى الأعداء ، ومن تهديدها لهم . انه أمر سفراءه أن يقولوا : « لقد أذهل مظهر الأجانب العدائي ملك الرومان . فان كانوا حجاجا مخلصين في نذرهم اتقاؤ بيت المقدس ، فانه يمتدح هذا الهدف الورع ، ويفتح خزائنه للمعاونة على تحقيقه . ولكن ان تجاسروا أن يقوموا بغاره على حرم الامبراطورية وقصبتها ، فلن تحميمهم جموعهم ولو كانت عشرة أمثال عددهم الحالي ، من غضبه العادل » . وكان رد الدوج

والبارونات بسيطا عظيما يتسم بعلو الهمة : « انا دفاعا عن الشرف والعدالة نحترق غاصب اليونان وتهديداته ومقترحاته . فصادقتنا — وولاؤه — ينبغي أن يوجه الى ولي العهد الشرعى ، الى الأمير الشاب الذى يجلس بيننا ، وإلى آبيه الامبراطور اسحق الذى فقد صولجانه وحريته وعينه على يد أخ عاق . فليعترف هذا الأخ بخطئه ، وليطلب الصفح ، وسنشفع له نحن أنفسنا حتى يسمح له بأن يقضى بقية عمره فى رخاء وطمأنينة . ولا يسيئن إلينا بارسال رسالة أخرى ، فسيكون جوابنا على أسنة الرماح فى قصر القسطنطينية » .

وفى اليوم العاشر لاقامة معسكرهم فى اسكدار ، أعد الصليبيون أنفسهم كجنود وكاثوليك لعبور البسفور . وكانت حقا مغامرة محفوفة بالأخطار . كان المجرى واسعا وسريعا . وفى حالة سكون الهواء قد يحمل تيار البحر الأسود نيران اليونانيين السائلة والتي لا يمكن اطفائها . وكان يدافع عن الشاطئ الأوروبى المقابل سبعون ألفا من الخيالة والرجالة يؤلفون صفوفات متراصة فى ترتيب رهيب . وفى هذا اليوم المشهود ، وقد اتفق أن سطعت شمس ورق هواؤه ، وزع اللاتين فى ست فرق أو أقسام ، القسم الأول أو المقدمة كان يقوده كونت فلاندرز وهو من أكثر الأمراء المسيحيين قوة ومهارة وكان معه عدد كبير من رماة القوس . وكان يقود الأقسام الأربعة التالية من الفرنسيين أخوه هنرى وكونت سان بل وكونت بلوا وماثيو منتمورتسى ، وقد شرف هذا الأخير ، بخدمة مارشال شامباينا ونبلائها تحت لوائه طواعية واختيارا . وكان القسم السادس أو المؤخرة واحتياطي الجيش ، يقوده مركز موتفيرات على رأس الجرمان واللومباردين . وأسرجت خيول

الحرب وجرجرت جملها على الثرى وحملت على السفن ذات القاع المستوى . ووقف كل فارس الى جانب جواده وقد ارتدى سلاحه كاملا ، فخوذته على رأسه وحربته في يده . واحتلت حاشيتهم الكبيرة من جاويشية ورماة سفن النقل وربطت كل منها الى احدى الزوارق الحربية تجرها بقوتها وسرعتها . وعبرت الأقسام الستة البسفور دون أن تقابل عدوا أو عقبة . وكان كل قسم بل كل جندي يتوق الى أن يكون أول من ينزل الى البر ، وصمم كل فرد على الانتصار أو الموت . ولهذا على اقتحام المخاطر في ذروتها قفز الفرسان في كامل عدتهم الثقيلة الى الماء الذي وصل الى موضع الحزام من كل منهم . وقد بعثت شجاعتهم روحا في الجاويشية والرماة . وقاد الأتباع الخيل الى الشاطئ بعد أن أنزلوا كبارى السفن ذات القاع المستوى . وقبل أن يستطى كل فارس جواده ويلحق بصفه ويسدد حربته اختفى السبعون ألف يوناني ، ولم يعد يراهم أحد . وقد ضرب ألكسيوس الرعديد المثل لجنوده . ولم يعرف اللاتين أنهم كانوا يحاربون ضد الامبراطور الا عند نهب ايواناته الغنية . وفي بدء الاضطراب الذي أعقب هرب العدو قرر الحلفاء أن يقوموا بهجوم مزدوج لاقتحام مدخل الميناء . فهاجم الفرنسيون قلعة غلطة في ضاحية البيرة Pera واستولوا عليها عنوة ، بينما حاول البنادقة أن يقوموا بعمل أشد مشقة وهو قطع السلسلة التي تمتد من القلعة الى شاطئ بيزنطة . وبعد بضع محاولات عقيمة ، كللت في النهاية ثابرتهم وجرأتهم بالنجاح . فأغرقت أو أسرت عشرون سفينة حربية هي البقية الباقية من البحرية اليونانية . وقصت حلقات الحديد الضخمة العديدة بالجلم ( المقص ) ، أو هشت تحت

ثقل السفن الحربية . ورسا أسطول البندقية آمنا منتصرا في مرفأ القسطنطينية . وبعد هذه الأعمال الجريئة طالبت بقية من عشرين ألفا من اللاتين السماح لها بمحاصرة عاصمة تضم أكثر من أربعمائة ألف ، ممن يقوون على حمل السلاح دفاعا عن وطنهم ، ولكنهم لا يرغبون في ذلك . ومثل هذا التقدير يفترض طبعاً أن عدد سكان القسطنطينية كان يقرب من مليونين . ولكن مهما كان التخفيض الذى يجب اجراؤه لاقصاص عدد اليونانيين ، فإن ضعف ايمانهم كان يتناسب عكسيا مع قوة الروح المعنوية لمهاجميهم الذين لم يكونوا يعرفون الخوف .

### استيلاء اللاتين على القسطنطينية

وعند اختيار طريق الهجوم اختلف الفرنسيون مع البنادقة ، شأنهم في حياتهم وفي حروبهم . وعلى حين أكد البنادقة في صدق أن أيسر طريق للاستيلاء على القسطنطينية كان من جهة البحر والميناء ، كان من حق الفرنسيين أن يقرروا في أمانة واخلاص أنه يكفيهم أنهم عهدوا مدة طويلة بحياتهم وثرواتهم الى سفن ضعيفة وعنصر غير مأمون ، ويلحون بأعلى أصواتهم يريدون تجربة من تجارب الفروسية على أرض ثابتة ، وهجوما عن كتب على ظهور الخيل أو على الأقدام . وتم الاتفاق على حل وسط رزين ، وهو أن يسند الى كل من الأمتين ما يناسب طباعها وعاداتها في البحر والبر ، شريطة أن يعطى الأسطول الجيش . فأصلحت بسرعة قنطرة النهر المشيدة من الحجر ، وأقامت الأقسام الفرنسية الستة معسكراتها في مواجهة العاصمة في قاعدة المثلث التى امتدت أربعة أميال من الميناء حتى بحر مرمره . وعلى حافة حفرة واسعة وفي أسفل



حصن عال كان لديهم متسع من الوقت لتدبر صعوبات مشروعاتهم .  
وفتحت البوابات الواقعة على يمين معسكرهم الضيق وإلى يساره  
لندفع منها سيل من الخيالة والمشاة ذوي الأسلحة الخفيفة ، يقتلون  
المتخلفين ، ويستولون على المؤن في الريف ، وينشرون الرعب خمس  
مرات أو ستا في اليوم الواحد . وبذا اضطروا الفرنسيون إلى إقامة سور  
من الأوتاد وخندق حول معسكرهم لحمايتهم بطريقة عاجلة . وفيما  
يخص المهمات والناقلات فاما أن البنادق كانوا مقتصدين جدا أو أن  
الفرنسيين كانوا نهمين جدا ، فترددت الشكوى المعتادة من الجوع  
والشح . وربما شعر الجنود بذلك ، وكان لديهم من الدقيق ما يكفيهم  
ثلاثة أسابيع فقط . وفي نفورهم من اللحم المالح راودتهم فكرة تذوق  
لحوم خيولهم . وكان يعاون المُنضب الجبان زوج ابنته ثيودور  
لاسكاريس وهو شاب شجاع كان يتطلع إلى أن يقذف وطنه ويحكمه .  
ونسى اليونانيون وطنهم ، ولكنهم استيقظوا للدفاع عن عقيدتهم .  
وانعقدت أقوى آمالهم على شجاعة وروح الحرس الفارانجي  
المؤلف من دنمركيين وانجليز كما كان يسميهم كتاب ذاك  
العصر . وبعد عشرة أيام من الجهود المتواصلة سويت الأرض  
وردمت الحفرة وعُبدت الأماكن التي يتقدم فيها المحاصرون ، وأقيمت  
مائة وخمسون آلة من آلات الهجوم بدأت تجرب قواها المخلفة ،  
في ذلك الحصن وهمدم الأسوار وتقويض دعائمها .  
وبمجرد أن ظهرت فتحة ، وضعت سبلالم الصعود . لكن  
صدت كثرة المدافعين عن هذه البقعة المرتفعة اللاتين المفارين  
وتغلبت عليهم . ولكنهم أعجبوا بعزيمة خمسة عشر من الفرسان

والجوايشية الذين استطاعوا التسلق والاحتفاظ بموقعهم  
الخطر حتى ألقى بهم من أعلى ، أو أسره الحرس الامبراطوري .  
وفي جانب الميناء كان الهجوم البحرى الذى قام به البنادقة أكثر نجاحا .  
وقد استخدم هذا الشعب المجد كل حيلة كانت معروفة ومستعملة  
قبل اختراع البارود . وشكلت البوارج الحربية والسفن الأخرى صفا  
مزدوجا ، على مسافة ثلاث رميات من الأمام وقد عاوت سرعة السفن  
الأولى ثقل البوارج الحربية وارتفاعها وكانت ظهورها ومؤخراتها  
وصواريخها مستقرا للآلات الحربية التى أرسلت قذائفها من فوق رؤوس  
الصف الأول . ووضع الجنود الذين قفزوا من البوارج الحربية الى  
الشاطئ سلال الصعود توا وتسلقوا عليها ، بينما تقدمت البوارج  
الضخمة ببطء أكثر فى تلك الفرج الفاصلة ، وأنزلت قناطرها طريقا فى  
الهواء من الصواري الى الحصن . وفى وسط هذا الصدام وقف الدوج  
وهو شخصية مبجلة بارزة ، يرتدى لباسه الحربى كاملا فى مقدمة بارجته  
الحربية . وقد ارتفعت راية القديس مرقص الكبرى أمامه . وهو يحث  
المجدين على الجد بوعيده ووعدده وتحريضه . وكانت بارجته أول سفينة  
رست على البر وكان داندولو أول من قفز الى الشاطئ . وقد أعجبت  
الأمم بشهامة هذا البطل الأعمى المعجوز ، دون أن يفكر أحد أن كبر  
سنه وعاهته قد قللتا من قيمة حياته وزادتا من قيمة مجده الخالد . وفجأة  
ثبت علم الجمهورية على الحصن بيد لم يرها أحد ( وربما كان حامل  
العلم قد قتل ) . واحتلوا بسرعة خمسا وعشرين قلعة ، وأبعدت النيران  
وهى أذاه قاسية — اليونانيين عن الحى المجاور . وكان الدوج قد  
بعث بأخبار نجاحه ، عندما أوقف الخطر المحقق بحلفائه ، جهوده وبعد

أن أعلن في نبل ، وشرف أنه يفضل الموت مع الحجاج على أن يحظى  
بنصر فيه هلاكهم ، ترك داندولو ثمرة نجاحه واستدعى عسكره وأسرع  
الى ميدان القتال . فوجد أن الأقسام الفرنسية الستة المنهكة والهزيلة  
قد أحاط بها ستون فرقة من خيالة اليونان . وكانت أقل فرقه منها أكثر  
عددا من أكبر الأقسام الفرنسية . فقد دفع العار واليأس ألكسيوس  
الى القيام بهجوم عام خارج الأسوار كآخر مجهود حربي ممكن .  
الا أن نظام اللاتين القوي ومظهر الرجولة فيهم أصاباه بالفرع . فسحب  
جنوده قرب الماء بعد قيامه ببعض المناوشات في مكان بعيد . وزاد من  
مخاوفه صمت الليل أو صخبه . وبعد أن جمع من الكنوز ما يزيد على  
عشرة آلاف رطل من الذهب ، ترك هذا الغاصب الرعديد زوجته وأمه  
ووثوته ، وألقى بنفسه في قارب صغير عبر فيه البسفور خفية ، ونزل  
البحر في أمان مزر شائن في مرفأ غير معروف من موانئ تراقية . وسرعان  
ما عرف النبلاء بهربه حتى لجئوا الى زنانة اسحق حيث كان هذا  
الامبراطور الأعمى ينتظر زيارة الجلاد في كل لحظة ، يطلبون الصنع  
والسلام . لقد أنقذته ورفعت من شأنه مرة أخرى تصارييف الحظ فوضع  
الأسير على العرش بعد أن ارتدى حلة الأباطرة ، وأحاط به عبيد سجد  
لم يكن في مقدوره أن يرى فزعهم الحقيقي أو فرحهم المصطنع . وأوقعت  
الاشتباكات الحربية في فجر ذاك اليوم . ودهش زعماء اللاتين عندما  
تلقوا رسالة من الامبراطور الشرعى الجالس على العرش ، الذي كان  
يتعرق شوقا الى احتضان ابنه ومكافأة منقذه الكرماء .  
ولكن هؤلاء المنقذين الكرماء كانوا لا يريدون اطلاق سراح  
رهينتهم حتى يتسلموا من أيه أجرهم . أو على الأقل وعدا بدفع

تعويض لهم . فوق الاختيار على أربعة من السفراء : ماتيو من مقاطعة  
موتيمورنسى ، ومؤرخنا مارشال شامبانيا ، واثنين من البنادقة لتهنئة  
الامبراطور . ففتحت الأبواب على مصاريحها لاستقبالهم واصطفت  
على جانبي الطرق فرق الحرس الدنماركي والانجليزى ، وفى  
أيديهم فؤوس الميدان وتلألأ بهو العرش بالذهب والجواهر ،  
وهى البديل الزائف للفضيلة والقوة . وجلست الى جوار اسحق  
الأعمى زوجته ، أخت ملك المجر . وقد جذب ظهورها سيدات  
اليونان النبيلات من خدورهن فاختلطن بأعضاء السناتو وبالجنود .  
وتكلم سفراء اللاتين بلسان المارشال كرجال يعرفون قدرهم ، ولكنهم  
يحترمون عملهم . وأدرك الامبراطور بوضوح أن تعهدات ابنه للبندقية  
والحجاج يجب أن يوافق عليها دون تردد أو ابطاء . فانسحب  
الامبراطور الى غرفة خاصة ومعه الامبراطورة وأحد الأمراء والترجمان  
والسفراء الأربعة ، واستقر والد ألكسيوس فى قلق عن طبيعة شروط ابنه .  
ورد السفراء بأنها تتلخص فى : خضوع الامبراطورية الرومانية الشرقية  
لسلطان البابا واقتاذ الأرض المقدسة ، ودفع مائتى ألف مارك من الفضة  
الآن . وجاء الرد الرزين : « هذه الشروط ثقيلة . من العسير قبولها ،  
ومن الصعب تنفيذها ، ولكن لا يمكن أن توجد شروط تفوق قيمة  
خدماتكم ، وما تستحقون » . وبعد هذا التوكيد المرضى ، امتطى  
البارونات صهوة خيولهم وقدموا وريث عرش القسطنطينية الى  
المدينة والى القصر . وقد جذب شبابه ومغامراته العجيبة كل قلب الى  
حبه . وتوج ألكسيوس فى جلال مع والده تحت قبة أيا صوفيا . وفى  
الأيام الأولى من حكمه ابتهج الشعب وقد أضحى ينعم بعودة الرخاء  
والسلام ، وبالخاتمة السارة للمأساة . وغطى على سخط النبلاء

وأسفهم ومخاوفهم غشاء مهذب من السرور والولاء . ولما كان اختلاط  
أمتين مختلفتين في المشارب في العاصمة نفسها قد يكون مليئا  
بالسرور والخطر ، فقد خصصت ضاحية غلطة أو البيرة لاقامة  
الفرنسيين والبنادقة . غير أنه سمح بحرية التجارة والاختلاط الودى  
بين هذه الأمم الصديقة . وأغرى الحجاج كل يوم دافع التقوى  
أو الفضول بزيارة كنائس القسطنطينية وقصورها . وربسا كانت  
عقولهم غير المهذبة لا تحس روعة الفنون الدقيقة الجميلة ، ولكن أذهلتها  
على أية حال المناظر الخلابة . وزاد فقر بلدانهم الأصلية من دهشتهم  
لكثرة سكان عاصمة أوربا المسيحية الأولى وثرواتها . ونزل الشاب  
ألكسيوس من عليائه وحملته مصلحته أو الاعتراف بالجميل الى أن  
يكثّر من تردده على حلفائه من اللاتين ، وفي رفع الكلفة أو الحرية  
المألوفة نسي مرح الفرنسيين البهيج الاحترام الواجب لامبراطور  
المشرق . وفي مؤتمراتهم الجدية تم الاتفاق على أن اتحاد الكنيستين  
ينبغي أن يأتي كنتيجة للصبر والزمن . ولكن الجشع كان أصعب قيادا  
من الحماس . فدفع مبلغ ضخّم في التولقضاء بعض حاجات الصليبيين  
واسكات الحافهم . واشتد فزع ألكسيوس كلما اقتربت ساعة  
رحيلهم . وربما أعفاه غيابهم من الالتزام الذي لم يكن حتى الآن قادرا  
على الوفاء به ، ولكن رحيل أصدقائه يتركه أعزل وحيدا أمام نزوات  
شعب خائن ، وفريسة لحقده . فأراد أن يشتري اقامتهم بالرشوة ،  
ورغب اليهم في أن يؤجلوا رحيلهم سنة كاملة ، ووعد بأن يحتمل  
نفقاتهم وأن يتكفل عنهم بدفع أجور سفن البنادقة . وثار جدل عنيف  
حول هذا العرض في مجلس البارونات ، وبعد تكرار مناقشاتهم  
وشكوكهم رضخت أغلبية من الأصوات ، وأذعنت لنصيحة الدوج

واستجابت لتوسلات الامبراطور الشاب . ولقاء ألف وستمائة وطل من الذهب استمال مركز موقوفات ليصبحه مع جيش في جولة في الولايات الأوروبية ليوطد سلطانه ويطارد عمه ، بينما أفرغ القسطنطينية وجود بلدوين وحلفائه من الفرنسيين وأهل فلاندرز . وقد توجت الحملة بالتوفيق . وابتهج الامبراطور الأعمى لنجاح جيوشه ، وأصغى الى تبثوات متملقية من أن العناية الربانية نفسها التي رفعت من سجنه الى العرش ستشفى مرضه بالنقرس ، وسترده اليه بصره ، وتسهر على حفظ الرخاء الطويل في حكمه . ولكن عقل هذا الرجل الهرم الشكاك عذبه صعود مجد ابنه . ولم يكن اعتزازه بسجد ابنه ليخفي حسده وحقدته من أنه بينما الهتافات باسمه كانت خافتة مرائية متخاذلة ، فإن هذا الشاب الملكي كان موضع ثناء عام تلقائي .

وأيقظ الغزو الحديث اليونانيين من حلم دام تسعة قرون ، ومن الادعاء الكاذب بأن عاصمة الامبراطورية من المنعة الى حد أن الجيوش الأجنبية لا تقوى على غزوها . لقد دنس الأجانب الذين أتوا من الغرب مدينة قسطنطين ومنحوا صولجانه لمن يريدون ، وسرعان ما أصبح عملاؤهم الامبراطوريون بغيضين مثلهم . وقد صيرت عاهات اسحق رذائله المعروفة أكثر مدعاة للاحتقار . وصبت الكراهية على رأس ألكسيوس كمرتد نبذ عادات وطنه وتخلي عن دينه . أما ميثاقه السرى مع اللاتين فاما أنه أذيع ، أو تطرق الى الناس شك في وجوده . وقد تعلق الشعب ولا سيما رجال الدين ، في ورع وتقى بعقيدتهم وخرافتهم . وردد كل دير وكل حانوت الخطر المحدث بالكنيسة كما تحدثوا عن طغيان البابا . ومن الصعب على خزينة خاوية أن تسد مطالب الترف الملكي والاستنزاف الأجنبي . ورفض اليونانيون أن يفرضوا ضريبة عامة لدرء

أخطار العبودية والنهب التي كانت تهددهم . وأثار ظلم الأثرياء استياء شخصيا أشد خطرا . وإذا كان الامبراطور قد لجأ الى صهر أواني الكنيسة أو سلب صورها ، فيبدو أنه كان في هذا ، ما يبرر الشكوى من هرطقته واتهماه للحرقات المقدسة . وفي أثناء غياب مركز بونيفاس وتليذه الامبراطور حلت بالقسطنطينية كارثة يمكن أن تسبب بحق الى حماس الحجاج الفلمنكيين وحمقهم . ففي إحدى زياراتهم للمدينة هالهم أن يروا مسجدا أو بيعة يعبد فيها اله واحد لا شريك له ولا ولد . وكانت طريقتهن المثلى في جدالهم هي قتل الكفار بالسيف والقاء النار على مساكنهم . ولكن الكفار وبعض المسيحيين من جيرانهم هبوا يدافعون عن حياتهم وممتلكاتهم . وقضت هذه اللهب التي أشعلها التعصب ، على أكثر المنشآت براءة وأسلمها عقيدة . وطوال ثمانية أيام وثمان ليال اقتشرت النيران أكثر من فرسخ الى الأمام ، من الميناء الى بحر مرمرية ، في مناطق من أشد الأماكن ازدحاما بالسكان في المدينة . وليس من السهل احصاء الكنائس والقصور الفخمة التي أضحت خرائب ينبعث منها الدخان ، أو أن تقدر البضائع التي دمرت في الشوارع التجارية ، أو أن نعد الأسر التي شملها الدمار العام . وبهذا العدوان الذي تظاهر الدوج والبارونات عبثا بأنهم لا صلة لهم به ، أصبح اسم اللاتين أشد مقبها . وآثرت الجالية التي تنتسب الى تلك الأمة ، وعددها يزيد على خمسة عشر ألفا ، السلامة ، فانسحبت بسرعة للاحتباء بعلم أمتهم في ضاحية البيره . وعاد الامبراطور ظافرا منتصرا . ولكن أية سياسة نهما كانت درجة الحزم والبراعة فيها ، لم تكن تكفي لتوجيههم وسط تلك العاصفة

التي طوحت بهذا الشاب التمس وحكومته . ذلك أن ميوله الخاصة ونصيحة أبيه ربطت بينه وبين من أحسنوا اليه . ولكن ألكسيوس وقف مترددا بين حبه لوطنه وبين عرفانه للجميل ، بين خوفه من رعاياه وخوفه من حلفائه ، فقد احترام الطرفين كليهما ، وثقتهم به ، لضعف مسلكه وتقلبه . وبينما دعا مركز موتنفيرات الى احتلال القصر ، تغافل عن مؤامرة النبلاء وتسليح الشعب لانقاذ وطنه . ودون نظر الى موقفه المؤلم ، كرر زعماء اللاتين مطالبهم واستاءوا لتباطئه ، وشككوا في نواياه ، وطالبوا برد حاسم : اما الحرب واما السلم . وقام بتسليم مطالبهم المتعجرفة ثلاثة من فرسان الفرنسيين وثلاثة من مندوبي البنادقة ، تمنطقوا جميعا بسيوفهم وامتطوا جيادهم واخترقوا صفوف الجمهور الغاضب ، ودخلوا دون خوف ولا وجل الى القصر ، ومثلوا أمام امبراطور اليونان . وفي نبرات حازمةذكروا في ايجاز خدماتهم ، كما ذكروا تعهداته ، وأعلنوا في جرأة أنه اذا لم تجب طلباتهم العادلة كلها تواتوا فانهم لن يعتبروه بعد ذلك ملكا أو صديقا . وبعد هذا التحدى ، وهو أول تحدى سمع الامبراطور ، خرجوا دون أن تظهر عليهم أية أمارات للخوف . ولكن نجاة هؤلاء السفراء من قصر ذليل مستعبد ومدينة هائجة أدهشتهم هم أنفسهم . وكانت عودتهم الى معسكرهم ايذاا بالجنوة بين الجانبين .

ورجحت كفة الجمهور الغاضب المندفع أية سلطة وأية حكمة في صفوف اليونان ، وهو جمهور ظن خطأ أن فورانه شجاعة ، وأن في كثرته قوة ، وأن تعصبه عون ووحى من السماء . وبات ألكسيوس في نظر الفريقين خائنا وحقيرا . وبذ شعب القسطنطينية أسرة أنجلي



الدينية الدنسة في احتقار سافر صاحب . وأحاط أهالى القسطنطينية  
بالمساتو مطالبين أعضائه أن يختاروا لهم امبراطورا أكثر جدارة  
بمنصبه . وعرضوا الرداء الأرجوانى تباعا على كل عضو بارز من حيث  
المولد أو المركز ، ورفض كل عضو بدوره هذا الرداء القاتل . واستمر  
الشغب ثلاثة أيام . ويمكن أن نعرف من المؤرخ نكتاس ، أحد أعضاء  
المجلس ، أن الخوف والضعف كانا يقيان على ولائهم . وقد أعلن  
الجمهور شبحا اختفى في زوايا النسيان ليكون امبراطورا على كره منه .  
ولكن محرك الثورة وقائد هذه الحرب كان أميرا من بيت دوкас  
Ducas . ولما كان اسمه ألكسيوس ، وكان هذا اسما عاما فيجب  
أن يميز بلقب الأقرن Mourzoufle وهو لفظ يعنى في اللغة الدارجة  
قرن حاجبيه الأشعثين الأسودين . وشرع مورزوفل الغادر ، وهو في  
الوقت نفسه وطنى ، ومن موظفى البلاط ، كما لم يكن ينقصه المكر  
أو الشجاعة ، تقول شرع في مناهضة اللاتين قولاً وعسلاً على حين  
أهاج مشاعر اليونانيين وأثار أحقادهم هم ، وتقرب الى ألكسيوس  
حتى شمله هذا بعطفه وأولاه ثقته ، ورفع الى منصب الأمين الأول ،  
ولون حذاءه باللون الملكى . وما ان استقر له الأمر حتى سارع في  
سكون الليل واقتحم غرفة النوم جزوعاً صائحاً أن الشعب قد هاجم  
القصر وأن الحرس قد خان الأمانة . وقام الأمير الذى لم يداخله الشك  
من فراشه ، وألقى بنفسه بين ذراعى عدوه الذى كان قد أعد لهربه سلماً  
خاصاً ، كان ينتهى الى سجن . وقبض على ألكسيوس وجرده من ثيابه  
وكبل بالأغلال . وبعد أن عانى أياماً قساوة العذاب ورأى شبح  
الموت يطوف به ، سقى السم أو خنق أو ضرب بالهراوات ، بأمر من

الطاغية وتحت سمعه وبصره . وسرعان ما لحق الامبراطور اسحق أنجيلوس بابنه في القبر . وربما كان في مقدور مورزوفل أن يتجنب ارتكاب جريمة تافهة ، جريمة التعجيل بالقضاء على الضعف والعمى .

## نهب القسطنطينية

وغير موت الامبراطورين واغتصاب مورزوفل الحكم ، من طبيعة النزاع . فلم يعد خلاف بين حلفاء غالوا في تقدير قيمة خدماتهم ، ولم يهملوا التزاماتهم . ونسى الفرنسيون والبنادقة شكواهم ضد ألكسيوس . وذرفوا الدمع على مصير رفيقهم قبل أوانه ، وأقسموا على الانتقام من هذه الأمة الغادرة التي توجت قاتله . ومع ذلك كان الدوج الحصيف الحذر يميل الى التفاوض . فطلب ، كدين أو معونة أو غرامة ، خمسين ألف رطل من الذهب ( تساوى مليونين من الجنيهات الاسترلينية تقريبا ) . وما كان المؤتمر لينفطر فجأة لو لم يرفض مورزوفل بسبب حماسه أو سياسته التضحية بالكنيسة اليونانية لانقاذ الدولة . وفي مقدورنا أن نتبين وسط السباب الذي يكيله له أعداؤه في الداخل والخارج ، أنه لم يكن غير أهل للمركز الذي تبوأه ، ألا وهو بطل الشعب ، وكان الحصار الثاني للقسطنطينية أكثر مشقة من الأول ، وامتلات الخزانة بالمال وأعيد النظام ، بعد التحقيق الصارم في عيوب الحكم السالف . وكان مورزوفل يمسك بصولجان من حديد ويزور المراكز الحربية ، وكان يتكلف سيات المحارب ومظهره ، فكان مصدر رعب لجنوده على الأقل ، ثم لأقاربه . وقبل موت ألكسيوس وبعده ، قام اليونانيون بمحاولتين قويتين مدبرتين أحسن تدير لاحتراق

القوات البحرية في الميناء . ولكن مهارة البنادق وشجاعتهم صدت السفن التي تقذف بالهلب . وذهبت النيران الضالة هباء في البحر دون أن تؤدي غرضها . وفي هجوم ليلي خارج الأسوار هزم هنري أخو دوق فلاندرز امبراطور اليونان . وزاد من عار اندحاره تفوق العدو في العدد وفي القدرة على المفاجأة . ووجد ترسه في ميدان القتال . وقدمت الراية الامبراطورية وفيها صورة مقدسة للسيدة العذراء ، تذكارا للنصر ، وأثرا من الآثار المقدسة ، لرهبان الستريسيان ، تلاميذ القديس برنار . ومرت ثلاثة أشهر ، بما في ذلك أيام الصوم الكبير المقدسة ، في مناقشات واستعدادات ، قبل أن يصبح اللاتين على أتم استعداد للقيام بهجوم عام ، أو قبل أن يقرروا القيام بهجوم عام . ذلك أنهم وجدوا أن التحصينات الأرضية منيعة ، وأن المرشدين من أهل البندقية قالوا بأن ارساء السفن على شاطئ بحر مرمرة غير مأمون ، وأن التيار يسوق السفن بعيدا الى مضيق الدردنيل ، وهذا ما كان يصبو اليه الحجاج الكارهون الذين التمسوا أية فرصة لتحطيم الجيش . ولهذا قرر المهاجمون أن يقوموا بالهجوم من الميناء . وكان المحاصرون يتوقعون أن يتم الأمر على هذا النحو . فأقام الامبراطور ايواناته الأرجوانية على تل مجاور ليوجه جهود جنوده ولينفث فيهم روحا عالية . وربما أبدى مراقب غير هباب — اذا استطاع عقله أن يستوعب فكرة الأبهة والفرح — اعجابه بصفين طويلين من جيشين على أهبة القتال ، امتدا أكثر من نصف فرسخ . الأول على السفن والبوارج ، والآخر على الأسوار والأبراج ، التي رفعت فوق المستوى العادي بطبقات عديدة من الأبراج المتحركة الصغيرة . وانقضت فورتهم الأولى

فى رمى السهام والقذف بالأحجار والنار من آلاتهم الحربية . ولكن الماء كان عميقا ، والفرنسيون ذوى جرأة ، والبنادقة مهرة ، فاقتربوا من الأسوار واحندم نزاع يائس بالسيوف والحراب والفؤوس على القناطر التى تهز وهى تربط بين المدفعية العائمة والمدفعية الثابتة . وشن الهجوم فى أكثر من مائة موضع ، وصمد المدافعون فى ثبات ، حتى كانت الغلبة فى النهاية ، لتفوق اليابسة على الماء ولكثرة العدد ، وتفتت أبواق اللاتين تغير التقهقر . وفى الأيام التالية تجدد الهجوم بشدة مساوية ونتيجة مماثلة . وفى الليل عقد الدوج والبارونات مجلسا ، وكلهم يتوجس خيفة من الخطر الداهم الشامل . ولم ينس أحد بلفظة الهرب أو المعاهدة ، وراود كل محارب تبعا لطبعه ومزاجه ، الأمل فى النصر أو التحقق من ميتة كريمة . لقد تعلم اليونانيون من تجارب الحصار الأول ، ولكنه كذلك آثار حمية اللاتين . وكان ادراك أنه من الممكن الاستيلاء على القسطنطينية أجدى من الاحتياطات المحيطة التى أوحى بها تلك الفكرة للدفاع عن المدينة . وفى الهجوم الثالث ربطت سفينتان معا لمضاعفة قوتهما . وهبت ربح شمالية قوية دفعت بالسفن الى الشاطئ . وكان فى المقدمة أسقف ترويس وأسقف سواسون . ودوت اللفطتان الميموتان « الحاح » « والجنة » على طول الخط . ونصبت الرايات الأسقفية فوق الأسوار . ووعد كل من المغامرين الأولين بجائزة قدرها مائة مارك من فضة . فان حال الموت دون تسليم الجائزة ، فان أسماهم ستخلد فى سجل المجد والشهرة . فتسلقوا أربعة أبراج . وحطموا ثلاث نوابات . وشعر الفرسان الفرنسيون الذين قد يرتعدون فرقا فى الأمواج ، أنه لا سبيل الى قهرهم وهم على ظهور

الخيـل فوق أرض صـلدة . هل لى أن أذكر الآن للقارىء أن الألوف التى كانت تحرس شخص الامبراطور هربت عند اقتراب أول محارب واحد وأمام حربة واحدة ؟ ان مواطنهم نيكتاس ليشهد على هربهم الشائن ، وربما تخيلوا جيشا من الأشباح يسير مع البطل الفرنسى ، الذى عظم فى نظر اليونانيين حتى أضحي ماردا . وبينما تخلى الفارون عن مواقعهم وألقوا بسلاحهم ، دخل اللاتين المدينة تحت بنود قادتهم . وفتحت الطرقات والأبواب لمرورهم . واشتعل حريق ثالث عمدا أو اتفاقا ، فدمر فى ساعات قلائل مساحة تساوى ثلاثا من أكبر مدن فرنسا . وعند اقتراب المساء كبح البارونات جماح جنودهم ، وحصنوا مواقعهم . لقد أزعجهم امتداد العاصمة وكثرة عدد سكانها ، مما يحتاج اخضاعه الى جهود تستمر شهرا كاملا ، اذا كانت الكنائس والقصور مدركة لقواتها الداخلية . غير أنه جاء فى الصباح موكب ضارع يحمل الصلبان والصور المقدسة ليعلن خضوع اليونانيين ويستعيذ من غضب الفاتحين . لقد هرب الغاصب من البوابة الذهبية . واحتل كونت فلاندرز ومركز موتفيرات قصرى بلاشيرناى Blachernae وبوكليون Boucoleon . وخضعت الامبراطورية التى كانت لا تزال تحمل اسم قسطنطين ولقب الرومان ، لأسلحة الحجاج اللاتين .

أخذت القسطنطينية عنوة . ولم تفرض قوانين الحرب اذ ذاك أية قيود على حرية المنتصرين ، اللهم الا المشاعر الدينية والانسانية . وكان بونيفاس مركز موتفيرات لا يزال يشغل منصب القائد العام . وقد سمع اليونانيون الذين مجدوا اسمه كملكهم فى المستقبل ، وهم يولولون فى صوت حزين : أيها المركز الملك المقدس ، ارحمنا ! وقد

فتحت بفضل حصافته أو رأفته ، أبواب المدينة أمام الفارين . وحض  
هو جنود الصليب على الابقاء على حياة اخوانهم المسيحيين . وأما أنهار  
الدماء التي سالت في صفحات نيكيتاس فقد يكن حصرها في مصرع  
ألفين من مواطنيه الجبناء . على أن العدد الأكبر من هؤلاء لم يقتله  
الأجانب ، وإنما قتله اللاتين الذين كانوا قد طردوا من المدينة  
والذين ثأروا لأنفسهم كأي حزب اقتصر . ومع ذلك فمن هؤلاء المنفيين  
من تذكر المنافع لا الاساءات . ونيكيتاس نفسه مدين بسلامته لكرم  
أحد تجار البندقية . ويتهم البابا انوسنت الثالث الحجاج بأنهم  
لم يحترموا في نزواتهم السن أو الجنس أو رجال الدين . وهو يقول  
في مرارة بأن أعمال الظلام والفسق والفجور والزنا وانتهاك الحرمات  
قد ارتكبت في رابعة النهار . وإن سيدات نبيلات وراهبات مقدسات  
دنسهن خدم الخيل في المعسكر الكاثوليكي والقرويون فيه . والحق  
أن الاباحية التي تعقب النصر قد دفعت الى ارتكاب عدد كبير من  
الآثام وتسترت عليها . ولكن من المؤكد أن عاصمة المشرق كانت تضم  
عددا من النساء الجميلات بائعات الهوى أو الراغبات فيه ، يكفي  
لأشباع نزوات عشرين ألفا من الحجاج . ولم تعد الأسيرات خاضعات  
لحقوق العبودية المنزلية أو مساوئها . وكان مركز مونتفيرات حاميا  
للنظام والآداب . كما كان كونت فلاندرز مرآة للعفة والطهر ، وقد  
حرما ، كجرمة عقوبتها الاعدام ، اغتصاب الزوجات أو العذارى  
أو الراهبات . واستشهد المقهورون في بعض الأحيان بهذا البلاغ ،  
واحترمه المنتصرون . وخفف من القسوة والانهاك في الشهوات  
نقوذ الزعماء وشعور الجنود . اتنا لا نصف الآن اقتحام قوم

متوحشين من أهل الشمال . ومهما بدا أنهم قساة غلاظ ، فقد هذب الزمن والسياسة والدين من أخلاق الفرنسيين ، وهذب أكثر من أخلاق الايطاليين . غير أنه قد أطلق العنان دون حدود لجشعهم الذى أشبع ، حتى فى الأسبوع المقدس ، بأسلاب القسطنطينية . وصادر حق الفتح الذى لم يقيده وعد أو معاهدة ثروة اليونان الخاصة والعامة . وكانت كل يد تبعا لحجمها وفوتها يمكنها شرعا أن تنفذ الحكم وأن تستولى على ما صودر . ووجدت للمبادلات وسيلة سهلة عامة ، فى الذهب والفضة المسكوك منها وغير المسكوك . وكل من استولى على شيء منها يمكنه أن يستبدل به فى الداخل والخارج أشياء تلتئم مع مزاجه ومركزه . ومن بين الكنوز التى جمعتها التجارة والترف ، كان الحرير والقטיפه والفراء والمجوهرات والتوابل والأشياء المنقولة الثمينة ، أكبرها قيمة ، لأنه لم يكن من المستطاع الحصول عليها بالمال فى بلدان أوروبا التى لم تكن الحضارة قد دخلتها بعد . ووضع نظام للسلب ، ولم يترك نصيب كل فرد لجده أو حظه . وتحت طائلة عقوبة العنث الرهيبة ، وهى الحرمان من الكنيسة والاعدام ، كان على اللاتين أن يسلموا كل ما سلبوا الى الخزنة العامة . وقد وقع الاختيار على ثلاث كنائس لايداع الأسلاب وتوزيعها . ومنح الجندى من المشاة سهما واحدا . وأعطى الجاويش من الخيالة سهمين ، وأخذ الفارس أربعة ، وخصص للبارونات والأمراء أنصبة أكبر تبعا لمركزهم وكفائتهم . وبسبب مخالفة هذا العهد المقدس شنع أحد فرسان كونت سان بول ووضع ترسه وقبضه الزردى حول عنقه . وقد جعل هذا المثال المجرمين الآخرين أكثر حيلة وحيلة . ولكن الجشع كان أقوى من الخوف . ومن المعتقد بصفة عامة أن

الاسلاب التى أخفيت أكثر بكثير من الأسلاب التى سلمت . ومع ذلك فقد زادت ضخامة الجائزة على كل ما عرف الناس أو توقعوه ، فبعد قسمة جميع الأسلاب بالتساوى بين الفرنسيين والبنادقة ، أخذ خمسون ألف مارك لسداد ديوان الفرنسيين وتلبية مطالب البنادقة . وبقي للفرنسيين ما يقرب من أربعمئة ألف مارك من الفضة ، أى نحو ثمانمئة ألف من الجنيحات الاسترلينية . وانى لا أستطيع أن أحدد قيمة ذلك المبلغ فى المعلامات العامة والخاصة فى العصر ، بأحسن من القول بأنه سبعة أمثال الأيراد السنوى للملكة انجلترا .

اتنا نستمتع فى هذه الثورة العارمة بسعادة فريدة ، فى مقارنة روايات فيلاهارديون — ونيكيتاس ، والمشاعر المضادة لمارشال شسبانيا وعضو الشيوخ البيزنطى . ولأول وهلة قد يبدو أن ثروة القسطنطينية قد انتقلت فقط من أمة الى أخرى ، وأن خسارة اليونانيين وأحزانهم تعادل تماما سرور اللاتين وفوائدهم . وفى حساب الحرب المنكودة لا يعدل الغنم الغرم ، ولا السرور الألم ، ألبتة . وكانت إبتسامات اللاتين عابرة خداعة . أما اليونانيون فقد ظلوا يكون على وطنهم . وزاد فى كوارثهم الفعلية انتهاك حرمة مقدساتهم والسخرية منهم . أى نفع جناه المنتصرون من ثلاثة حرائق ذهبت بجزء كبير من مباني المدينة وثروتها؟ وأى قدر من تلك الأشياء التى لا يمكن استعمالها أو نقلها قد دمر لسوء الطبع عن خبث وعمد أو لمجرد الهوى واللهو ؟ كم كنز ضاع عبثا فى القمار والفجور والاسراف ؟ وكم من أمتعة ثيينة عرضت للبيع بشمن بخس لعدم صبر الجنود أو لجهلهم ، أولئك الجنود الذين حرّمهم آخر اليونانيون باحتياله الحقيق من جائزتهم ؟ وربما استفاد من الثورة أولئك



الذين لم يكونو يملكون شيئا ليفقدوه ، أما بؤس الطبقات العليا من المجتمع فقد صورته أروع تصوير مغامرات نيكيتاس نفسه . فعين تحول قصره الفخم الى رماد في الحريق الثانى ، وجد عضو الشيوخ واسرته وأصدقائه ملجأ متواضعا في دار أخرى يملكها بالقرب من كنيسة آيا صوفيا . وقام صديقه ، أحد تجار البندقية ، حارسا في زى جندى على باب هذا المسكن الحقيقى . حتى استطاع نيكيتاس ، بتعجله الفرار أن يحافظ على بقايا ثروته ويصون شرف ابنته . ففي زمهرير الشتاء رحل هؤلاء اللاجئين الذين نشأوا في أحضان الرخاء على أقدامهم ، وكانت زوجه حاملا . وقد اضطروا ، لتخطى عييدهم عنهم الى أن يحملوا أمتعتهم على أكتافهم . وحثوا نساءهم اللاتى وضعوهن في الوسط على اخفاء جمالهن تحت الأوساخ بدلا من ابرازه بالأصباغ والجواهر . وكانوا في كل خطوة معرضين للاهانة والخطر . وكانت تهديدات الأجانب أقل ألما من سخرية الغوغاء الذين أصبحوا آنذاك مساوين لهم . ولم يتنفس المنفيون في أمان قبل أن تنتهى رحلتهم الحزينة في سيلمبريا Selymbria على بعد أكثر من أربعين ميلا من العاصمة . وفي طريقهم ، أدركوا البطريق دون أنناع ، ويكاد يكون دون ثياب رسمية ، يركب حمارا وقد صار الى حالة من الفقر تشبه حياة الرسل ، ولو أنه اختار هذا الزهد بسخط ارادته ، فربما استحق حسن المثوبة . وفي تلك الأثناء كانت كنائسه المهجورة قد دنست نتيجة إباحية اللاتين وتحريمهم . فبعد أن انتزعوا الجواهر واللالى ، استخدموا أقذاح القداس كنواسة للشراب . وكانت الموائد التى قامروا وأولوا عليها مغطاة بصور المسيح والقديسين . ووطئوا بأقدامهم أقدس الأدوات المستعملة في

العبادات المسيحية . وفي كاتدرائية أيا صوفيا مزق النقاب العريض الذى يغطى الحرم للاستيلاء على الأهداب الذهبية . وحطم المذبح ، وهو أثر من الآثار الفنية الثمينة ، الى قطع تقاسمها الغزاة . وحملت بغالهم وخيولهم بالفضة المزخرفة والنقوش المذهبة التى انتزعوها من الأبواب ومن المنبر . فاذا ناءت بحملها دوابهم ، طعنوا سائقوها الذين انتابهم الصجر ، وجرت دماؤها النجسة على الأرضة المقدسة . وأجلست مومس على عرش البطريق . وغنت ابنة ابليس هذه ، كما كانوا يسمونها ، ورقصت فى الكنيسة ، للسخرية من ترائيم الشرقيين ومواكبهم . ولم تكن قبور الملوك بمنجاة من العدوان والانتهاك . وفى كنيسة الرسل نهبت مقابر الأباطرة . ويقال انه بعد ستة قرون وجدت جثة جستنيان دون أثر للانحلال أو التعفن . وفى الطرقات ارتدى الفرنسيون والفلمنك أنفسهم وكسوا خيولهم ثيابا مصورة وأعطية مدلاة للرأس من التيل . وأساء اسرافهم القبيح فى ولائهم الى اعتدال الشرقيين الكريم . وللسخرية من أسلحة شعب من الكتبة والباحثين ، تصنعوا عرض قلم ودواة وصحيفة من الورق ، دون أن يدركوا أن أدوات العلم والشجاعة ، سواء بسواء ، كانت ضعيفة وغير مجدية فى أيدي اليونانيين الحديثين .

غير أن شهرتهم ولغتهم شجعتهم على احتقار جهل اللاتين واغفال تقدمهم . وكان اختلافهم القومى فى حب الفنون لا زال واضحا حقيقيا . وقد حافظ اليونانيون على أعمال أجدادهم فى تبجيل واحترام ، وان لم يستطيعوا محاكاتها . ويدفعنا تدمير تماثيل القسطنطينية الى الاشتراك مع المؤرخ البيزنطى فى شكواه وسبابه .

وقد رأينا كيف زين تلك المدينة الناشئة الامبراطور الذي أسسها في غروره وطفياه . وفي القضاء على الوثنية نجا بعض الآلهة والأبطال من بطش العقيدة . وازدانت السوق وحلقة السباق ببقايا عصر أفضل . وقد وصف نيكيتاس عددا من هذه التماثيل في أسلوب منمق متكلف . ومن وصفه سألتقى بعض التماثيل الشائقة .

١ — تماثيل سائقى العربات الفائزين : صنعت من البرونز على نفقتهم أو نفقة الدولة . ووضعت في حلبة السباق وهي مكانها الملائم . وقد وقفوا مرفوعي الرأس ، وسط عرباتهم وهي تمر حول الهدف . وأعجب النظارة بسمتهم ، واستطاعوا أن يحكموا على دقة الشبه بين التمثال وصاحبه . وربما أحضر أجمل هذه التماثيل من الملعب الأولمبي .

٢ — أبو الهول وفرس النهر والتمساح ، وهي تدل على مناخ مصر ومصنوعاتها ، وأسلاب تلك الولاية القديمة .

٣ — أثني الذئب وهي ترضع روميلوس وريموس . وهذا موضوع يسر قدماء الرومان ومحدثهم سواء بسواء . غير أنه يتندر أن يقلد الا في عصر انحطاط النحت عند اليونان .

٤ — نمر يمسك بمخلبه ثعبانا ويمزقه . وهو أثر خاص بالبيزنطيين الذين لا ينسبونه الى فتان بشرى . ولكنهم يقولون بأن الذي أوجده بقوة سحره ، هو الفيلسوف أبولونيوس الذي حفظ المدينة من أمثال تلك الزواحف السامة ، بفضل هذا الطلسم .

٥ — حمار وسائقه . أقامه أوغسطس في مستعمرته في نيقوبوليس ، احياء لذكرى فال شفوى تنبأ له بالنصر في معركة أكتيوم .

٦ — تمثال رجل على حصان . ورد على السنة العامة أنه يشوع الفاتح اليهودي ، ماذا يده ليووقف الشمس في مسيرها الى الغروب . ولكن رواية أكثر قدما ترى فيهما ييليروفون وبيجاسوس ، وتدل وقفة الحصان في حرية على أنه يطأ الهواء لا الأرض .

٧ — مسلة مربعة عالية من النحاس عليها رسوم بارزة تمثل مناظر رائعة ريفية متنوعة : طيور تشدو ، قرويون يعملون أو يترنمون على الأرغول ، شياه تنغو ، وحملان تقفز ، والبحر ، ومنظر السمك وصيد السمك . وآلهة حب صغيرة عارية تضحك وتلهو ويرمي بعضها بعضا بالتفاح ، وعلى القمة تمثال امرأة يدور مع أقل ربح ، ولهذا « سبت تابعة الريح » .

٨ — راعي فريجيا وهو يقدم الى فينوس جائزة الجبال ، تفاحة الشقاق .

٩ — تمثال هيلانه الذي لا يوجد له نظير . وصفه نيكيتاس في ألفاظ تتم عن الاعجاب والحب : قدماها المنحوتتان في اتقان بالغ ، وذراعاها في بياض الثلج ، وشفتاها الورديتان ، ابتساماتها الساحرة وعيناها السابحتان ، وحاجباها المقوسان ، وانسجام أعضائها ، وخفة ثيابها وخصلات الشعر المتدلية التي تتماوج مع الريح — جمال كان من الجائز أن يحرك قلوب أولئك البرابرة الذين دمروا التمثال ، اشفاقا أو ندما .

١٠ — تمثال هرقل على شكل انسان أو اله ، كما أعاده الى الحياة ليسيبوس بيده القادرة . وكان من الضخامة بحيث أن ابهامه كان يساوي في حجمه وسط الرجل العادي ، وقدمه يبلغ طولها طول قامة الرجل العادي . كان صدره كبيرا ، وكتفاه عريضتين ، وأعضاؤه قوية

قائمة ، وشعره أجعد ، وكان مهيب الطلعة . ودون قوس أو جمبة  
أو هراوة ، ألقى جلد الأسد على كتفه دون عناية ، وأجلس في سلة من  
أغصان الصفصاف ، وامتدت رجله اليمنى وذراعه الايمن الى آخر  
مداهما ، وانحنت ركبته اليسرى لتسند مرفقه ، واعتمد رأسه على  
يده اليسرى . أما محياه فغاضب غارق في التفكير .

١١ — تمثال ضخيم للالهة يوتو Juno ، كان في يوم ما يزين  
معبدما في ساموس ، وقد جرت أربعة من الثيران في مشقة ، العربية  
التي حملت الرأس الضخم الى القصر .

١٢ — تمثال ضخيم لبلاس أو مينرفا . ارتفاعه ثلاثون قدما ، يمثل  
في حيوية عجيبة صفات هذه العذراء المحاربة وشخصيتها .

وقبل أن تهتم اللاتين ، قد يكون من الانصاف ان نلاحظ أن  
تمثال بلاس هذا حطمه اليونانيون أنفسهم بعد الحصار الأول بدافع  
من الخوف والعقيدة . أما التماثيل الأخرى المصنوعة من النحاس والتي  
سبق ذكرها ، فقد هشمها ، دون احساس ، جشع الصليبيين . ثم  
صهروها . وضاعت نفقتها والجهد الذي بذل في صنعها في لحظات .  
وتطايرت روح العبقريّة مع الدخان ، وصك المعدن الخسيس الذي  
تبقي فأصبح عملة قديّة لدفع رواتب الجنود . فالبرونز ليس بأكثر  
الآثار بقاء . أما الأعمال التي صاغها فيدياس وبراكسياتيلس Praxiteles  
من الرخام فقد أشاح اللاتين بوجوههم عنها في احتقار غبي . وإذا لم تكن  
هذه الآثار قد تهشمت بمحض الصدفة ، فقد بقيت قائمة آمنة على  
قواعدها كأحجار لا فائدة منها . واستخدم أكثر الأجانب استنارة ،  
الذين سموا فوق مطالب مواطنهم الحبقاء الخسيسة ، حق الفتح على

نهج أكثر ورعا في البحث عن بقايا القديسين والاستيلاء عليها . وقد جلب من الشرق عدد ضخم من الرؤوس والعظام والصلبان والصور وزعتها هذه الثورة على كنائس أوروبا . وقد كثر عدد الحجيج وزادت الهبات الى حد أنه ربما لم تكن هناك أسلاب أكثر ربحا ، مما جرى به من الشرق . ولقد ضاع الآن أكثر المؤلفات القديمة التي كانت لا تزال محفوظة في القرن الثاني عشر . ولم يكن ثمة ميل لدى الحجاج لانقاذ أو نقل المجلدات التي كُتبت بلسان يجهلونه . ولا يمكن حفظ الورق أو الرق ، وهي مواد سهلة الفناء ، الا بالأكثار من النسخ . وقد كادت الآداب اليونانية تتركز في العاصمة . ودون احصاء لمدى الخسارة التي أصابتنا ، يمكننا أن نذرف الدمع على المكتبات التي هلكت في الحرائق الثلاثة التي شبت في القسطنطينية .

## الفصل الحادى والستون

(١٢٣٧ - ١٢٦١)

- بلدوين الثانى واكليل الشوك المقدس
- استرداد اليونانيين للقسطنطينية
- النتائج العامة للحروب الصليبية

بعد الاستيلاء على القسطنطينية سنة ١٢٠٤ استقر الأمر فى تلك المدينة لمن يسمون بالاباطرة اللاتين ، وهم بلدوين الأول وخلفاؤه الأربعة . وفى الوقت نفسه أقام اليونانيون المطالبون بعرش الامبراطورية فى نيقيا وطرايزون . ووصم حكم الاباطرة اللاتين بالعجز والضعف ، وجلب معه على البلاد الكوارث . ووجه آخرهم ، بلدوين الثانى ، نداء عاما الى الغرب لمعاونته .

### بلدوين الثانى واكليل الشوك المقدس

لم يحدث قط الا فى عصر الفروسية أن استطاعت البسالة أن ترقى بشخص ذى مكانة عادية الى عرش بيت المقدس والقسطنطينية . لقد آل لقب ملكة بيت المقدس الى ماري ابنة ايزابلا وكونراد دى مونتفيرات، وحفيده المريك أو أمورى ، التى زوجت من جون دى برين وهو من أسرة نبيلة فى شمبانيا ، بناء على طلب الرأى العام ، وحكمة فيليب أوغسطس الذى قال عن جون بالذات انه خير بطل للأرض

المقدسة . وفي الحرب الصليبية الخامسة قاد جون مائة ألف من اللاتين لفتح مصر ، وعلى يده تم حصار دمياط . أما الفشل الذى تلا ذلك فقد نسب بحق الى كبرياء النائب البابوى وجشعه . وبعد زواج ابنته من فردريك الثانى ، حفزه جحود الامبراطور لفضله الى أن يقبل قيادة جيش الكنيسة . وعلى الرغم من كبر سنه وانتزاع الملك منه ، فقد كان سيف حون « دى برين » وروحه لا تزالان على استعداد لخدمة المسيحية . ولم يكن بلدوين أوف كورتيناى خلال السنوات السبع التى حكمها أخوه قد شب عن طوق الطفولة بعد . وشمر بارونات رومانيا بالحاجة الملحة الى وضع الصولجان فى يد رحل وبطل . ولما كان ملك بيت المقدس المعجوز قد يأنف من اسم الوصى ووظيفته ، فازم اتفقوا على منحه لقب الامبراطور وامتيازاته لمدة حياته على شرط واحد هو أن يتزوج بلدوين من ابنته الثانية ، وأن يجلس على عرش القسطنطينية عندما يبلغ سن الرشد . وقد اشتعل الأمل فى صدور اللاتين واليونانيين على السواء لشهرة جون دى برين ووقوع الاختبار عليه ووجوده بينهم ، فأعجبوا بمنظره الحربى ، ونضارته وحيوته مع أن سنه كانت قد جاوزت الثمانين ، وبحجم جسمه وقامته الفارعة التى فاقت كل قامات البشر . ولكن يظهر أن الجشع وحب الدعة خففا من حماسه للمشروع ففرح جنوده ، وانقضت سننان دون عمل أو مجد ، حتى أيقظه حلف خطير عقد بين فاتاكيس امبراطور نيقيا وآزان ملك بلغاريا ، اللذين حاصرا القسطنطينية برا وبحرا بجيش مؤلف من مائة ألف رجل ، وأسطول يتألف من ثلثمائة سفينة حربية . بينما انكششت قوات امبراطور اللاتين الى مائة وستين فارسا



وأعداد قليلة من الجاويشية والرماة . واثني لتعروني هزة الفزع عندما أقول بأنه بدلا من أن يدافع ذاك البطل عن المدينة ، قام بهجوم خارج أسوارها على رأس خيالاته ، وأنه من ثمان وأربعين فرقة من الاعداء لم ينج من سيفه البتار الذي لا يقهر أكثر من ثلاث فرق . وقد ألهب هذا المثل الذي ضربه ، كلا من المشاة والمواطنين فصعدوا الى السفن التي كانت راسية بالقرب من الأسوار وسحبوا بوصفهم منتصرين ، خمسا وعشرين سفينة الى ميناء القسطنطينية . وبناء على دعوة الامبراطور تصلح الاتباع والحلفاء للدفاع عن القسطنطينية ، واقتحموا كل عقبة قامت في طريقهم ، وفي السنة التالية أحرزوا نصرا ثانيا على الأعداء أنفسهم . وقارن شعراء ذلك العصر البسطاء جون دي برين بهكتور Hector ورولان Roland ويهوذا المكابي Judas Macebaeus غير أن صمت اليونانيين ينقص الى حد ما من فضلهم ومن مجده . وسرعان ما فقدت الامبراطورية آخر حمايتها . وكان كل مطمع هذا الملك وهو على فراش موته أن يدخل الجنة في زي راهب فرانسيسكاني .

ولست بمستطيع أن أعثر ، في اتصار جون دي برين ، على اسم أو منجزات تليذه بلدوين ، الذي كان قد بلغ سن الخدمة العسكرية ، والذي خلف أباه بالتبني على عرش القسطنطينية بعد موته . لقد عهد الى الأمير الشاب بمهمة أقرب الى طبعه ، فأرسل به في زيارة للملك الغرب ، ولا سيما البابا وملك فرنسا ، ليثير في قلوبهم الشفقة بمنظره البريء وضائقته وليحصل على مدد من الرجال أو الأموال لنجدة هذه الامبراطورية المنهارة الفارقة . وكرر زيارات التسول هذه

ثلاث مرات . وكان في كل مرة يطيل اقامته ويؤجل عودته . ومن حكم دام خمسا وعشرين سنة قضى الجزء الأكبر في الخارج ، لا في وطنه ، ولم يعتبر الامبراطور نفسه في أى بلد أقل حرية وأمانا عنه في وطنه الأصلي وفي عاصمته . وفي بعض المناسبات العامة ربما أراضى غروره لقب أوغسطس ، والشرف الذى تسبغه عليه الحلة الأرجوانية . وفي مجمع ليون العام بعد أن حرم فردريك الثانى من الكنيسة وعزل ، اتخذ مع زميله امبراطور المشرق مجلسه على يمين البابا . ولكن كم من مرة أذل الاحتقار المنفى الشريد والامبراطور الشحاذ وجرح كبريائه ، وصغر شأنه في عينيه هو نفسه وفي أعين الأمم !! وفي أول زيارة له لبريطانيا قوبل في دوغر بتوبيخ قاس بأنه تجاسر على أن يدخل دون اذن مملكة مستقلة . ولكن بعد شيء من المراوغة سمح لبلدوين بأن يستمر في رحلته ، واستقبل استقبالا فاقرا ، وان يكن مهذبا ، ثم رحل شاكرا بهدية مقدارها سبعمائة مارك . ولم يسنطع أن يحظى من جشع رومه الا باعلان حرب صليبية ، وكنز من سكوك الغفران : وهى عملة انحطت قيمتها لسوء استعمالها بكثرة ودون تمييز . وقرب مولده ومصابه بينه وبين ابن عمه الملك الكريم لويس التاسع . ولكن الفيرة الحرية عند هذا القديس اتجهت الى مصر وفلسطين لا الى القسطنطينية . وخفف من فقر بلدوين الخاص والعام ، لفترة ما ، التنازل عن مقاطعتي نامور وكورتيناى ، وكاتبا البقية الباقية من ميراثه وبهذه الوسائل المخربة المخربة عاد ثانية الى رومانيا بجيش مؤلف من ثلاثين ألف جندي ، نضاعف عددهم في خيال اليونانيين نتيجة لفرعهم . وكانت رسائله الأولى الى فرنسا وبريطانيا تعلن عن انتصاراته وآماله .

لقد أخضع الريف المحيط بالعاصمة الى مسيرة ثلاثة أيام ، واذا هو حاله التوفيق أمام مدينة هامة لم يذكر اسمها ( وأغلب الظن أنها خيورلى Chiorli ) ، لأصبحت الحدود آمنة والممرور ميسرا . ولكن هذه الأمانى ( ان كان بالدوين مخلصا ) تبددت بسرعة كأنها حلم . واختفى جنود فرنسا وكنوزها من بين يديه لافتقاره الى الحنكة والمهارة . وتولى حياية عرش امبراطور اللاتين حلف شائن مع الأتراك والكومان Comans . وارضاء للأتراك وافق على أن يزوج ابنة أخيه من سلطان كوجنى Cogni وهو كافر ، ولارضاء الفريق الثانى وافق على الاشتراك فى طقوسهم الوثنية فقدم كلب قربانا بين الجيشين ، وتذوق الطرفان المتعاقدان كل منهما دم الآخر كضمان لولائهما وإخلاصهما . وفى قصر أو سجن القسطنطينية ، هدم خليفة أوغسطس الدور الخالية للحصول على وقود يدفع به برد الشتاء . وانتزع الرصاص من الكنائس لدفع نفقات أسرته اليومية . وعقد مع تجار ايطاليا بعض القروض الربوية الضئيلة . وأودع فيليب ابنه وولى عهده رهينة لسداد دين فى البندقية . ان العطش والجوع والعرى شرور واقعية ، أما الثراء فأمر نسبي . ولو كان الأمير فى مركز شخصى عادى لأصبح فى عداد الأثرياء ، ولكنه تعرض نتيجة لتزايد مطالبه وحاجاته الى ما يورثه الفقر من قلق وضيق ومرارة .

ولكن وسط هذا الضيق والبؤس ، كان الامبراطور والامبراطورية لا يزالان يملكان كنزا مثاليا استمد قيمته الخيالية من عقيدة العالم المسيحى . لقد انتقصت قيمة الصليب الأسمى الحقيقى بكثرة توزيعه . ولما كان قد بقى فترة طويلة أسيرا فى أيدي الكفار ، فقد يعكس ذلك

بعض الشك على الأجزاء التى وجدت فى الشرق والغرب . ولكن أثرا آخر من آثار صلب المسيح كان محفوظا فى الكنيسة الامبراطورية بالقسطنطينية ، هذا هو الكليل الشوك الذى وضع على رأس المسيح ، والذى كان قيما ثمينا قدر ما كان حقيقيا . وكان من عادة المدينين فى مصر القديمة أن يودعوا مومياء آبائهم كضمان لقروضهم ، وهم مضطرون حفاظا على شرفهم وديانتهم ، الى استرداد رهائهم . وعلى النهج نفسه وفى غياب الامبراطور ، اقترض بارونات رومانيا مبلغ ثلاثة عشر ألفا ومائة وأربعا وثلاثين قطعة ذهبية بضمان التاج المقدس . ولما عجزوا عن تنفيذ عقدهم تعهد تاجر غنى من تجار البندقية ، اسمه نيقولا كويريني Querini أن يدفع عنهم ديونهم لدائنيهم القلقين الذين فقد صبرهم ، شريطة أن يودع الأثر ( التاج المقدس ) فى البندقية ، وأن يصبح ملكا خالصا له ان لم يدفع له دينه فى وقت قصير محدد . وأخطر البارونات ملكهم بهذا العقد القاسى والخسارة التى توشك أن تلحق بهم . ولما كانت الامبراطورية لا تستطيع أن تدفع تعويضا قدره سبعة آلاف من الجنيهات الاسترلينية ، بات الملك متلهفا على انتزاع هذه الدرة الثمينة من البندقية ، وايداعها ، فى شرف أكبر وربح أوفر ، فى يد أعظم ملوك المسيحية تمسكا بدينه . ولكن المفاوضات اكتنفها شئ من الدقة والحرص . ففى شراء الأثر ، ربما كان لزاما أن يبدأ القديس بالتحدث عن اثم الانجار بالأشياء المقدسة ، ولكنه اذا غير نهج الحديث ، كان عليه قانونا أن يدفع الدين ويتقبل الهدية ، ويعترف بالجليل . فبعث بسفيره ، وهما اثنان من رهبان الدومينيكان ، الى البندقية ليستخلصا ويتسلما

التاج المقدس الذى كان قد نجا من أخطار البحر ومن سفن فاتاكييس الحربية . وعند فتح الصندوق الخشبى تعرفا على أختام الدوج والبارونات التى وضعت على خزانة من الفضة ، وضع بداخلها هذا الأثر من آثار صلب المسيح فى وعاء من الذهب . وهنا خضع البنادقة كارهين للعدالة والقوة . وتفضل الامبراطور فردريك فسمح بحرية المرور فى أرضه مع مظاهر التكريم والتشريف . وتقدم بلاط فرنسا حتى بلغ ترويس فى شمبايا ليستقبل فى ورع هذا الأثر الذى لا يقدر بثمن . وحمله الملك نفسه ، وهو عارى القدمين ، مرتديا قميصا ، وسار به فى طرقات باريس فى موكب كمواكب النصر . وتعزى بلدوين عن فقدته ، بمنحة كريمة قدرها عشرة آلاف مارك من الفضة . وقد أغرى نجاح هذه الصفقة امبراطور اللاتين أن يقدم فى كرم مماثل الأشياء الباقية فى كنيسة الصغيرة : جزءا كبيرا أصيلا من الصليب الحقيقى . ثوبا من الكتان لابن الله وهو طفل ، والحربة والاسفنجة والسلسلة التى استعملت فى صلبه ، عصا موسى ، وجزءا من جمجمة القديس يوحنا المعدادان . ولاستقبال هذه الكنوز الروحية أنفق القديس لويس عشرين ألف مارك على تشييد مبنى فخم ألا وهو كنيسة باريس المقدسة وقد اسبغت عليها عبقرية بوالو Boileau الشعرية خلودا مضحكا . وينبغى على كل من يؤمن بالمعجزات التى أتت بها هذه الآثار العتيقة أن يسلم بأنها آثار حقيقية ، ولو أن أصلاتها لا يمكن اثباتها بأى شاهد بشرى . وفى منتصف القرن الماضى تقريبا ، شفيت قرحة مزمنة بفضل وخزة أو لمسة خفيفة من التاج المقدس . وقد شهد على صدق هذه المعجزة أتقى المسيحيين فى فرنسا وأكثرهم تنورا . وليس من السهل دحض هذه الواقعة الا على من تسلحوا بترياق مضاد للسذاجة الدينية .

## استرداد اليونانيين للقسطنطينية

كان لاتين القسطنطينية محاصرين ومضيقا عليهم الخناق من جميع الجهات . وكان أملهم الوحيد أو آخر أمل لهم في الافلات من الهلاك يتمثل في انقسام يدب بين أعدائهم اليونانيين والبلغاريين . ولكن حرمهم هذا الأمل تفوق فاتاكيس امبراطور نيقيا في الأسلحة والسياسة . وكانت آسيا ، بين بحر مرمره وشواطئ بامفيليا الصخرية ، يعمها السلام والرخاء في ظل حكمه . وانتشر نفوذه في أوروبا بفضل نتائج غزواته . وأهذت المدن القوية في تلال مقدونية وتراقية من البلغار ، وحددت مملكتهم بحدودها الحالية الصحيحة التي تمتد على طول الشاطئ الجنوبي لنهر الدانوب . ولم يستطع امبراطور الرومان الوحيد أن يصبر على وجود لورد في ألبانوس ، وهو أمير من أسرة كومنينوس من الغرب ، يجرؤ على منازعته أو مشاركته شرف الحيلة الأرجوانية . فقير ديمتريوس المتواضع لون حذائه وتقبل شاكرًا لقب Despot «طاغية» . وقد هال رعاياه أنفسهم ذلته وعدم كفايته . فالتمسوا حماية سيدهم الأعلى . وبعد مقاومة يسيرة ضمت مملكة سالونيك الى امبراطورية نيقيا . وحكم فاتاكيس دون منافس من حدود تركيا الى بحر الأدرياتيك . وقد احترم أمراء أوروبا جدارته وقوته . ولو أنه اعتنق عقيدة سليمة أرثوذكسية لبدا من الجائز أن يتخلى البابا عن العرش اللاتيني في القسطنطينية طواعية واختيارا . ولكن موت فاتاكيس وحكم ابنه ثيودور القصير الذي زخر بالأحداث ، وطفولة حفيده جون البائسة ، عطلتا عودة اليونانيين . وفي الفصل التالي

سأشرح ثوراتهم الداخلية ، ويكفينى هنا أن ألاحظ أن الأمير الصغير أرقه طموح وصيه وزميله ، ميكائيل بالايولوجوس الذى كشف عن فضائل مؤسس أسرة جديدة ورذائله . وخدع الامبراطور بلدوين نفسه بأنه قد يتمكن من استرداد بعض الولايات والمدن بمفاوضات يسيرة . ولكن طرد سفراؤه من نيقيا فى سخرية وازدراء . وكلما ذكروا مكانا ، قدم بالايولوجوس سببا خاصا يجعل من المكان موطننا عزيزا عليه ذا قيمة فى نظره . لقد ولد فى مكان ، وفى مكان آخر رقى أولا الى مناصب القيادة فى الجيش . وفى مكان ثالث تمتع ، ويأمل أن يستمتع ، لفترة طويلة بمباهج الصيد . فسأله السفراء الذين أصابهم الدهش : « وماذا اذن تقترح أن تعطينا ؟ » وأجاب امبراطور اليونان : « لا شيء ، لا شبر من الأرض ، واذا كان مولاكم يرغب فى السلام فليدفع كجزية سنوية ، المبالغ التى يحصل عليها من تجارة القسطنطينية وجماركها ، ومن ثم أسح له بأن يستمر فى الحكم . فان أبى ، فهى الحرب . انى غير جاهل بفن الحرب ، وسأترك النتيجة لله وليسيفى » . وكانت الحملة التى وجهت ضد طاغية أيروس أول عمل حربى قام به . فاذا كان النصر قد تلتته هزيمة ، واذا كانت أسرة كومنينوس أو أنجيلوس قد اعتصمت وبقيت فى تلك الجبال رغم جهوده ، وبعد انقضاء حكمه ، فقد حرم وقوع فيلاهاردوين ( أمير أخايا ) فى الأسر ، اللاتين من أنشط أتباعهم وأشدهم قوة فى هذه المملكة المتداعية . وقد تنازعت البندقية وجنوة فى أول حرب بحرية بينهما السيادة على البحر وتجارة الشرق . وقد ربط الزهو والمصلحة بين البنادقة وبين الدفاع عن القسطنطينية ، على حين مال منافسهم

الى تشجيع أهداف أعدائها ، فأثار حلف عقد بين أهل جنوة وبين  
الامبراطور المنشق ، غضب الكنيسة اللاتينية .

ولما كان الامبراطور ميكائيل مصرا على هدفه العظيم ، فانه زار  
بنفسه الجنود وقوى من روحهم المعنوية ، كما دعم حصون تراقية .  
وطرد البقية الباقية من اللاتين من آخر ممتلكاتهم ، وهاجم دون جدوى  
ضاحية غلطة ، وراسل بارونا خائنا ، ثبت أنه لم يستطع أو لم يرغب في  
فتح أبواب العاصمة . وفي الربيع التالي عبر قائده المحبوب ،  
ألكسيوس ستراتيجوبولس الذي كان قد كرمه بلقب قيصر ،  
الدردنيل ومعه ثمانمائة من الخيالة وبعض المشاة ، في حملة سرية .  
وكانت أوامره تقضى بأن يقترب وأن يصنع وأن يراقب ، لكن دون  
أن يغامر بمشروع خطير أو مشكوك فيه ضد المدينة . وكان يزرع  
المنطقة المجاورة بين بحر مرمرة والبحر الأسود ، عنصر قوى من  
الفلاحين والهاربين من وجه العدالة ، مدرب على الحرب ، مشكوك  
في ولائه ، ولكنهم منحازون بحكم اللغة والدين والمصلحة العاجلة الى  
الجانب اليوناني . ولقد أطلق عليهم اسم « المتطوعين » ، وبفضل  
خدماتهم الاختيارية زاد جيش ألكسيوس فبلغ عدده خمسة وعشرين  
ألفا من الرجال ، بما فيهم الجنود النظاميون الذين ينتمون الى تراقية  
وقوات الكومان المساعدة . وقد حفز المتطوعين حماسهم ، كمادفع هذا  
القيصر طموحه الشخصي الى مخالفة الأوامر الصريحة الدقيقة  
الصادرة اليه من مولاه ، واثقا — وهذا حق — من أن نجاحه  
سيحقق له العفو وحسن الجزاء . وكان ضعف القسطنطينية وكوارث  
اللاتين وفزعهم بارزا أمام أعين المتطوعين ، الذين رأوا أن هذه



أنسب فرصة للمفاجأة والغزو . وأبحر شاب متهور ، وهو الحاكم الجديد لمستعمرة البندقية ، ومعه ثلاثون بارجة حربية وخيرة الفرسان الفرنسيين الى حملة جنونية على دافنوسيا ، وهى بلدة على البحر الأسود تبعد أربعين فرسخا . أما الباقون من اللاتين فلم يكن لديهم قوة ولم يساورهم شك . ولقد جاءهم خبر مرور ألكسيوس من الدردنيل ، ولكن مخاوفهم هذأت ، عندما لاحظوا قلة عدد قواته الأصلية ، ولم يفتنوا — جهلا وغفلة منهم — الى ازدياد عدد قواته فيما بعد ، فانه اذا كان قد ترك قواته الأساسية لتعاون عملياته وتدعيمها ، فقد كان يمكنه أن يتقدم ليلا مع فرقة منتقاة دون أن يلحظه أحد . وبينما كان البعض يضع سلالم التسلق على الأجزاء السفلى من الأسوار ، كانوا على ثقة من أن يوفانيا عجوزا سيسمح لرفقائهم بأن يدخلوا داره بوساطة سر تحت الأرض ، فاذا ما وجدوا أنفسهم داخل المدينة فرعان ما يمكن أن يفتحوا طريقا يخترق البوابة الذهبية التى كانت قد سدت منذ وقت طويل ، وسيكون الفاتح فى قلب المدينة قبل أن يشعر اللاتين بالخطر . وبعد بعض المناقشة ، استسلم القيصر لولاء المتطوعين ، وكانوا أهلا للثقة ، ذوى جرأة ، موقنين . وفى وصفى للخطة قمت فعلا بشرح تنفيذها ونجاحها . ولكن ما ان وضع ألكسيوس قدمه على عتبة البوابة الذهبية حتى ارتعد فرقا لهوره واندفاعه ، وتوقف وبدأ يناقش ، الى أن استحثه المتطوعون المستبسلون على التقدم مؤكدين له أن فى التقهقر يكمن أعظم خطر محتوم . وبينما احتفظ القيصر بقواته النظامية فى تنظيم قوى ، تفرق الكومان فى كل جانب . وأدرك سكان القسطنطينية ما يحدث بهم من

خطر . وقد أجبر التهديد بالحرق والنهب المواطنين على اتخاذ قرار حاسم . وتذكر اليونانيون في المدينة ملوكهم وحكامهم الوطنيين . وذكر أهل جنوة تحالفهم الحديث وعداءهم للبنادقة . فحمل كل حى السلاح وردد الهواء هتافا واحدا : « الحياة والنصر لميكائيل وجون امبراطورى الرومان المعظمين » . أما منافسهما بلدوين فقد استيقظ على هذه الأصوات . ولم يستطع الخطر المائل أمامه أن يحفزه الى أن يستل سيفه دفاعا عن المدينة التى ربما غادرها مسرورا أكثر منه أسفا . فهرب من القصر الى الشاطئ وهناك رأى على بعد أشعة الأسطول الحبيبة وهو عائد من محاولة عقيمة ضد دافنوسيا . لقد ضاعت القسطنطينية الى غير رجعة . فأبحر امبراطور اللاتين والأسرات الكريمة على بوارج البندقية وتوجهوا أولا الى جزيرة يوبيا ، ثم بعد ذلك الى ايطاليا حيث استقبل البابا وملك صقلية الامبراطور اللاجئ بمزيج من الاحتقار والشفقة . ومنذ سقوط القسطنطينية الى يوم وفاته قضى ثلاث عشرة سنة يتوسل الى الدول الكاثوليكية أن تعاونه فى استعادة ملكه . ولكنه كان قد وعى هذا الدرس فى صغره . ولم يكن منفاه الأخير أشد فقرا وعارا من طوافه السابق ، عندما قدم ثلاث مرات على ملوك أوروبا . وكان ابنه فيليب وارثا لامبراطورية مثالية . وقد أثقلت مزاعم ابنته كاترين الى زوجها شارل دى قالوا ، أخى فيليب الجميل ، ملك فرنسا . وقد لمع بيت كورتيناي من جهة النساء فى زيجات ناجحة متتالية ، حتى أصبح لقب امبراطور القسطنطينية أضخم وأكثر رنينا من أن يحمله اسم عادى ، فتوارى فى تواضع ، ولفه الصمت والنسيان .

## النتائج العامة للحروب الصليبية

بعد وصفى للحمولات التى قام بها اللاتين على فلسطين والقسطنطينية، لا أستطيع أن أترك الموضوع دون تدبر النتائج العامة على الأقطار التى كانت مسرحا لهذه الحوادث ، وعلى الأمم التى لعبت دور الممثلين فى هذه الحروب الصليبية المشهودة . وما ان انسحبت جيوش الفرنجة حتى عفت آثارها ، وان بقيت ذكراها ، فى البلدين الاسلاميين مصر وسوريا . وجدير بالذكر أن أتباع النبی الأوفياء لم تغرهم قط أية رغبة دنسة بدراسة قوانين المشركين ولغتهم ، ولم تتبدل بساطة أخلاقهم البدائية قط بسبب اختلاطهم فى السلم والحرب بهؤلاء الأجانب المجهولين الذين جاءوا من الغرب . أما اليونانيون الذين ملاهم الزهو والتعالى — ولكنه الغرور الأجوف — فقد كانوا ، الى حد ما ، أقل صلابة . ففى جهودهم لاسترداد امبراطوريتهم حاكى اليونانيون شجاعة خصومهم ونظامهم وخططهم الحربية . وربما جاز لهم، حقا وعدلا ، أن يزدروا أدب الغرب الحديث ، ولكن كان من الممكن أن تلقنهم روحه الحرة دروسا فى حقوق الانسان . فاقتبس اليونانيون من الفرنسيين بعض نظم الحياة الخاصة والعامة . وساعد تبادل الرسائل بين القسطنطينية وإيطاليا على انتشار اللغة اللاتينية وشرفت مؤلفات عدد من آباء الكنيسة والكتاب الكلاسيكيين فى النهاية بترجمة يونانية . غير أن الاضطهاد أهاج الأحقاد القومية والدينية بين أهل الشرق ، وثبت حكم اللاتين جذور الفصل بين الكنيستين .

واذا قارنا ، في الفترة التي نشبت فيها الحروب الصليبية ، بين اللاتين في أوربا وبين اليونانيين والعرب ، بالنسبة لمستوى كل منهم في المعرفة والصناعة والفن ، فإن أجدادنا الأولين البسطاء يجب أن ينعموا بالمركز الثالث في ترتيب الأمم . وربما جاز أن ينسب تحسن أحوالهم على مر الزمن وتفوقهم الحالي الى طاقة غريبة في طباعهم والى روحهم النشيطة المحبة للمحاكاة التي لم يعرفها منافسهم الذين كانوا أكثر منهم صقلا ، والذين كانوا قد وصلوا آنذاك الى نقطة ثابتة أو دخلوا دور الانتكاس . وفي هذا الظرف وبمثل هذه النزعة ، كان لزاما على اللاتين أن يتلقفوا المزايا الأساسية الأولى لسلسلة الأحداث التي فتحت أمام أعينهم آفاق العالم ومكنتهم من اختلاط طويل متكرر مع الأقاليم التي هي أكثر مدنية في الشرق . وكان أول تقدم وأوضحه ، في ميدان التجارة والصناعة ، في تلك الفنون التي يدفع اليها ، بقوة ، التعطش الى الثروة ، والحاح الحاجة واشباع الحواس أو الغرور . فمن بين جمهور من المتعصبين المغلقة عقولهم ، كان في مقدور أحد الأسرى أو الحجاج أن يلاحظ بعض الأحيان تفوق الذوق في القاهرة والقسطنطينية . ان أول من أدخل طواحين الهواء أحسن ، ولا شك ، الى الناس . فاذا استمتعوا بأمثال هذه النعم دون اعتراف بحصيل من أدخلها ، فان التاريخ قد تنازل فذكر أكثر المواد ترفا التي نقلت من اليونان ومصر الى ايطاليا مثل الحرير والسكر . أما احتياجات اللاتين الذهنية والفكرية ووسائل اشباعها فأمر جاء الاحساس به في بطن أكبر . لقد اشتد الحساس لحب الاستطلاع الجاد في أوربا ، نتيجة لأسباب مختلفة وحوادث أقرب

عهدا . ولكنهم في زمن الحروب الصليبية ، نظروا في لامبالاة طائشة الى آداب اليونان والعرب . وكان من الممكن أن تنتقل بعض المعارف الأولية في الرياضيات والطب وفي الحياة العملية وفي الحساب ، كما أنه من الممكن أن تخلق الحاجة بعض المترجمين للمعاونة في انجاز أعمال التجار والجنود ، وهي عمليات أضخم . ولكن تجارة المشرق لم تشر دراسة لغاته ومعرفتها في مدارس أوروبا . فلو أن المقيّدة الدينية هي التي أبعدتهم عن لغة القرآن ، لكان من الواجب أن تستشير فضولهم وتدفعهم الى دراسة النص الأصلي للإنجيل ، وهنا كان من الميسور أن معرفة اللغة نفسها تظهرهم على معاني أفلاطون وجمال هوميروس . ومع ذلك ففي حكم دام ستين سنة ، احتقر اللاتين في القسطنطينية لغة رعاياهم وعلمهم . وكانت المخطوطات هي الكنوز الوحيدة التي يمكن للأهالي أن يتمتعوا بها دون خوف من النهب أو الحسد . حقا كان أرسطو مصدر الوحي في جامعات الغرب ، ولكنه لم يك تقيا . وبدلا من الصعود الى المنبع ، تقبل أتباع أرسطو من بين اللاتين ، في تواضع ، ترجمات بعيدة عن الأصل ، وقد نالها التحريف من أقلام اليهود والعرب في الأندلس . وكان المبدأ الذي أثار الحروب الصليبية هو التعصب الوحشي ، وكانت أكثر النتائج أهمية تلتئم مع السبب . وكان كل حاج يطمع في أن يعود ومعه أسلابه المقدسة ، وهي البقايا المقدسة في اليونان وفلسطين . وقد سبق كل أثر مقدس وأعقبه سلسلة من المعجزات والرؤى . ومن ثم أفسدت الخرافات الجديدة معتقدات الكاثوليك ، كما أفسد طقوسهم خزعبلات جديدة ، وسال من ينبوع الحرب المقدسة المشنوم ، انشاء محاكم التفتيش ، وطوائف الشحاذين

من الرهبان ورجال الدين ، وسوء استعمال صكوك الغفران في آخر أشكالها ، وتقدم الوثنية في النهاية . لقد أنهكت الروح اللاتينية النشيطة قوى عقولهم ودينهم . وإذا كان القرنان التاسع والعاشر هما عصر الظلام ، فالقرنان الثالث عشر والرابع عشر هما زمن السخف والخرافة .

وفي اعتناق المسيحية ، وفي زراعة الأرض الخصبة ، اختلط الفاتحون الذين جاءوا من الشمال ، وغزوا الامبراطورية الرومانية ، مع سكان الولايات دون أن يشعر بذلك أحد ، وأضاءوا مرة أخرى شعلات الفنون التي كانت مضيئة في العصور القديمة . وما كادت جالياتهم ومستعمراتهم حوالى زمن شرلمان تحظى ببعض النظام والاستقرار ، حتى اجتاحتهم أفواج جديدة من الغزاة مثل النورمان والعرب والمجريين الذين أعادوا أقطار غرب أوروبا الى حالتها الأولى من الفوضى والهمجية . وحوالى القرن الحادى عشر كانت العاصفة قد هدأت ، بطرد أعداء المسيحية أو باعتناقهم لها . وبدأ مد الحضارة الذى كان قد انحسر لمدة طويلة . فى الارتفاع فى مجرى منتظم سريع . وانفتح أمام آمال الجيل الصاعد وجهوده مجال أرحب وأجمل . وكانت الزيادة كبيرة والتقدم سريعا فى مائتى السنين التى استغرقتها الحروب الصليبية . وقد أشاد بعض الفلاسفة بالآثر الحسن لهذه الحروب المقدسة التى عطلت ، فيما يبدو لى ، نضوج أوروبا ، ولم تدفعه الى الأمام (١) . وكان من الممكن استخدام حياة وجهود اللاتين الذين

(١) فى هذا الموضوع الهام ، أعنى تقدم المجتمع فى أوروبا ، أضاء شعاع قوى من نور الفلسفة اسكتلنده فى زماننا هذا . واني أكرر ذكر أسماء هيوم وروبرتسن وآدم سميث ، مع التقدير الخاص والعمام على حمد سواء .

دفنوا في الشرق على نهج أفضل لتحسين قطرهم الأصلي . وكان من الممكن أن تفر الكميّات المخترنة من المصنوعات والثروات أسواق التجارة . وكان من الممكن أن يشرى اللاتين وأن يتشفقوا عن طريق الاتصال الودي البريء مع بلاد الشرق . وفي ناحية واحدة أستطيع حقا أن أحس بأن عمليات الصليبيين الطارئة دفعت شرا ، وإن هي لم تجلب خيرا . ذلك أن أكبر جزء من سكان أوروبا كان مغلولاً الى الأرض دون حرية أو ملكية أو معرفة . وكانت طائفتا النبلاء ورجال الدين ، مع أن عددهما قليل ، هما وحدهما اللتان تستحقان اسم المواطن والانسان ، وقد استند هذا النظام الظالم الى أفانين رجال الدين وسيوف البارونات . وعمل نفوذ القساوسة في أظلم العصور على أن يكون تريبا ناجعا . فحاولوا دون اقراض الأدب اقراضا تاما ، وخففوا من وحشية تلك الأزمنة وآووا الفقير ، ومن لا ناصر له ، وحافظوا أو أحيوا السلام والنظام في المجتمعات المدنية . أما استقلال لوردات الاقطاع ونهبهم وصراهم فكان شرا لم يخالطه خير أو ما يشبه الخير . وكل أمل في العمل الجاد أو التحسين حطمته الأرستقراطية العسكرية . ومن بين الأسباب التي دكت أسس البناء القوطي ، يجب أن نقسح مكانا ظاهرا للحروب الصليبية . فقد ضاعت مزارع البارونات هباء ، وكثيرا ما اقترض نسلهم في هذه الحملات الخطيرة ذات التكاليف الباهظة . وانتزع فقرهم من كبريائهم صكوك الحرية التي حطمت أغلال العبيد وأمنت الفلاح على مزرعته والصانع على حانوته ، وأعادت تدريجيا ، مادة وروحا ، الى جزء من المجتمع هو أكثرها عددا وأعظمها نفعا . إن الحريق الذي دمر الأشجار العالية التي لا تثمر ، قد سمح بالهواء ومجال النمو للنباتات الصغيرة المغذية التي تنبت على التربة .

في عام ١٢٦١ استرد اليونانيون القسطنطينية ووضعوا على عرشها  
ميخائيل يوليوجوس أول امبراطور في أسرة قدر لها أن تكون آخر أسرة  
في التاريخ البيزنطي . وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر ضيق  
الفراة من المغول عليها الحناق ، تحت قيادة خلفاء جنكيزخان . وعندما  
ضعفت قوة المغول استقر الأتراك العثمانيون في آسيا الصغرى ،  
ووضعوا أقدامهم في أوربا . ويصف جيون هذه التطورات في الفصول  
الثلاثة التالية ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ .



# نهاية الإمبراطورية الرومانية

## الفصل الخامس والستون

(١٤٤٨ - ١٤٦٢)

• حصار مراد الثاني للقسطنطينية •

نظام الأتراك • اختراع البارود

في سنة ١٤٠٢ خفف تيمورلنك الذي أسر السلطان العثماني بايزيد الثاني ، من الخطر المحدق بالقسطنطينية من جانب الأتراك العثمانيين ، ولكنهم استردوا قوتهم في زمن مراد الثاني ، فتأكد مصير القسطنطينية •

### حصار مراد الثاني القسطنطينية

كان أعقل الأتراك ، بل في الحق مجموع الأمة ، في غمرة هذه الصراعات ، يتمسكون أشد التمسك بوحدة الإمبراطورية . وكانت الأناضول وبلاد الروم ، وكثيرا ما فرق بينهما الطموح الفردي ، تسيطر عليهما نزعة قوية غالبة الى التماسك والترابط . وكان من الممكن أن تلقن جهودهم ، القوى المسيحية درسا . فلو أنهم احتلوا مضائق غاليبولي بأسطول متحالف لقضى بسرعة على العثمانيين في أوربا على الأقل . ولكن انشغاق الغرب ومنازعات بريطانيا وفرنسا وحروبها حالت

بين اللاتين وبين هذا المشروع العظيم ، وتمتعوا بالهدوء أو الامهال الحالى دون أن يفكروا فى المستقبل . وكثيرا ما أغرتهم مصلحة عاجلة بخدمة عدو دينهم المشترك . وأثرت مستعمرة من أهل جنوة ، كانت قد أنشئت فى فوكايا على الشاطئ الأيونى ، بفضل احتكار تجارة الشب المربحة . وقد ضمن لهم دفع الجزية السنوية حياة هادئة فى ظل الامبراطورية التركية . وفى آخر حرب أهلية بين الأتراك ، انحاز أدورنو Adorno ، وهو حاكم المستعمرة ، من أهل جنوة ، وكان شابا جريئا طموحا — انحاز الى جانب مراد ، وتعهد بنقله من آسيا الى أوروبا فى سبع بوارج قوية . فأبحر السلطان ومعه خمسمائة من الحرس على بارجة الأمبرال التى كانت مزودة بشمانائة من أشجع الفرنجة . وكانت حياته وحرية فى قبضتهم . ولسنا نستطيع عن رضا واختيار ، أن نمتدح ولاء أدورنو الذى ركع فى منتصف الرحلة أمام السلطان وتقبل شاكرا اعفائه من متأخر الجزية . وقد نزلوا الى البر على مرأى من مصطفى وغاليولى ، وصحب السلطان مرارا لفتح أدرنة ألفان من الايطاليين المسلحين بالحرايب والفنوس . وسرعان ما لقيت هذه الخدمة المشتراة جزاءها ، فتمرت تجارة فوكايا والمستعمرة القائمة بها .

ولو أن تيمورلنك كان كريما فسار لنجدة امبراطور اليونان ، عندما طلب منه ذلك ، لاستحق من المسيحيين الثناء والاعتراف بالجميل . ولكنه لم يكن يستشعر الشفقة نحو عبدة الأصنام فى أوروبا أو يسيل الى نجدتهم ، وهو الذى حمل سيف الاضطهاد فى جورجيا ، ونظر بعين الاحترام الى الحرب المقدسة التى كان يشنها بايزيد .

واندفع التترى وراء طموحه ، وكان خلاص القسطنطينية نتيجة غير مقصودة . فعندما اعتزل عمانويل الحكم كان دعاؤه ، لا أمله ، أن يؤجل سقوط الكنيسة والدولة حتى تنتهى أيامه التسعة . وبعد أن عاد من زيارته للغرب . كان يتوقع في كل ساعة أن يسمع أخبار الكارثة المحزنة . وفجأة أذهله وأطربه خبر تفهقر سلطان العثمانيين وهزيمته وأسره . فأبحر عمانويل لفوره من مودون في بلاد المورة واعتلى عرش القسطنطينية وطرد منافسه الأعمى الى منفى سهل في جزيرة ليسبوس . وسرعان ما مثل أمامه سفراء ابن بايزيد ، وقد حطم كبرياؤهم وتواضعت أو اعتدلت لبراتهم ، وقد خشوا حقا أن يفتح اليونانيون للمغول أبواب أوروبا . وحيا سليمان الامبراطور بقوله «أيها الوالد» ، وتوسل اليه أن يمنحه حكما في رومانيا أو أن يهبه اياها ، ووعد أن يعمل على ما فيه رضاه ، في مودة صادقة ، مع محاولة استرداد سالونيك وأهم البلاد الواقعة على شاطئ ستريمون Strymon وبحر مرمرة والبحر الأسود . وتعرض الامبراطور لعداء موسى واتقاه ، بعد عقده تحالفا مع سليمان . وظهر الأتراك أمام أبواب القسطنطينية في كامل عدتهم ، ولكنهم ردوا على أعقابهم في البر والبحر . ولو لم تكن هناك حامية من المرتزقة الأجانب تدافع عن المدينة ، لدهس اليونانيون لا تنصهارهم هم أنفسهم . وبدلا من اطالة أمد الشقاق بين القوى العثمانية ، جنحت سياسة عمانويل أو هواه الى مساعدة أقوى أبناء بايزيد . فعقد معاهدة مع محمد ، الذى أوقف تقدمه حاجز غاليبولى الذى لا يمكن تخطيه . فنقل السلطان وجنوده عبر البسفور . واستقبل استقبالا كريما في العاصمة . وكان هجومه

الموفق خارج الأسوار أول خطوة في غزو رومانيا . وأوقف حزم الفاتح واعتداله خراب البلاد . وقام بأداء ما وجب عليه في أمانة وأنفذ تعهدات سليمان . واحترم قوانين السلام وقواعد الاعتراف بالجميل . وجعل من الامبراطور وصيا على ولديه الصغيرين ، يحدوه أمل عظيم في اتقادهما من حقد أخيهما مراد وقسوته . ولكن أمله هذا باء بالفشل . وربما أساء تنفيذ وصيته الأخيرة الى شرفه القومي والى دينه . وقرر الديوان بالاجماع أنه لا ينبغي أن يترك الأميران الشابان تحت وصاية مسيحي ليقوم بتربيتهما . وقد انقسمت المجالس البيزنطية ازاء هذا الرفض ولكن عمانويل ، وهو الشيخ المسن الحذر الحريص تراجع أمام جرأة ابنه جون . فسل سلاحا خطرا من أسلحة الانتقام ، بتسريح مصطفى سواء كان هو مصطفى الحقيقي أم غيره ، وهو الذى احتجز مدة طويلة كأسير ورهينة ، وكانا يقبضان لقاء نفقات استضافته مبلغا سنويا قدره ثلثمائة ألف بارة ( Asper عملة تركية قديمة ) . وعلى باب سجنه وافق مصطفى على كل اقتراح . وكان تسليم مفاتيح غاليبولى أو بالأحرى مفاتيح أوروبا هو الثمن المشترط لنجاحه . ولكنه سرعان ما جلس على عرش رومانيا حتى طرد السفراء اليونان بابتسامة احتقار ، معلنا فى صوت ورع أنه يفضل فى يوم القيامة أن يسأل عن حثه فى يمينه بدلا من أن يسأل عن تسليم بلدة مسلمة لأيدى الكفار . فأصبح الامبراطور فى الوقت نفسه عدوا للخصمين المتنافسين اللذين أساء اليه ، كما أساء هو اليهما . وتلا انتصار مراد ، فى الربيع التالى ، حصار القسطنطينية .

وجذب الجزء الدينى الذى يناله من يشترك فى اخضاع مدينة

القيصرة ، من آسيا عددا ضخما من المتطوعين تاقوا لشرف الاستشهاد. وقد أشعل حماسهم الدينى وعد بأسلاب وفيرة ونساء جميلات . وشدد من طموح السلطان حضور « سيدى بشير » وتبؤاته . وهو من أهل بيت النبى . وقد وصل الى المعسكر على بغل تتبعه حاشية مبعلة عددها خمسمائة من المريدين . ولكن كان عليه أن يستحى — ان كان هناك متعصب يعرف الحياء — لفشل توكيداته . فقد قاومت الأسوار جيشا من الأتراك يتألف من مائتى ألف ، وصد زخوفهم هجمات مباشرة خارج الأسوار قام بها اليونانيون والمرتزة الأجانب . ووقفت وسائل الدفاع القديمة فى وجه آلات الهجوم الجديدة . وكان حساس الدرويش الذى رفع الى السماء ليتحدث الى محمد فى الرؤيا ، يقابله سذاجة المسيحيين الذين رأوا مريم العذراء فى ثوب بنفسجى تسير فوق الحصن لتلهب شجاعة الجنود . وبعد حصار دام شهرين استدعى مراد الى بورصة لتهدئة ثورة داخلية أشعلتها خيانة اليونانيين ، ولكنها أخمدت بسرعة بعد سفك دم أخ برىء . وبينما كان مراد يقود الانكشارية الى فتوحات جديدة فى آسيا وأوربا ، نعمت الامبراطورية البيزنطية بهدوء ذليل مؤقت لمدة ثلاثين سنة ، قضى أثناءها عمانويل نجبه ، وسمح لجون بيلولوجوس بالحكم لقاء جزية سنوية مقدارها ثلثمائة ألف أسبر Asper ، مع التخلّى عن كل شىء تقريبا فيما عدا ضواحي القسطنطينية.

## نظام الأتراك

يجدر أن ينسب أول فضل فى تأسيس الامبراطورية التركية وفى استعادتها ، دون ريب ، الى صفات السلاطين الشخصية ، طالما درج البشر على أن تعتمد أهم المناظر فى حياتهم على شخصية مثل واحد

بمفرده . وقد نستطيع تمييز بعضهم عن بعض بظلال من الحكمة والفضيلة . وباستثناء حالة وحيدة ، توالى تسعة من السلاطين في فترة دامت مائتين وخمسا وستين سنة ، من ارتقاء عثمان الى موت سليمان ، فكانوا سلسلة فذة من الأمراء المحاربين الجادين الذين فرضوا على رعاياهم الطاعة وملأوا قلوب أعدائهم بالرعب والفرع . فبدلا من ترف الحريم وخموله ربي ورثة الملوك في المجالس والميادين . ومنذ نعومة أظفارهم عهد اليهم آباؤهم بحكم الولايات وقيادة الجيوش . ولا بد أن نظام الرجولة ، هذا الذي كثيرا ما جر فيما بعد الى حروب أهلية ، أسهم أساسا في دعم نظام الملك وقوته . ولا يمكن أن يصف العثمانيون أنفسهم ، كما فعل الخلفاء من العرب ، بأنهم أهل بيت رسول الله أو خلفاؤه . ويبدو أن صلة القرابة التي يزعمون أنها تربطهم بأمراء التتار من بيت جنكيزخان أساسها الملق لا الصدق . فإن أصلهم يحيط به الغموض . أما حقهم المقدس ، والذي لا مطعن فيه ، ولا يمكن لزمان أن يمحوه ، ولا يستطيع أى عنف أن ينقضه ، فقد رسخ بسرعة ، ودون بديل ، في عقول رعاياهم . فقد يعزل سلطان ضعيف أو شرير ويقتل خنقا ، ولكن ميراثه ينتقل الى طفل أو معتوه . ولم يجرؤ أكثر الشوار تهورا على أن يعتلى عرش مليكه الشرعى . وعلى حين تجد أن الأسرات التى حكمت حكما عابرا في آسيا ، قد أطاح بها وزير ماهر في القصر أو قائد منتصر في المعسكر ، نجد أن نظام توارث العرش العثماني قد دعمته خبرة خمسة قرون ، حتى أضحى الآن أحد المبادئ الحيوية للأمة التركية .

ومهما يكن من أمر ، فانه قد ينسب الى روح هذه الأمة وبنيتها أثر

قوى فريد . كان رعايا عثمان الأولون هم الأربعمئة أسرة من التركمان المتجولين الذين جاءوا مع أجداده من نهر سيحون الى سنجار . ولا تزال سهول الأناضول مغطاة بخيام اخوانهم الريفين السوداء أو البيضاء . ولكن هذه القطرة الأصلية ذابت في بحر ضخ من الرعايا ، جاء بعضهم طائفا مختارا وجاء البعض الآخر قهرا بحق الفتح ، وقد توحدوا تحت اسم الأتراك بروابط مشتركة من الدين واللغة والأخلاق ، وفي المدن من أضرهم الى بلغراد تطلق هذه التسمية القومية على جميع المسلمين ، وهم أقدم السكان وأشرفهم ، ولكنهم هجروا القرى ، على الأقل في رومانيا ، وتركوا زراعة الأرض للفلاحين المسيحيين . وفي فترة ازدهار الحكم العثماني ، كان الأتراك أنفسهم مبعدين عن الوظائف المدنية والعسكرية . وقد خلق نظام التربية طبقة مستعبدة مصنوعة ، لتطيع وتفوز وتحكم . ومنذ عصر أورخان ومراد الأول اقتنع السلاطين بأن حكومة السيف يجب أن تجدد في كل جيل بعسكر جدد ، وأن هؤلاء الجنود يجب أن يبحث عنهم لا في آسيا المخشنة ، ولكن بين سكان أوروبا الأشداء المحبين للحروب . فأصبحت ولايات تراقية ومقدونية وألبانيا وبلغاريا والصرب المهة الدائم للجيش التركي . وعندما نقص نصاب الخمس في الأسرى — وهو نصيب السلطان بحكم الفتح — فرضت جزية وحشية ، هي الابن الخامس ، أو ابن كل خمس سنوات ، وكانت تجبى بقسوة من الأسر المسيحية . ففي سن الثانية عشرة أو الرابعة عشرة ، كان أقوى الشبان ينتزعون من والديهم ، وتدون أسمائهم في سجل . ومن هذه اللحظة كانوا يكسون ويعلمون ، ويدخرون للخدمة العامة . وتبعاً لما كان يبشر به مظهر كل منهم ،

كانوا يختارون للمدارس الملكية في بورصة والبيره وأدرنه ، أو يعهد برعايتهم الى الباشوات ، أو يوزعون على دور الريفيين في الأناضول . وكان أول ما يعنى به سادتهم تعليمهم اللغة التركية . وقد دربت أجسامهم على جهد يحصن قواهم ، وتعلموا المصارعة والقفز والجري ورمى القوس ، ثم استعمال البنادق فيما بعد ، الى أن يوزعوا على فرق الانكشارية حيث يدربون أدق تدريب على النظام العسكرى ، أو نظام الأديرة . وأدخل أولئك الشبان الذين امتازوا من جهة النسب أو العبقريّة أو الجمال فى الفئة الدنيا المسماة « أغا أوغلان » أو الفئة التى هى أعلى مقاما « أيك أوغلان » وكانت الطائفة الأولى تلحق بالقصر ، أما الثانية فتقوم على خدمة شخص الأمير . وفى أربع دورات تعليمية متتالية ، وتحت عصا الخصيان البيض ، كان يجرى تدريبهم اليومى على فن ركوب الخيل والرماية . أما أولئك الذين أظهروا ميلا غريزيا الى البحث والدرس ، فقد تعلموا القرآن واللغتين العريسيّة والفارسيّة ، وكلما أظهروا تفوقا وجدارة ، سمح لهم بشغل الوظائف العسكريّة والمدنيّة وحتى الدينيّة . وعلى قدر بقائهم فى هذه الوظائف تنفتح أمامهم الآمال ، حتى يتاح لهم فى الوقت المناسب أن ينخرطوا فى سلك الأربعين « أغا » الذين يمثلون أمام السلطان ويرقون ، وفق ارادته ، الى مناصب الحكام فى الولايات والى أسمى وظائف الدولة . وتلتئم أمثال هذه النظم التثامما عجيبا مع الملكية المطلقة وروحها . كان الوزراء والقواد عبيد الامبراطور فى أدق معانى كلمة العبودية . فهم مدينون لكرمه بتعليمهم ورعايتهم وحياتهم . وعندما خرجوا من السراى وأطلقوا لحاهم رمزا الى تحررهم ، وجدوا أنفسهم فى مناصب عالية



دون أن يكون لهم حزب أو أصدقاء ، ودون أن يكون لهم آباء أو ورثة ، يعتمدون على اليد التي رفعتهم من وهدة الثرى ، وتستطيع عند أقل غضب أن تسحق هذه التماثيل المصنوعة من الزجاج ، كما وصفهم المثل التركي بدقة . وفى مدارج التعليم البطيئة الشاقة ، تفتحت شخصياتهم ومواهبهم أمام كل عين نافذة . ووضع كل فرد ، وهو مجرد قائم بذاته وحده ، حيث تضعه صفاته وجدارته الشخصية . وإذا كان لدى السلطان القدرة على الاختيار الحكيم ، فإن أمامه حرية خالصة لا حد لها للاختيار . وكان المرشحون للوظائف فى تركيا يتدربون على فضائل الجِد والعمل عن طريق ما درجوا عليه من التقشف وضبط النفس ، كما كانت عادات الخضوع تدربهم على فضائل القيادة والامارة . وقد انتشرت فى الجنود روح مماثلة ، وقد انتزع صلتهم ورسالتهم وصبرهم وتواضعهم ثناء أعدائهم المسيحيين كارهين . ولا يمكن أن يرتاب أحد فى النصر ، إذا قارنا نظام الانكشارية وتدريبهم بتفاخر الفرسان بنسبهم وحسبهم واستقلالهم ، وجهل الجنود الجدد ، وجنوح قدماء المحاربين الى التمرد ، وبرذائل الاسراف والفوضى التى دنست جيوش أوروبا زمنا طويلا .

## اختراع البارود

ربما كان الأمل الوحيد فى اقناذ الامبراطورية اليونانية والممالك المجاورة ، هو اختراع سلاح أقوى أو كشف وسيلة حربية تجعل لهم تفوقا حاسما على أعدائهم من الأتراك . وكان مثل هذا السلاح بين أيديهم ، وقد حدث مثل هذا الكشف فى اللحظة الحرجة التى كان

يتقرر فيها مصيرهم . فقد كان الكيميائيون في الصين وفي أوروبا ، قد وجدوا اما اتفاقا أو بعد تجارب دقيقة ، أن اتحاد نترات البوتاسيوم والكبريت والفحم النباتي يحدث انفجارا هائلا مع شعلة من النار ، وسرعان ما لوحظ أن هذه القوة التمديدية اذا ضغطت في أنبوبة متينة فان لها القدرة على أن تلقى بعيدا بكرة من الحجر أو الرصاص بسرعة مدمرة لا قبل لأحد بمقاومتها . ولا يمكننا أن نحدد بالدقة زمن اختراع البارود واستخدامه ، فهذه الفترة محوطة بروايات غامضة ، ويعبر عنها بلغة ملتبسة . ومع ذلك يمكن أن تبين بوضوح أنه كان معروفا قبل منتصف القرن الرابع عشر ، وأنه قبل انتهاء هذا القرن كان استخدام المدفعية في الحرب والحصار بحرا أو برا مألوفا في دول ألمانيا وإيطاليا وأسبانيا وفرنسا وإنجلترا . وجدير بالذكر أن السبق بين الأمم ذو أهمية ضئيلة . فلم تستطع احداها أن تحظى بفائدة اختصت بها وحدها بسبب معرفتها السابقة أو الفائقة . وفي مجال التحسين العام وقفوا جميعا على قدم المساواة في القوة النسبية والعلوم العسكرية . ولم يكن من المستطاع حصر السر داخل الكنيسة . فاطلع عليه الأتراك بسبب خيانة المرتدين وسياسة المتنافسين وأفانبتهم . وكان لدى السلاطين من الذكاء ما جعلهم يقتبسون هذا الاختراع ، ومن المال ما مكنتهم من مكافأة مهندس مسيحي على عبقرية . ولا بد أن يتهم الجنويون الذين نقلوا مرادا الى أوروبا بأنهم هم الذين أظهروه على هذا الاختراع . ومن المحتمل أن أيديهم هي التي صنعت المدفع ووجهته في حصار القسطنطينية . وكانت أول تجربة حقا فاشلة . ولكن في الحروب العامة في ذاك الجيل ، كان الامتياز في جانب أولئك الذين يقومون عادة

بالمهجوم . وقد توقفت لفترة ما النسبة بين الهجوم والدفاع . ووجهت هذه المدفعية كالرعد ضد الأسوار والقلاع التي شيدت لتقاوم فقط آلات العصر القديم ، وهي أقل قوة . وقد نقل أهل البندقية استخدام البارود بلا حياة ولا خجل الى سلاطين مصر وفارس ، وهم حلفاؤهم ، ضد قوة العثمانيين . ومرعان ما انتشر السحر حتى وصل الى أطراف آسيا . وانحصرت فائدة الأوربي في كسب انتصارات سهلة على المتوحشين في العالم الجديد . وإذا قارنا سرعة تقدم هذا الكشف السيء الخبيث ، بتقدم العقل والعلم وفنون السلم — ذاك التقدم البطيء الشاق ، فسيكفي الفيلسوف أو يضحك ، وفق هواه ومزاجه ، من جهالة البشرية وحمقها .



## الفصل السادس والستون

( ١٣٤٨ - ١٤٩٢ )

- استغاثة اليونانيين بالغرب • زيارة جون باليولوجوس لرومه •
- زيارة عمانويل لاييطاليا وفرنسا وانجلترا • حملة باليولوجوس الثاني •
- اتحاد مؤقت بين اليونانيين واللاتين • احياء العلوم اليونانية في ايطاليا •
- البابا نيقولا الخامس • الافادة من العلوم القديمة وسوء استخدامها •

في القرون الأربعة الأخيرة من حكم أباطرة اليونان ، يمكن أن يعتبر عداؤهم أو صداقتهم للبابا واللاتين مقياس الرخاء أو الشدة لديهم ، أو ميزان قيام الأسرات المتبريرة وسقوطها . فعندما انتشر الأتراك من آل سلجوق في ربوع آسيا وهددوا القسطنطينية ، رأينا في مجمع بلاكتيا سفراء ألكسيوس الضارعين يطلبون حماية الأب المشترك للمسيحيين جميعا . ولكن سرعان ما أجبرت أسلحة الحجاج الفرنسيين السلطان على الانتقال من نيقيا الى اكونيوم Iconium ، حتى عاد أمراء اليونان أو كشفوا عن كراهيته المتأصلة واحتقارهم للغرب المنشق الذي عجل بأول سقوط لامبراطوريتهم . ولقد أبرز جون فاتاكيس ، في لغته الرقيقة المهذبة تاريخ الغزو المغولي . وبعد استعادة القسطنطينية أحاط الأعداء في الداخل والخارج بعرش أول امبراطور من أسرة باليولوجوس ، وطالما كان سيف شارل مصلتا على رأسه ، طلب في خسوع رضاء الحبر الروماني عنه وضحي بعقيدته وفضيلته ومحبة

شعبه له . وعند موت ميكائيل أعلن الأمير والشعب استقلال كنيستهم  
وتقاء عقيدتهم : لم يخش أندرونيكوس الأكبر اللاتين ولم يحبهم . وفي  
أشد أوقات الضيق كانت كبرياؤه هي الحامية للعقيدة ، ولم يكن في  
استطاعته ، في سنه ، أن يتراجع على نهج يحفظ كرامته ، عن الاعترافات  
القوية التي فاه بها في شبابه . أما حفيده أندرونيكوس الأصغر فقد  
كان أقل عبودية في طبعه وموقفه . وقد حفزه فتح الأتراك لبيثينيا الى  
أن يسعى الى عقد حلف زمني وروحي مع أمراء الغرب . فبعد فرقة  
وصنت داما خمسين سنة أرسل الراهب بارلام في مهمة سرية الى البابا  
بندكت الثاني عشر . ويظهر أن تعليماته الماكرة قد دبجت بقلم الأمين  
الأعظم ، فقد عهد اليه أن يقول : أيها الأب المقدس ، ان الامبراطور  
ليس بأقل من قداستكم رغبة في أن يرى اتحادا بين الكنيستين . ولكنه  
في هذا العمل الدقيق مضطر الى أن يحترم كرامته وأهواء شعبه . وهناك  
وسيلتان للاتحاد : القوة والاقناع . وقد جربت القوة فوجدت غير  
مجدية ، اذ أن اللاتين أخضعوا الامبراطورية اليونانية ، ولم يستطيعوا  
اخضاع عقول اليونانيين . أما الاقناع فعلى الرغم من أنه وسيلة بطيئة  
الا أنها مؤكدة ودائمة . وقد يتفق وفد من ثلاثين أو أربعين من علمائنا  
مع علماء الفاتيكان في حب الحق ووحدة العقيدة . ولكن عندما يرجعون  
ما هي فائدة هذا الاتفاق وما هو جزاؤه ؟ احتقار لخوانهم ولوم أمة  
عمياء عنيدة . ولكنها أمة جرت على احترام المجامع العامة التي حددت  
بنود عقيدتها . فاذا كانوا يهاجمون قرارات ليون فذلك لأن الكنائس  
الشرقية لم يسمع صوتها ولم تمثل في ذلك الاجتماع التعسفي . ولهذه  
الغاية الناجحة قد يكون من المناسب ، بل قد يكون من الضروري أن

يوفد نائب يحسن اختياره الى بلاد اليونان ليدعو بطارقة القسطنطينية والاسكندرية وأنطاكية وبيت المقدس ، ويعد العدة بمعوتتهم لعقد مجمع عام حر . واستمر هذا الرسول الماكر في حديثه : « ولكن الامبراطورية في هذه اللحظة في خطر من هجوم الأتراك عليها . وقد احتل الأتراك أربعاً من أكبر المدن في الأناضول . وقد عبر السكان المسيحيون عن رغبتهم في العودة الى ولائهم ودينهم ، ولكن قوات الامبراطورية ومواردها لا تكفى لاقادهم . ويجب أن يصحب المندوب الرومانى أو يسبقه جيش ، من الفرنجة يطرد الكفار ويفتح الطريق الى بيت المقدس » . واذا كان اللاتين المتشككون في حاجة الى دليل مسبق على اخلاص اليونان ، فان بارلام كان واضحاً معقولا في اجاباته ، اذ قال :

١ — يستطيع مجمع عام وحده أن يحقق الوحدة بين الكنائس ، ولا يمكن عقد هذا المجمع حتى يتحرر ثلاثة من بطارقة المشرق وعدد كبير من الأساقفة من النير الاسلامى .

٢ — ان اليونانيين قد أبعدتهم سلسلة من الاضطهادات والاساءات، ويجب لاسترضائهم القيام بعمل يتسم بالحب والأخوة ، كنجدة فعالة تقوى سلطان الامبراطور وأصدقاء الوحدة وتدعم حججهم .

٣ — فان استحال معالجة بعض الاختلافات فى العقيدة أو الطقوس ، فان اليونانيين هم تلاميذ المسيح والأتراك هم العدو المشترك للعالم المسيحى . ان الأرمن والقبارصة وسكان رودس تنوالى عليهم الهجمات سواء بسواء ، ومن اللائق بتقوى الأمراء الفرنسيين أن يستلوا سيوفهم فى الدفاع عن الدين .

٤ — اذا كان الأمر يقتضى أن يعامل رعايا أندرونيكوس على أنهم أسوأ المنشقين ، والهرطقة ، والوثنيين ، فإن السياسة الرشيدة تتطلب من قوى الغرب أن تضم حليفا نافعا ، وأن تساند امبراطورية متداعية ، وأن تحرس حدود أوروبا ، وأن تنضم الى اليونانيين ضد الأتراك ، لا أن تتوقع اتحاد الجيوش التركية مع جنود بلاد اليونان الأسيرة وكنوزها .

وقوبلت الأسباب التى أدلى بها أندرونيكوس وعروضه ومطالبه باستهتار بالغ فاطر . وتجنب ملكا فرنسا وناپلى أخطار حرب صليبية كما رفضوا مجدها ، وامتنع البابا عن دعوة مجمع جديد ليحدد البنود القديمة فى العقيدة ، وحدث به رغبته فى مجازاة امبراطور اللاتين وقساوستهم على مزاعمهم البالية القديمة الى استخدام عنوان جازح : « الى وسيط <sup>(١)</sup> اليونانيين ، وإلى الأشخاص الذين يسمون أنفسهم بطارقة الكنائس الشرقية » . ولم يكن من الميسور ولا من اليسير اخيار زمان ولا شخصية أقل ملاءمة لمثل هذه المهمة . فقد كان بندقى الثانى عثر فلاحا غيا ، أفسدت الشكوك عقله ، منصرفا الى الخمول والخمر . وكان من الممكن أن تضيف كبرياؤه تاجا ثالثا فى القلنسوة البابوية ، ولكنه لم يكن ليصلح لمنصب الملكية أو البابوية .

وبعد موت أندرونيكوس ، وبينما كانت الحرب الأهلية تمزق كيان اليونانيين ، لم يكن من الممكن أن يجسروا على المطالبة باتحاد

---

(١) استخدم لفظة Moderator : أى القائم بالوساطة بين اليونان والبابا . . . ولم يستعمل كلمة « امبراطور » .



عام يضم المسيحيين . ولكن حالما أخضع كانتاكوزين Cantacuzena أعداءه وعفا عنهم ، تاق الى أن يبرر دخول الأتراك الى أوربا ، وزواج ابنته بأمير مسلم أو على الأقل أن يخفف من أثرهما . فأرسل باسمه موظفين من موظفى حكومته ومعهما مترجم لاتينى ، الى البسلاط الرومانى الذى كان قد انتقل الى أفنيون ، على شاطئ الرون لمدة سبعين سنة . فقاما بشرح الحاجة الملحة التى أدت به الى قبول التحالف مع الكفار ، وأوردوا بأمر منه هو نفسه ذكر الاتحاد والحرب الصليبية . وهى كلمات براقة ورعة . وأكرم البابا كليمنت السادس الذى خلف بنديكت وفادتهم ، واستقبلهم بمظاهر التشرىف معترفا ببراعة مليكهم ، والتمس له العذر فى المصائب التى نزلت به ، وشاد بمروءته ، وأظهر معرفة واسعة بحالة الامبراطورية اليونانية وثرواتها وكان قد حصل عليها من أبناء صادقة حملتها اليه سيدة من سافوى كانت من وصيفات الامبراطورة آن . وكان لكليمنت ، وان لم يحفظ بفضائل القيسيين ، روح الأمراء وعظمتهم ، وكان جوادا يوزع يده الكريمة الوظائف الكنسية والممالك بنفس القدر من السهولة واليسر . وفى أثناء حكمه كانت أفنيون مركز البهاء واللهو ، وتجاوزت اباحيته فى شبابه اباحية البارونات . وازدان قصره ، بل غرفة نومه ، أودنست ، بزيارة محظياته من النساء . وكانت حروب فرنسا وانجلترا لا تسمح بالقيام بهذا المشروع المقدس ، ولكن غروره سر بهذه الفكرة العظيمة . وعاد سفراء اليونان ، وفى صحبتهم اثنان من الأساقفة اللاتين من وزراء البابا . وعند وصولهما الى القسطنطينية تقارض كل من الامبراطور والرسولين الشتاء والاعجاب بتقوى صاحبه وفصاحته . وملئت

اجتماعاتهم المتكررة بالمديح والوعود المتبادلة التى ابتهج لها الطرفان ، ولكنهما لم يخدعا بها . قال كاتاكوزين الورع : « انى سرور بمشروع حربنا المقدسة التى ستمنحني مجدا شخصيا كما ستأتى بالنفع العيم على العالم المسيحى . وستقدم مملكتى ممرا حرا لجيوش فرنسا ، وسأقف جنودى وسفنى وكنوزى على خدمة الهدف المشترك ، وكم أكون سعيدا محظوظا لو أصبحت جديرا بتاج الشهداء وحظيت به . ان الألفاظ لا تكفينى للتعبير عن الغيرة التى تملكنى لجمع أشلاء المسيح المبعثرة . وان كان موتى يحقق ذلك ، فانى أقدم بكل سرور سيفى وغنقى . وان كان الطائر الروحانى يمكن أن يخرج من رماذ جثتى ، فانى أجمع الكتل الخشبية وأوقد النيران بيدي . ومع ذلك فان امبراطور اليونان تجرأ على أن يلاحظ أن بنود العقيدة التى قسمت الكنيستين أوجدها كبرياء اللاتين وتسرعهم . وأعلن عدم ارتباطه بالخطوات الذليلة التعسفية التى قام بها أول ملوك أسرة باليولوغوس ، وأعلن فى قوة أنه لن يخضع ضميره الا لقرارات مجمع حر . ثم أردف : « ان الأوضاع الراهنة لن تسمح لى بالاجتماع بالبابا سواء فى رومه أو القسطنطينية ، ولكن من الممكن اختيار احدى المدن الساحلية على حدود الامبراطوريتين ، لجمع الأساقفة وتوجيه المؤمنين فى الشرق والغرب » . وأظهر رسولا البابا أنهما راضيان عن هذا الاقتراح . ويتظاهر كاتاكوزين بالثناء لآماله التى ذهبت أدراج الرياح ، والتى قضى عليها موت كليمنت بعد وقت قصير ، وتباين مزاج خليفته .

ولقد طالت سنى حياته ، ولكن فى أحد الأديرة . واذا صرفنا النظر عن صلواته ، فقد أصبح الراهب الذليل غير قادر على أن يوجه آراء تلميذه أو حكومته .

## زيارة جون باليولوغوس لرؤم

ومها يكن من أمر ، فإنه من بين جميع أمراء بيزنطة ، كان ذاك التلميذ جون باليولوغوس ، أكثرهم استعدادا لمعاقة راعي الغرب والايمن به والامثال له . لقد عمدت أمه آن دي سافوى في أحضان الكنيسة اللاتينية . وقد فرض عليها زواجها من أندرونيكوس أن تغير اسمها ولباسها وطقوس عبادتها ، ولكن قلبها بقى على ولائه لوطنها ودينها . ولقد شكلت طفولة ابنها وتحكمت في الامبراطور حتى بعد أن أصبح عقله ، أو على الأقل قامته ، قدر عقلية الرجل أو قامته . وفي السنة الأولى من نجاته وعودته الى عرشه كان الأتراك لا يزالون يسيطرون على الدردنيل . وكان ابن كاتاكوزين يحمل السلاح في أدرنة ، ولم يكن باليولوغوس يستطيع أن يعتمد على نفسه أو شعبه . وعملا بنصيحة أمه وأملا في الحصول على عون خارجي تنازل عن حقوق الكنيسة والدولة سواء بسواء . وعهد سرا بوثيقة العبودية بعد أن وقع عليها بالجر الأرجواني ، وختمت بالخاتم الذهبي ، الى عميل ايطالى . ويحوى أول بند في هذه المعاهدة بين الولاء والطاعة لانوسنت السادس وخلفائه من بعده ، ولأخبار الكنيسة الرومانية الكاثوليكية . وتعهد الامبراطور أن يستقبل نوابهم ورسلمهم بالاحترام اللائق بمقامهم ، وأن يخصص قصرا لاقامتهم ومعبدا لعباداتهم ، وأن يسلم ابنه الثانى عمانويل رهينة لولائه وصدقه . وهو فى حاجة لقاء هذه التنازلات الى نجدة سريعة تتألف من خمس عشرة بارجة حربية مع خمسمائة جندى مسلح وألف من الرماة ، لمقاتلة أعدائه من المسيحيين والمسلمين . ويتعهد

باليولوغوس بأن يفرض على رجال الدين وعلى الشعب هذا القيد الروحي نفسه . ولكن ، لما كان يتوقع بحق مقاومة اليونانيين ، فانه يلجأ الى الوسيلتين اللتين تؤديان الى نتيجة محققة وهما الرشوة والتعليم . فسمح لنائب البابا بأن يوزع الوظائف الكنسية الشاغرة على من يوافق على مذهب الفاتيكان . وفتحت ثلاث مدارس لتعليم شباب القسطنطينية لغة اللاتين ومذهبهم . وسجل اسم أندرونيكوس ، ولى عهد الامبراطورية ، كأول تلميذ فيها . فان قدر لوسائله من الاقتناع أو القوة أن تبوء بالفشل ، فان باليولوغوس يعلن أنه غير جدير بالحكم ، وينقل الى البابا كل سلطاته الملكية والأبوية ، ويفوض الى انوسينت سلطة كاملة في ادارة شئون أسرته وحكومته وزواج ابنه وخليفته . ولكن هذه المعاهدة لم تنشر ولم تنفذ . فقد كانت البوارج الرومانية هباء وخيالا ، قدر ما كان خضوع اليونانيين . وكان كتمان السر هو الذى أنقذ مليكهم من عار هذا الذل الذى لا طائل تحته .

وسرعان ما أطبقت عليه الجيوش التركية . وبعد سقوط أدرنه ورومانيا أحيط به فى عاصمته كتابع لمراد المتكبر . وكان أمله اليائس هو أن يكون آخر ضحية يفترسها ذاك المتوحش . وفى حالته الذليلة تلك ، قرر باليولوغوس أن يبحر الى البندقية ، وأن يلقي بنفسه تحت قدمى البابا . وكان أول أمير بيزنطى زار تلك الأقاليم المجهولة فى الغرب . ومع ذلك ففيها وحدها قد يجد مواساة أو نجدة . ويمكنه ، مع امتهان أقل لكرامته ، أن يظهر فى المجمع المقدس ، خيرا من أن يظهر أمام الباب العالى . وكان البابا الرومانى قد عاد بعد غيبة طويلة من أفنيون الى شواطئ التيير . وقد شجع اربان الخامس ، وكان ذا طبع

هادىء فاضل ، أو سمح بزيارة أمير اليونانيين له . وفى هذه السنة نفسها حظى بشرف استقبال الشبحين الامبراطوريين فى الفاتيكان ، وكانا يمثلان عظمة قسطنطين وشرلمان . وفى زيارته الضارعة قدم امبراطور القسطنطينية ، وقد أودت ضائقته بغروره ، أكثر مما كان ينتظر من الألفاظ الجوفاء والخضوع الشكلى ، وفرض عليه أولا اختبار مقدم : فأقر أمام أربعة من الكرادلة بوصفه كاثوليكيًا مخلصا ، سيادة البابا والانبثاق المزدوج للروح القدس . وبعد هذا التطهير قدم الى الشعب فى كنيسة القديس بطرس ، وجلس اربان على عرشه ، يخف به كرادلته . وبعد أن ركع أمامه ثلاث مرات ، قبل ملك اليونان فى خشوع قدميه ويديه ، وفى النهاية قبل فم الأب المقدس الذى قام بتقديم قداس كبير فى حضرته ، وسمح له بأن يمسك بلبجام بعلته ، ثم أولم له وليمة فاخرة فى الفاتيكان . لقد استقبل باليولوغوس كصديق ، وقوبل بمظاهرات التكريم . ولكن فرقا واضحا ظهر لأعين الناس بين امبراطورى الشرق والغرب . فلم يكن للأول أن يتستع بالميزة النادرة ، ميزة ترتيل الانجيل بوصفه شماسا . ورعاية لمن اعتنق المذهب الكاثوليكي على يديه ، جاهد اربان لاشعال حماس ملك فرنسا ودول أوروبا الأخرى . ولكنه وجد أنهم قد انصرفوا عن الهدف المشترك ، ونشطوا فى منازعاتهم الداخلية وحدها . وتركز آخر أمل للامبراطور فى أحد المرتزقة من الانجليز . وكان جون هوكوود John Hawkwood ، أو أكووتو Acuto قد أعمل السلب والنهب مع فرقة من المغامرين ، « الاخوة البيضاء » فى ايطاليا من جبال الألب حتى كالابريا ، وباع خدماته للولايات المتعادية، وجلب على نفسه حرمانا عادلا من الكنيسة بتسديد سهامه الى القصر

البابوى . فأصدر البابا قرارا خاصا سمح فيه للامبراطور بالتفاوض مع هذا الطريد . ولكن قوات هوكوود أو جراته لم تكن تكفى للقيام بهذا المشروع . وكان من صالح باليولوغوس أن يخيب أمله في نجدة ستكون بلا شك غالية الثمن ، دون أن يكون لها أثر فعال وربما كانت محفوفة بالمخاطر . وفي قنوط أعد الامبراطور اليونانى العدة للعودة الى وطنه . ولكن حتى عودته وقفت في طريقها عقبة شائنة جدا . فعند وصوله الى البندقية ، كان قد اقترض مبالغ ضخمة بفوائد ربوية باهظة . ولكن خزائنه كانت خاوية ، ودائنيه لا يصبرون فاحتجز شخصه كأحسن ضمان لدفع الدين . وألح على ابنه الأكبر ، ونائبه في القسطنطينية ، أندرونيكوس ، مرارا أن يحاول بكل الوسائل ، ولو أدى الأمر الى سلب الكنائس ، اقذا والده من الأسر والعار . ولكن هذا الشاب العاق لم يشعر بالعار ، بل اغتبط في سره لأسر الامبراطور . كانت الدولة فقيرة ، ورجال الدين سادرين في عنادهم ، ولم يكن ثمة افتقار الى شكوك دينية تبرر الاستهتان والتباطؤ . ولكن هذا الاهمال العاق لقي لوما شديدا من ورع أخيه عمانويل الذى باع أو رهن كل ما يملك ، وأبحر الى البندقية وأثقف والده ، وجعل حريته الشخصية ضمانا لدفع الدين . وعند عودته الى القسطنطينية كافأ هذا الملك والوالد ابنه ، كلا بما يستحق . ولكن ولاء باليولوغوس الخامل وأخلاقه لم يصبها تحسن بسبب حجه الى رومه . وسرعان ما نسي اليونانيون واللاتين رذته أو اعتناقه للمذهب الكاثوليكي ، حيث خلا هذا أو تلك من أية نتائج دنيوية وروحية .

## زيارة عمانويل لإيطاليا وفرنسا وانجلترا

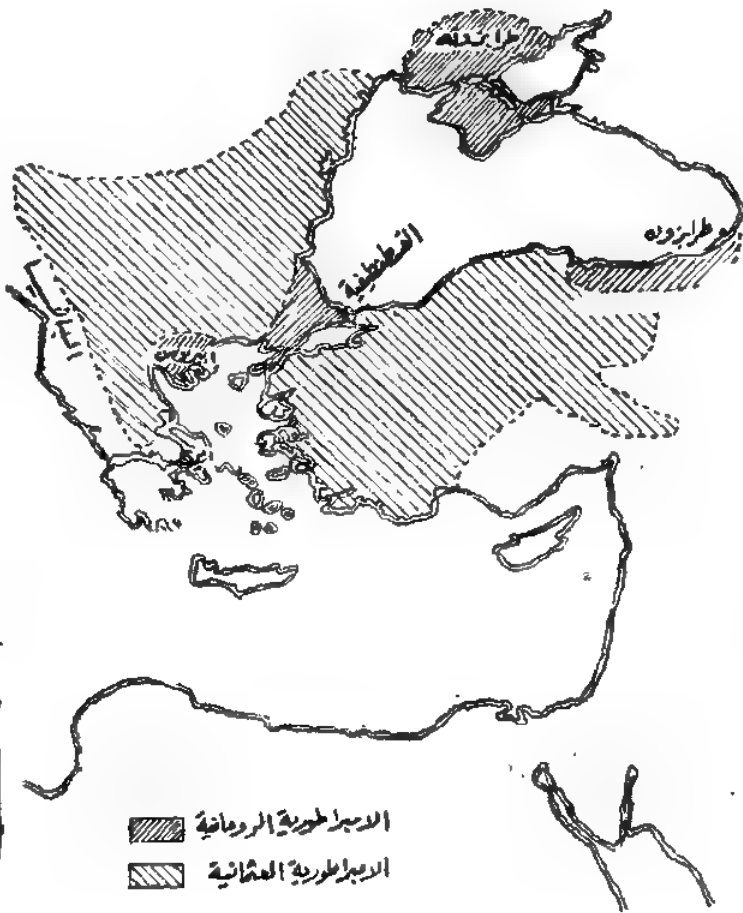
وبعد ثلاثين سنة من عودة باليولوغوس ، زار ابنه وخليفته ، عمانويل ، مرة أخرى ، ولكن على نطاق أوسع ، أقطار الغرب يحدوه حافظ مشابه . وفي الفصل السابق رويت قصة عقده معاهدة مع بايزيد ، وانتهاك هذه المعاهدة وحصار القسطنطينية أو تطويقها ، والنجدة التي جاءت من فرنسا ، تحت قيادة بوسيكولت Boucicault الصنديد . وكان عمانويل قد طلب العون من القوى اللاتينية على لسان سفرائه ، ولكنه ظن أن وجود ملك مكروب مكتئب كميل بأن يستدر الدمع والعون من أقصى المتبررين قلبوا . وأعد المارشال الذي نصح بالسفر العدة لاستقبال أمير بيزنطة . وكان الأتراك يحتلون اليابسة ، ولكن الطريق البحري إلى البندقية كان آمنا ومفتوحا . وقد استقبلته إيطاليا كأول الأمراء المسيحيين أو على الأقل ثانيهم . وأشفق الناس على عمانويل كزعيم للعقيدة مقر بها . وقد منع وقار سلوكه هذه الشفقة من الانحدار إلى حضيض الاحتقار . وتقدم من البندقية إلى بادوا وباثيا . ومنحه ، حتى دوق ميلان ، وهو حليف سرى لبازيد ، ممرا آمنا ، وأحاطه بمظاهر التكريم حتى نهاية ممتلكاته . وعلى حدود فرنسا تولي الضباط المليون رعاية شخصه وشئون رحلته وتكفلوا بدفع نفقاته . وخرج لاستقباله ألفان من أغنى المواطنين يحملون سلاحهم ويمتنعون ظهور جيادهم حتى وصلوا كارتوتون ، بالقرب من باريس . وعلى أبواب باريس حياة رئيس الوزراء وأعضاء البرلمان . ورحب شارل السادس يحف به أمراؤه ونبلأؤه ، بأخيه وعاقه عناقا وديا . وكان خليفة قسطنطين يرتدي

لباسا من الحرير الأبيض ، ويستطى صهوة جواد أشهب ، وهذا أمر ذو أهمية خاصة في المراسيم الفرنسية ، لأن اللون الأبيض يعتبر رمز الملكية . وقد اضطر امبراطور ألمانيا في زيارة متأخرة ، بعد طلب متعجرف ورفض متبرم ، أن يقنع بجواد أسود . وأقام عمانويل في قصر اللوفر . وتوالى الولائم وحفلات الرقص . وتنوعت مباحج الولائم والصيد بمهارة وعبقرية ، تأدبا من الفرنسيين واطهارا لعظمتهم ، وتخفيفا من أحزان عمانويل . وقد أطلقت له حرية العبادة في كنيسة الخاصة . ودهش علماء السربون ، ان لم يكونوا صدموا ، للغة رجال الدين اليونانيين وطقوسهم ولباسهم ، ولكن أقل نظرة الى حال المملكة كانت كفيلة بأن تبعث الى قلبه اليأس من أية مساعدة فعالة . وعلى الرغم من أن شارل المنكود كان يحظى بفترات من الصحو ، إلا أنه كان يعود باستمرار الى جنون هائج أو غبي ، وأمسك بمقاييد الحكم أخوه وعنه دوق أورليانز ودوق برجاندى ، كل بدوره . وقد مهدت منافستهما التحزبية الطريق لشروع الحرب الأهلية . وكان الأول متبائلا ماجنا أفنى نفسه في الترف والحب . وكان الثانى والد جون ، كونت نيفير Nevers الذى افتدى منذ وقت قصير من أسر الترك . وإذا كان الابن غير الهياب تواقا الى الانتقام لهزيمته ، فإن ابن برجاندى وهو أكثر حزما ، كان قائما بنفقات التجربة الأولى وأخطارها . وبعد أن أشبع عمانويل فضوله عند الفرنسيين أو أرهاق صبرهم ، قرر القيام بزيارة للجزيرة المجاورة . وفي أثناء تقدمه من دوفر ، استقبله في كاتربرى ، بما يليق بمقامه من مظاهر التبجيل ، رئيس دير القديس أوستن ورهبانه . وفي بلاكميت حيا الملك هنرى



الامبراطورية الرومانية  
حوالي سنة ١٤٠٠ م

روسيا



الرابع ومعه البلاط الانجليزى البطل اليونانى ( هنا أنقل بالنص من مؤرخنا القديم ) الذى أقام أياما طويلة فى لندن ، كان يعامل فى أثناءها كإمبراطور الشرق . وكانت حالة بريطانيا لا تسمح بالتفكير فى حرب مقدسة . ففى السنة نفسها عزل الملك الذى ورث العرش عن آبائه وقتل . وكان الأمير الحاكم مغتصبا ناجحا ، وقد عوقب طموحه بالحقد والندم . ولم يكن هنرى أوف لنكستر بمستطيع أن يتخلى هو أو قواته عن الدفاع عن عرش تهمز فوائمه باستمرار نتيجة المؤامرات والثورات . لقد أبدى عطفه على إمبراطور القسطنطينية وأثنى عليه ، وأولم له الولائم . ولكن إذا كان ملك الانجليز قد اتشح بالصليب فقد كان ذلك لتهدة شعبه وربما لتهدة ضميره بثواب هذه النية الورعة أو ما يشبهها . وعاد عمانويل الى باريس بعد أن حظى بما أرضاه من الهبات ومظاهر التكريم . وبعد أن أقام عامين فى الغرب شق طريقه مخترقا ألمانيا وإيطاليا ليركب السفينة فى البندقية ، وانتظر فى صبر فى المورة لحظة نجاة أو هلاكه . ومع ذلك فقد نجا من عار الحاجة الى عرض عقيدته للبيع العام أو الخاص . كان الشقاق الكبير يمزق أوصال الكنيسة اللاتينية : ولقد توزع ولاء الملوك والأمم والجامعات فى أوروبا بين رومه وبابا أفنيون . ولهذا امتنع الإمبراطور ، رغبة منه فى كسب صداقة الطرفين ، عن مراسلة أى من المتنافسين المعدمين البغيضين . ووافقت رحلته عام اليوبيل . ولكنه اخترق إيطاليا دون أن يرغب أو يستحق الغفران التام الذى يبحو الائم أو يعفى المؤمن من التكفير عن ذنوبه . فغضب بابا رومه لهذا الإهمال ، واتهمه باحتقار ممثل المسيح ، وحض أمراء إيطاليا على أن يهجروا المنشق العنيد وينبذوه .

وفي وقت الحروب الصليبية ، نظر اليونانيون في دهش وفزع الى سيل من الهجرة لا ينقطع ، تدفق واستمر في التدفق من مختلف البقاع المجهولة في الغرب . وقد نزلت الزيارات التي قام بها آخر أباطرتهم حجاب الفرقة ، فظهرت أمام أعينهم أمم أوروبا القوية التي لم يجرؤوا بعد ذلك على دمجها باسم المتبررين . وقد دون مؤرخ بيزنطي عاش في تلك الأيام ملاحظات عما نوبل وأتباعه الأكثر فضولا واستقصاء ، وسأجمع أفكاره المتناثرة وأجزها . وقد يكون من الممتع حقا ، وربما كان من المفيد ، أن تتمعن في الصور البدائية التي يرسمها للألمانيا ، وفرنسا وانجلترا ، وحالتها قديما وحديثا معروفة لنا تمام المعرفة .

١ - يقول المؤرخ اليوناني خالكوندليس Chalcondyles : ألمانيا ذات اتساع كبير من فينا الى المحيط ، وتمتد ( ويالها من جغرافية عجيبة ! ) من براغ في بوهيميا الى نهر تارتيسوس وجبال البرانس . وأرضها مشمرة الى حد كاف ، فيما عدا التين والزيتون . وهواؤها صحي وأجسام أهلها قوية وصحتهم جيدة ويندر أن تزور كوارث الأوبئة والزلازل تلك الأجواء الباردة . وفيما عدا السكيذيين والنتار ، يعتبر الألمان أكثر الأمم عددا . وهم شجعان صابرون . ولو أنهم اتحدوا تحت رئيس واحد ، لكانت قوتهم لا تقاوم . وكمنحة من البابا ، أصبح لهم الحق في اختيار امبراطور الرومان . وليس هناك من شعب يتعلق في ورع ببطريق اللاتين أو يطيعه أكثر منهم ، ويوزع الجزء الأكبر من هذا القطر بين الأمراء ورجال الكنيسة . ولكن ستراسبورج وكولونيا وهمبرج وأكثر من مائتي مدينة حرة ، تحكمها قوانين حكيمة عادلة تبعا لارادة كل الشعب ولمصلحته .

ويسود بينهم الالتجاء الى المبارزات والمعارك الفردية على الاقدام في الحرب والسلام . وتتفوق صناعتهم في كل الفنون الميكانيكية ،ويمكن للألمان أن يفخروا باختراع البارود والمدافع التي انتشرت الآن في أكبر جزء من العالم » .

٢ - تمتد مملكة فرنسا لمسيرة أكثر من خمسة عشر أو عشرين يوما من ألمانيا الى أسبانيا ، ومن جبال الألب الى المحيط البريطاني . وهي تحتوى على كثير من المدن المزدهرة . ومنها مدينة باريس ، وهي مقر الملك ، وتتفوق على بقية المدن في الترف والغنى . وينتظر كثير من الأمراء واللوردات ، الملك ، كل بدوره في قصره ، ويعترفون به كملكهم جميعا . وأكثر هؤلاء قوة دوق بريتانى ، ودوق برجاندى ، ويملك الأخير ولاية فلاندرز الغنية . ويتردد على موافها تجارنا وسفننا كما يتردد عليها التجار والسفن من أقصى البحار . والفرنسيون شعب قديم غنى ، ولغنتهم وأخلاقهم كثيرة الشبه بلغة الايطاليين وأخلاقهم ، وان وجد بينهم بعض الاختلاف .وقد غرثهم عظمة شارلمان الامبراطورية واتصاراتهم على العرب ومغامرات بطليهما أوليفر ورولاندى ، ومن ثم يظنون أنهم أول أمم أوروبا الغربية . ولكن هذه الفطسة الحمقاء قد أدلتها الأحداث التعميسة التي نزلت بهم أخيرا في حربهم ضد الانجليز ، وهم سكان الجزر البريطانية .

٣ - يمكن اعتبار بريطانيا التي تقع في المحيط ، وفي مواجهة شواطئ فلاندرز ، جزيرة واحدة أو ثلاث جزر وجدت بينها كلها مصلحة مشتركة ، وأخلاق وحكومة مماثلة . ويبلغ محيطها خمسة

آلاف ستاديا (١) ، وتنتشر فيها البلدان والقرى . ومع أنها خالية من الكروم ، ولا تكثر فيها أشجار الفاكهة فإن أراضيها خصبة تنتج القمح والشعير ، وتنتج الشهد والصوف ، وينسج سكانها كثيرا من الأقمشة . ومن حيث عدد السكان والقوة والثروة والترف ، يمكن أن تدعى لندن ، وهى عاصمة الجزيرة ، أن لها الصدارة على جميع مدن الغرب . وهى تقع على نهر التاميز ، وهو نهر عريض سريع الجريان ، يصب بعد ثلاثين ميلا فى بحر الغال ويسمح المد والجزر اليومى للسفن التجارية بالدخول والرحيل فى أمان . ويرأس الملك طبقة أرستقراطية قوية ومحبة للشعب . ويضع أتباعه الرئيسيون أيديهم على مقاطعاتهم بصكوك ملكية حرة لا سبيل الى تبديلها . وتعين القوانين حدود نفوذه وحدود طاعتهم . وقد نكبت هذه المملكة فى أحيان كثيرة بالفتح الأجنبى والشقاق الداخلى . ولكن أهلها شجعان أشداء ، لهم شهرة فى القتال ، وقد اعتادوا النصر فى الحرب . وشكل تروسهم أو دروعهم مأخوذ عن الايطاليين ، كما أخذوا شكل سيوفهم عن اليونان ، أما استخدام القوس الطويلة فهو ميزة حاسمة خاصة بالانجليز . وليس للفنهم صلة واضحة بلغات القارة . ولا يمكن أن نميز بسهولة بين عاداتهم فى حياتهم الخاصة وبين عادات جيرانهم فى فرنسا . ولكن أعجب شئ فى أخلاقهم هو عدم مبالاتهم بشرف الزوجية ولا بالعفة بين نساءهم . وفى زياراتهم المتبادلة يستقبل الضيف فى أحضان زوجاتهم وبناتهم ، كأول واجب من واجبات

---

(١) Stadion قضيبي مدرج لقياس الأبعاد ، طوله نحو

الضيافة . ويتبادل الأصدقاء اعارتهن واستعارتهن دون استحياء ، ولا يشور سكان الجزر لهذه الاتصالات الغريبة غير المشروعة ولا لنتائجها المحتمومة . ولعلمنا بالعادات العريقة في انجلترا وتأكدنا من فضائل أمهاتنا ، فان لنا أن نبتمس لسذاجة هذا اليوناني ، أو نفضب لمجافاته جادة الانصاف ، حيث خلط بين تحية بريئة (٢) ، وعناق آثم . ولكن سذاجته وظلمه قد يلقائنا درسا في ألا تثق في أخبار الأمم الأجنبية القاصية ، وألا تؤمن بكل حكاية تخرج عن قوانين الطبيعة ، أو تنافي طباع البشر .

وبعد عودته . واتصار تيمورلنك ، حكم عافويل سنين عديدة في رخاء وسلام . وطالما التمس ابنا بايزيد صداقته وابتعدا عن ممتلكاته ، ظل الامبراطور قانعا بعقيدة قومه ، واستخدم وقت فراغه في وضع عشرين محاوراة في الدفاع عنها . أما ظهور سفراء بيزنطة في مجلس كونستانس فهو اعلان عن عودة القوة التركية ، والكنيسة اللاتينية على حد سواء . ذلك أن فتوحات السلطانين محمد ومراد أصلحت ما بين الامبراطور والفاتيكان . وكاد حصار القسطنطينية أن يغريه بالرضوخ للانبثاق المزدوج للروح القدس . وعندما ارتقى مارتن الخامس عرش القديس بطرس دون منافس ، استؤنفت الصلات الودية من رسائل ووفود بين الشرق والغرب . لقد أملى الطموح من ناحية والكرب من ناحية أخرى عين اللغة المهذبة : لغة البر والسلام .

---

(٢) في مؤلفات ارزم قطعة جميلة عن عادة الانجليز في تقبيل الأجانب عند استقبالهم وعند توديعهم ، ولكنه مع ذلك لا يستخلص منها استنتاجات مخزية .

وأبدي اليوناني الماكر رغبته في تزويج أبنائه الستة من أميرات  
 إيطاليات ، وبعث الجبر الروماني ، وهو لا يقل عنه مكرًا ولا دهاء ،  
 بآبنة مركيز موتفيرات ومعها فريق من العذارى النيبلات ليخففن  
 بروعة جمالهن من عناد المنشقين . ولكن تحت هذا القناع من  
 الحساس لابد أن تدرك أية عين فاحصة أن كل شيء في بلاط  
 القسطنطينية وكيستها كان أجوف مجردا من الولاء والاخلاص . لقد  
 تقدم الامبراطور أو تراجع تبعا لظروف الخطر أو الهدوء ، كما كان  
 أحيانا يأمر وزرائه وأحيانا يتصل منهم . وكان يتهرب كلما ألح  
 عليه الضغط ، بالقول بوجوب البحث والتحرى وفهم ما يقصده  
 البطارقة والأساقفة ، مع استحالة دعوتهم للاجتماع ، في وقت تقف فيه  
 جيوش الأتراك أمام أبواب القسطنطينية . ومن استعراض المناقشات  
 العامة سيتضح أن اليونانيين ألحوا على ثلاثة أشياء : نجدة ، فمجلس  
 ثم اتحاد نهائي جديد . غير أن اللاتين تهربوا من الثاني ، ووافقوا على  
 الأول ، على أن يكون مكافأة اختيارية تأتي نتيجة للثالث . ومع ذلك  
 فلدينا فرصة لكشف الحجاب عن أشد نوايا عمانويل خفاء كما شرحها  
 هو في محادثة خاصة دون لف أو دوران . وعندما كبرت سنه أشرك  
 الامبراطور معه جون بلايولوجوس ، وهو الثاني بين من حملوا هذا  
 الاسم ، وهو أكبر أبنائه ، وعليه ألقى الجزء الأكبر من سلطة الحكومة  
 وأعبائها . وذات مرة — وكان المؤرخ فرانزا وحده في حضرة  
 الامبراطور ، وهو أمينه المحبوب — اطلع عمانويل زميله وخليفته  
 على الأساس الحقيقي لمفاوضاته مع البابا ، فقال : « ان آخر ملجأ لنا  
 ضد الأتراك هو خوفهم من اتحادنا مع اللاتين ، مع أمم أوروبا الغربية

المحبة للقتال الذين قد يحملون السلاح لنجدتنا وهلاكهم ( أي  
 الإثراك ) . كلما هددك الكفار ، قدم هذا الخطر أمام أعينهم ، واقترح  
 مجبعا وتفاوض على الوسائل ، ولكن أرجىء وسوف دائما متحاشيا  
 دعوة جمعية عامة ، لا تميل الى تحقيق أى نفع لنا من الناحية الروحية  
 أو الزمنية ، فاللاتين مزهوون مغرورون وكل يوناني عنيد . ولن يتراجع  
 أى من الفريقين أو يتزحزح عن موقفه . ومحاولة الاتحاد التام لا بد أن  
 تؤكد عوامل الشقاق وتغضب الكنائس . وستتركنا دون أمل أو دفاع  
 تحت رحمة البرابرة » . ولما لم يستطع الملك الشاب صبرا على هذا  
 الدرس النافع نهض من مقعده وخرج في صمت . ويستمر فرائزا في  
 روايته قائلا ان الملك الحكيم اتجه ببصره الى واستطرد يقول :  
 « ان ابنى يظن أنه أمير عظيم وبطل . ولكن ، وأأسفاه ، ان زماننا البائس  
 لا يسمح بمجال للبطولة أو العظمة . ان روحه الجريئة ربما كانت تلتئم  
 مع الأزمنة السعيدة في عصور أجدادنا ، لكن الأمر يتطلب الآن ،  
 لا امبراطورا ، ولكن خازنا أميناً حذرا للبقية الباقية من ثرواتنا . انى  
 أذكر جيدا الآمال الكبار التى عقدها على حلفنا مع مصطفى ، وكم  
 أخشى . أن تعجل شجاعته المتهورة بخراب أسرتنا ، وأنه حتى الديانة  
 قد تعجل بسقوطنا » . ومع ذلك فقد حافظ نفوذ عمانويل وتجاربه  
 على السلام ، وتهرب من المجمع ، حتى أنهى وهو فى الثامنة والسبعين  
 من عمره ، وفى زى راهب ، حكمه ، وقسم منقولاته الشنيعة بين  
 أولاده ، وبين الفقراء ، وأطبائه ، وأحب خدمه اليه . ومن بين أبنائه  
 الستة ، منح ابنه أندرونيكوس الثانى مقاطعة سالونيك . ومات من  
 مرض الجدام ، فور بيع تلك المدينة الى أهل البندقية واستيلاء



الأتراك عليها نهائيا . وقد أعادت بعض الأحداث السعيدة بلاد المورة الى الامبراطورية . وفي أيامه الأكثر ازدهارا حصن عمانويل البرزخ الضيق الذى يبلغ طوله ستة أميال بسور من الحجر وبمائة وثلاثة وخمسين برجاً . وقد هدم هذا السور أول هجوم شنه العثمانيون . وكان من الممكن ان يكفى شبه الجزيرة الخصب الأخوة الأربعة الصغار : ثيودور وقسطنطين ، وديمترىوس وتوماس ، ولكنهم أضاعوا في منازعات داخلية كل ما بقى لديهم من قوة . واضطر أتباع المتنافسين وأقلهم توفيقا الى أن يعيشوا أتباعا في القصر البيزنطى .

## حملة جون باليولوغوس الثانى

اعترف جون باليولوغوس الثانى أكبر أبناء عمانويل ، بمسئولية موت أبيه ، كإمبراطور اليونانيين الوحيد . فشرع توا فى تطليق زوجته وعقد زواج آخر مع أميرة طرابزون . وكان الجمال فى نظره أول مؤهلات الامبراطورة . وتراجع رجال الكنيسة أمام توكيده القوى بأنه اذا لم يسمح له بهذا الطلاق ، فانه سينزوى فى دير ، ويترك العرش لأخيه قسطنطين . وكان أول نصر أحرزه باليولوغوس ، وهو فى الحقيقة نصره الوحيد ، على يهودى أقنعه بعد نقاش طويل ظهر فيه علمه ، باعتراف الدين المسيحى . وقد دون هذا النصر الضخم بدقة فى كتب التاريخ فى تلك الأيام . ولكنه سرعان ما جدد فكرة توحيد الشرق والغرب . ولم يلتفت الى نصيحة أبيه ، بل أصغى باخلاص ، على ما يظهر الى اقتراح بمقابلة البابا فى مجمع عام يعقد فيسا وراء

الأدرياتيكي . وقد شجع البابا مارتن الخامس هذا المشروع الخطر ، ولكنه قبل بفقر من خليفته يوجينوس . وبعد مفاوضات مملة تلقى الامبراطور دعوة من جمعية لاتينية ذات طابع جديد ألفها رجال الدين المستقلون في بازيل ، الذين سمو أنفسهم ممثلي الكنيسة الكاثوليكية وقضاتها .

لقد كان الحبر الروماني قد حارب وانتصر في الدفاع عن حرية رجال الكنيسة . ولكن رجال الدين المنتصرين تعرضوا بسرعة الى طغيان منقذهم . وكان شخصه المقدس يتمتع بمناعة ضد تلك الأسلحة التي اكتشفوا أنها حادة ومؤثرة في الحكام المدنيين . وإن صك حريتهم وهو حق الانتخاب ، قضت عليه الالتماسات ، وأمكن التخلص منه عن طريق الابتدابات والتفويض الى الثقافة ، كما أحبطته المنح التي تعود الى أصحابها ، وحل محله التحفظات السالفة الاستبدادية . وأقيم مزاد عام في بلاط رومه ، واهتم الكرادلة والمقربون بأسلاب الأمم . ومن الممكن أن يشكو كل قطر من أن أهم وظائف رجال الدين وأكثرها قيمة تجمعت في أيدي الأجانب والغائبين . وانحصر طمسوح البابوات أثناء اقامتهم في أفنيون في الشهوات الخسيسة كالجشع<sup>(١)</sup> والترف . ففرضوا بشدة على رجال الكنيسة ضرائب البكور والعشور

---

(١) ترك البابا جون الثاني والعشرون ( ١٣٣٤ ) وراءه ١٨ مليون فلورين من الذهب ، وما قيمته سبعة ملايين من الأواني والجواهر . ( انظر تاريخ جون فيلاني Chronicle of J. Villani الذي استقى أخوه هذه المعلومات من الأمناء على خزائن البابا ) . أن ستة أو ثمانية ملايين من الجنيهات في القرن الرابع عشر ، مبلغ هائل لا يكاد يصدق .

ولكنهم كثيرا ما احتملوا تفشى الرذيلة وسوء النظام والرشوة . وقد زاد من شدة هذه المآسى العديدة الشقاق الكبير الذى نشأ فى العرب واستمر لأكثر من خمسين سنة . قفى المنازعات الوحشية بين رومه وأفنيون فضح كل فريق رذائل خصمه ، وقلل من نفوذهم تزعزع مركزهم ، فتراخى نظامهم وكثرت مطالبهم وعسفهم . ولشفاء هذه الجروح ولإعادة سلطان الكنيسة ، عقد على التوالى مجمعا ييزا وكونسانس . ولكن هاتين الجمعيتين العظيمتين ، لشعورهما بقوتهما ، قررتا حماية الامتيازات الأرستقراطية المسيحية . فبعد أن أصدروا حكما شخصا ضد اثنين من البابوات كانوا قد نبذوها ، وضد جبر ثالث هو رئيسهم المعترف به الذى عزلوه ، شرع آباء الكنيسة فى كونستانس فى فحص طبيعة السيادة الرومانية وحدودها . ولم ينفصوا قبل أن يؤكدوا نفوذ مجمع عام أعلى من البابا . فصدر قرارهم بأنه لتدبير شئون الكنيسة واصلاحها ينبغى عقد أمثال هذه الجمعيات العمومية فى أوقات منتظمة ، ويجب على كل مجمع قبل انفضاضه أن يحدد زمن الاجتماع التالى ومكانه . وقد أغفلت بسهولة دعوة المجمع الثانى فى سيينا Sienna بسبب نفوذ بلاط رومه . وكادت قرارات مجمع بازل الجريئة القوية أن تقضى على البابا فى ذلك الوقت ، وهو يوجينوس الرابع . وقد دفع شك له ما يسرره فى مقاصده ، آباء الكنيسة الى أن ينشروا أول قرار لهم ، وهو ينص على أن ممثلى الكنيسة المحاربة على الأرض قد منحوا ولاية قدسية وروحية على جميع المسيحيين بما فيها البابا ، وأن أى مجمع عام لا يمكن حله أو تأجيله أو نقله الا برضاه ، وبعد مناقشة حرة . وعندما

لاحظوا أن يوجنيوس قد أصدر قرارا بابويا كأنه الصاعقة ، لذلك الغرض ، فاتهم تجسروا على دعوة خليفة القديس بطرس المتمرد وتحذيره وتهديده ولومه . وبعد تأجيلات كثيرة لافساح الوقت للندم أعلنوا في النهاية أنه اذا لم يخضع في ظرف ستين يوما فهو موقوف عن مباشرة سلطانه الكنسى والزمنى . ولاظهار أن الأمير خاضع لولايتهم خضوع رجل الدين لها ، أمسكوا في أيديهم بمقاليده الحكم في أفنيون ، وأبطلوا بيع التراث المقدس ، وحموا رومه من فرض ضرائب جديدة عليها : وقد برر جرأتهم ، لا الرأي العام بين رجال الكنيسة فحسب ، بل كذلك مساندة أول ملوك العالم المسيحى وقوته : حيث أعلن الامبراطور سيجيسموند أنه نفسه خادم المجمع وحاميه . وانضمت فرنسا وألمانيا الى قضيتهم ، وكان دوق ميلان عدو البابا يوجنيوس . وطرده البابا من الفاتيكان نتيجة ثورة قام بها الشعب الرومانى . وبعد أن نبذه في الوقت نفسه رعاياه من رجال الدين والشعب ، لم يبق للبابا سبيل الا الخضوع ، فأصدر قرارا بابويا شائنا الى أقصى حد ، ألغى به قراراته التى كان قد أصدرها ، ووافق على قرارات المجمع ، وضم نوابه وكرادته الى هذه الهيئة الموقرة ، وبدأ أنه قد خضع لقرارات ذلك المجلس التشريعى الأعلى . وقد ذاعت شهرتهم في أقطار الشرق . وفي حضرتهم استقبل سيجيسموند سفراء سلطان الأتراك الذين وضعوا نحت قدميه اثنى عشر صندوقا كبيرا مليئة بأثواب الحرير والقطع الذهبية . وقد دأب آباء الكنيسة فى بازل الأمل فى أن يحفظوا بسجد اخضاع اليونانيين وأهل بوهيميا وضمهم الى حظيرة الكنيسة . ووجه مندوبوهم الدعوة

الى الامبراطور والى بطريق القسطنطينية للانضمام الى جمعية حازت ثقة الأمم الغربية . ولم يكن بالايولوجوس يعارض هذا الاقتراح . وقدم سفراؤه بمظاهر التكريم اللاتفة الى السناتو الكاثوليكي . ولكن اختيار المكان وقف عقبة كأداء ، فقد رفض أن يعبر جبال الألب أو بحر صقلية ، وطالب بشدة أن يؤجل المجمع حتى ينقل الى مدينة ملائمة في إيطاليا أو على الأقل على نهر الدانوب . ولكن تمت الموافقة بسرعة أكبر على بقية بنود هذه المعاهدة ، فاتفق على تقديم نفقات سفر الامبراطور مع حاشية تبلغ سبعمائة شخص ، وعلى أن تدفع فوراً ثمانية آلاف دوكات لتغطية نفقات اقامة رجال الدين اليونانيين ، وعلى أن تدفع في أثناء غياب الامبراطور اعانة قدرها عشرة آلاف دوكات ، مع اعداد ثلثمائة من الرماة وبعض البوارج الحربية لحماية القسطنطينية . وقدمت مدينة أثيناون النقود اللازمة لدفع النفقات المبدئية . وأعد كل شيء للإبحار من مرسليليا بعد بعض المتاعب والتأخير .

وتنازعت القوى الكنسية في الغرب كسب صداقة باليولوجوس في محنته ، ولكن براعة الملك ونشاطه تغلبا على المناقشات الوئيدة ، وعلى طباع الجمهورية المفتقرة الى المرونة ، واستمرت قرارات بازل تميل الى الحد من استبداد البابا والى تأسيس محكمة عليا دائمة في الكنيسة . وما كان يوجينيوس ليصبر على هذه القيود التي طوقوه بها . وربما هيا الاتحاد مع اليونان مبررا لاثقا لنقل هذا المجمع الثوري من الراين الى اليو ولكن اذا عبر الآباء جبال الألب ، ضاع استقلالهم . وقد وصفت سافوي أو أفنيسون التي وافقوا عليها كارمين ، في القسطنطينية ، على أنها تقع فيما وراء أعسدة هرقل ، وتوجس الامبراطور ورجال كنيسته خيفة من أخطار رحلة بحرية طويلة .

وساءهم اعلان متعجرف بأنه بعد اخضاع الهراطقة الجدد في بوهيميا، سيسارع المجلس الى القضاء على الهراطقة القديمة في اليونان . أما فيما يتعلق بالبابا يوجينيوس فقد بدا كل شيء من جانبه هينا لينا يدعو الى التقدير والاحترام . وقد دعا امبراطور بيزنطة الى أن يرأب بمقدمه الصدع في الكنيسة اللاتينية وفي كنائس الشرق سواء بسواء . واقرحت فيرارا Ferrara على شاطئ الأدرياتيك كمكان للقائهم الودي . وباستخدام بعض أفانين التزييف والاعتصاب حصل على قرار مختلس بنقل المجمع بموافقة أعضائه الى تلك المدينة الايطالية . وجهزت لهذا الغرض تسع بوارج حربية في البندقية وفي جزيرة كانديا ، وكانت هذه ، بفضل اليقظة والجد ، أسبق من سفن بازل التي هي أبطلأ . وفوض الأميرال الروماني في أن يحرق وأن يدمر . وكان من الممكن أن تلتقي هذه السفن الكنسية في نفس البحار التي التحت فيها فيما مضى أثينا واسبرطة لاهراز قصب السبق في مضمار المجد . واستبد الخوف والقلق بعقل باليولوغوس ، نتيجة الحاح الأحزاب التي كانت على استعداد للقتال بغية الظفر بشخص الامبراطور ، ومن ثم تردد قبل أن يترك قصره ووطنه للدخول في تجربة خطيرة . كانت نصيحة والده لا تزال عالقة بذاكرته ، وكان لابد أن يملأ عليه العقل أن اللاتين لن يتحدوا قط للدفاع عن قضية خارجية ماداموا مختلفين فيما بينهم . وحاول سيجيسموند أن يثنيه عن هذه الرحلة غير الملائم أوانها . وكانت نصيحته مجردة غير مفرضة ، اذ أنه كان يشايح المجلس . وقوى من هذه النصيحة اعتقاد غريب في أن قيصر الألمان سيعين يونانيا ليرثه ويخلفه على عرش الامبراطورية في الغرب . وحتى سلطان تركيا كان من بين من

أشاروا على امبراطور القسطنطينية ، وربما كان من الخطر الاطمئنان الى نصيحة السلطان ، ولكن كانت الاساءة اليه خطرا كذلك . ولم يكن مراد بارعا أو خيرا بهذا النزاع ، ولكنه كان يخشى اتحاد المسيحيين . وقد عرض أن يسد حاجات البلاط البيزنطى من أمواله الخاصة ، ومع ذلك فقد أعلن فى شهامة ظاهرة أنه يجب أن تبقى القسطنطينية آمنة مطمئنة فى أثناء غياب امبراطورها . وحسنت أعظم الهدايا الثمينة والوعود البراقة موقف بالايولوجوس . وكانت تراوده رغبة فى أن يترك ، ولو لوقت قصير ، مسرح الخطر والكوارث . وبعد أن صرف سفراء المجلس برد غامض ملتو ، أعلن عن عزمه على الابحار على بارجة رومانية . وكانت سن البطريق جوزيف آنذاك تبعث على الخوف أكثر مما توحى بالأمل . لقد ارتعد أمام أخطار البحر . وعبر عن مخاوفه من أن صسوته الضعيف — ومعه ثلاثون من اخوانه الأرثوذكس — ربما طفت عليه قوة مجمع لاتينى وعدد أفراداه . ولكنه خضع لأمر الملك ، ولللق الذى أكد له حسن الاصفاء اليه على أنه نبى الأمم ، ولرغبته الخفية فى أن يتعلم من أخيه فى الفسرب كيف ينقذ الكنائس من نير الملوك . وكان على حملة الصليب الخمسة فى أياصوفيا ، أو الرؤساء الخمسة ، أن يقوموا على خدمته . وقد وضع واحد من هؤلاء — رئيس الكنيسة العظيم أو الواعظ الأكبر ، وهو سيلفستر سيروبولس Sylvester Syropulus — تاريخا غريبا وغير دقيق للاتحاد الزائف . وفيما يتعلق برجال الدين الذين لبوا كارهين نداءات الامبراطور والبطريق ، كان الخضوع هو أول الواجبات ، والصبر أنفع الفضائل . وفى ثبت يعوى عشرين أسقفيا وقع عليهم الاختيار ، يمكن أن ترى رؤساء الدين فى المواسم : هيراقليا

وسيزيكوس ونيقيا ونيقوميديا وافسوس وطرابزون ، وترى بينهم  
الأبوين مرقس ويساريون اللذين رفعا الى منصب الأساقفة اعتمادا  
على علمهما وفصاحتهما . وقد ذكرت أسماء بعض الرهبان والفلاسفة  
لاظهار علم الكنيسة اليونانية وتقواها . وقام بمهمة الترتيم فريق منتقى  
من المرتلين والموسيقين . وكان يمثل بطارقة الاسكندرية وأنطاكية  
وبيت المقدس نواب حقيقيون أو زائفون . ومثل رئيس أساقفة روسيا  
الكنيسة الوطنية . وقد يستطيع اليونانيون أن ينازعوا اللاتين في مدى  
اتساع امبراطوريتهم الروحية . وقد تعرضت الأواني الثمينة في  
أياصوفيا لأخطار الريح والأمواج حتى يستطيع البطريق أن يقوم  
بالواجبات الدينية في أبهة لائقة . وقد أنقذ الامبراطور كل ذهب  
استطاع أن يحصل عليه في الزينة الضخمة التي حلى بها سريره وعربته.  
وبينما كانوا يتظاهرون بالاحتفاظ بعظمة ثرواتهم القديمة كانوا  
يتنازعون على تقسيم خمسة عشر ألف دوكات ، هي باكورة صدقات  
الحبر الروماني . وبعد الاستعدادات الضرورية أبحر جون بالايولوجوس  
مع حاشية كبيرة ، بصحبه أخوه ديمتريوس وأبرز الشخصيات  
الكنسية والحكومية في ثمان سفن مزودة بالأشرعة والمجاديف شقت  
طريقها في مضيق غاليبولي التركي ، الى بحر الأرخبيل فالمورة ثم بحر  
الأدرياتيك .

## اتحاد مؤقت بين اليونانيين واللاتين

وبعد رحلة مضية ممتلئة استمرت سبعة وسبعين يوما ، رسا هذا  
الأسطول الدينى أمام البندقية . ونم استقبالهم عن بهجة الجمهورية  
القوية وعظمتها . فعندما كان أوغسطس المتواضع يحكم العالم لم يتطلب



قط من رعاياه مظاهر تكريم كذلك التى قدمتھا حكومة مستقلة لخطيفته الضعيف ، وقد جلس فى مؤخر السفينة على عرش مرتفع ، ورحب بزيارة الدوج وأعضاء السناتو — وفى لفة البلاط اليونانى ، بحفاوتهم به وتقديسهم له . وأبحروا على السفينة المسماة بوكنتور التى كانت تصحبھا اثنتا عشرة بارجة ضخمة ، وقد اتشر فوق الماء عدد لا حصر له من الجندولات المعدة للأبهة واللهو . وردد الهواء أصداء الموسيقى والهتافات . وقد ارتدى البحارة ثيابا من الحرير موشاة بالذهب ، كما كسيت السفن بمثل ذلك . وفى جميع الشعارات والزينات اختلطت النصور الرومانية بآساد القديس مرقس . وممر موكب النصر وهو يصعد القناة العظيمة تحت قنطرة ريالتيو . وحلق الأجانب الذين جاءوا من الشرق فى ذھول الى القصور والكنائس وكثرة عدد سكان مدينة تبسود كأنھا تعموم على صدر الأمواج . وصعدوا الزفرات وهم يرون الأسلاب ونصب النصر التى ازدادت بها بعد نهب القسطنطينية . وبعد ضيافة كريمة دامت خمسة عشر يوما تابع بالايولوجوس رحلته برا وبحرا من البندقية الى فيرارا . وخفف من كبرياء الفاتيكان فى هذه المناسبة ، سياسة ترمى الى الاغضاء عن العظمة القديمة لامبراطور المشرق ، فدخل البلدة منتظيا صهوة جواد أسود ، ولكن جوادا أشهب اقتيد أمامه ، وكانت زخارفه تزدان بنسور من الذهب . وحمل المظلة فوق رأسه أمراء ايسى Este ، وهم أبناء أو أقرباء نيقولا مركزيز المدينة ، وهو حاكم أقوى منه ولم يترجل بالايولوجوس حتى وصل الى أسفل الدرج ، وتقدم البابا الى باب الجناح المخصص له ، وأراد الامبراطور أن يركع أمامه فأبى . وبعد

عناق أبوى قاده الى مقعد الى يساره . ورفض البطريق أن يترك سفينة حتى تم الاتفاق بين أساقفة رومه والقسطنطينية على مراسم تكاد تتم عن المساواة بين الحبرين . وطبع الأول على جبين الثانى قبله الاتحاد والأخوة ، ورفض جميع رجال الدين من اليونانيين أن يقبلوا قدمى بابا الغرب . وعند افتتاح المجمع طالب الزعيم الزمنى والرئيس الدينى بمكان الصدارة فى الوسط . ولم يستطع يوجينيوس أن يتفادى السوابق القديمة لقسطنطين وماركيان الابداعه أن اسلافه لم يحضروا بأشخاصهم فى مجعنى نيقيا وخلقدونيه وبعد نقاش طويل تم الاتفاق على أن تحتل كل أمة جانبا من الكنيسة : اليمين أو اليسر ، وأن كرسى القديس بطرس ، وهو مقعد وحيد ، يجب أن يرفع الى أول الصف اللاتينى ، وأن عرش الامبراطور البيزنطى ، على رأس رجال دينه ، يجب أن يكون مساويا مقابلا للمكان الثانى . أما المكان الخالى فهو كرسى امبراطور الغرب (١) .

ولكن سرعان ما انتهت الولائم والشكليات وانصرف الجميع الى النظر فى معاهدة أكثر جدية حتى شعر اليونانيون بعدم الرضا عن رحلتهم وعن أنفسهم وعن البابا . لقد كان قلم سفرائه الماكر قد صوره بأنه يعيش فى دولة يعمرها الرخاء على رأس أمراء أوربا ورجالها الدينيين ، الذين كانوا يطيعون كل كلمة تخرج من فيه خاصة بالايمان أو الحرب . وقد أظهر ضعفه قلة من حضروا المجمع العام فى فيرارا . وافتتح اللاتين الجلسة الأولى بخمسة من كبار الأساقفة فقط ، وثمانية عشر أسقفا

(١) أغرت غرابة الملابس اليونانية غوغاء اللاتين بالضحك ، ولا سيما طول ثيابهم وأكمامهم ولحاهم . ولم يتميز الامبراطور من بينهم الا باللون الاحمرانى ، وتاجه أو لباس رأسه الذى كانت تملوه جوهرة . ومع ذلك يعترف أحد النظارة بأن الزى اليونانى أكثر رزاة ووقارا .

وعشرة من رؤساء الأديرة كان أكثرهم رعايا الحبر الايطالى أو من مواطنيه ، واذا — استثنينا دوق بيرجاندى ، لم يتفضل أحد من حكام الغرب بأن يحضر بنفسه أو يرسل سفيرا ينوب عنه . ولم يكن من الممكن وقف قرارات بازل الشرعية ضد كرامة يوجينيوس وشخصه والتي انتهت آخر الأمر بانتخاب بابا آخر . وتحت هذه الظروف جاءت المطالبة بهدنة أو تأجيل ، وتمت الموافقة على ذلك ، لعل بالايولوجوس يحظى من موافقة اللاتين ببعض الجزاء الدنيوى لاتحاد غير مستحب . وبعد الجلسة الأولى أجلت الاجراءات العلنية لمدة ستة أشهر تقريبا . وقد اختار الامبراطور لشخصه مقرا صيفيا ، ولفريق منتقى من أصفياه وللانكشارية ديوا جيلا متسعا يبعد ستة أميال عن فيرارا . ونسى فى مباحج الصيد كوارث الكنيسة والدولة ، وألح فى قتل الصيد دون أن يصفى لشكوى المركز أو المزارعين . وفى أثناء ذلك تعرض اليونانيون البائسون الى كل شرور النفى والفقر . فقد حدد لمؤونة كل أجنبى فى الشهر ثلاثة أو أربعة فلورينات من الذهب . ومع أن المبلغ كله لم يصل الى سبعمائة فلورين ، فكشسيرا ما تكدست المتأخرات اما لفقر بلاط روميه أو بسبب سياسته <sup>(١)</sup> . وكم تعالت آهاتهم لخلاص عاجل . ولكن هروبهم وقفت فى طريقه أغالل ثلاثة :

(١) بعد صعوبات حمة أجيب طلب اليونانيين فى أن توزع عليهم نقود بدلا من المؤن : أربعة فلورينات شهريا لكل شخص ذى منصب شريف وثلاثة لحادمه ، بالإضافة الى ثلاثين فلورين للامبراطور ، وخمسة وعشرين للطريق ، وعشرين للأمير أو الطاغية ديمتريوس . وقد بلغ ما دفع فى أول شهر ٦٩١ فلورين ، وهو مبلغ لا يسمح لنا بأن نحصى أكثر من مائتين من اليونانيين من جميع الطبقات . وفى اليوم العشرين من شهر أكتوبر فى عام ١٤٣٨ ، كانت المتأخرات مستحقة عن أربعة أشهر ، وفى أبريل سنة ١٤٣٩ - كانت المتأخرات تستحق عن ثلاثة ، وفى شهر يونيه ، فى وقت الاتحاد ، كانت المتأخرات تستحق عن خمسة أشهر ونصف شهر .

أ — كان لابد من جواز مرور من رئيسهم يقدم عند أبواب فيرارا.  
ب — وقد تعهدت حكومة البندقية بالقبض على كل هارب وإعادته .

ج — وكان العقاب المحتوم ينتظرهم في القسطنطينية : الحرمان من الكنيسة ، والفرامات ، وحكم لم يحترم كرامة رجال الدين ، بأن يجردوا من ثيابهم وأن يضربوا بالسياط علانية .

ولم يكن من المستطاع اقناع اليونانيين بافتتاح المؤتمر الأول الا بأحد اثنين : الجوع أو الجدل . وقبلوا على كره شديد منهم ، أن يذهبوا من فيرارا الى فلورنسة ليجلسوا مع مؤخرة مجمع متقل طائر . وقد أغرت الحاجة التي لا مفر منها ، بهذا الانتقال الجديد . لقد حل الطاعون بالمدينة ، وأصبح ولاء المركز موضع شك ، وكان جنود دوق ميلان من المرتزقة على الأبواب . ولما كانوا قد احتلوا رومانا Romagna ، فإن البابا والامبراطور والأساقفة لم يستطيعوا الا بشق الأنفس ، مع التعرض للأخطار ، أن يكشفوا طريقا عبر الممرات غير المطروقة في جبال الأبنين .

ولكن الزمن والسياسة ذللتا كل تلك العقبات . ولقد أفاد عنف آباء بازل قضية يوجينيوس أكثر مما أضربها . فقد كرهت أمم أوروبا الشقاق وأفكرت انتخاب فليكس الخامس ، الذي كان على التوالي : دوق سافوى ، وراهبا زاهدا ، وبابا . وأعاد منافسه ، على مر الأيام ، الأمراء العظام الى حياد موات له والى تعلق شديد به . وهرع النواب ومعهم بعض الأعضاء المبجلين الى فريق رومه الذي زاد عدده وحسنت سمعته دون أن يشعر أحد . وهبط عدد المجلس في بازل الى تسعة

وثلاثين أسقفا وثلاثمائة من ذوى المراكز الدنيا فى الكنيسة بينما كان  
اللاتين فى فلورنسة يسكنهم أن يبرزوا باشتراك البابا نفسه وثمانية من  
الكرادلة وبطريقتين وثمانية من رؤساء الأساقفة واثنين وخمسين من  
الأساقفة وخمسة وأربعين من رؤساء الأديرة ، أو رؤساء الفسرق  
الدينية . وبعد جهد دام تسعة أشهر ونقاش استمر خمسا وعشرين  
جلسة ، حظوا بزيادة وبمجد عودة اليونانيين الى الاتحاد . وقد احتدم  
النقاش بين الكنيستين حول أربع مسائل أساسية .

١ — استخدام الخبز بدون خميرة فى تقديم قربان جسد المسيح .

٢ — طبيعة المطهر .

٣ — سيادة البابا .

٤ — انبثاق الروح القدس الوحيد أو المزدوج .

وحمل عبء الدفاع عن قضية كل أمة عشرة من علماء اللاهوت .  
واستعان الجانب اللاتينى بفصاحة الكاردينال جوليان التى لا ينضب  
معينها . وكان مرقص ( من افسوس ) وبيساريون ( من نيقيا ) ،  
وهما زعيما جريئا قادران ، على رأس الفريق اليونانى . وقد ترجى  
بعض الثناء على التقدم الذهنى بين البشر ، بملاحظة أن أولى هذه  
المسائل نظر اليها الآن على أنها طقس غير أساسى ، يمكن أن يتغير  
دون جريمة ، تبعا للنظام السائد فى العصر أو القطر . وفيما يخص  
المشكلة الثانية اتفق الفريقان فى الاعتقاد بوجود حالة وسط من التطهير  
لآثام المؤمنين التى يمكن الصفح عنها . أما عن السؤال : هل تظهر  
النار المادية أرواحهم ، فأمر مشكوك فيه ، ومن الممكن بعد سنوات  
قليلة أن ينتهى المنازعون فيه ( فى هذا الموضوع ) الى رأى بطريقة

مناسبة . وكانت مزاعم السيادة على ما يظهر أهم وأضخم . غير أن أهل الشرق استمروا دائما يحترمون أسقف رومه كأول البطارقة الخمسة . ووافقوا دون شك على أن ولايته يجب أن تستخدم بما يتفق والقوانين الالهية . وهو تراجع غامض يمكن تحديده أو التنصل منه في الوقت المناسب . وكان انبثاق الروح القدس من الآب فقط ، أو من الآب والابن ، بندا من بنود العقيدة التي رسخت أكثر في أعماق عقول الناس . وفي الجلسات التي عقدت في فيرارا وفلورنسة تفرعت الاضافة اللاتينية (ومن ابنه) Filioque الى سؤالين : أكان ادخالها مشروعا ؟ وهل هي اضافة أرثوذكسية ؟ وقد لا يكون من الضروري أن أفخر في هذا الموضوع بحيادي وعدم اهتمامي ، ولكني أظن أن اليونانيين كان يؤيدهم هنا بقوة تحريم مجمع خلقدونية اضافة أى بند مهما كان الى عقيدة نيقيا أو بالأحرى القسطنطينية <sup>(١)</sup> أما في الشئون الدنيوية فليس من السهل ادراك كيف أن جمعية تشريعية تستطيع أن تتحكم في الخلف ، وقد منح الخلف من السلطات ما يساوى سلطاتها . ولكن ما يمليه الوحي يجب أن يكون صادقا لا يتغير . ولا ينبغي أن يتجرأ أسقف بصفته الشخصية ، أو مجمع اقليمي على أن يجدد في أى شيء مخالفا بذلك ما قضت به الكنيسة الكاثوليكية . أما فيما يمس موضوع النظرية فقد تساوى النقاش وامتد بلا نهاية . فلقد حير العقول انبثاق اله . وكان

---

(١) لم يرغب اليونانيون الذين كرهوا الاتحاد أن ينطلقوا أو يهاجموا من هذه القلعة الحصينة . وقد زاد من عار اللاتين ابراهيم لمخطوط قديم لمجمع نيقيا الثاني وبه عبارة « وابنه » في عقيدة نيقيا . وهذا تزييف ملموس ! .

الانجيل الموضوع على المذبح صامتا لا ينطق بشيء ، ومن الجائز أن تكون نصوص الآباء العديدة قد أفسدها الغش أو اضطرت بفعل السفسة . وكان اليونانيون يجهلون شخصيات القديسين اللاتين ومؤلفاتهم <sup>(١)</sup> . وقد يجوز لنا أن نتأكد من النقطة التالية على الأقل ، وهي أن حجج أحد الجانبين لا يمكن أن تقنع الجانب الآخر ، وقد يستتير الهوى بالعقل ، وقد نصصح لمحة سطحية غابرة بنظرة فاحصة أكثر كمالات أتيحت لنا ولكن الأساقفة والرهبان قد دربوا منذ طفولتهم على ترديد طراز من الأساليب مكون من ألفاظ لا يدرك أحد كمها . وتعتمد كرامتهم القومية والشخصية على تكرار هذه الكلمات بعينها . وقد قست عقولهم الضيقة وألهبتها حدة المناقشات العامة .

وبينما ضل المجتمعون السبيل في سحب من الغبار والظلام ، كان البابا والامبراطور يتوقان الى الوصول الى وحدة ظاهرية ، هي وحدها التي تفي بالغرض الذي اجتمعا من أجله . فخضعت المفاوضات الخاصة والشخصية من عناد المناقشات العلنية . وكان الطريق جوزيف قد سقط تحت عبء السن والعلة . وعند موته نصح وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، بالبر والوفاق . وربما أثار منصبه الشاعر مطامع رجال الكنيسة وأهاج آمالهم . ولقد استثير الامتثال السريع الجاد لدى رئيسي أساقفة روسيا ونيقيا ، ايزيدور وبيساريون ، فنال جزاءه في ترقية سريعة الى مرتبة الكرادلة . كان بيساريون في المناقشات الأولى أعنف

---

(١) « عندما أذهب الى كنيسة لاتينية ، فاني لا احنى رأسي أمام القديسين هناك ، لأنني لا أعرف أحدا منهم » ( ترجمة ملاحظة أبداها سبروبولس واقتطفها جيبون باللغة اليونانية ) .

زعماء الكنيسة الشرقية وأفصحهم . وإذا كان المرتد وابن الزنا قد  
 أنحى عليه قومه باللائمة ، فانه يبدو في تاريخ الكنيسة كمثال فادر  
 للوطنية ، قدمته للبلاط معارضة صاخبة ورضوخ جاء في حينه .  
 وبمعونة مساعديه الروحيين ، استخدم الامبراطور حججه مطبقا اياها  
 على الموقف العام وعلى أخلاق الأساقفة الشخصية . وتأثر كل منهم  
 بدوره بالسلطة وبالقدوة . كانت مواردهم في أيدي الأكرار ،  
 وأجسادهم في أيدي اللاتين . وقد نفذ بسرعة الكنز الأسقفى المكون  
 من ثلاثة أثواب وأربعين دوكات . ولازال الأمل في عودتهم الى وطنهم  
 يعتمد على سفن البندقية وصدقات رومه . وقد بلغ من عوزهم أن  
 دفع متأخراتهم ، وهى دين واجب الأداء ، كان من الممكن أن يعتبر  
 عظما ، وربما كان له فاعلية الرشوة . وربما يرر الخطر المحقق  
 بالقسطنطينية واثاذاها منه بعض الرياء المعقول الذى لا ضرر منه .  
 ثم أشير من طرف خفى الى أن الهراطقة المعاندين الذين يقاومون اتحاد  
 الشرق والغرب سيتركون في بلد معاد لا تنتقام الحبر اللاتينى  
 أو لعدالته . وفي أول اجتماع خاص عقده اليونانيون وافق على صيغة  
 الاتحاد أربعة وعشرون عضوا ورفضه اثنا عشر . ولكن حملة الصليبان  
 الخمسة في أياصوفيا الذين أملوا في أن يمثلوا البطريق . لم يكن لهم  
 حق التصويت طبقا للنظم العتيقة ، وحل محلهم في التصويت جماعة  
 خنوعة من الرهبان والنحاة والرجال العاديين من غير رجال الدين .  
 ونفذت ارادة المليك باجماع زائف ذليل . ولم يوجد غير اثنين من  
 المحبين لوطنهم كان لديهما من الشجاعة ما يمكنهما من التعبير عن  
 احساسهما وشعور وطنهما . وعاد ديميتريوس أخو الامبراطور الى



البندقية حتى لا يشهد هذه الوحدة . ومن المحتمل أن مرقس — ارضاء لكبرائه ، وان ظن أنه يرى ضميره — رفض كل اختلاط مع الهرطقة اللاتين ، وأعلن أنه هو نفسه زعيم العقيدة الأرثوذكسية الصحيحة والمعتق لها <sup>(١)</sup> . وفي هذه المعاهدة التي عقدت بين الأمتين اقترحت عدة صيغ ، مما قد يرتضيه اللاتين ، دون جرح كرامة اليونان ، فوزنوا كل ذرة من الشك الذي قد تثيره أية كلمة أو مقطع ، حتى اهتز ميزان اللاهوت بميل يسير نحو الفاتيكان . وقد تم الاتفاق ( وأرى لزما على أن أوجه هنا نظر القارئ ) على أن الروح القدس ينبثق بوساطة الآب والابن ، انبثاقا من مبدأ واحد وجوهر واحد ، وأنه ينبثق بوساطة الابن لأنه من عين الطبيعة والجوهر ، وأنه ينبثق من الآب والابن بنفس الانبثاق والنتاج . وأقل من ذلك صعوبة ، فهم بنود المعاهدة المبدئية : على البابا أن يقدم نفقات عودة اليونان الى وطنهم وأن يقوم على اعداد بارجتين وثلاثمائة جندي للدفاع عن القسطنطينية وعلى جميع السفن التي تنقل الحجاج الى ييب المقدس أن تمر بتلك الميناء . وعلى البابا كلما دعت الحاجة أن يجهز عشر بوارج لمدة سنة ، أو عشرين بارجة لمدة ستة أشهر ، وأن يلح بشدة على أمراء أوروبا ، اذا كان الامبراطور في حاجة الى قوة من المشاة .

تميزت السنة نفسها وعين اليوم تقريبا في بازل بعزل يوجينيوس ، وفي فلورنسه باتحاده من جديد مع اليونانيين واللاتين . في المـ ١٤٨١ .

(١) لقد نسيت معارضا أرثوذكسيا معروفا محظيا يرقد عادة في هدوء تحت قدمي الامبراطور ، ولكنه نبغ نباحا وحشيا عندما كانت وثيقة الاته تختم الملك أن يسكنوه بالربت أو بالسياط !

( الذى سماه جمعية الشياطين ) رعى البابا بجرائم الاتجار بالمقدسات والحث والطغيان والهرطقة والانشقاق . وأعلنوا أن مساوئه غير قابلة للإصلاح وأنه غير لائق وغير قادر على تولى أى منصب كنسى . وفى المجمع الثانى حظى بالتبجيل والاحلال بوصفه الممثل الحقيقى المقدس للمسيح ، وأنه الذى جمع بعد فرقة ستمائة عام كاثوليك الشرق والغرب فى صعيد واحد وتحت راع واحد . وقد وقع على وثيقة الاتحاد البابا والامبراطور وأهم أعضاء الكنيستين ، حتى أولئك الذين كانوا قد حرموا من حق التصويت ( مثل سيروبولوس ) . وربما أمكن الاكتفاء بنسخة المشرق وأخرى للغرب . ولكن يوجينيوس لم يقنع الا بأربع نسخ حقيقية ومطابقة للأصل ، وقد تم التوقيع عليها وتوثيقها كآثار خالدة لاتنصاه . وفى يوم مشهود ، فى السادس من شهر يوليه ، ارتقى خليفنا القديس بطرس وقسطنطين عرشيهما ، واجتمعت الأمتان فى كاتدرائية فلورنسة وصعد المنبر ممثلا الأمتين : الكاردينال جوليان ويساريون رئيس أساقفة نيقيا ، وبعد أن قرأ كل منهما فى لغته وثيقة الاتحاد تبادلا العناق باسم اخوانهم ، وفى حضرتهم ووسط استحسانهم . وقام البابا ورجاله بالصلاة طبقا للمراسم الرومانية ، وترنم الناس بالعقيدة وقد أضيف اليها : وابنه filioque . وقد يبرر سكوت اليونانيين جهلهم بتلك الأنعام الشجية ولكنها أعجبية . ورفض أكثر اللاتين لشككا اقامة أى طقس يينظى علانية . ومع ذلك فلم يكن الإمبراطور ورجال دينه غافلين عن الشرف القومى . لقد وقعوا على المعاهدة برضائهم . ولكنهم اتفقوا فى صمت على عدم محاولة ادخال أى تجديد على العقيدة أو الطقوس . ولم يلحقوا أى أذى بمرقص

( من افيسوس ) بل لقد احترموا في السر ثباته الكريم . وعند وفاة البطريق رفضوا انتخاب سلفه الا في كاتدرائية اياصوفيا . وفي توزيع الجوائز العامة والخاصة تجاوز الحبر الجواد آمالهم ووعوده . وعاد اليونانيون ، في أبهة وكبرياء أقل ، عن طريق فيرارا والبندقية نفسه . وقد قبلوا في القسطنطينية باستقبال سنصفه في الفصل التالي . وقد شجع يوجينيوس نجاحه في التجربة الأولى على أن يكرر هذه المناظر التهذيبة نفسها . فأدخل تباعا نواب الأرمن والموارنة واليعاقبة في سوريا ومصر والنساطرة والأحباش ليقبلوا أقدام الحبر الروماني وأن يعلنوا طاعة المشرق وسلامة دينه . وهذه الوفود الشرقية التي لا تعرفها الدول التي تجرأت على تشيلها ، أذاعت في أنحاء الغرب شهرة يوجينيوس . وتعالى الصيحات التي أحسن تدبيرها ضد بقية من المنشقين في سويسرا وسافوى ، لأنهم وحدهم عطلوا الوفاق في العالم المسيحي . وجاء خمول اليأس في أعقاب شدة المقاومة . فانحل في صمت مجلس بازل . ونبذ فيلكس القبة المثلثة أوعاد الى صومعته الوردية أو الممنمة في ريباي Ripaille . وقد وطدت أركان السلام العام بتصرفات متبادلة من النسيان والتعويض . وتوارت كل فكرة عن الإصلاح . واستمر البابوات في ممارسة أو سوء استغلال طغيانهم الكنسى . ولم يقلق رومه منذ ذاك الحين شرور انتخاب مطعون فيه .

## إحياء العلوم اليونانية في إيطاليا

لم تكن رحلات الإباطرة الثلاثة مجدية في إقازهم في حياتهم الدنيا ، وربما حياتهم الأخرى . غير أنه كان لها نتيجة حسنة هي إحياء العلوم اليونانية في إيطاليا ، ومنها انتشرت الى أقصى أمم الغرب والشمال .

فان رعايا الامبراطورية البيزنطية وهم يرزحون تحت أحط ألوان  
العبودية وأقسى ألوان الضيق ، كانوا لا يزالون يملكون مفتاحا ذهبيا  
ينفذون بفضلهم الى كنوز العالم القديم ، ولغة موسيقية خصبة تضي  
على الأشياء المادية روحا ، وعلى المجردات الفلسفية جسدا . ومنذ أن  
وطئت تحت الأقدام حواجز المملكة ، بل حواجز العاصمة ، أفسد  
البرابرة دون ريب شكل اللغة القومية ومادتها . وقد وضعت معاجم  
كبيرة لتبيان معانى كثير من الألفاظ التى ترجع الى أصل عربى أو تركى  
أو سكلافونى أو لاتينى أو فرنسى ، ولكن ثمة لغة أنقى كان يتحدث بها  
في البلاط وتعلم في الكليات . وقد وصف ازدهار اللغة ، وربما زينه ،  
عالم ايطالى أقام مدة طويلة بالقسطنطينية واقترن بزوجة نبيلة ، وتجنس  
بالجنسية البيزنطية قبل الفتح التركى بنحو ثلاثين عاما . قال  
فيليفوس : Philephus :

« ان لغة الشعب قد أفسدها العامة ولوثتها جماهير  
الأجانب والتجار الذين يفسدون كل يوم الى المدينة  
ويختلطون بسكانها . ومن أتباع أمثال هذه المدرسة تلقت  
اللغة اللاتينية ترجمة أرسطوفانيس وأفلاطون . وهى غامضة  
المعنى حقيرة الروح . أما اليونانيون الذين نجوا من هذه  
العدوى فهم وحدهم روادنا وهم وحدهم الجديرون  
بالمحاكاة . ففي الحديث العادى لا زالوا يتكلمون لغة  
أرسطوفانيس ويوريديس ، ولغة المؤرخين والفلاسفة في  
أثينا . أما أسلوبهم فى الكتابه فهو أصح وأدق . أما الاشخاص  
الذين يرتبطون ، بحكم المولد أو المنصب بالبلاط البيزنطى

فانهم يحتفظون بالمستوى القديم من الرشافة والنقاء .  
بأقل مزج ممكن . ويتألق جمال اللغة الأصيل أعظم ما يتألق  
بين السيدات النبيلات اللائى لا يسمح لهن بالاختلاط  
بالأجانب . هل فلت : بالأجانب ؟ انهن يعشن فى عزلة ،  
محجبات عن أعين مواطنيهن . وقلما يرين فى الطرقات .  
وعندما يغادرن منازلهن فانهن يفعلن ذلك تحت غلام  
الليل لريارة الكنائس أو أقرب أقاربهن . وفى هذه الأوقات  
يمتطين ظهور الخيل ، وهن يرتدين الحجاب ، ويحيط بهن  
آباؤهن أو أزواجهن أو خدمهن » .

وخصص لخدمة الدين عند اليونانيين عدد كبير غنى من القساوسة .  
وقد تميزت أخلاق رهبانهم وأساقفتهم على الدوام بالوقار والصرامة .  
ولم تلهم ، كما ألهت رجال الدين من اللاتين ، مباحج الحياة الدنيوية  
أو حتى العسكرية ومشاغلها ، وبعد أن نسط من حسابنا ، الزمن  
والمواهب التى ضاعت فى الخشوع والخمول والنزاع الذى مزق  
الكنيسة والأديرة ، فلا بد أن العقول الأكثر حبا للاطلاع والأكثر طموحا  
ترغب فى ارتياد الثقافات الدينية والمدنية الموجودة فى لغتهم . وقام رجال  
الدين على تعليم الشباب . واستمرت مدارس الفلسفة والبلاغة حتى  
سقوط الامبراطورية . ويمكن أن نجزم بأنه كان هناك بين جدران  
القسطنطينية ما يمكن أن ينشر فوق أرجاء الأقطار الشاسعة فى الغرب .  
ولكن هناك فرقا هاما سبق لنا أن أوضحناه : كان اليونانيون ثابتين فى  
أماكنهم ، ان لم يكونوا متراجعين الى الوراء ، بينما كان اللاتين  
يتقدمون بحركة سريعة تقدمية . لقد حفزت الأمم روح الاستقلال

والتنافسة ، حتى عالم الولايات الايطالية الصغير كان يضم أناسا أكثر  
جدا ونشاطا أكبر من دائرة الامبراطورية البيزنطية المتناقصة . فنى  
أوريا تحررت الطبقات الدنيا من المجتمع من نير العبودية الاقطاعية .  
والحرية هى أول خطوة نحو حب الاستطلاع والمعرفة . وقد احتفظت  
الخرافات باللغة اللاتينية على الرغم من عدم صقلها وفسادها . وكانت  
الجامعات من بولونا Bologna الى أكسفورد (١) تزخر بألوف  
الباحثين . وربما وجه حماسهم الذى ضل السبيل ، الى دراسات أكثر  
حرية وأكثر رجولة . وفى بحث العلوم كانت ايطاليا أول من ينزع عنها  
أكفانها ويمكن انصافا وعدلا أن يستدح بترارك الفصيح ، لدروسه والمثل  
الذى ضربه ، على أنه أول بشير بيزوغ النهار . وانبثق عن دراسة كتاب  
رومه القديمة ومحاكاتهم ، أسلوب فى التأليف أكثر تقاء ، وسلسلة  
من المشاعر أكثر حرية وتعقلا . واقترب تلاميذ شيشرون وفرجيل ،  
فى اجلال وحب ، من حرم أساتذتهم اليونانيين . وفى نهب القسطنطينية  
احتقر الفرنسيون وحتى البنادقة أعمال ليسيوس وهوميروس  
ودمروها . وقد يسكن القضاء على الآثار الفنية بضربة واحدة ، ولكن  
العقل الخالد يمكن أن يجدد ويزداد بالنسخ التى يخطها القلم ، وكان  
كل طموح بترارك وأصدقائه أن يقتنوا أمثال هذه النسخ ويستوعبوا  
مكتوباتها . ولا جدال فى أن أسلحة الأتراك قد عجلت بفرار ربات

(١) فى أواخر القرن الخامس عشر كان فى أوربا حوالى خمسين جامعة .  
ومن هؤلاء عشر أو اثنتا عشرة جامعة أسست قبل سنة ١٣٠٠ ، وكانت  
مزدحمة نظرا لندرتها . وكان فى بولونا عشرة آلاف طالب ، يدرس أكثرهم  
القانون المدنى . وفى ١٣٥٧ نقص عدد الطلبة فى أكسفورد من ثلاثين ألفا  
الى ستة آلاف . ومع ذلك فإن هذا النقص أكثر بكثير من عدد الطلبة الآن .

الشعر . ومع ذلك فقد نرتعد فرقا اذا خطر ببالنا أنه كان من الجائز أن تطر بلاد اليونان بمدارسها ومكتباتها قبل أن تخرج أوروبا من طوفان الهمجية ، وأن بذور العلم كان من الجائز أن تذررها الرياح قبل أن تصبح تربة ايطاليا صالحة لانباتها .

اعترف أكثر الايطاليين علما في القرن الخامس عشر بالآداب اليونانية وامتدحوا احياءها ، بعد أن جر النسيان عليها ذبوله لمئات من السنين . ومع ذلك ففى ذلك القطر وفيما وراء الألب ، ذكرت أسماء بعض الباحثين المتعمقين الذين كانوا فى العصور المظلمة يتسيزون بشرف معرفة اللغة اليونانية . وقد دوى الغرور القومى عاليا فى امتداح هذه الأمثلة النادرة للمعرفة والعلم . ومن الحق أن نلاحظ ، دون تمنع دقيق فى جدارة الأفراد ، أن علمهم لم يكن له هدف ولم يكن ذا أثر وأنه كان من السهل ارضاء أنفسهم وارضاء معاصريهم الأكثر جهلا ، وأن اللغة التى عرفوها بأعجوبة دوت فى مخطوطات قليلة ، ولم تكن تدرس فى أية جامعة فى الغرب . وفى أحد أركان ايطاليا بقيت هزيلة كلهجة عامية أو كنسية ، فالأثر الأول للمستعمرات الدورية والأيونية لم يمح تماما قط . وظلت كنائس كالابريا مدة طويلة مرتبطة بعرش القسطنطينية . وتابع رهبان القديس بازيل دراساتهم على جبل أثوس وفى مدارس الشرق . وكانت كالابريا موطن بارلام الأصلى . وقد ظهر فيما سبق كسفير مشايخ لمذهب معين . وكان بارلام هو أول من أحيا ذكرى هوميروس أو على الأقل كتاباته ، فيما وراء جبال الألب . وقد وصفه كل من بترارك وبوكاشيو بأنه رجل قصير القامة ، ولكنه عظيم حقا فى مدى علمه وعبقريته . وكانت نظراته نافذة ، ومنطقه بيطيا مؤملا .

وهما يجزمان بأن بلاد اليونان لم تنجب مثله قرونا عديدة في علمه  
بالتاريخ والنحو والفلسفة . وشهد بفضل أمراء القسطنطينية وعلماءها .  
ولا تزال إحدى هذه الشهادات باقية الى الآن . وقد اضطر الامبراطور  
كاتاكوزين ، حامى خصومه ، الى القول بأن ذاك المنطيق العميق كان  
ملما باقليدس وأرسطو وأفلاطون . وفي بلاط أفنيون عقد صداقة  
متينة مع بترارك أول الباحثين من اللاتين . وكانت الرغبة المتبادلة في  
التعلم هي عماد اتصالاتهما الأدبية . وقد انهك ابن توسكانيا في لهف  
وشوق وجد متواصل في دراسة اللغة اليونانية . وفي أثناء كفاحه  
المزير ، نظرا لجفاف المبادئ الأولى وصعوبتها ، بدأ يدرك معاني  
الشعراء والفلاسفة وأن يحس بروحهم ، وكانت عقولهم تلتئم مع عقله .  
ولكنه سرعان ما حرم صحة هذا المعاون النافع ودروسه . فقد تنحى  
بارلام عن سفارته التي لا جدوى منها . وعند عودته الى بلاد اليونان  
أثار في تهور جماعات الرهبان المتعصبين ، بأن حاول أن يحل نور العقل  
محل نور البطن . وبعد فراق دام ثلاث سنوات التقى الصديقان مرة  
ثانية في بلاط نابلي . ولكن هذا التلميذ الكريم تخطى عن أجمل فرصة  
للتقدم في دراسته ، وبناء على توصيته اسنقر بارلام نهائيا في أسقفية  
صغيرة في كالاباريا ، موطنه الأصلي . ان أعمال بترارك العديدة وجه  
وصداقته ورسائله الكثيرة ورحلاته المتكررة والاكتليل الروماني ،  
ومؤلفاته الدقيقة باللغتين اللاتينية والايطالية شعرا ونثرا ، قد حولت  
انجازه بعيدا عن اللغة الأجنبية . وكلما تقدمت به السن أضحى تعلم  
اللغة اليونانية موضع رغبته لا محط آماله . وعندما كان في الخمسين  
من عمره تقريبا قدم له سفير من بيزنطة ، وكان صديقا له . وكان متمكنا



من اللغتين اللاتينية واليونانية ، نسخه من هوميروس . وجاء رد بترارك معبرا عن فصاحته واعترافه بالجميل وندمه في الوقت نفسه . فبعد أن أثنى على كرم من وهبه هذه النسخة ، وأبان أن قيمة هذه الهدية أثمن في نظره من الذهب والياقوت ، استطرد قائلا : « ان اهداءك اياي نسخة من النص الأصلي الحقيقي للشاعر المقدس ، مصدر كل خلق وابداع ، أمر جدير بك وبى . لقد بررت بوعدك ، وأشبع رغبتى ، ومع ذلك فوجودك لا يزال ناقصا . وكان يجب مع هوميروس ، أن تهبنى نفسك كمرشد يستطيع أن يقودنى في مصادر النور ، ليكشف لعينى المذهولتين عن معجزات الالياذة والأوديسية . ولكن ، والأسفاه ! اما أن هوميروس أبكم أو أنى أنا أصم . وليس في مقدورى أن أسمتع بالجمال الذى أملكه . لقد وضعت الى جانب أفلاطون : أمير الشعراء بالقرب من أمير الفلاسفة . وانى لأفاخر بمنظر ضيفى اللامعين . لقد اطلمت على ما ترجم من كتاباتهم الخالدة الى اللغة اللاتينية . ولكن ان لم يكن ثمت كسب ، فهناك متعة النظر الى هؤلاء اليونانيين الأجلاء في ثوبهم القومى الأصيل ( يقصد لغتهم ) . انى سرور بمنظرهم ، وكلما عاقت هذا المجلد الصامت تهدت صائحا : أيها الشاعر المبرز ، بئى سرور كان يجب على أن أصغى الى أغانيك ، لو لم يكن سمعى قد ضاع وأصابه صمم لموت صديق ولغياب الآخر ! ولكنى لم أياس بعد ، ونموذج كاتو يسرى عنى ، ويبحث في نفسى الأمل ، فقد تعلم اللغة اليونانية في آخر فترة من حياته .

لقد حصل بوكاشيو ، صديق بترارك وأبو النشر النوسكاني ، بحظه وجده ، على الجائزة التى لم تستطع جهود بترارك أن تحظى بها.

وهذا الكاتب المحبوب الذى تعتمد شهرته على مؤلفه «ديكاميرون» وهو عبارة عن مائة قصة كلها لهو وحب ، قد يمكنه أن يؤمل فى ثناء أكثر جدية ، وهو أن يكون أول من أعاد الى ايطاليا دراسة اللغة اليونانية . ففى عام ١٣٦٠ عطلت نصيحة بوكاشيو وكرمه تلميذا من تلاميذ بارلام ، كان فى طريقه الى أفنيون ، واسمه ليو أوليوتتيوس بيلاتس ، وأسكنه بوكاشيو فى داره ، وأثر على جمهورية فلورنسه لتمنحه معاشا سنويا ، ووقف أوقات فراغه على أول مدرس يونانى علم تلك اللغة فى أقطار أوروبا الغربية . وربما كلن منظر ليو كفيلا بتغير أكثر التلاميذ شوقا ، فلقد ارتدى ثوب فيلسوف أو شحاذ ، وكان وجهه كثيبا ، يغطيه شعر أسود ، ولحيته طويلة شعناء ، وسلوكه ساذجا ، وطبعه حزينا ومتقلبا . ولم يكن يستطيع أن يزين حديثه بمحسنات أو حتى بوضوح الفصاحة اللاتينية . ولكن ذهنه كان حافلا بكنز من العلوم اليونانية : من التاريخ والقصص ، والفلسفة والنحو ، كل أولئك كان يحذقه بقدر سواء . وقد قرأ أشعار هوميروس فى مدارس فلورنسه . ومن شرحه استمد بوكاشيو ما دونه وترجمه من الالياذه والأوديسية : ترجمة حرفية نثرا وهى الترجمة التى روت غلة صديقه بترارك ، واستخدمها سرا فى القرن التالى لورنتيوس فاللا ، المترجم اللاتينى . ومن أحاديثه جمع بوكاشيو نفسه المواد الخاصة بكتابه عن أصل آلهة الوثنيين ، وهو مؤلف كان يعد فى ذلك الوقت مليئا ثمينا . وقد حشاه ، زهوا ، بشخصيات يونانية وقطع يونانية ليحفز قراءه الأكثر جهالة الى أن يتعجبوا ويهللوا . ان أول خطوات يخطوها العلم بطيئه ومجهده . فلم يكن من المستطاع احصاء أكثر من عشرة مريدين لهوميروس فى جميع

ايطاليا . ولم تستطع رومه أو البندقية أو نابلى أن تضيف اسما واحدا الى هذا الثبت من المجدين المجتهدين . ولولا أن ليو ترك بعد ثلاث سنوات ، نتيجة تقلبه ، منصبا مشرفا ومجزيا ، لتضاعف عددهم ، وأسرع تقدمهم . وفى أثناء مروره ، استضافه بترارك فترة قصيرة فى بادوا ، وقد استمتع بعلمه ، ولكن ساءه حقا طبعه الكئيب الفظ . ولما كان ليو غير راض عن عالمه وعن نفسه ، فانه انتقص من قيمة ما كان ينعم به . وكان الأشخاص الغائبون والأشياء الغائبة محبة الى خياله . كان فى ايطاليا رجلا من تساليا ، وفى بلاد اليونان مواطنا من كالاباريا . فاذا كان بين اللاتين ازدرى لغتهم ودينهم وعاداتهم ، وسرعان ما يصل الى القسطنطينية حتى يتنهد مرة أخرى أسفا على ثراء البندقية ورشاقة فلورنسه . وأصم أصدقاؤه من الايطاليين آذانهم ولم يستمعوا الى الحاحه والحافه . فأبحر فى رحلة ثانية معتمدا على حبه للاستطلاع وصبرهم . ولكن عند دخوله بحر الأدرياتيک داهمت العاصفة سفينته ، وكان المعلم المنكود الحظ قد ربط نفسه الى الصارى كما فعل يوليسيس ، ولكن انقضت عليه صاعقة من البرق فقتلته . وذرف بترارك ذو القلب الرحيم الدمع حزنا على هذه الكارثة . ولكنه تلهف أیما تلهف عما اذا كان فى الامكان انقاذ نسخة من يوريديس أوسوفوكليس من أيدي البحارة .

ولكن المبادئ الضئيلة من علوم اليونان التى شجهمها بترارك وعرسها بوكاشيو ، سرعان ما ذبلت وانقرضت . وقنع الجيل التالى لفترة ما بالتقدم الذى حدث فى الأسلوب اللاتينى . ولم يحدث قبل نهاية القرن الرابع عشر أن أضاءت شعلة جديدة متصلة فى ايطاليا . وقبل

أن يقوم الامبراطور عمانويل برحلته ، أرسل رسله وخطباءه ليستندروا عطف أمراء الغرب . ومن بين هؤلاء الرسل كان أشهرهم أو أكثرهم علما هو مانويل خريسولوراس ، وكان من أصل نبيل ، والمظنون أن أجداده من الرومان قد هاجروا الى القسطنطينية مع قسطنطين الأكبر . وبعد أن زار بلاط فرنسا وانجلترا ، وحصل منها على بعض التبرعات وعلى كثير من الوعود ، دعى هذا السفر ليشغل منصب أستاذ . وللمرة الثانية حظيت فلورنسه بشرف ارسال هذه الدعوة الثانية . وكان خريسولوراس جديرا بمعاشه ، لا لمعرفته باللغة اليونانية وحدها ، بل ولعلمه باللغة اللاتينية أيضا ، وفاق ما كانت الجمهورية تنتظر منه . وقد امتلأت مدرسته بجمهور من التلاميذ من كل مرتبة وكل سن . وقد وصف أحدهم في تاريخ عام حوافزه ونجاحه . قال ليونارد أرتين : « في ذلك الوقت ، كنت أدرس القانون المدني ، ولكن كان يملكنى حب الأدب ، وقد وجهت بعض عنايتي الى المنطق والبلاغة . وعند مجيء مانويل ترددت بين هجر دراساتي القانونية أو ترك فرصتي الذهبية . وفي حماس الشباب قلت في نفسي : أو تقصر في حق نفسك ومستقبلك ؟ أو ترفض أن تتعرف الى هوميروس وأفلاطون وديمستيس وتحدث حديثاوديا الى هؤلاء الشعراء والفلاسفة والخطباء الذين تروى عنهم أمثال هذه العجائب ، والذين تغنى كل جيل بمديحهم كأعظم أساتذة للعلوم البشرية ؟ سيكون هناك دائما في جامعاتنا عدد كاف من أساتذة القانون المدني والباحثين فيه . ولكن معلما ، ومعلما من هذا الطراز ، للغة اليونانية ، ان سمحت أن يفلت من يدي ، فلن أحظى به البتة فيما بعد . فلما أقنعت نفسي بهذه الأسباب ، التحقت بمدرسة

خريسولوراس ، وسيطر على الهوى بحيث أن ما تلقيت من الدروس في أثناء النهار ، أصبح دوما موضوع أحلامي في الليل.. » وفي نفس الوقت والمكان شرح جون دى رافنا وهو تلميذ بترارك الخاص ، كتب اللاتين الكلاسيكية . وقد نشأ الايطاليون الذين ازدان بهم جيلهم وقطروهم في هذه المدرسة المزدوجة . وأصبحت فلورنسة التربة الخصيبة للمعارف اليونانية واللاتينية . وعندما جاء الامبراطور الى ايطاليا استدعى خريسولوراس من الكلية الى البلاط . ولكنه قام بالتدريس فيها بعد في باثيا ورومه بالهمة نفسها التي استحقت الثناء نفسه . وتوزع الجزء الباقي من حياته ، وهو ما يقرب من خمسة عشر عاما ، بين ايطاليا والقسطنطينية ، بين السفارات والدروس . وفي مهمته النبيلة ، ألا وهي تعليم أمة أجنبية ، لم ينس عالم النحو واجبا أكثر قدسية نحو أميره ونحو بلده . وقضى مانويل خريسولوراس نجه في كونستانس ، وكان الامبراطور قد أرسله في بعثة عامة الى المجلس .

واقترء به قام عدد من المهاجرين باحياء الآداب اليونانية في ايطاليا . وكانوا معدمين من الناحية المادية ، ولكنهم أوتوا حظا من العلم أو على الأقل من اللغة . نزع أهل سالونيك والقسطنطينية هربا من ظلم الأتراك أو من اضطهادهم وأسلحتهم الى بلاد الحرية وحب الاستطلاع والثروة . ولقد جاء المجمع الى فلورنسة ، بأضواء الكنيسة اليونانية وعلماء الفلسفة الافلاطونية . وكان للهاريين الذين استسكوا بالوحدة أجر مضاعف ، لأنهم هجروا أوطانهم ، لا من أجل القضية المسيحية وحدها ، بل من أجل القضية الكاثوليكية أيضا . فالوطني الذي يضحي بقييله وضميره لينعم بالحظوة ، قد يكون من المتمسكين بالفضائل

الشخصية والاجتماعية ، وهو لا يعود يلقي بالا الى النعوت البذيئة مثل « عبد » أو « مرتد » وسيعيد المركز الذى يعطى به بين أصحابه الجدد ، أمام عينيه ، ما كان لشخصه من مكانة . وكانت الحلة الرومانية الأرجوانية جزاء وفاقا لما اتسم به بيساريون من امتثال حصيل . وقد جعل مقره الدائم فى ايطاليا ولقى الكاردينال اليونانى ، بطريق القسطنطينية الشرفى كل التبجيل بوصفه زعيما وحاميا لأمته . وقد استغلت قدراته فى البعثات التى أوفدت الى بولونا والبندقية وألمانيا وفرنسا . أما فكرة انتخابه ليشغل كرسى القديس بطرس فقد رفرت لبعض الوقت فى سماء المجمع المقدس التى لا تستقر على حال <sup>(١)</sup> . وقد أضفت أمجاده الكنسية رواء وسموا على عبقرته الأدبية وعلى خدماته . وكان قصره مدرسة . وفى كل مرة زار القاتيكان صحبته حاشية من العلماء من كل من الأمتين ، ومن رجال رضوا عن أنفسهم ورضى الناس عنهم ، ممن كانت كتاباتهم التى علاها التراب الآن ، ذائعة ونافعة فى عصرهم . ولن أحاول احصاء من أحيوا أدب اليونان فى القرن الخامس عشر . ويمكننا أن نكتفى مع الشكر والتقدير بذكر الأسماء التالية : ثيودور جازا ، وجورج دى طرابزون ، وجون أرجيروبولس ، وديميتريوس خالكوندليس ، الذين علموا لفتهم فى مدارس فلورنسه ورومه . ولم تكن جهودهم تقل عن جهود بيساريون ، وكانوا يجبلون رداءه الأرجوانى ، وكان حظه موضع حقدهم الدفين . وكانت حياة

(١) طرق الكراولة باب بيساريون يوما ، ولكن خادمه رفض أن يقطع عليه دراساته . فقال له : « نيقولا ، ان احترامك أضاع عليك قبعة وأفقدنى تاجا » .

النحاة متواضعة مغمورة ، ولقد عزفوا عن السير في ركاب الكنيسة وهو مجز مريح . وحالت ثيابهم وسلوكهم دون اختلاطهم بالناس ، ولما كانوا قد اقتصروا على فضل العلم فقد حق عليهم أن يقنعوا بجوائزه . ويستحق يانوس لاسكاريس أن يستثنى من هذه الفئة . فأن فصاحته وأدبه ونسبه الامبراطورى ، كل أولئك أوصى به خيرا لدى ملوك فرنسا . وفى المدن نفسها كان يستخدم للتعليم أو التفاوض . وحفزهم الواجب والمصلحة أن يوجهوا عنايتهم الى دراسة اللغة اللاتينية . واكتسب أكثرهم توفيقا القدرة على الكتابة والتحدث بطلاقة ورشاقة ، بلغة أجنبية . ولكنهم احتفظوا على الدوام بغرورهم الوطنى المناصل واحتفظوا بمديحهم ، أو على الأقل بتقديرهم ، لكتابهم القوميين الذين يدينون لهم بشهرتهم وأرزاقهم . وقد أظهروا فى بعض الأحيان ازديادهم لشعر فرجيل وخطب تولى Tully فى نقد أو هجاء فاجر . وبرز تفوق هؤلاء الأساتذة بفضل استخدامهم المؤلف للغة حية . ولم يكن تلاميذهم الأول يستطيعون أن يدركوا مبلغ انحدارهم عن معارف أجدادهم أو حتى عن طرائق أجدادهم العملية . وبفضل ذكاء القرون التالية ، اختفى من المدارس المنطق المعيب الذى أدخلوه . وكانوا يجهلون قوة النبرات الصوتية فى اللغة اليونانية . وكانت النغمات الموسيقية — التى اذا ما خرجت من فم أتيكى الى أذن أتيكى ، فهى حتما روح الانسجام الخفية — لا تزيد فى نظرهم ، كما هى فى أغانينا اليوم ، عن علامات صماء لا تعنى شيئا ، بل لا فائدة منها فى النشر ، وهى مجهدة فى الشعر . وكانوا يلمون حقا بعلم النحو . وقد امتزجت البقايا القبيحة من أبولونيوس أو هيروديان بدروسهم . ولا زال لكتبهم فى النحو

والاشتقاق ، وان خلت من الروح الفلسفية ، نفع لدى الطلبة اليونانيين . وفي أثناء تدمير المكتبات البيزنطية أمسك كل لاجئ بأثارة من كنز ، بنسخة من بعض المؤلفين الذين لولا حرص هؤلاء اللاجئين وحدهم لكتب عليها الدمار . وزاد عدد هذه المخطوطات بفضل قلم لا يعرف الكلل أو قلم رشيق . وقد صحح النص أو وشرح بتعليقات من أقلامهم أو تعليقات مأخوذة من الشراح القدامى . فنقل المعنى ، وان لم تنقل روح كتاب اليونان الكلاسيكيين الى العالم اللاتيني . ان جمال الأسلوب ليتبرخ اذا أريد نقله الى لغة أخرى . ولكن ثيودور جازا اختار من مؤلفات أرسطو وتيوفراستوس أكثرها قيمة . وقد فتحت كتبهم في التاريخ الطبيعي للحيوان والنبات آفاقا واسعة من العلم الأصيل والتجريبى .

ومع ذلك فقد تعقبوا غلال الميتافيزيقا السريعة الزوال ، بفضول أكبر وحماس أشد . فبعد نسيان طويل بعث أفلاطون في ايطاليا على يد عالم يونانى جليل <sup>(١)</sup> كان يقوم بالتدريس في دار كوزمو ميدتشى . وبينما كان مجمع فلورنسه منهمكا في نقاش لاهوتى ، كان من الممكن الخروج ببعض النتائج الطيبة من دراسة فلسفته الرشيقية . وقد بلغ أسلوبه أرقى مستوى في اللهجة الأتيكية . وفي بعض الأحيان كانت أفكاره السامية تلتئم مع أسلوب الحديث العادى ، وفي أحيان أخرى نجد أنه قد نمق أسلوبه بأزهى ألوان الشعر والفصاحة . فمحاورات أفلاطون صورة مثيرة لحياة حكيم وموته . وكلما هبط من بين السحب

(١) جورج جمستوس بليوثو G. Gemustus Pletho ، كاتب متعدد النواحي له مؤلفات ضخمة ، وهو أساذ بيساريون وجميع تلاميذ أفلاطون فى زمانه . زار ايطاليا فى شيخوخته ، وعاد بسرعة لينهى أيامه فى المورة .



أو من عليائه ، غرس نهجه الأخلاقي في النفوس حب الحق ، وحب الوطن ، وحب الجنس البشرى . وقد جذبت تعاليم سقراط وأمثله شكا متواضعا وبحشا حرا . وإذا كان أتباع أفلاطون قد تعلقوا في ولاء أعمى برؤى وأخطاء معلمهم المقدس ، فإن حماسهم قد يصحح من منهج مدرسة المشائين الجاف المرتبط بالعتيدة . وإذا كانت مناقب أفلاطون وأرسطو متساوية تماما ، فإنها متضادة تماما ، حتى انه يمكن موازنتها في مناظرات لا نهاية لها . ولكن قد يمكن أحداث شرارة من الحرية نتيجة الاصطدام بين ألوان العبودية المتضادة . وقد انقسم اليونانيون المحدثون في ولائهم بين المذهبين . لقد حاربوا تحت رايات قادتهم في عنف أكثر منهم في براعة . وعند هروبهم انتقل ميدان القتال من القسطنطينية الى رومه . ولكن هذا الجدل الفلسفى انحط بسرعة الى نزاع شخصى غاضب بين النحاة . ودافع يساريون ، على الرغم من أنه من أنصار أفلاطون ، عن الشرف القومى باستخدام مشورته ونفوذه للوساطة بين الفريقين . وقد تمتع المهدبون والعلماء فى حدائق دى مديتشى بالنظريات الأكاديمية . ولكن جمعيتهم الفلسفية انقضت بسرعة . وإذا كانت كتابات الحكيم الأتيكى تقرأ فى الغرف الخاصة ، فقد بقى فيلسوف ستاجيرا ، وهو أكثر قوة ، يتحكم فى الكنيسة والمدارس .

## البابا نيقولا الخامس

لقد عرضت عرضا منصفنا مناقب اليونانيين الأدبية : ومع ذلك فيجب أن نعترف بأن حماس اللاتين ثنى عليها ، بل وتفوق . وكانت إيطاليا مقسمة الى ولايات كثيرة مستقلة . وفى ذلك الوقت كان طموح

الأمراء والجمهوريات يدفعها الى المباراة بعضها مع بعض في تشجيع الأدب وبذل المكافأة عليه . وكانت شهرة نيقولا الخامس لا ترتفع الى مستوى فضله . لقد ارتقى من بين صفوف العامة نتيجة فضائله وعلمه . وسما في شخصه ، خلق الانسان والرجل فوق مصالح البابا . وقد شحذ تلك الأسلحة التي سرعان ما وجهت ضد الكنيسة الرومانية . وكان قد عقد أواصر الصداقة مع أبرز علماء العصر . ثم أصبح حاميه . وقد بلغ تواضعه حدا جعل هذا التغير لا يكاد يحسه هو نفسه ولا هم أنفسهم . فاذا ألح في قبول هدية كريمة ، فلم يكن ذلك مقياسا للجدارة ، وانما هو دليل على البر . فاذا أبت الجدارة المتواضعة قبول المنحة ، فانه كان يقول وهو يشعر بقيمته : « اقبلها ، فلن يوجد بينكم نيقولا على الدوام » . وقد انتشر نفوذ البابا في أنحاء العالم المسيحي . واستخدم هذا النفوذ في البحث عن كتب لا في البحث عن مرتبات للكنهة . وجمع من أطلال المكتبات البيزنطية ومن أحلك الأديرة ظلما في ألمانيا وبريطانيا مخطوطات كتاب العالم القديم التي علاها التراب . وعندما تعذر نقل الأصل من مكانه ، كتبت نسخة مطابقة وأرسلت اليه لاستعماله الخاص . وفي كل يوم كان يأتي الى الفاتيكان وهو المستودع القديم لقرارات البابا والأساطير ، وللخرافات والتزييف ، مصنفات أكبر قيمة . وقد بلغ نشاط نيقولا حدا يجعله يجمع في حكم دام ثمان سنوات مكتبة تحوى خمسة آلاف مجلد . ويدين العالم اللاتيني لكرمه بترجمات لأكسينوفون ، وديودور ، وبوليبوس وثوكيديديس ، وهيرودوت وأبيان ، وجغرافية استرابون ، والألياذة ، وأكثر مؤلفات أفلاطون وأرسطو قيمة ، وبطليموس وتيوفراستوس ، وآباء الكنيسة اليونانية .

وقد سبق هذا المثل الذى ضربه البابا أو حاكاه تاجر من فلورنسه حكم الجمهورية دون سلاح ودون ألقاب . كان كوزمو ميدتشى أبا لجيل من الأمراء يكاد اسمهم وعصرهم يكون مرادفا لحياء العلوم . لقد زاد فضله فذاع صيته ، ونذر ثروته لنفع الجنس البشرى . وراسل فى الوقت نفسه القاهرة ولندن . وكثيرا ما حملت الكتب اليونانية مع التوابل الهندية على السفينة نفسها . أما عبقرية حفيده لورنزو وتعليمه فقد جعلاه ، لا حاميا ، ولكن حكما ومرشحا فى السباق الأدبى . وفى قصره كان من حق من نزلت به كارثة أن يجد غوثا ، وكان من حق الجدارة أن تحظى بجائزة . وكان يقضى ساعات فراغه مبتهجا فى أكاديمية أفلاطون . ولقد شجع ديميتريوس خالكنديلس وأنجيلو بوليتيان على التنافس . ولقد عاد مبعوثه النشيط ، يانوس لاسكاريس ، من الشرق يحمل كنزا يتألف من مائتى مخطوط ، لم تكن ثمانون منها معروفة بعد فى مكتبات أوروبا . وقد ساد فى بقية إيطاليا روح مشابهة ، وعوض تقدم الأمة جود الأمراء . واحتكر اللاتين ملكية آدابهم دون منازع . واستطاع تلاميذ اليونان هؤلاء أن ينقلوا الدروس التى تلقوها وأن يدخلوا عليها تحسينا . واستمر مجيء المعلمين الأجانب فترة قصيرة ، انحسر بعدها مد الهجرات . ولكن لغة القسطنطينية انتشرت فيما وراء جبال الألب . وسلم أهالى فرنسا وألمانيا وإنجلترا <sup>(١)</sup> الى أوطانهم تلك

(١) دخلت اللغة اليونانية الى جامعة أكسفورد فى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر ، على يد جروكين ، وليناكير ولا تيمبر . وقد درس جميعهم فى فلورنسة على يد ديمتريوس خالكونديليس . أنظر « سيرة ارزم » العجيبة التى ألفها الدكتور نايت . وعلى الرغم من تعصبه الهائل لجامعته ، اضطر الى أن يعترف بأن ارزم تعلم اليونانية فى أكسفورد وعلمها فى كمبردج .

النار المقدسة التى أشعلوها فى مدارس فلورنسه ورومه . وفى الانتاج الفكرى ، كما هو الحال فى انتاج التربة ، يتفوق الجد والمهارة على هبات الطبيعة . فالمؤلفون اليونانيون الذين نسيهم الناس على شواطئ نهر ايليسوس حفظوا بالتعليق والشرح على شواطئ نهري الالب والتاميز .. وكان من الممكن أن يغبط بيساريون أو جازا البرابرة على تفوقهم العلمى ، وأن يغبط بودايوس على دقته ، وارزم لذوقه ، وستيفنز لغزارة مادته وسكاليجر لعلمه الواسع ، وريسكلى أو ينتلى على نفاذ بصيرته . وفى الجانب اللاتينى كان اختراع الطباعة فائدة عرضية . ولكن الدوس وخلفاءه الذين لا حصر لهم اسخدموا هذا الفن النافع لتخليد المؤلفات العتيقة والاكثار منها <sup>(١)</sup> . فان مخطوطا وحيدا أتى من بلاد اليونان قد بمث حيا فى عشر آلاف نسخة ، وكل نسخة أجمل من الأصل . وفى هذا الشكل الجديد كان يمكن لهوميروس وأفلاطون أن يتصفحنا كتاباتهما الخاصة ، فى رضا أكثر . ويجب على شراحهم القدامى أن ينزلوا عن الجائزة لجهود الناشرين الغربيين .

---

(١) أسست مطبعة الدوس مانوتيوس ، وهو روماني ، فى البندقية حوالى سنة ١٤٩٤ . وقد قام بطبع أكثر من ستين مؤلفا ضخما من الأدب اليونانى ، وكلها تقريبا لأول مرة . وكثير منها يحتوى على رسائل مختلفة ومؤلفين مختلفين ، وقد صدرت طبعتان أو ثلاث أو أربع لمؤلفين عديدين . ولكن مجده يجب ألا ينسينا أن أول كتاب فى اللغة اليونانية « أجرومية قسطنطين لاسكاريس » طبع فى ميلان فى سنة ١٤٧٦ وأن طبعة هوميروس فى فلورنسا ١٤٨٨ تميز بكل فنون الطباعة الانيقة .

## الاستفادة من العلوم القديمة ، وسوء استخدامها

قبل احياء الآداب الكلاسيكية كان المتبريرون في أوروبا غارقين في ظلمة الجهالة . وكانت لهجاتهم العامية تتميز بعدم الصقل وبالفقر في الأساليب . وقد فتح أمام طلبة اللغتين اللاتينية واليونانية ، وهما أكثر كمالا ، أبواب عالم جديد من النور والعلم ، وأبواب الاتصال بأمم حرة مثقفة من العالم القديم ، والاختلاط الودى مع أولئك الخالدين الذين تكلموا لغة عالية ، هى لغة الفصاحة والعقل . ومثل هذا الاختلاط يهذب حتما من ذوق المحدثين ويسمو بعقريتهم . ومع ذلك ، فربما بدا منذ التجربة الأولى ، أن دراسة القدامى قد كبّلت العقل البشرى بالقيود أكثر مما منحتة أجنحة يطق بها . ومهما كان من أمر الثناء الذى يجب أن تمتدح به روح المحاكاة ، فالتقليد موصوم بطابع العبودية . وكان أول تلاميذ اليونان والرومان عبارة عن مستعمرة أجنبية وسط زمانهم ومكانهم . وكان من الممكن أن يرفع النشاط الذى بذل في التعرف على آثار القرون الغابرة ، من أحوال المجتمعات الحاضرة أو يزيناها . لكن كان النقاد والباحثون فيما وراء الطبيعة ( الميتافيزيقا ) عبيدا للأرسطو . وكان الشعراء والمؤرخون والخطباء يفخرون بترديد أفكار عصر أوغسطس وألفاظه . وكانوا ينظرون الى أعمال الطبيعة بعين يلىنى وثيوفراستوس . وأظهر بعض مريدى الوثنية ولاء خفيا لآلهة هوميروس وأفلاطون (١) وأرهق الايطاليين قوة معاونيهم القدامى وعددهم .

١ - سأختار ثلاثة أمثلة فريدة لهذا الحماس للكلاسيكية ( ١ ) -

قال جمستوس بلىنو فى مجمع فلورنسه فى حديث ودى مع جورج أوف

وامتلا القرن الذي أعقب موت بترارك وبوكاشيو بجمهور من  
مقلدى الرومان ، وهم يرقدون الآن على رفوفنا في هدوء واحترام .  
ولكن في تلك الفترة من عصر احياء العلوم كان من الصعب ادراك  
كشف علمي حقيقي ، أو مؤلف يتميز بالابداع والفصاحة ، كتب بلغة  
البلد . ولكن ما ان تشبعت التربة بالندى السماوى تشبعا عميقا ، حتى  
سارعت الى الانبات والحياة . فصقلت اللغات الحديثة ، وأوحى الكتاب  
الكلاسيكيون في أثينا وفي رومه بذوق قفى ومنافسة كريمة . وفى ايطاليا ،  
ومن بعدها فى فرنسا وانجلترا ، أعقب عصر الشعر والقصص البهيج ،  
ضوء الفلسفة التأملية والتجريبية . قد تسبق العبقريه زمن النضوج .  
ولكن فى تعليم الشعوب ، كما فى تعليم الأفراد ، يجب تمرين الذاكرة  
قبل أن تتفتح قوى العقل والخيال . وقد لا يكون فى مقدور الفنان  
أن يؤمل فى التساوى مع أسلافه ، أو فى التفوق عليهم ، قبل أن يتعلم  
كيف يحاكي أعمالهم .

سرعان ما أعقب اتحاد الكنيستين الذى حققه مجمع فلورنسه ،  
الانفصال النهائى للكنيسة اليونانية ( ١٤٤٠ - ١٤٤٨ ) ، وعوقت  
عمليات لادسلاوس ملك بولنده ، والمجر ، وثورات يوحنا هونياد  
واسكندربرج - عوقت تقدم الاتراك ، ولكنها لم تستطع الخيلولة دون  
النتيجة النهائية . وأصبح قسطنطين باليولوغوس - كما ثبت من الأحداث -  
آخر امبراطور رومانى فى القسطنطينية ( ١٤٤٨ - ١٤٥٣ ) . وسرد  
جيبون هذه الأحداث فى الفصل السابع والستين .

طرايزون ، سوف ينشد البشر عما قريب الانجيل والقرآن ، الى ديانة الامميين  
( الكفار ) . ( ب ) - اضطهد بول الثانى الاكاديمية الرومانية ، التى كان  
قد أسسها بپونيوس لانوس ، وأنهم أعضاءها الأصليين ، بالهرطقة والزيف  
والوئسة . ( ج ) - فى القرن الثالى احتفل بعض الأدباء والشعراء فى فرنسا  
بنجاح تمثيلية جودل « كليبواترة » احتفالا أحمر ، وفدموا معراة قربانا -  
على ما قيل . على أن روح التعصب الأعمى قد تتبين زيفا خطيرا فى لعبة  
الخيال والعلم .

## الفصل الثامن والستون

(١٤٥١ - ١٤٨١)

خلق محمد الثاني وحكمه • حصاره للقسطنطينية واستيلاؤه عليها •  
دخوله المدينة • حزن أوروبا وفزعها

### خلق محمد الثاني وحكمه

يجذب حصار الأتراك للقسطنطينية انتباهنا أولاً إلى شخص «المدمر» العظيم وأخلاقه . كان محمد الثاني بن مراد الثاني ، وعلى الرغم من أن أمه ازدانت بلقب أميرة ومسيحية ، فمن المرجح أنها لم تختلف عن الخليقات العديداً اللائي ملأ حريم السلطان من كل قطر . وكانت تربيته وأحاسيسه الأولى هي تربية وأحاسيس مسلم ورع . وكلمة تحدث إلى كافر ، طهر يديه ووجهه بالمراسم الشرعية للوضوء . ويبدو أن السن والملك قد خففا من هذا التعصب الضيق . وقد احتقرت عبقريته الطامحة أن تعترف بأن هناك قوة أعلى من قوته . وثابر هذا السلطان على اظهار التبجيل اللائق لشرائع القرآن وسنته . أما حماقته الخاصة فلا بد أنها أخفيت عن آذان العامة . ويجب أن نرتاب في سذاجة الأجانب والمتشيعين الذين يميلون إلى الاعتقاد بأن أي عقل متحجر ضد الحق ، لابد أن يتسلح باحتقار فائق للسخف والخطأ . وتحت رعاية أمهر المعلمين تقدم محمد بنجاح مبكر وسريع في مسالك المعرفة . ويقال جزماً انه فضلاً عن لغته

القومية كان يتكلم أو يفهم خمس لغات هي العربية والفارسية والكلدانية أو العبرية واللاتينية واليونانية . ومن الممكن حقا أن تزيد اللغة الفارسية في متعته واللغة العربية في تهذيبه . وأمثال هذه الدراسات مألوفة لدى الشباب في المشرق . وفي الاتصالات بين اليونانيين والأتراك قد يرغب قاتح في أن يتحدث إلى الشعب الذي يطمع في أن يحكمه ، وقد يجد مديحه ، باللاتينية ، شعرا أو ثرا ، طريقا إلى أذنه الملكية . ولكن أى نفع أو فضل يجب سياسيا أو باحثا في تعلم اللهجة البشعة التي يتحدث بها عبيده من اليهود ؟ كانت ذاكرته تعى تاريخ العالم وجغرافيته . وقد حفزته سير أبطال الشرق ، وربما الغرب ، على منافستهم . ويمكن تبرير مهارته في التنجيم بجهالة زمانه ، وهذا يفترض الماما بمبادئ الرياضيات . ونمت عن تذوقه البسيط للفنون دعوته الكريمة وجوائز الثمينة للمصورين الإيطاليين<sup>(١)</sup> . غير أنه لم يكن للدين أو العلم أى أثر على طبيعته الوحشية وإباحيته . واني لن أكتب ، ولست أعتقد اعتقادا جازما في الحكايات التي تقول بأن أربعة عشر من خدمه بقرت بطونهم بحثا عن بطيخة مسروقة . أو بأن جارية جميلة قطع رأسها بالسيف ليثبت للأنكشارية أن مولاها لا يخضع لسلطان الحب<sup>(٢)</sup> . ويشهد على عدم ادمانه الخمر الحوليات التركية التي تتهم ثلاثة فقط ، من البيت

(١) انصرف من مجلسه جنتيلي بللمنو الشهير الذي كان قد استدعاه من البندقية بسلسلة وطوق من الذهب وكيس به ثلثمائة دوكات . واني لأسخر مع فولتير من الحكاية السخيفة التي تقول بأن عبدا قطعت رأسه عمدا لتلقي المصور درسا في قوة العضلات .

(٢) بنيت قصة الدكتور جونسون ، « ايرين » على هذه الحكاية . وقد أكد الكتاب المتأخرون صحة شكوك جيبيون . ويذكر بيوري أن الحكاية موجودة في كتاب سنكا ( ولد سنة ٥٥ ق.م ) ، د.م.ل.



العثماني برذيلة الخمر (١) . ولكن لا يمكن أن تنكر أن أهواءه كانت في الوقت نفسه عفيفة ولا تعرف الرحمة . وأنه في القصر كما في ميدان القتال ، جرى الدم سيلا جارفا لأقل اثاره . وأنه كثيرا ما دنس بشهواته غير الطبيعية أنبل الشبان من الأسرى . وفي الحرب الألبانية استفاد من دروس أبيه ، وسرعان ما تفوق عليه . وينسب إلى سيفه الذي لا يقهر فتح امبراطوريتين واثنتي عشرة مملكة ومائتي مدينة ، وهذا احصاء كله عبث وملتق . وكان بلا ريب جنديا ، وربما كان قائدا . وكانت القسطنطينية ماط مجده . ولكننا اذا قارنا الوسائل والعقبات والمنجزات ، لوجب أن نعزو محمدا الثاني حمرة الخجل ، اذا شبه بالاسكندر أو تيمورلنك . وفي عهده كانت القوات العثمانية التي تحت امرته دائما أكثر عددا من أعدائها ، ومع ذلك فقد حال نهر الفرات والأدریاتيك دون تقدمه ، ووقف هونياد واسكندربرج ، وفرسان رودس ، وملك فارس ، في وجه جيوشه .

وفي حكم مراد ، ذاق مرتين طعم الملك ، ونزل مرتين عن العرش . وكان صغيرا لا يقوى على الوقوف في وجه عودة أبيه إلى الحكم . ولكنه لم يستطع قط أن يعفو عن الوزراء الذين نصحوا باتخاذ هذا الاجراء السليم . وقد احتفل بزواجه من ابنة أحد أمراء التركمان ، وبعد أفراح دامت شهرين رحل مع زوجته من أدرنه ليقیم في ولاية ماغنيسيا . وقبل انقضاء سنة أساييع استدعى فجأة برسالة من الديوان ، يبلغه فيها بموت

---

(١) هؤلاء الأباطرة المتهمون بادمان الخمر هم سليمان الاول وسليمان الثاني ومراد الرابع . ويستطيع المتصوفون في فارس أن يقدموا ثبوتا أكثر انتظاما . وفي العصر الأخير كان الرحالة الأوروبيون شهودا وندماء في حفلات شرايهم .

مراد وتمرد الانكشارية . وقد أجبرهم بسرعته وشدته على الطاعة ، وعبر الدردنيل ومعه حرس اختاره وانتقاه . وعلى بعد ميل من أدرته خر الوزراء والأمراء والأئمة والقضاة والجنود والشعب ، راکعين أمام السلطان الجديد . وتصنعوا البكاء ، وتصنعوا الفرح . واعتلى العرش وهو ابن احدى وعشرين سنة وأزال أسباب الخيانة والغدر بقتل اخوته من الأطفال ، وهو عمل لم يكن منه مفر . وسرعان ما مثل سفراء أوروبا وآسيا أمامه ليهنئوه بارتقائه العرش ، وليتمسوا صداقته ، وقد تحدث الى كل بلغة ملؤها الاعتدال وحب السلام . وأحيا ثقة امبراطور اليونان بالأيمان المغلظة والتوكيد القوي الذي ختم به التصديق على المعاهدة بينهما . وخصصت منطقة غنية على شواطئ نهر ستريمون نظير ثلثمائة ألف أسبر ، وهذا المبلغ هو النفقة السنوية التي كانت تدفع لأحد أمراء آل عثمان الذي احتجز في البلاط البيزنطي بناء على طلب السلطان . ومع ذلك ، فربما جاز لجيرانه أن يرتعدوا فرقا للشدة التي استخدمها هذا الملك الشاب في اصلاح الحال في قصر أبيه . فالنفقات التي كانت تصرف على اللهو وجهت ناحية الطموح . وطردت حاشية لا فائدة منها . تتألف من سبعة آلاف ممن يصطادون بالصقور ، من خدمته أو جندت في جيوشه . وفي أول صيف من حكمه زار ومعه جيشه ولايات آسيا . وبعد أن أذل من كبرياء القاراميين تقبيل خضوعهم ، حتى لا تحوله أصغر العقبات عن مشروعه العظيم .

شيد محمد قلعة في اسوماتون على البسفور ، واعد العدة لحصار القسطنطينية ، وصنع مدفعيا ذا قوة هائلة . وفي اثناء ذلك حاول الامبراطور قسطنطين بالايولوجوس دون جدوى أن يحصل على العون من الغرب .

## حصار القسطنطينية

القسطنطينية على شكل مثلث ، وقد حصن الضلعان المتدان على ساحل البحر فامتعا على أى عدو ، وبحر مرمره محصن بالطبيعة ، أما الميناء فقد حصنتها يد الانسان . وبين المائين أقيم سور مزدوج . وحفر خندق عمقه مائة قدم لحماية قاعدة المثلث ، أغنى جانب اليابسة . وقد وجه الأتراك هجومهم الأساسى ضد هذا الخط من التحصينات الذى يقول عنه فرانزا ، وهو شاهد عيان ، انه يمتد الى مسافة ستة أميال . وبعد أن وزع الامبراطور مهام العمل واختار القواد فى اخطر المواقع ، اضطلع هو نفسه بعبء الدفاع عن السور الخارجى . وفى الأيام الأولى من الحصار نزل الجنود اليونانيون الى الخندق أو خرجوا فى هجماتهم الى الميدان ، ولكنهم سرعان ما كشفوا أنه اذا روعيت النسبة بين عدد الجيشين ، فان الجندى المسيحى كان أكبر قيمة من عشرين تركيا . وبعد هذه المقدمات الجريئة ، قنعوا ، فى حزم ، بالمحافظة على الحصن بقذائفهم . وينبغى ألا نرمى هذا الحزم بالجبن وان كانت الأمة اليونانية موصومة حقا بالخور والحطة . ولكن آخر قسطنطين يستحق لقب البطولة . وقد استلهمت عصبته النبيلة من المتطوعين فضائل الرومان . ودافعت القوات المساعدة الأجنبية عن شرف الفروسية الغربية . فكان الرمي المتصل بالحرايب والسهام يقترن بدخان مدافعهم وبنادقهم وجلبتها ونيرانها . وأطلقت أسلحتهم الصغيرة فى الوقت نفسه خمس ، بل عشر طلقات من الرصاص فى حجم الجوز ، وتبعاً لتقارب الصفوف وقوة البارود ، اخترقت الرصاصة الواحد عددا من الدروع والأجساد .

ولكن سرعان ما تحولت طرق تقدم الأتراك الى حفر أو غطيت بالأقواس .  
وكسب المسيحيون كل يوم علما أو خبرة جديدة . غير أن كمية البارود  
القليلة التي كانت لديهم ضاعت في العمليات يوما بعد يوم . ولم يكن  
عتادهم قويا من حيث الحجم أو العدد . وإذا كان لديهم بعض المدافع  
الثقيلة ، فانهم خشوا أن ينصبوها على الأسوار لئلا تخلخل الانفجارات  
تلك المشنات العتيقة وتهدمها . وقد عرف المسلمون عين السر المدمر ،  
فاستغلوه بأكبر طاقة من الحساس والمال والاستبداد . ولقد أشرنا في  
موضع منفصل الى المدفع الضخم الذي أطلق عليه مدفع محمد ، وهو  
حدث هام بارز في تاريخ تلك الأزمة . وقد أحاط بتلك الآلة الهائلة  
مدفعان آخران يكادان يساويانها في الضخامة ، وقد سددت فوهات  
مدافع الأتراك في صف طويل نحو الأسوار . وصبت أربع عشرة فرقة  
من المدفعية التركية نيرانها في وقت واحد ضد أقل المواقع مناعة . وكانت  
احدى هذه الفرق مجهزة — كما ذكر في عبارة مبهمة — بمائة وثلاثين  
بندقية ، أو أنها أطلقت مائة وثلاثين رصاصة . مع ذلك يمكن أن ندرك  
طفولة العلم الجديد من قوة السلطان ونشاطه . وفي عهد مليك كان يعد  
اللحظات ، لم يكن من المستطاع حشو المدفع الكبير وإطلاقه أكثر  
من سبع مرات في اليوم . ولكن لسوء الحظ اشتدت حرارة المعدن  
وانفجر ، وقتل عدد من العمال . وقد أعجب الناس بمهارة صانع فنان  
فكر في درء الخطر والحوادث ، بصب زيت في فوهة المدفع بعد  
إطلاقه في كل مرة .

أنتجت الطلقات الأولى التي أرسلت اعتبارا دويا أكبر وأثرا أقل .  
وكانت نصيحة أحد المسيحيين هي التي هدت المهندسين الى أن يصوبوا

مدافعهم نحو الجانبين المتقابلين من الزوايا النائية للبرج البارز . ومهما كانت عيوبها فإن قوة النيران وتكرارها تركت بعض الأثر في الأسوار . وتقدم الأتراك حتى حافة الخندق وحاولوا ردم هذه الفجوة الهائلة وتشبيد طريق لزحفهم . فألقيت فيها حزم من العيدان الطويلة لا حصر لها وبراميل وجذوع أشجار بعضها فوق بعض . وقد بلغ من تهوور الحشود أن من وقف في الصفوف الأولى أو كان ضعيفا دفع به الى أسفل الهاوية فاخفى لتوه تحت الأكوام المتكدسة . وكان هم المحاصرين أن يملأوا الحفرة ، على حين كانت سلامة المحصورين تتطلب ازالة هذه النفايات . وبعد صدام دموى طويل ، بات النسيج الذى أحكم حبه أثناء النهار ، سليما لم تمسه يد بالليل . وكانت الحيلة الثانية التى لجأ اليها محمد هى حفر الأنفاق . ولكن التربة كانت صخرية . وفى كل محاولة ، اضطره المهندسون المسيحيون الى التوقف وهدموا أنفاقه . ولم يكن معروفا بعد فن ملء الممرات المحفورة تحت الثرى بالبارود ونسف قلاع ومدن كاملة . وانه لما يميز حصار القسطنطينية الجمع بين المدفعية القديمة والمدفعية الجديدة . فقد اختلقت المدافع بالآلات الميكانيكية التى تقذف بالحجارة والسهام . وقد وجه الرصاص و الكبش <sup>(١)</sup> ضد الأسوار نفسها . ولم يحصل اكتشاف البارود دون استخدام النار السائلة التى لا تنطفىء . وتقدمت قلعة من أضخم القلاع حجما على أسطوانات . وكان يحمى هذا المخزن المتنقل الملىء بالذخيرة وحزم العيدان الطويلة ، غطاء مكون من

---

(١) آلة حربية كان القدماء يستخدمونها فى ذلك أسوار المدن

المحاصرة .

ثلاث طبقات من جلود الثيران . واستمر القاء القذائف بدقة من الفتحات . ومن الأمام تحايّلوا على فتح ثلاثة أبواب لهجوم الجنود والعمال أو تفهقهم . لقد صعدوا بسلاّم الى الطابق الأعلى ، ورفعوا بالبكر سلاّلم الصعود الى ارتفاع مساو لذاك الطابق ، لتكوين قنطرة تمسك بالحصى المقابل . وبأفانين المضايقات العديدة هذه ، وبعضها كان جديدا كما كان مؤذيا لليونانيين ، هدمت في النهاية قلعة القديس رومانوس . وبعد نضال شديد ارتد الأتراك عن الجزء الذي هدم وعوق الظلام استمرارهم في الهجوم . ولكنهم كانوا على ثقة من استئناف الهجوم عند بزوغ النهار ، بقوة جديدة ونجاح حاسم . وفي فتره التوقف ، أو فترة الأمل هذه ، زاد في قيمة كل لحظة منها ، نشاط الامبراطور وجستيناني اللذين قضيا الليل في الميدان ، يستنهضان الهمم لعمل كل ما تقتضيه سلامة المدينة والكنيسة . وفي فجر ذاك اليوم لاحظا السلطان الذي عيل صبره ، في دهش وحزن ، أن قلعته الخشبية قد تحولت الى رماد ، وأن الحفرة قد أزيل منها كل النفايات وعادت كما كانت ، وأن قلعة القديس رومانوس عادت مرة أخرى متينة كاملة البنيان ، فرثى لفشل خطته . وتفوه بالفاظ بذينة صائعا بأن كلمة سبعة وثلاثين ألف نبى لم تكن لتجبره على الاعتقاد بأن الكفسار يستطيعون تنفيذ مثل هذا العمل في مثل هذا الوقت القصير .

وكان سخاء الأمراء المسيحيين فاترا وبطيئا . وكان قسطنطين حاملاتوجس خيفة من الحصار ، قد اتصل بجزر الأرخبيل والمورة وصقلية للحصول على أهم المعدات التي لا غنى له عنها . وفي وقت مبكر ، في أوائل أبريل ، كان على خمس سفن كبيرة مجهزة لحمل

البضائع وللقتال ، أن تبحر من ميناء خيوس ، لولا أن الريح هبت باستمرار من الشمال . وكانت إحدى هذه السفن ترفع العلم الامبراطورى . أما السفن الأربع الأخرى فكانت ملكا لجنوه ، وكانت محملة بالقمح والشعير والنبذ والزيت والخضروات ، وخاصة بالجنود والبحارة للدفاع عن القسطنطينية . وبعد تأخير ممل حملهم نسيم رخاء . وفى اليوم التالى هبت ريح عاصفة قوية من الجنوب حملتهم عبر الدردنيل وبحر مرمرة . ولكن المدينة كانت محاصرة بحرا وبراً . وكان الأسطول التركى يمتد على مدخل البسفور من الشاطئ على شكل هلال ليعترض ، أو الاقل ليصد هذه القوات المساعدة الجريئة . وستخيل القارئ الذى يستحضر فى ذهنه الصورة الجغرافية للقسطنطينية ، عظمة هذا المنظر وسيعجب به . واستمرت السفن المسيحية الخمس فى التقدم مع صيحات بهيجة ودفع من الريح والمجاديف ضد أسطول الاعداء المؤلف من ثلثمائة سفينة . واصطف نظارة لا حصر لهم على الحصن وفى المعسكر على شواطئ أوروبا وآسيا ينتظرون فى قلق نتيجة النجاة الخطيرة . ولأول وهلة لم يكن من الممكن أن يتطرق أى شك فى النتيجة . وكان تفوق المسلمين فوق كل تقدير وكل بيان . وفى جو ساكن ، كان من المحتسوم أن تغلب أعدادهم وشجاعتهم . ولكن أسطولهم الذى جمع بسرعة وبطريقة مرتجلة ، لم يكن نتيجة لعبقرية الشعب ، ولكن اطاعة لارادة السلطان . ولقد اعترف الأتراك ، وهم فى ذروة ازدهارهم ، أنه اذا كان الله قد أعطاهم الأرض ، فقد ترك البحر للكفار . وقد أثبت العديد من الهزائم والسير السريع نحو الانحلال صدق اعترافهم المتواضع . واذا استثنينا ثمان عشرة بارجة لها بعض

القوة ، فان باقى الأسطول كان يتألف من قوارب مفتوحة ، شيدت على نهج سبىء وأبحرت بطريقة خاطئة . وازدحمت بالجنود ، وخلت من المدافع . ولما كانت الشجاعة الى حد كبير وليدة الشعور بالقوة ، فقد يرتعد أشجع الانكشارية فرقا أمام عنصر جديد . وكان لدى المسيحيين خمس سفن ضخمة عالية يقودها ملاحون مهرة ، وعليها قدماء المحاربين فى ايطاليا وبلاد اليونان ممن توفرت لهم الخبرة بفنون البحر وأخطاره . وقد وجه ثقلها لاغراق العقبات الهزيلة التى اعترضت سيرها وتشتيتها . واكتسحت مدافعهم المياه . وصبت النار السائلة على رؤوس الأعداء الذين تجرأوا على الاقتراب من سفنهم ، وكان هدفهم الصعود على ظهور السفن اليونانية .. وتقف الريح والأمواج دائما الى جانب أمهر البحارة . وفى هذا النزاع أنقذ بحارة جنوه السفينة الامبراطورية التى كادت تهزم . ولكن الأتراك فى هجوم بعيد وهجوم أقرب ردوا على أعقابهم مرتين بخسارة جسيمة . ووقف محمد نفسه على ظهر جواده على الشاطئ ليستحث الهمم بصوته ووجوده . واعداء بالشواب ، متوعدا بعقاب دونه الخوف من العدو . وكانت خلجات نفسه ، بل وحركات جسمه تحاكي على ما يظهر أعمال المقاتلين . وهمز ، وكأنه سيد الطبيعة ، فى جهد جريء ولكنه عظيم ، جواده ليقنح البحر . وحفز سبابه المدوى وصيحات المعسكر العثمانيين على القيام بهجوم ثالث أكثر تدميرا ودموية من سابقه . ويجدر بى أن أكرر شهادة فرائزا ، ولو أنى لا أثق فيها . فهو يجزم بأنهم فقدوا ، كما ذكروا هم أنفسهم ، أكثر من اثنى عشر ألف رجل فى مذبحه فى ذلك اليوم ، وهربوا دون نظام الى شواطئ أوروبا وآسيا ، بينما سارت الفرقة المسيحية منتصرة دون أن يمسها أذى



بجوار ساحل البسفور ورسى في طمأنينة داخل سلسلة الميناء . وفخروا في ثقة المنتصر بأن قوة الأتراك كلها لا بد أنها تراجعت أمام أسلحتهم . ولكن الأدميرال التركي أو الباشا القبطان وجد بعض العزاء عن جرح أليم أصابه في عينه ، زاعما أن ذلك الحادث كان السبب في هزيمته . كان « بالتاوغلى » مارقا من أمراء البلغار . وكان الجشع ، وهو رذيلة مذمومة يدنس صفاته الحربية ، وفي ظل استبداد السلطان أو الشعب يعتبر سوء الحظ دليلا كافيا على الذنب . فجرد من منصبه واستغنى عن خدماته لعدم رضا محمد عنه . وفي الحضرة الملكية طرح أربعة من العبيد الباشا القبطان على الأرض ، وضرب مائة جلدة بعضا من ذهب . وكان قد حكم عليه بالاعدام . ولكنه يشيد برفق السلطان الذى قنع بعقوبة أخف ألا وهى مصادرة أمواله وتقيده . وقد أحيا دخول هذه المؤونة الى مدينة القسطنطينية آمال الاغريق ، كما كان سبة في جبين حلفائهم الغربيين ، واتهاما لهم بالتقاعس . ففى وسط صحارى الأناضول وصخور فلسطين وجد ملايين الصليبيين لأنفسهم بارادتهم قبورا لا مفر منها . ولكن مركز المدينة الامبراطورية كان منيعا ضد أعدائها ، ولكنه فى متناول أصدقائها . وكان من الممكن أن قوة معقولة ومتواضعة من الدول البحرية تنقذ بقايا الاسم الرومانى ، وتحفظ بقلعة مسيحية فى قلب الامبراطورية العثمانية . ومع ذلك فقد كانت هذه هى المحاولة الضعيفة الوحيدة لانتقاذ القسطنطينية . ولم تشعر الدول النائية بخطرها ، وأقام سفير المجر ، أو على الأقل سفير هونيد ، فى المعسكر التركى ليزيل مخاوف السلطان ويوجه عملياته العسكرية .

وكان من الصعب على اليونانيين أن يصلوا الى أسرار الديوان .

ولكن اليونانيين اعتقدوا أن مقاومة عنيدة ومذهلة كهذه قد أرهقت جلد السلطان ، فبدأ يفكر في التقهقر . وكان من الممكن أن يرفع الحصار بسرعة ، لولا أن طموح الوزير الثاني أو حقه عارض النصيحة الخائنة التي قدمها خليل باشا ، وكان هذا لا يزال يرسل البلاط البيزنطي سرا . وبدأ أنه لا أمل في إخضاع المدينة ، الا اذا حدث هجوم مزدوج من الميناء ومن اليابسة في الوقت عينه ولكن الميناء كان منيعا ، وكانت هناك ثمان سفن كبيرة وأكثر من عشرين سفينة أصغر حجما ، مع بوارج عديدة وسفن ذوات سارية واحدة . وكلها تحرس الآن سلسلة لا يمكن اختراقها . وبدلا من اقتحام هذا الحاجز ، ربما كان الأتراك يخشون هجوما بحريا وصداما آخر في عرض البحر . وفي غمرة هذه الحيرة نفذ محمد خطة جريئة عجيبة ، كانت عبقرته قد تفتت عنها ، ذلك أنه نقل سفنه الخفيفة ومخازنه العسكرية من البسفور الى الجزء الأعلى من الميناء . وتبلغ المساحة عشرة أميال تقريبا . وكانت الأرض غير مستوية ومغطاه بالأحراش . ولما كان الطريق يجب أن يبقى مفتوحا وراء ضاحية غلظه ، فان حرية مرورهم ، أو تدميرهم تدميرا تاما كانت تعتمد على ارادة بحارة جنوه . غير أن هؤلاء التجار الأتانيين كانوا يطمعون في أن يكونوا آخر من يفترسهم الأتراك ، على أن قوة الألوف المطيعة عوضت عن النقص في الفن والمعرفة . فتمت تغطية طريق مستو بسطح عريض من قطع الخشب القوية الصلبة ، ودهنت بشحم الفم والثيران لجعلها ملساء صالحة للانزلاق . وأُنزلت الى البر على شاطئ البسفور ثمانون بارجة خفيفة وسفينة مزدوجة الصواري . لكل منها خمسون أو ثلاثون مجدافا ، ووضعت تباعا على بكر وجرت الى

الأمم بقوة الرجال والبكرات . ووضع دليان أو مرشدان أحدهما عند الدفة والآخر في مقدمة السفينة ، ونشرت الأشرعة أمام الريح وانشرت صدور المشتركين في هذا العمل بالأغاني والتهافتات . وفي ليلة واحدة صعد هذا الأسطول التركي التل بصعوبة . وشق طريقه على السهل ، ونزلت السفن من المنحدر الى مياه الميناء الضحلة في موضع تكون فيه بمنأى عن تحرش سفن اليونانيين التي كانت تقف في مكان أكثر انخفاضاً . وقد زاد من الأهمية الحقيقية لهذه العملية الحربية ما أحدثته من ذعر ، وما بعثته من ثقة . ولكن هذه الحقيقة المشهورة التي لا نزاع فيها ، حدثت أمام أعين الأمتين ووصفتها أقلام كل من الجانبين . ولكم استخدم القدماء خدعة مشابهة مرارا وتكرارا . ويجب القول بأن بوارج الأتراك قوارب كبيرة ( وبجدر أن أكرر كذلك ) ، وإذا قارنا الضخامة والمسافة ، وانعوائق والوسائل . فمن المحتمل أن الجد والمثابرة في زماننا هذا قد خلقا ما يساوى هذه المعجزة التي كانوا يفاخرون بها . وسرعان ما احتل محمد الجزء الأعلى من الميناء بأسطول وجيش ، حتى أنشأ في أضيق مكان قنطرة ، أو بالأحرى حاجزا عرضه خمسون ذراعا وطوله مائة ذراع يتكون من براميل صغيرة وكبيرة ربط بعضها الى بعض بعارضات من الخشب مثبتة بالحديد ومغطاة بأرضية متينة . وعلى هذا الرمث العائم وضع محمد أحد مدافعه الضخمة ، بينما اقتربت البوارج الثمانون مع الجنود وسلالم الصعود الى الجانب الأقل منعة ، وهو الجزء الذي كان قد استولى عليه الغزاة من اللاتين غنوة . وقد انهم المسيحيون بالخصول لعدم تدميرهم هذه الأعمال قبل أن تتم . ولكن نيرانهم تحكمت فيها وأسكتها نيران أكثر تفوقا ، ولم تنقصهم

الهمة ليقوموا بهجوم ليلي محاولين احراق سفن السلطان ، وقنطرة السلطان سواء بسواء . ولكن يقظته حالت دون اقترابهم . وأغرقت قواربهم الأمامية أو أسرت ، وقتل أربعون شابا ، هم أشجع شبان ايطاليا وبلاد اليونان ، بطريقة وحشية بأمر منه . ولم يكن من الممكن أن يخفف من لوعة الامبراطور ذلك الانتقام العادل ، ولو أنه قاس ، بعرض رموس مائتين وستين مسلما فوق الأسوار . وبعد حصار استمر أربعين يوما ، لم يعد من الممكن تجنب مصير القسطنطينية . لقد أنك الهجوم المزدوج الحامية الصغيرة . وهشمت المدفعية العثمانية من كل جانب التحصينات التي وقفت عصورا ضد عنف الاعداء . وقد فتحت فرج كثيرة في الأسوار . وسويت بالأرض بالقرب من باب القديس رومانوس أربع قلاع . واضطر قسطنطين لكي يدفع أجور جنوده الضعفاء المشاغبين ، الى أن يسلب الكنائس تحت وعد برد أربعة أمثال القيمة . وعطلت روح الشقاق البقية الباقية من القوة المسيحية . فاتهم جستيانيان والدوق العظيم كل منهما الآخر بالخيانة والجبن ، ولم يكن الخطر العام قد أخذ طموحهما . وراحت القوات المساعدة من البندقية وجنوه تؤكد تفوق الخدمات الخاصة التي قام بها كل فريق منهما .

وفي أثناء حصار القسطنطينية كانت كلمات السلم والتسليم تردد على الألسنة في بعض الأحيان ، وترددت سفارات عديدة بين المعسكر والمدينة . لقد أذلت الكارثة امبراطور اليونان ، فكان على استعداد أن يقبل أى شروط تتفق مع الدين والملك . وكان سلطان تركيا يرغب في تهادى سفك دم جنوده . كما كان أشد رغبة في الاستيلاء على

كنوز بيزنطة لاستعماله الخاص . وكان ينفذ أوامر الشرع عندما عرض على الكفار اختيار الختان أو الجزية أو الموت . وربما أرضى جشع محمد مبلغ سنوى مقداره مائة ألف دوكات . ولكن طموحه تعلق بعاصمة الشرق . فعرض على الأمير مبلغا مائلا وعلى الأهالى تسامحا حرا أو خروجا آمنا . ولكن بعد بعض المفاوضات العقيمة ، أعلن عزمه على أن يبنى له تحت أسوار القسطنطينية عرشا أو يخفر قبرا . ثم ان باليولوغوس أبى عليه احساسه بشرفه وخوفه من لوم الناس له ، أن يسلم المدينة الى أيدي العثمانيين . وقرر أن يخوض غمار الحرب الى أقصى نهايتها . وقضى السلطان عدة أيام فى اعداد هجومه . وقد أمده التنجيم ، وهو العلم الأثير لديه ، بمهلة أو فترة هدوء وراحة ، حيث حددت له النجوم اليوم التاسع والعشرين من شهر مايو على أنه الساعة السعيدة الفاصلة . وفى مساء اليوم السابع والعشرين أصدر أوامره النهائية ، وجمع فى حضرته رؤساء الجيش ، وبعث رسله فى أرجاء المعسكر معلنين وجوب القيام بهذا المشروع المخوف بالمخاطر وحوافزه . ان الخوف هو أول مبادئ حكومات الطغيان . وقد ساق تهديداته فى أسلوب الشرق فقال بأن الهاربين والفارين ، ولو كانت لهم أجنحة الطير ، لن ينجوا من عدله الذى لا يعرف الصفح . وكان الجزء الأكبر من باشواته وانكشاريته ينحدرون من والدين مسيحيين . ولكن مواصلة التبنى خلد اسم الأتراك ومجسدهم . وفى التغيير التدريجى للأفراد حفظت روح الكتيبة أو الفرقة أو الغرفة ، حياة بفضل المحاكاة والنظام . وفى هذه الحرب المقدسة أمر المسلمون بتطهير أنفسهم بالصلاة ، وأجسامهم بالوضوء سبع مرات وبالإمساك

عن الطعام حتى نهاية اليوم التالي . وزار عدد كبير من الدراويش الخيام لغرس الرغبة في الاستشهاد والتوكيد بحياة شباب دائم بين أنهار الجنة وحدائقها في أحضان العذارى ذوات العيون السود . ولكن محمدا اعتمد أساسا على فاعلية الجوائز الدنيوية المرئية . فوعد بدفع الأجر مضاعفا للجنود المنتصرين : فقال محمد : « المدينة والمباني لى ، ولكنى متنازل لشجاعتكم عن الأسرى والأسلاب ، وكنوز الذهب ، والجمال ، فانعموا بالثراء والسعادة . ان الولايات التى تتألف منها امبراطوريتى كثيرة : وسيكافأ أول جندى جرى يتسلق أسوار القسطنطينية بحكم أغناها وأجلها ، وسيزيد اعترافى بجميله من أمجاده وثروته أكثر بكثير مما يؤمل » . ونشرت أمثال هذه الحوافز القوية المختلفة بين الأتراك حساسا عارما ، غير عابئين بالحياة ، متعجلين ساعة العمل . وردد المسكر هتافات المسلمين : « الله أحد . لا اله الا الله ، محمد رسول الله » . وسطعت نيرانهم الليلية فأضاءت البحر والبر من غلظه الى الأبراج السبعة .

وكانت حال المسيحيين تختلف اختلافا كبيرا . فقد علت شكواهم دون جدوى ، وهم يندبون خطاياهم أو العقاب الذى نزل بهم من أجلها . لقد عرضت صورة العذراء السماوية في موكب جليل . ولكن حاميتهم المقدسة أصمت آذانها دون توسلاتهم . وعابوا على الامبراطور عناده ، اذ رفض التسليم في الوقت المناسب ، وتراءى لهم أمام أعينهم مصيرهم البشع . وتنهّدوا في لهفهم على الهدوء والطمأنينة في ظل العبودية التركية . ودعى أنبل اليونانيين وأشجع الحلفاء الى القصر في مساء الثامن والعشرين لاعدادهم لواجبات الهجوم العام وأخطاره .

وكانت آخر خطبة ألقاها بالايولوجوس ، هي رثاء الامبراطورية الرومانية . وبذل الوعود واسترجع الماضي ، وحاول عبثا أن يحيى أملا خمد في فؤاده . فكان كل شيء في هذا العالم مضنيا كئيبا . ولم يقدم الانجيل أو الكنيسة جزاء وفاقا للأبطال الذين يسقطون في ميدان الدفاع عن أوطانهم . غير أن المثال الذي ضربه عليهم وتضييق الحصار سلحا هؤلاء المحاربين بشجاعة اليأس . وقد وصف هذا المنظر المؤلم المؤرخ فرانزا وأودع في وصفه جميع أحاسيسه ، وكان هو نفسه أحد من حصروا هذا الاجتماع الحزين : « انهم بكوا وتعانقوا دون نظر الى نسب أو حسب أو ثروة ، ونذروا حياتهم . وعاد كل قائد الى مركز قيادته وأقام حراسة قلقة يقظة طوال الليل على الحصن . ودخل الامبراطور وبعض رفقاءه الأوفياء الى قبة أياصوفيا التي قدر لها أن تتحول الى مسجد بعد ساعات قلائل ، وتسلم القربان المقدس في خشوع ، بين البكاء والدعاء . ثم آوى بعض الوقت الى القصر الذي ضج بالصياح والعيول ، وطلب الامبراطور الصفح عن يكون قد ألحق به أى أذى وامتطى جواده ليزور الحرس ، وليستطلع حركات العدو . ان كارثة آخر قسطنطين وسقوطه لأكثر مجدا من الرخاء الطويل الذى استمتع به قياصرة بيزنطة .

## الاستيلاء على القسطنطينية

قد يحالف التوفيق أحيانا محاربا يشن الهجوم تحت جنح الظلام . ولكن أملت على محمد في هجمته العارمة العظيمة ، حكمته الحربية وعلمه بأسرار النجوم ، أن ينتظر فلق الصباح في اليوم التاسع والعشرين

من شهر مايو سنة ١٤٥٣ م . واقضت الليلة السابقة في عمل دائب  
وجهد متواصل . وتحركت الجنود والمدافع وحزم الأعواد الى الأمام  
حتى بلغت حافة الحفرة التي هيأت في بعض أجزائها ممرا مستويا  
أملس الى الفجوات . وكادت بوارجه الثانويون أن تمس بمقدماتها  
وسلالم التسلق أقل اسوار الميناء مناعة . وفرض الصمت التام وجعل  
الاعدام عقوبة المخالفة . ولكن قوانين الحركة والصوت لا تخضع للنظام  
أو الخوف . وقد يخفض كل شخص من صوته ويحد من خطواته ،  
ولكن سير ألوف من الناس وأعمالهم لا بد أن تحدث ضوضاء مضطربة  
غير ناطقة تصل الى آذان المراقبين في الأبراج . وعند بزوغ النهار ،  
ودون اطلاق مدفع الصباح ، وهي العلامة المعتادة ، هاجم الأتراك  
المدينة برا وبحرا . وقد شبت صفوف هجومهم في تراصها وامتدادها  
المتصل بخيط منقول مجدول . وكانت نقاية الجيش تؤلف مقدمته  
الأولى ، وتتكون من عديد من المتطوعين حاربوا دون نظام ودون  
قيادة . وكانت تضم الضعاف في سن الكهولة أو الطفولة ، والفلاحين  
والمشردين ، وكل من لحقوا بالمعسكر يحدوهم أمل أعمى في السلب  
والاستشهاد . وقد دفعهم الحافز العام نحو الأسوار . وقذف في  
التو بأشد المتسلقين جرأة وصلابة . ولم يضع سدى أى سهم  
أو قذيفة أطلقها المسيحيون على هذه الكتل البشرية . ولكن قوتهم  
وذخيرتهم نفذت في هذا الدفاع الشاق . وسرعان ما ملئت الحفرة بجثث  
القتلى ، فسار عليها رفاقؤهم . فكان موت هذه الطلائع المتفانية أجدى  
من حياتها . وسبق جنود الاناضول ورومانيا بعضهم وراء بعض الى  
الهجوم يقود كل فريق بأشواته وسناجقه . وكان نجاحهم متفاوتا



ومشكوكا فيه . وبعد صدام دام ساعتين كان اليونانيون لا يزالون يحتفظون بامتيازهم ، بل لقد حاولوا تحسين موقفهم . وسمع صوت الامبراطور وهو يشجع جنوده على بذل آخر جهد لانقاذ وطنهم . وفي تلك اللحظة الحاسمة ظهر الانكشارية الذين لم يشتركوا بعد ، اقوياء لا يقهرون . وكان السلطان نفسه على ظهر جواده وييده صولجان من الحديد يرقب شجاعتههم ويقدر بسالنتهم وكان يحيط به عشرة آلاف من جنوده الأتراك الذين احتفظ بهم للحظة الفاصلة . وكان صوته وعينه توجهاً سير الحرب وتدفعانها . وكان وزرائه العديدون ، وكأنهم قضاة ، قد اتخذوا أماكنهم في مؤخرة الصفوف ليحثوا الجنود وليمنعوا هروبهم ويعاقبوا الفارين . وإذا كان الخطر يواجه الفارين في المقدمة ، فإن الخزي والموت المحتوم ينتظرهم في المؤخرة . وقد غطت الموسيقى الحربية من الطبول والأبواق على صيحات الخوف والألم . وقد دلت التجربة على أن الأصوات الميكانيكية ، بتنشيطها الدورة الدموية وتقويتها الروح المعنوية ، تؤثر في الآلة البشرية أكثر مما تؤثر فصاحة الشرف والعقل . وقصفت المدفعية العثمانية في جميع الجهات من الخطوط والبوارج والقنطرة . ولفت سحب الدخان المسكر والمدينة ، واليونانيين والأتراك . ولم يكن في الامكان أن ينقشع هذا الدخان الا بانقضاء الامبراطورية الرومانية أو تدميرها نهائياً . ان المبارزات الفردية بين أبطال التاريخ أو الأساطير يطرب لها خيالنا ، وتستهوئ أفئدتنا ، أما التطوير البارع لفنون الحرب فانه يغذى عقولنا ، ويرتفع بمستوى علم ضروري وان يكن قتالاً . ولكن في الهجوم العام ، وهو يتخذ صوراً متكررة كريهة ، ليس

ثمة شيء غير الدم والقرع والاضطراب . ولن أحاول بعد ثلاثة قرون على بعد ألف ميل ، أن أرسم صورة لمنظر من المحال أن يوجد فيه نظارة أو متفرجون ، ومثلوه أو المشتركون فيه أنفسهم لا يستطيعون أن يكونوا عنه فكرة عادلة كافية .

ومن الجائز أن ينسب ضياع القسطنطينية المباشر الى الرصاصة أو السهم الذى اخترق قفاز جون جستينانى . لقد أرق منظر الدم والألم الشديد شجاعة هذا الزعيم الذى كان سلاحه كما كانت نصائحه أقوى وأثبت حصن للمدينة . وعند تركه موقعه للبحث عن جراح ، لاحظ الامبراطور الذى لا يعرف الكلل هربه واستوقفه ، وصاح بالايولوغوس : « جرحك بسيط ، ولكن الخطر يدهمنا ووجودك ضرورى . ثم الى أين أنت ذاهب ؟ وأجاب ابن جنوة وهو يرتعد : « سأذهب فى الطريق نفسه الذى فتحه الله للأتراك » . وبعد أن فاه بهذه الكلمات سارع باخترق احدى الفجوات فى السور الداخلى . وقد دنس حياته الحرية بهذا العمل الجبان ، وقد امتلأت الأيام القليلة التى عاشها بعد ذلك فى غلطة أو جزيرة خيوس بالمرارة : مرارة تأنيب الضمير ، ومرارة لوم الناس . واقبى أثره الجزء الأكبر من القوات المساعدة من اللاتين ، وبدأ الدفاع فى التراخى ، عندما ضغط الهجوم بقوة أكبر . وكان عدد العثمانيين خمسين وربما مائة مرة قدر عدد المسيحيين . وقد حولت المدفعية السور المزدوج الى أنقاض . وفى محيط عدة أميال لا بد أنه كان ثمة مواقع أقرب منالا ، أو كان الدفاع عنها أضعف . وإذا استطاع المحاربون أن ينفذوا من نقطة واحدة ، فقد ضاعت حتما المدينة كلها دون أمل فى استعادتها . وكان أول من استحق جائزة

السلطان جندى من الانكشارية اسمه حسن ، وكان ذا قامة فارعة وبأس شديد . فتسلق التحصينات الخارجية مسكاً باحدى يديه سيفه وبالأخرى ترسه . ومن بين الثلاثين انكشاريا الذين كانوا ينازعونه البطولة هلك ثمانية عشر فى المغامرة الجريئة . ولكن حسن ورفاقه الاثنى عشر وصلوا الى الذروة . وقد قذف بهذا العملاق من فوق السور ، ولكنه نهض على ركبة واحدة ليواجه سيلا من السهام والأحجار . على أن نجاحه قد برهن على أن انجاز العملية ممكن ، وامتلات الأسوار والقلاع تواقاً بأفواج من الأتراك ، وتغلبت الجموع المتزايدة على اليونانيين الذين طردوا من مواقعهم المرتفعة . ووسط هذه الجماهير الغفيرة كان الامبراطور <sup>(١)</sup> الذى أدى جميع واجبات القائد والجندى ، على مرأى من الجميع طول الوقت ، ثم افتقد نهائياً . ودافع النبلاء الذين حاربوا حوله الى آخر لحظة من حياتهم عن شرف اسمى باليولوغوس وكنتاكوزين . ولقد سمعت صيحه الحزينة : « أليس من بين المسيحيين من يقطع رأسى ؟ » اذ كان يخشى آخر ما يخشى ، أن يقع حياً فى أيدي

(١) يقول دو كاس انه خر صريعاً بضربتين من جندى تركى . ويقول خلقنديليس أنه جرح فى كتفه ، ثم بعد ذلك وطئته الأقدام . أما فرانزا فيقول بأنه اندس بين الأعداء ، وبهذا يتخلص المؤرخ الحزين من تبيان الصورة الدقيقة لموته . ولكننا نستطيع أن نستعير دون ملق هذه الأبيات النبيلة لدريدن :

أما عن سياستين ، فليبحثوا عنه فى الميدان ،  
 وحيث يجدون جبلاً من القتلى ،  
 فليبحثوا برجل ليصعد هذا الجبل ، ولينظروا الى أسفل ،  
 فسيجدونه ملفى ممداً بطوله العظيم ،  
 ووجهه ينظر الى أعلى الى السماء ، فى ذاك الحدث الأحمر ،  
 الذى حفره له سيمه العظيم .

الكفار . وقد ألقى قسطنطين في يأسه الحازم بالحلة الأرجوانية ، وفي غمرة هذا المعترك سقط قتيلًا بيد مجهولة . وتوارى جثمانه تحت أكדاس الجثث . وبعد موته لم يعد هناك مقاومة ولا نظام . فهرب اليونانيون في اتجاه المدينة . وسقط الكثيرون فاختنقوا في المر الضيق الموصل الى بوابة سانت رومانوس . وسارع الأتراك المنتصرون الى الدخول من الفجوات في السور الداخلى . وعندما تقدموا في الطرقات لحق بهم بسرعة اخوانهم الذين حطموا بوابة فينسار Phenar على جانب الميناء . وفي حمأة المطاردة الأولى قتل حوالى ألفين من المسيحيين . ولكن سرعان ما تغلب الجشع على القسوة . واعترف المنتصرون بأنه كان يجب عليهم الامتناع عن التقتيل مباشرة لولا أن مقاومة الامبراطور وفرقه المنتقاة قد حذرتهم من مقاومة مماثلة في كل جزء من العاصمة . وعلى هذا النهج ، وبعد حصار دام ثلاثة وخمسين يوما ، سقطت الى الأبد أمام جيوش محمد الثانى ، القسطنطينية التى كانت قد تحدت قوة خسرو وجنكيزخان والخلفاء . ان اللاتين هم الذين قضوا على امبراطوريتها . ولكن المسلمين الفاتحين هم الذين امتنعوا ديارتها .

وتطير أخبار الكوارث على جناح السرعة . الا أن مساحة القسطنطينية كانت من السعة بحيث أمكن للأحياء البعيدة أن تطيل لوقت قصير أمد جهلها بالخراب الذى حل بالمدينة . ولكن في الفزع العام ، وفي الاحساس بالقلق الذاتى أو الاجتماعى ، وفي صخب الهجوم ورعده ، لا بد أن الناس لم يذوقوا طعم النوم فى ليهم أو نهارهم . ولست أستطيع أن أصدق أن كثيرات من السيدات اليونانيات قد

أيقظهن الانكشارية من سبات عميق هادى . وعند التأكد من الكارثة العامة ، هجرت في التو الدور والأديرة ، وازدحم الأهالى وهم يرتعدون فرقا في الطرقات ، كأنهم قطع من الحيوانات المذعورة . وكأن الضعف اذا تراكم ينتج قوة ، أو كأنهم قد راودهم أمل كاذب في أن الفرد قد يشعر وسط الزحام بالأمن ، وكأنه لا يراه أحد . وتدفق الناس من جميع الجهات في العاصمة الى كنيسة أياصوفيا . وفي ظرف ساعة امتلأ الحرم المقدس والمكان المخصص للجوفة والصحن والشرفات العليا والسفلى بعدد من الآباء والزوجات ، من النساء والأطفال ، من القساوسة والرهبان ، والعداري القديسات . وأغلقت الأبواب بالمتاريس من الداخل . وطلبوا الحياية من هذه القبة المقدسة التي كانوا يبغضونها منذ وقت قريب كبناء دنس ملوث . وقد ينون ثقتهم على نبوءة متحمس أو دجال بأنه في يوم من الأيام سيدخل الأتراك القسطنطينية وسيطاردون الرومان حتى عمود قسطنطين في ميدان أياصوفيا ، وأن ملكا سيهبط من السماء ويده سيف ، وأنه سيسلم الامبراطورية وهذا السلاح السماوى الى رجل فقير جالس في أسفل العمود قائلا له : « خذ هذا السيف وانتقم لشعب الرب » وعند سماع هذه الكلمات المثيرة ، سيفر الأتراك توا ، وسيطردهم الرومان المظفرون من الغرب ومن الأناضول الى حدود فارس . وينتهز دوكاس تلك الفرصة ليوجه اللوم ، في شيء من الخيال وفي كثير من الصدق ، الى شقاق اليونانيين وعنادهم : فيصيح هذا المؤرخ : « لو أن هذا الملك قد ظهر فعلا ، ولو أنه عرض عليكم أن يدمر أعداءكم تدميرا تاما ، شريطة أن توافقوا على وحدة الكنيسة ، لرفضتم سلامتكم أو لخدعتم ربكم حتى في هذه اللحظة المصيرية » .

وبينما كانوا ينتظرون هبوط هذا الملك المتباطيء ، حطمت الأبواب  
بالقنوس ولم يلق الأتراك أية مقاومة ، فانصرفوا دون حرب أو قتال الى  
اختيار أسراهم العديدين وربطهم . وقد جذب الشباب والجمال  
ومظهر الثراء أنظارهم ، وحدد حق التملك فيما بينهم بالسبق في  
الاستيلاء أو القوة الشخصية أو سلطان القيادة . وفي ظرف ساعة  
كان الأسرى من الرجال قد ربطوا بالجمال ، والأسيرات من النساء قد  
ربطن بالنقب والأحزمة . وربط اعضاء السناتو مع عبيدهم ، ورجال  
الكنيسة مع بوابيها ، وسيدات الطبقة الدنيا مع عذارى نبيلات لم تر  
الشمس أو أقرب أقربائهن وجوههن . وفي هذا الأسر العام اختلطت  
طبقات المجتمع ، ومزقت الروابط الطبيعية ، ولم يلق الجندي العنيد  
الصلب بالا الى آهات الأب أو دموع الأم أو عويل الأطفال . وكانت  
الراهبات أكثرهن نحيبا ، فقد اتزعن من المذاحج بصدور عارية وأيد  
ممتدة وشعر أشعث ، ويجدر بنا أن نؤمن في ورع بأن القليلات منهن  
أمكن اغراؤهن بإثثار السهر في الحريم على التهجد في الدير . ومن  
هؤلاء اليونانيين البائسين ، من هذه الحيوانات الوديمة ، سقطت  
صفوف ضخمة بطريقة بشعة في الطرقات . ولما كان المنتصرون يتحرقون  
شوقا الى الرجوع للاستيلاء على ضحايا أكثر ، فقد أسرع أسراهم  
بخطى مرتعدة تحت تأثير التهديدات والضربات . وفي الوقت نفسه  
حدث سلب مماثل في كل الكنائس والأديرة ، في كل القصور والدور  
في العاصمة . ولم يستطع مكان ما سواء أكان مقدسا أم بعيدا عن  
العين أن يحمي أشخاص اليونانيين أو ممتلكاتهم . فنقل حوالى ستين  
ألفا من هذا الشعب المتفاني ، من المدينة الى المعسكر والأسطول ،وقد

استبدلوا أو يبعوا وفقا لمشيئة سادتهم أو مصلحتهم ، ووزعوا في رق  
سحيق في جميع أنحاء ولايات الامبراطورية العثمانية . ومن بين  
هؤلاء يمكننا أن نميز بعض الشخصيات البارزة . لقد لقي المصير العام  
نفسه ، المؤرخ فرانزا وأسرته ، وهو الأمين الأول والسكرتير الخاص ،  
وبعد أن قاسى متاعب الأسر أربعة أشهر ، استعاد حريته . وفي السنة  
التالية غامر بالذهاب الى أدرنة وافتدى امرأته من أسر « ميرباشي »  
أو رئيس الخيالة . ولكن طفليه ، وكانا في ريعان الشباب والجمال ،  
قد استبقيا لخدمة محمد نفسه . وقد ماتت ابنة فرانزا في السراي ،  
ومن المحتمل أنها ماتت عذراء . أما ابنه وهو في الخامسة عشرة من  
عمره فقد فضل الموت على العار . وقد طعنه العاشق الملكي بيده .  
وهذا العمل الوحشي لا يسكن أن يكفر عنه بكل تأكيد الذوق  
أو الكرم الذي أطلق سراح سيدة يونانية وابنتها بعد تسلمه قصيدة  
غنائية باللغة اللاتينية كتبها فيليفسوس الذي كان قد اختار زوجته من  
هذه الأسره النبيلة . ولكن كبرياء محمد أو قسوته كان من الممكن  
أن يشبعها الى درجة محسوسة أسر أحد نواب البابا في رومه . ولكن  
مهارة الكاردينال ايزيدور تخلصت من مغبة البحث والتنقيب ، فهرب  
من غلطة متنكرا في ثياب العامة . وكانت السفن التجارية والزوارق  
الحربية الايطالية لا تزال تحتل السلسلة ومدخل الميناء الخارجى ،  
ولقد اشتهرت شجاعتهم في أثناء الحصار ، فاتهزوا الفرصة للانسحاب  
بينما كان البحارة الأتراك قد انهكوا في أعمال السلب في المدينة .  
وعندما بدؤوا ينشرون أشرعتهم ، كان الشاطئ مزدحما بجمهور من  
الضارعين الذين يدعو منظرهم الى الرثاء . ولكن وسائل النقل كانت  
ضئيلة . فآثر البنادقة وأهل جنوه مواطنيهم . ورغم ما بذل السلطان

من أجمل الوجود ، هجر سكان غلطة دورهم وأبحروا مع أثمن  
أمتعتهم .

ليت شعري ، هل كتب على أى مؤرخ ، عند سرده لقصة سقوط  
المدن الكبرى أو نهبا ، أن يكرر الكارثة على نهج واحد بمينه ،  
فتتهدى الأهواء نفسها ، الى النتائج نفسها فى كل قصة ! وعندما يترك  
لهذه الأهواء العنان دون قيد أو شرط ، فان الفرق ، والأسفاه يكون  
ضئيلا بين الانسان المتوحش والانسان المتحضر . وفى وسط الصيحات  
الغامضة للتعصب والكراهية ، لا يتهم الأتراك بالافراط فى سفك الدم  
المسيحى ارضاء لشهواتهم ، ان دم المقهورين طبقا لقواعدهم ( العتيقة )  
مهدر . وجائزة الفاتح المنتصر الشرعية يتقاضاها عن طريق خدمات  
الأسرى من كلا الجنسين ، أو بيعهم أو قبول الفدية عنهم ، ولقد وهب  
السلطان ثروة القسطنطينية لجنوده المظفرين . ونهب ساعة قد يأتى  
بأكبر مما يأتى به الجد والكد فى سنين . ولما لم تبذل محاولة لتوزيع  
الأسلاب توزيعا منظما ، فان الأنصبة لم تحدد طبقا لمقاييس الجدارة .  
فاختطف الإبتاع فى المعسكر جوائز الشجاعة ، وهم الذين أبوا مشاق  
القتال وأخطاره . ولا يبعث وصف سلبهم سرورا ولا نفعا . وفى  
ظروف الفقر الأخيرة التى حلت بالامبراطورية قدرت القيمة الكلية  
للأسلاب بأربعة ملايين دوكات . وكان جزء صغير من هذا المال ملكا  
للبنادقة وأهل جنوه وفلورنسه وتجار أنكونا . فرأس مال هؤلاء  
الأجانب كان دائما فى ازدياد ، نتيجة المعاملات السريعة المستمرة .  
أما ثروات اليونانيين فكان قوامها أدوات التفاخر السخيف العقيم فى  
القصور وخزائن الثياب ، أو أنها كانت مبادئ وعملات قديمة مدفونة



على عمق كبير حتى لا تظهر للعيان فيطالبون بها للدفاع عن وطنهم .  
وقد أثار الاعتداء على الكنائس والأديرة ونهبها أشد الشكاوى حزنا .  
وقد سلبت قبة أياصوفيا نفسها ، وهى التى تحكى السماء على الأرض  
القبة الزرقاء الثانية ، وعربة الملائكة وعرش مجد الله ، وهى هبات  
قدمت فى قرون عديدة . وحول الأثمن فى أقصى صوره الذهب والفضة ،  
واللؤلؤ والجواهر . والأواني والسياب المقدسة ، لاستعمال الجنس  
البشرى . وبعد أن انتزع من الصور المقدسة كل ما تظنه العين الخبيثة  
ذا قيمة ، مزق الخيش أو الخشب أو حطم أو أحرق أو طرح تحت  
الأقدام ، أو ترك لأحقتر استعمال فى الأسطبل أو المطبخ . ومهما يكن  
من أمر فإن هذا الأسلوب فى الاعتداء على المقدسات قد استخدمه  
اللاتين عند استيلائهم على القسطنطينية . وتلك المعاملة التى لقيها  
المسيح والعذراء والقديسون على أيدي الكاثوليك الأشرار قد يكون  
من الممكن أن ينزلها المسلمون المتحمسون بآثار الوثنية . وقد يلاحظ  
الفيلسوف بدلا من أن يشارك فى الصيحات والمويل ، أنه بعد انحطاط  
الفنون لم تكن الصنعة أكبر قيمة من العمل ، وأن دهاء القساوسة  
وسذاجة الشعب يمكن أن يتسدها بسرعة قدرا جديدا من الرؤى  
والمعجزات . وسيندب هذا الفيلسوف ، وهو أشد حزنا ، ضياع  
المكتبات البيزنطية التى دمرت أو بعثرت فى أثناء الاضطراب العام .  
ويقال بأن مائة وعشرين ألفا من المخطوطات قد اختفت ، وبأنه كان من  
الممكن شراء عشر مخطوطات مقابل دوكات واحد ، كان يدفع فى جميع  
مؤلفات أرسطو وهوميروس ، أعنى أنبل الاتاج العلمى والأدبى فى  
العالم الأغرقي القديم . وقد نذكر بسرور أن جزءا لا يقدر بثمن

من كنوزنا الكلاسيكية كان قد أودع في أمان في إيطاليا . وأن علم  
الميكانيكا في بلدة ألمانية قد أخرج لنا فنا يسخر مما يأتي به الزمان  
والهسجية من خراب أو دمار .

## دخول محمد الثاني

ساد الاضطراب والنهب والسلب في القسطنطينية منذ الساعة  
الأولى من ذاك اليوم المشهود ، وهو التاسع والعشرون من شهر مايو،  
حتى الساعة الثامنة من اليوم نفسه ، حينما مر السلطان نفسه في موكب  
نصر من باب القديس رومانوس ، يحيط به وزراؤه وباشواته وحرسه  
وكان كل واحد منهم ( كما يقول مؤرخ بيزنطى ) في القوة مثل هرقل  
وفي البراعة مثل أبوللو كما كان يساوى في ميدان القتال عشرة من  
الأفراد العاديين . وألقى الفاتح نظرة رضا ودهشة على مظهر القباب  
والقصور ، وهو مظهر باهر رغم غرابته ، يختلف كثيرا عن الطراز  
الشرقى في العمارة . وفي حلبة السباق أو الميدان لفت نظره عمود  
الثعابين الثلاثة المجدول ، واختبارا لقوته حطم بصولجانه الحديدي  
أو بيلطته الحربية الفك الأسفل لأحد هذه الوحوش ، التي كانت في  
نظر الأتراك أوثانا أو تمائم وطلاسم للمدينة . وأمام الباب الرئيسى  
لأياصوفيا ترجل عن جواده ودخل القبة . وقد اشتدت يقظته وحرسه  
على المحافظة على هذا الأثر الخالد لمجده ، الى حد أنه عندما رأى  
مسلمًا يحطم ، في حماسة ، الرصيف الرخامى ، هددته بسيفه قائلا له  
انه اذا كان الأسرى والأسلاب قد وهبت للجنود ، فقد احتفظ للأمير  
بالمباني العامة والخاصة . فحول مركز الكنيسة الشرقية بأمر منه الى

مسجد . وكانت الأدوات الدينية الثمينة الميسور نقلها قد حملت بعيدا ، وأنزلت الصليبان ونظفت الحوائط التي كانت مغطاة بالصور والفسيفساء وطهرت وأعيدت الى حالة من البساطة المجردة . وفي اليوم نفسه أو في يوم الجمعة التالي صعد المؤذن أعلى برج ، وأعلن الأذان أو الدعوة العامة الى الصلاة باسم الله ورسوله . وخطب الامام وأدى محمد الثانى فريضة الصلاة والشكر ، على المذبح العظيم الذى شهد منذ وقت قصير الاحتفاء بالأسرار المسيحية أمام آخر القياصرة . وتقدم من أياصوفيا الى القصر العظيم ، ولو أنه المهجور ، الذى عاش فيه مائة من خلفاء قسطنطين . الذى انتزع منه فى ساعات قلائل رواء الملك وأبيهته . فألحت على فؤاد السلطان خطرات حزينة من تقلب العظمة البشرية . فردد مقطوعة جميلة من الشعر الفارسى : « لقد نسج العنكبوت بينه فى قصر الامبراطور ، وترنت البوم بأنشودة الحراسة على قلاع « أفراسياب » ، ( انتى ورد ذكرها فى الأساطير الفارسية ) . ولكن السلطان لم يكن بعد راضى البال ، وقد خيل اليه أن النصر لى يكون كاملا قبل أن يعرف مصير قسطنطين : هل فر ، أو وقع أسيرا أو سقط فى ميدان القتال . وقد ادعى اثنان من الانكشارية شرف قتله ، وطالبا بمكافأتهما : على أن جثمانه وجد تحت أكداس من جثث القتلى . وقد كشف عن شخصيته هذاؤه المزرکش بالنسور الذهبية . وتعرف اليونانيون وسط الدموع على رأس مليكهم الراحل . وبعد عرض هذه التذكار الدامى للنصر ، تفضل محمد على منافسه بشرف الدفن بالمراسم اللائقة بمقامه . وبعد موت الامبراطور كان لوكاس نوتاراس ، الدوق العظيم والوزير الأول فى

الامبراطورية ، أعظم الأسرى شأنا . وعندما قدم نفسه وكنوزه تحت قدمى السلطان ، قال له السلطان غاضبا : « ولماذا لم تستخدم هذه الكنوز فى الدفاع عن أميرك ووطنك » ؟ وأجاب هذا العبد : « انها ملك لكم . لقد احتفظ الله بها لشخصكم .. » . وأجاب الطاغية : « واذا كان الله قد احتفظ بها لى ، فلم حبستها عنى هذه المدة الطويلة وأنت تقاوم مقاومة عقيمة قتالة ؟ » . وتعلل الدوق العظيم بعنساد الأجانب ، وبعض التشجيع السرى من الوزير التركى . واتتهت هذه المقابلة الخطيرة بالانصراف . مع التوكيد بالعمو عنه والمحافظة على سلامته . وتنازل محمد فرار زوجته ، وهى أميرة جليلة . أضناها المرض والحزن . وكانت مواساته لها فى مصابها ، من أرق مظاهر الانسانية والاحلال النبوى . وقد امتد عطف مماثل فشملى أهم موظفى الدولة ، وقام بدفع الفدية عن كثيرين منهم من ماله الخاص . وفى أيام قليلة أعلن أنه صديق الشعب المغلوب على أمره وأبوه . ولكن سرعان ما تغير المشهد . وقبل مغادرته القسطنطينية ، غرقت حلبة السباق بدم أبيل الأسرى . وقد صب المسيحيون اللعنات على قسوته وخيائته ، وهم يصورون بألوان الاستشهاد البطولى اعدام الدوق العظيم وابنيه ، وانهم لينسبون موته الى رفضه الأبى أن يدفع بأطفاله لاشباع شهوة الطاغية . ولكن لفظا أفلت ، عفوا وبلا حذر ، من مؤرخ بيزنطى عن مؤامرة . واقاذ ، ونجدة ايطالية . وقد تكون مثل هذه الخيانة عملا مجيدا ، ولكن النائر الذى يغامر فى شجاعة ، قد يهدر دمه غدرا . كما يجب ألا نلوم فاتحا على تدمير أعداء لا يستطيع أن يوليهم ثقته بعد ذلك . وفى اليوم الثامن عشر من شهر يونيه عاد

السلطان المظفر الى أدرنه ، وإبتسم للوفود الجوفاء الهزيلة التى بعث بها الأمراء المسيحيون ، الذين رأوا فى سقوط الامبراطورية الشرقية ايذانا بدنو ساعة سقوطهم .

لقد تركت القسطنطينية عزلاء مهجورة بلا أمير ولا شعب . ولكن لا يمكن أن تسلب مكائنها التى لا تبارى والتى تميزها لتكون عاصمة لامبراطورية عظيمة . وستغلب على الدوام عبقرية المكان على تصاريف الزمن والحظ . لقد انحطت أدرنة وبورصة ، وهما العاصمتان القديمتان للعثمانيين الى مصاف البلدان فى الولايات ، وشاد محمد مقره ومقر خلفائه من بعده على الربوة المتحكمة نفسها التى اختارها قسطنطين من قبل . وقد دمرت استحكامات غلطة التى قد يأوى اليها اللاتين . وكان من العزم تدميرها . وسرعان ما أصلح الضرر الذى ألحقته المدفعية التركية . وقبل شهر أغسطس كانت كمية كبيرة من الجير قد أحرفت لاعادة بناء أسوار العاصمة . ولما كانت ملكية الأرض كلها بما فيها التربة الزراعية وأراضى البناء سواء كانت عامة أو خاصة ، مقدسة أو غير مقدسة ، قد انتقلت الآن بأجمعها الى الفاتح ، فانه أفرد أولا مساحة ثمانية فراسخ من مركز المثلث لبناء قصر ، أو سراى له . ومن هذه النقطة ، وفى أحضان الترف ، يبدو السيد العظيم ، ( على حد تعبير الايطاليين ) وهو يحكم أوروبا وآسيا . غير أن وجوده على شواطئ البسفور قد لا يكون دائما بمنجاة من اساءات الأساطيل المعادية . وفى وضعها الجديد كمسجد ، وفقت على أياصوفيا موارد ضخمة وتوجت بمآذن مرتفعة وأحيطت بأجام ونافورات ، للترويح عن المسلمين ، وهم يؤدون فرائض الصلاة . وقد حوكى النموذج

نفسه في بناء الجامع أو المسجد الملكي . وأول هذه المساجد بناه محمد لنفسه في مكان كنيسة الرسل المقدسين ومقابر أباطرة اليونان. وبعد الفتح بثلاثة أيام كشف عن طريق الرؤيا ، قبر أبى أيوب الذي سقط في أول حصار قام به العرب للقسطنطينية . وأمام قبر هذا الشهيد يتمنطق السلاطين الجدد بسيف الامبراطورية . ولم تعد القسطنطينية تخص المؤرخ الروماني . واني لن أعدد المباني المدنية والدينية التي دنسها أو شيدها سلاطين الأتراك . وسرعان ما عاد السكان الى سابق عهدهم وعددهم . وقبل شهر سبتمبر ، امتثلت خمسة آلاف أسرة من الأفاضول ورومانيا لأمر السلطان الذي قضى بأن تحتل كل أسرة مساكنها الجديدة في العاصمة ، وجعل الاعداد عقوبة المخالفة . وقام على حراسة عرش محمد رعاياه من المسلمين بأعدادهم الوفيرة ووفائهم . ولكن سياسته المتعقلة تطلعت الى ضم البقية الباقية من اليونانيين الذين عادوا زرافات ووحدانا ، حالما تأكدوا من ضمان حياتهم وحرثهم ، وممارسة شعائر دينهم . وأحيوا في انتخاب البطريق وتنصيبه مراسم البلاط البيزنطي وقلدوها . وتطلع المسيحيون في مزيج من الرضا والفرح الى السلطان ، وهو جالس على عرشه ، بضع في يد جناديوس Gennadius صولجان البطريق ، أى عصا الرسل ، وهى رمز المنصب الكنسى ، ويسير بجواره الى باب السراى . ويقدم له جوادا جهاز بأبهى زينة وأغلاها ويطلب الى وزرائه وباشواته أن يكونوا في معيته الى قصره الذى خصص لسكناء . وقد قسمت كنائس القسطنطينية بين الديانتين ، وعينت حدودهما . واستمر اليونانيون يتمتعون أكثر من ستين عاما ، بميزة شطر المدينة الى

نصفين متساويين ، حتى اعتدى على هذا التقسيم السلطان سليم حفيد محمد الثاني . وشجع وزراء الديوان الذين أرادوا تصادى تعصب السلطان ، أنصار التقسيم من الذين تجرأوا على الزعم بأن قسمة المدينة كان عملا من أعمال العدالة لا الجور والكرم ، وأن ذلك كان عقدا لا امتيازاً ، وأن نصف المدينة أخذ عنوة ، ولكن النصف الآخر استسلم بناء على شروط مقدسة . وأن الوصية الأصلية حقا أحرقت . ولكن هذه الخسارة تعوضها شهادة ثلاثة من قدماء الانكشارية الذين لا زالوا يذكرون هذا العمل . وأيمانهم المشتراة أكثر وزناً في نظر كاتمير <sup>(١)</sup> من اتفاق تاريخ تلك الأزمنة الجازم والاجماعي .

سأترك البقية الباقية من المملكة اليونانية في أوروبا وآسيا للجيش التركية . ولكن القضاء النهائي على آخر أسرتين حكمتا القسطنطينية يجب أن يختم تاريخ اضمحلال الامبراطورية الرومانية الشرقية وسقوطها . لقد أذهل طاغيتى المورة ، ديمتريوس وتوماس ، الأخوين الذين بقيا من أسرة بالايولوجوس موت امبرطورها قسطنطين وخراب مملكته . ولما لم يكن لديهما أمل في الدفاع عن نفسيهما فقد أعدا العدة مع نبلاء اليونان الذين بقوا على ولائهم ، التماسا لملجأ في ايطاليا ، بمنأى عن خطر الأتراك العثمانيين . وقد أذهب السلطان المنتصر مخاوفهم الأولى ، حيث قنع بجزية قدرها اثنا عشر ألف دوكات ، وبينما

---

(١) Cantemir أسرة شهيرة من القنار ، نزحت من القرم الى ملدافيا في القرن السابع عشر ، منها ديمتريوس أمير ملدافيا الذي طوح الأتراك بعرشه في ١٧٠١ . وكتب « تاريخ الامبراطورية العثمانية » وهو من أشهر مؤلفاته الباقية . ( الترجمة )

كان طموحه يرتاد القارة والجزر بحثا عن ضحية ، فانه منح المورة راحة امتدت سبع سنين . ولكن هذه الراحة كانت فترة حزن ونزاع وشقاق وبؤس . ولم يكن في استنطاعة ثلثمائة من الرماة الايطاليين الدفاع عن الهيكساميليون Hexamilion ، حصن البرزخ ، الذى كثيرا ما اقيم وكثيرا ما هدم . فاستولى الأتراك على مفاتيح كورثه ، وعادوا من رحلتهم الصيفية بعدد من الأسرى والأسلاب . وقوبلت شكاوى اليونانيين المنكوبين والازدراء . وأعمل الألبانيون ، وهم قبيلة مشردة من الرعاة واللصوص ، السيف والنهب والسلب فى شبه الجزيرة . وقد طلب الطاغيتان العون من الباشا المجاور ، وهو عون محضوف بالخطر مشوب بالمذلة . وما ان قضى على الثورة ، حتى كانت دروسه قد غرست أو حددت قواعد سلوكهم فى المستقبل . ولم تستطع روابط السدم ولا الأيمان المغلظة عند تناول القسربان وأمام المذبح ، ولا ضغط الحاجة وهو أشد وأنكى — أن تصلح بينهما أو توقف نزاعهما الداخلى . فخرّب كل منهما أملاك الآخر بالنسار والسيف . وضاعت صدقات الغرب ونجداته فى اعتداءات أهلية . وبرزت قوتهما فى التقتيل الوحشى الاستبدادى وحده . وحدا الكرب بأضعف المتنافسين وانتقامه الى الاتجاه نحو سيدهما الأعلى . وأعلن محمد فى الوقت المناسب للانتقام أنه صديق لديمتريوس ، واخترق المورة بقوة لا سبيل الى مقاومتها . وبعد أن استولى على اسبرطه ، قال السلطان لديمتريوس : « انك أضعف من أن تحكم هذه الولاية المشاغبة . سأبنى بابنتك وستمضى بقية حياتك فى أمان وشرف » . وتهدد ديمتريوس وامثله . وسلم ابنته وقلاعه ، وتبع سلطانه وابنته



الى أدرنه ، وتمسلم لقاء نفقائه وتفتات أتباعه مدينة في تراقية ، والجزر  
المجاورة : امبروس وليسينوس وساموتراس . ولحق به في السنة التالية  
رفيق له في نكد الطالع ، هو آخر أسرة كومنينوس الذي كان قد  
أسس بعد سقوط القسطنطينية في يد اللاتين امبراطورية على ساحل  
البحر الأسود . وفي تقدم فتوحاته في الأناضول ، حاصر محمداً بأسطوله  
وجيشه عاصمة « داود » الذي تجرأ على أن يسمى نفسه امبراطور  
طرابزون ، واقتصرت المفاوضات على سؤال قصير حاسم : « أتريد أن  
تطمئن على حياتك و ثروتك بالتخلي عن مملكتك ، أم تفضل أن  
تضيق مملكتك وكنوزك وحياتك » ؟ وقت في غضب كومنينوس  
الضعيف مخاوفه ، وما حدث لجار مسلم هو أمير سينوب الذي سلم  
عند صدور أمر مماثل له ، مدينة حصينة بها أربعة آلاف مدفع وعشرة  
آلاف أو اثنا عشر ألف جندي . وتفتت بأمانة شروط تسليم طرابزون ،  
وقتل الامبراطور وأسرته الى قلعة في رومانيا ، ولكن لشك ضئيل  
في أنه يرسل ملك الفرس ، ضحى بداود وجميع أسرة كومنينوس  
قربانا لحقد الفاتح وجشعه . ولم يستطع لقب « الوالد » أن يحى  
ديمتريوس المنكود مدة طويلة من النفي والمصادرة . وقد حرك  
خضوعه وذلته شفقة السلطان وازدراءه . فخفف من آلام فقره معاش  
قدره خمسون ألف أسبر ، حتى خلاص ثوب الدير والموت بعد طول  
العناء ، بالايولوجوس من سيده في هذه الحياة الدنيا . وليس من  
السهل أن تقول أيهما أعظم مجدا : استسلام ديمتريوس للعبودية أم  
منفى أخيه توماس ؟ فعند فتح المورة هرب هذا الطاغية الأخير الى  
كورفو ، ومنها الى ايطاليا ومعه بعض الأتباع العزل . وقد هياه اسمه

والآلامه ورأس القديس أندراوس لترحيب الفاتيكان وكرمه .  
وقد أطلال من أمد حياته البائسة معاش من البابا والكرادلة قدره ستة  
آلاف دوكات . وقد ربي ابنه ، أندرو ومانويل ، في إيطاليا . وكان  
أكبرهما موضعا للزراية لدى أعدائه ، وعبئا على أصدقائه . وحط من  
قدره وضاعة حياته وزواجه . وكان لقبه هو ميراثه الوحيد . وقد  
باع هذا التراث للملكي فرنسا وأرجون على الترتيب . ففى أثناء رخائه  
العابر طمع شارل الثامن في أن يضم الامبراطورية الشرقية الى مملكة  
نابلى : وفي حفل عام اتخذ لقب أوغسطس ، واتشح بحلته الأرجوانية .  
وابتهج اليونانيون ، وارتعد الأتراك ، في انتظار مجيء الفرسان  
الفرنسيين . وأغرى باليولوغوس الابن الثاني بأن يزور وطنه الأصلي .  
وقد ينال رجوعه رضا الباب العالي ، ومع كل فهو لن يضر الباب  
العالي في شيء . فعاش في القسطنطينية على نفقة السلطان في طمأنينة  
ودعة . وعند موته شيعه الى قبره عدد كبير من المسيحيين والمسلمين .  
واذا كان هناك نوع من الحيوان ذو طبيعة كريمة ، فيأبى أن ينجب  
وهو في الأسر ، فان آخر أسرة بالايولوغوس الامبراطورية يجب أن  
يكون من نوع أحقر ، فقد تقبل من سخاء السلطان امرأتين جميلتين ،  
وضاع ابنه الذي عاش من بعده في رداء عبد تركي ، معتقكا الدين  
الاسلامي .

## حزن أوربا وفرزها

بعد ضياع القسطنطينية أحس الناس بأهميتها وبالفوا في هذه  
الأهمية : ومهما كان عهد البابا نيقولا الخامس عصر سلام ورخاء ،  
فقد دنسه سقوط الامبراطورية الشرقية . فأحيا حزن اللاتين وفرزهم ،

أو بدا أنهما أهاجا الحماس القديم للحروب الصليبية . ففي قطر من أقصى أقطار الغرب ، استضاف فيليب ، دوق بيرجاندى ، فى ليل Lisle من أعمال فلاندرز ، جماعة من نبلائه . وفى أسلوب بارع ، هيا لهم من مظاهر الأبهة والكرم ما يرضى خيالهم وأحاسيسهم . وفى وسط الوليمة دخل عربى عملاق ، القاعة وهو يقود فيلا زائفا يحمل فوق ظهره قلعة . ورأى المجتمعون امرأة فى ثياب الحديد ، وهى رمز الديانة ، تخرج من قلعتها وهى تندب ما حاق بها من ظلم وجور ، وتتهم حمايتها بالتباطؤ . ويتقدم رئيس فرسان « الجزء الذهبية » (١) وهو يحمل فى يده حجلة حية ، يقدمها ، تبعا لمراسم الفروسية ، للدوق . واستجابة لهذه الدعوة غير العادية وقف فيليب ، وهو أمير هرم عاقل ، شخصه وقواته للحرب المقدسة ضد الأتراك . وحذا حذوه البارونات والفرسان الحاضرون . وأقسموا أمام الله والمعذراء والسيدات والحجلة ، ولم تكن عهودهم ونذورهم الخاصة بأقل تطرفا من القسم الذى تعاهدوا جميعا على البر به . غير أنهم علقوا التنفيذ على احتمال وقوع شىء خارج عنهم فى المستقبل . ومن الجائز أن دوق بيرجاندى ، طوال اثنى عشر عاما وحتى آخر لحظة من حياته كانت توسوس له نفسه أنه على وشك الرحيل ، وربما كان مخلصا

---

(١) Golden Fleece طائفة من الفرسان أسسها فيليب الطيب ملك برجنديا فى ١٤٢٩ من أكرم النبلاء خلقا وفضله . وكانوا يشكلون مجلس الشورى - ولعل الجزء ترمز الى الصوف الذى هو مصدر كل ثروة الفلاندرز - ( أصلها فى الأساطير اليونانية ، جزء من الذهب كانت معلقة فى أيكه مقدسة ؛ يحرسها ثنين ، حتى انتزعها جاسون Jason .  
( تاريخ العالم ، المجلد الخامس - ( الترجمة )

في ذلك . ولو أن كل صدر اشتعل بالحماس نفسه ، ولو أن اتحاد المسيحيين كان معادلا لشجاعتهم ، ولو أن كل قطر من السويد الى نابلى قدم نسبة عادلة من الخيالة والرجالة . من الرجال والأموال ، لكان من المحتمل حقا انقاذ القسطنطينية ، ومن الممكن طرد الأتراك الى ما وراء الدردنيل أو الفرات . ولكن كاتم سر الامبراطور الذى دبح كل رسالة وحضر كل اجتماع ، وهو اينياس سيلفيوس ، وهو سياسى وخطيب ، يصف من تجاربه الشخصية ، حالة العالم المسيحى وروحه المنفرة . فهو يقول : « انه جسد بلا روح ، جمهورية بلا قوانين أو حكام . وقد يتألق البابا والامبراطور فى ألقاب سامية : وصور فخمة ، ولكنهما عاجزان عن الحكم ، وليس هناك من يريد أن يمثل . لكل دولة أمير مستقل ، ولكل أمير مصلحة مستقلة . أية فصاحة تستطيع أن توحيد بين هذا العدد من القوى المتنافرة المتصارعة تحت راية واحدة ؟ ولو أمكن تسليحهم وجمعهم فى مكان واحد ، فمن ذا الذى يجرؤ على شغل منصب القيادة ؟ أى ترتيب يمكن الاحتفاظ به ؟ وأى نظام عسكرى ؟ ومن يتكفل باطعام مثل هذا العدد الضخم ؟ من الذى يستطيع أن يفقه لغاتهم المتباينة أو أن يوحد سلوكهم الغريب الناشز ؟ أى بشر يستطيع أن يوفق بين الانجليز والفرنسيين ، بين جنوده وأراجلون ، بين الألمان وسكان المجر وبوهيميا ؟ فاذا جند فى الحرب المقدسة عدد قليل ، هزمهم الكفار لا محالة ، وان جند عدد كبير غلبتهم كثرتهم واختلال أمرهم ! » . ومع ذلك فان اينياس هذا ، نفسه بعد أن اعتلى عرش البابوية باسم بيوس الثانى ، نذر حياته

لمتابعة الحرب التركية . وفي مجمع ماتوا أشعل بعض ومضات من حماس ضعيف أو زائف : ولكن عندما شخصى البابا الى أنكونا ليحرر هو نفسه مع الجنود ، ضاعت التعهدات في المآذير ، وأجل اليوم المضروب الى أجل غير مسمى . وكان جيشه العامل يتألف من بعض الحجاج من الألمان الذين اضطر أن يسرحهم مع بعض صكوك الففران والصدقات . ودون نظر الى المستقبل ، استغرقت مشروعات الطموح الداخلى والراهن جهود خلفائه وجهود دويلات ايطاليا . فحدد بعد أى شيء أو قربه فى نظرهم عظمتة الظاهرية . ولو أنهم نظروا الى مصلحتهم من زاوية أوسع ، لأدركوا أنه يجب عليهم أن يشنوا حربا دفاعية بحرية ضد العدو المشترك . ومن الجائز أن مساعدتهم سكندربرج وأتباعه من الألبانيين الشجعان كانت تحول دون غزو مملكة نابلى فيما بعد . وأثار حصار أوترانتو ونهبها على يد الأتراك فزعا عام . وكان البابا سيكستوس Sixtus على أهبة الفرار الى ما وراء الألب . عندما أخمد موت محمد الثانى العاصفة فورا . وكان عمره آنذاك احدى وخمسين سنة . لقد رنت عبقرته العالية الى فتح ايطاليا . وكان السلطان يملك مدينة قوية وميناء متسعا . وربما ازدان حكمه كذلك ، بتذكارات النصر فى رومه الجديده ورومه القديمة معا .

وثمة نتيجتان من نتائج طلب العون من الغرب ( انظر الموجز ، ص ٣٤٤ ) ، جديرتان بالذكر هنا : أحدهما هى إرسال ألفين من الجنود من جنوه تحت قيادة جستينيانى ، والاخرى بعثة يرأسها الكاردينال ايزيدور كنائب عن البابا . ووصف سلوك جستينيانى فى ص ٣٦٠ ليس بهصحيح من الناحية التاريخية ، وليس بمنصف . والسبب المباشر فى الاستيلاء على المدينة كان دخول بعض الأتراك من باب خلفى كان جستينيانى قد

فتحه للهجوم خارج الأسوار • ولم يكن لبعثة ايزيدور من أثر ، الا اذكاء نار العداء بين اليونانيين واللاتين • وقد أشار بعضهم الى أنه يفضل ان يرى في المدينة عمامة مسلم عن أن يرى قبعة كاردينال • فبعد اقامة الصلوات في الكنيسة ايا صوفيا وفقا للطقوس اللاتينية ، هجر الناس هذه الكنيسة و « خيم على تلك القبة الجلييلة صمت عميق حزين » • وهذا يفسر الإشارة الى التدنيس ، ص ٣٦٣ •

# الخاتمة

رومة في العصور الوسطى . فجر النهضة

## الفصل التاسع والستون

(٨٠٠ - ١٣٥٠)

- سلطان البابوات في رومة • طرق انتخاب البابوات •
- هجرة البابوات الى أفينيون • نشأة اليوبيل ، أو السنة المقدسة •
- النبلاء الرومان •

## سلطان البابوات في رومة

في العصور الأولى من اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها، تتركز أعيننا دون تحول ، على المدينة الملكية التي زودت معظم بقاع العالم بالقوانين . وانا لنمعن التفكير في حظ المدينة ، تفكيراً أوله اعجاب ، وآخره اشفاق ، ولكن الاهتمام أبداً طابعه . وعندما يتحول هذا الاهتمام من الكايتول الى الولايات ، نرى أنها لا تعدو أن تكون مجموعة كبيرة من الأغصان التي انفصلت واحداً بعد الآخر عن الجذع الامبراطوري . ولتأسس رومه ثانية على شواطئ البسفور ، اضطر المؤرخ أن يتبع خلفاء قسطنطين ، وقد أغراه حب الاستطلاع بأن يزور أقصى أقطار أوروبا وآسيا ليكشف عن أسباب ومسبب تدهور الملكية

البيزنطية الذى طال أمده . وبعد فتوحات جستنيان عدنا الى شواطئ نهر التير ، لتخليص العاصمة القديمة ، ولكن هذا الخلاص لم يكن سوى تغيير فى العبودية أو بالأحرى زيادة فيها . لقد اترعت من رومه تذكارات نصرها ، وآلهتها ، وقياصرتها ، ولم يكن حكم القوط أكثر مجدا أو أشد عسفا من طغيان اليونانيين . وفى القرن الثامن بعد الميلاد حفز نزاع دينى ، هو عبادة الصور ، الرومان الى اعلان استقلالهم ، فأصبح أسقفهم الحاكم الزمنى والأب الروحى لشعب حر . ولا يزال اللقب والصورة المأخوذتان عن الامبراطورية الغربية التى أعادها شرلمان ، تزينان الدستور الفريد فى ألمانيا الحديثة . ولا زال اسم رومه يفرض علينا احتراماً لا ارادياً . ولم يعد المناخ ( مهما يكن تأثيره ) كما كان فى القديم ، وتلوث ققاء الدم عن ألف طريق وطريق . ولكن جلال أطلالها وذكرى عظمتها أشعلتا قسا من طابعها الوطنى . وتعرض ظلمة العصور الوسطى بعض المشاهد التى لا يجدر اغفالها . ولن أفرغ من هذا المؤلف قبل أن أستعرض حالة المدينة الرومانية وثوراتها . تلك المدينة التى أذعنت لحكم البابوات المطلق . حوالى نفس الوقت الذى استعبدت فيه الجيوش التركية مدينة القسطنطينية .

فى مستهل القرن الثانى عشر <sup>(١)</sup> ، أعنى فى عصر الحرب الصليبية الأولى ، نظر اللاتين الى رومه بعين الاجلال والاكبار بوصفها عاصمة الدنيا ، وعرش البابا والامبراطور اللذين استمدا من المدينة الخالدة

---

(١) لقد تغيب القارىء مدة طويلة عن رومه ، ولذا فانى أنصحته أن يستعيد أو يتصفح مرة أخرى الفصل التاسع والأربعين من هذا التاريخ .



ألقاهما وشرفهما وحق الحكم الزمنى أو مباشرته . وبعد هذه الفترة الطويلة ، قد يكون من المفيد أن نكرر أن خلفاء شرلمان وأوتو كانوا يختارون قيماً وراء الراين في مجالس وطنية Diet ، وأن أولئك الأمراء قنعوا بلقب ملك ألمانيا وإيطاليا ، إلى أن عبروا جبال الألب والأبنين للحصول على التاج الإمبراطورى على شواطئ نهر التير . وعلى مسافة ما من المدينة كان يستقبلهم موكب طويل من رجال الدين والشعب يحصلون السعف والصلبان . وقد مثلت الرموز الرهيبة من الذئاب والسباع والحبات والنور التى سبحت فى الرايات العسكرية، مثلت كئائب الجمهورية وفرقها السالفة . وتردد القسم الملكى على الاحتفاظ بحربات رومه ثلاث مرات : عند القنطرة ، والبوابة ، وعلى درج الفاتيكان . وجرى توزيع الهبات المعتادة . فى محاكاة هزيلة لسخاء القياصرة الأولين . وفى كنيسة القديس بطرس قام خليفته بمراسم التتويج . واختلط صوت الرب بصوت الشعب ، وأعلنت الهتافات عن رضا هذا الشعب : « العمر المديد والنصر لمولانا البابا . العمر المديد والنصر لمولانا الإمبراطور . العمر المديد والنصر للجيش الرومانية والتيوتونية » . ودعم اسما قيصر وأوغسطس ، وقوانين قسطنطين وجستنيان ، والمثل الذى ضربه كل من شرلمان وأوتو — كل أولئك دعم السلطان الأعلى للإمبراطورية . وقد نقشت صورهم وألقاهم على نقود البابوات ، وتميزت ولايتهم الشرعية بأنها سيف العدالة الذى كانوا يسلمونه الى محافظ المدينة . ولكن اسم أى سيد متبرر ولفته وعاداته كانت تهبج الكراهية فى صدر كل روماني . وكان قياصرة ساكسونيا وفرانكونيا رؤساء أرستقراطية اقطاعية .

ولم يكن في وسعهم ممارسة نظام السلطة العسكرية والمدنية ، وهي وحدها التي تضمن طاعة شعب قاص لا يطبق العبودية ، رغم أنه من المحتمل أنه لا يقدر على الحرية . وهبط كل امبراطور من جبال الألب مرة واحدة ، وواحدة فقط ، مع جيش من أتباعه التوتون . ولقد وصفت نظام دخوله السلس وتوحيجه . ولكن ذاك النظام اختل عادة بسبب صيحات وهياج الرومان الذين فابلوا مليكهم وكأنه غاز أجنبي . وكان رحيله دائما سريعا ، وفي أكثر الأحيان شائنا . وإذا قصرت مدة حكمه امتنن سلطانه ، وضاع اسمه في زوايا النسيان . ان نمو الاستقلال في ألمانيا وإيطاليا قوض أركان السيادة الامبراطورية على حين كان في انتصار البابوية انقاذ لرومه .

كان لرومه سيدان : أما الامبراطور فقد حكم حكما غير مستقر مستندا الى حق الفتح ، أما البابا فقد أسس سيادته على قاعدة مريحة ناعمة ، ولكنها أكثر صلابة ، قوامها الرأي والعادة . ان استبعاد النفوذ الأجنبي أعاد الراعي الى رعيته وجبه اليهم . وبدلا من تعيين تعسفى أو مشترى عن طريق البلاط الألماني ، انتخب نائب المسيح انتخابا حرا في مجمع الكرادلة الذين كان أكثرهم من المواطنين أو من سكان المدينة . ودعم انتخابه استحسان الحكام والشعب له ورضاهم عنه . وكانت السلطة الكنسية المطاعة في السويد وبريطانيا نابعة في جوهرها من أصوات الرومان . هذه الأصوات نفسها هي التي هيأت للعاصمة أميرا ، كما أخرجت لها حبرا . وكان هناك اعتقاد عام بأن قسطنطين وهب للبابوات السلطة الزمنية في رومه . وقع أشد المدنيين جرأة وأكثر الملحنين تشككا بمناقشة حق الامبراطور

ومشروعية هذه الهبة . وارتبطت حقيقة هذه الواقعة وحجية هذه الهبة ارتباطا وثيقا بالجهل والتقاليد التي تأصلت في أربعة قرون . وفنى أصلها الحرافى فى نتائجها الحقيقية التى ثبتت على الزمن . ونقش اسم السيد Dominus أو لورد على نقود الأساقفة ، واعترفت بهذا اللقب هتافات الناس وأيمان الولاء التى أقسموها ، ومارسوا موافقة القياصرة الألمان طوعا أو كرها . مارسوا منذ زمن طويل الولاية على المدينة وعلى أملاك القديس بطرس . وكان حكم البابوات الذى صادف هوى فى النفوس ، ملتئما مع حريات رومه . على أننا لو دققنا النظر وتعمقنا فى البحث ، لتكشف لنا مصدر أكثر نبلا لهذه القوة ، ذلك هو اعتراف أمة بجيل من أنقذوها من هرطقة الطاغية اليونانى وجوره . ومن المحتوم فى عصر سادت فيه الخرافات ، أن يبدو لأعين الناس أن فى اتحاد السلطين الزمنية والدينية ما يحصن بعضها بعضا ، أو تقوى الواحدة منهما الأخرى ، وأن مفاتيح الفردوس قد تكون أوثق ضمان على الأرض . والحق أن قدسية المنصب قد تحط من قدرها الرذائل الشخصية لشاغل هذا المنصب . ولكن فضائح القرن العاشر محتها فضائل جريجورى السابع وخلفائه ، وهى فضائل أشد خطرا ، طابعها الصرامة والتقىف . وإن صراعاتهم الجريئة التى خاضوها دفاعا عن حقوق الكنيسة ، ونجاحهم فى هذا الصراع أو شقاءهم به ، تقول إن كل أولئك سواء بسواء ، كان لابد أن يدعوا الناس الى تجيلهم واجلالهم . فكم هاموا على وجوههم ، وكم نفوا من الأرض ، فقراء معدمين . ضحايا للظلم والاضطهاد ، وكان لزاما أن تثير الغيرة الرسولية التى جعلتهم يستعذبون الاستشهاد

كل عطف وحب لهم في صدور المسيحيين . وأحيانا كان صوت البابوات في الفاتيكان يدوى كالرعد ، فيصنعون الملوك أو يحاكمونهم ويعزلونهم . وما كان أى روماني مهما كان من أمره وغروره ، أن يستشعر عارا في الخضوع لقسيس كان خلفاء شريمان يقبلون قدميه ويمسكون بركابه . بل ان المصلحة الزمنية للمدينة كانت تقتضى المحافظة في سلام وشرف على مقر البابا ، ومنه يستمد شعب كسبلان مغرور أعظم جزء من رزقه وثروته . ومن الجائز أن موارد البابوات الثابتة كانت قد ضعفت ، اذ استولت أيد نجسة على كثير من المزارع الموقوفة القديمة في كل من ايطاليا والولايات . وما كانت المطالبة بحقهم في منح بين وذرايه السخية لتعوض عن الاستيلاء عليها . ولكن الفاتيكان والكابيتول كان يتعشهما ويغدق عليهما سيل متزايد لا ينقطع من الحجاج والمتبتلين . واتسعت حدود المسيحية ، وغرق البابا والكرادلة في الفصل في القضايا الدينية والديوية . وقرر فقه قانونى جديد في الكنيسة اللاتينية حق الاستئناف وسبل ممارسته . ومن الشمال والغرب دعى الأساقفة ورؤساء الأديرة أو استدعوا ، ليقدموا اللعنات أو الشكاوى ، أو يتهموا أو يدافعوا ، أمام منصة الرسل . وسجلت مرة احدى العجائب النادرة : ف قيل ان حصانين يملكهما رئيس أساقفة ماتنز ورئيس أساقفة كولونيا عبرا الألب عائدين محملين بالذهب والفضة . ولكن سرعان ما فهم الناس بأن نجاح الحجاج والخصوم على السواء لا يعتمد على عدالة قضيتهم قدر ما يركز على قيمة هباتهم . وكم عرضت في كثير من التفاخر ثروة هؤلاء الأجانب وورعهم ، على أن وجوه الاتفاق ، مقدسة أو مدنسة ، كانت كثيرة متنوعة ، وكلها لنفع الرومان وخيرهم .

وكان لزاما أن توثق أمثال هذه الحوافز القوية ، من روابط الامتنال الارادى المؤمن بين الشعب الرومانى وأبيه الروحى والزمنى . ولكن نوبات الأهواء الجامحة كثيرا ما تحدث الاضطراب فى عملية التحيز والمصلحة . فان الهندي الذى يقطع الشجرة ليجمع ثمارها ، والعربى الذى يسلب قوافل التجارة — كليهما ، يحفرهما الى هذا العمل طبيعتهما الوحشية التى تغفل أمر المستقبل من أجل الحاضر ، وتتخلى من أجل عرض عاجل عن خير محقق آجل طويل الأمد عظيم القيمة : وهكذا فعل الرومان فى غفلتهم ، حين دنسوا ضريح القديس بطرس ونهبوا القرايين وآذوا الحجاج . ولم يحسبوا حسابا لأمثال هذه الزيارات فى عددها وقيمتها ، تلك الزيارات التى وقفوا فى سبيلها . باعتدائهم الآثم على المقدسات . ان أثر الخرافة أو العقيدة نفسها متقلب ومزعزع ، والرقيق الذى أخضع عقله ، كثيرا ما ينقذه جشعه أو كبريأؤه . وبؤثر التصديق الساذج بخرافات القساوسة ومعجزاتهم أشد تأثير على عقل المتبربر ، ولكن مثل هذا العقل هو أقل العقول قدرة على إثارة الخيال على الحس ، أو التضحية بشهوات هذه الحياة الدنيا من أجل دافع بعيد ، أو هدف لا تراه عيناه ، وربما كان هدفا مثاليا . مثل هذا الانسان فى عنفوان صحته ونضارة شبابه تتناقض أفعاله دائما مع ما يؤمن به . حتى اذا ما أيقظ مخاوفه تقدم السن أو اشتداد العلة أو نزول الكوارث ، اضطر أن يسدد دينه من الورع والندم مضاعفا . وقد أسلفت الإشارة الى أن الأزمنة الحديثة بما يقتزن بها من عدم اكتراث بالدين ، هى أكثر الأوقات ملائمة لرخاء رجال الدين . وأمنهم كما كان لهم فى عصور الخرافة أن يعقدوا أكبر الآمال على جهل البشر ، كما كان عليهم أن يتوجسوا أكبر الحيفة من عنفهم .

والثروة التي أغدقها عليهم الوالد بلا حساب في حال توبته .  
وندمه ، حتى باتوا ملاك الأراضي الوحيديين ، كان يسلبهم أياها  
الولد في غمرة جشعه وطمعه ، وعبد الناس أشخاصهم  
أو اتهمكوا حريتهم ، والماعبدون الذين وضعوا الوثن على المذبح  
بأيديهم هم الذين وطئوه في التراب بأقدامهم . ففي النظام  
الاقطاعى في أوربا ، كانت الأسلحة علامة الامتياز ومقياس  
الولاء . وفي وسط صليلها كان يندر أن يسمع أو يطاع صوت القانون  
والعقل . واحتقر الرومان المشاغبون نير أسقفهم وعابوا عليه عجزه .  
وما كانت تربيته أو أخلاقه تعجز له أن يمارس على نهج ملائم مؤثر  
قوة السيف . وكانت الدوافع على انتخابه وقائص حياته ماثلة أمام  
أعينهم ، وأقص قربه منهم أو وجوده بينهم ، حتى من الاجلال الذى  
كان يفرضه اسمه ومراسمه على العالم المتبرير . ولم يفت مؤرخنا  
الفيلسوف أن يلحظ الاختلاف فقال : « على الرغم من أن اسم بلاط  
رومه ونفوذه كانا مرهوبين أشد الرهبة في أقصى الاقطار الأوربية ،  
التي غرقت في جهل عميق ، والتي لم تكن تدرى شيئا عن طابع هذا  
البلاط وسلوكه ، فإن البابا حظى بأقل الاحترام ، في وطنه ، حتى ان  
أعداءه الألداء أحاطوا بأبواب رومه نفسها وسيطروا على حكومته  
في تلك المدينة . حتى أن السفراء الذين وفدوا اليه من أقصى الأرض  
في أوربا ليقدّموا الولاء المتواضع ، وان شئت الذليل ، باسم أقوى  
شخصيات العصر ، وجدوا أشد صعوبة في أن يشقوا طريقهم اليه وأن  
يلقوا بأنفسهم تحت قدميه » (١) .

(١) هيوم ، « تاريخ إنجلترا » ، المجلد الأول ، ص ٤١٩ . روى لنا  
الكاتب نفسه نقلا عن فترستين عملا فريدا من أعمال القسوة ضد رجال

لقى البابوات منذ الأيام الأولى مقاومة وعنفا . ففي أواسط القرن  
الثاني عشر بدأ أرنولد أوف برشيا Brescia حركة لاعادة الجمهورية .  
وقد طرد البابا أدريان الرابع ( البابا الانجليزى ) والامبراطور فردريك  
بارباروسا أرنولد من رومه ، ثم أحرق حيا بعد ذلك . غير أن شكلا من  
اشكال الحكم الجمهورى ، بما فيه عمل السناتو ، استقر فى رومه .

## طرق انتخاب البابوات

كان الطموح عسبا مبكرا سريع النمو فى كرمه المسيح . ففي زمن  
الأمراء المسيحيين الأوائل تنازع كرسى القديس بطرس الأصوات  
والرشوة والعنف المألوف فى الانتخابات العامة ، ودنست الأماكن  
المقدسة فى رومه بالدماء . ومنذ القرن الثالث وحتى القرن الثانى عشر،  
تمزقت الكنيسة بشرور الخلافات والانقسامات المتكررة . وطالما بقيت  
الكلمة الأخيرة للحاكم المدنى ، كانت هذه الشرور مؤقته ومحلية .  
وكان العدل أو المحاباة أو العطف مقياس الجدارة . ولم يكن من  
الممكن أن يعكر المنافس الذى لم ينجح صفو غريمه المنتصر أمدا  
طويلا . ولكن بعد أن انتزعت من الأباطرة امتيازاتهم ، وبعد أن  
استقرت القاعدة القائلة بأن نائب المسيح لا يخضع لأية محكمة

---

الدين قام به جوفرى ، والد هنرى الثانى . « فعندما كان حاكما على  
نورمانديا ، تجرأ المساوسة فى سيز Sees على القيام ، دون موافقته ،  
بانتخاب أسقف . فأمر بخصيهم جميعا بما فيههم الأسقف المنتخب .  
وأمر باحضار حصاهم اليه فى صحفة » . كان من حقهم عدلا الشكوى من  
الآلم والخطر ، ولكن لما كانوا قد ندروا أنفسهم للعفة ، فقد حرهم من  
كنز لا فائدة فيه .

أرضية ، اشتد الجدل أو استعرت نار الحرب في العالم المسيحي في كل مرة يخلو فيها الكرسي الرسولي . وكانت مزاعم الكرادلة ورجال الكنيسة من ذوي الرتب الدنيا ، ومزاعم النبلاء والشعب ، منهمة قدر ما كانت مثارا للنزاع . وطعى على حرية الاختيار مشاغبات مدينة لم تكن تعترف بسيد أو تمثل له . فعند موت البابا ، ذهب حزبان الى كنائس مختلفة لاجراء انتخاب مزدوج . وربما تعادل عدد الناخبين وأهمية أصواتهم ، والأسبقية في الزمن ، وجدارة المرشحين ، بعضها مع بعض ، وانقسم أكبر رجال الدين مقاما . ولم يستطع الأمراء في البلاد النائية والذين كانوا يركعون أمام العرش الروحي ، أن يميزوا « الصنم » الشرعى من « الصنم » الزائف . وكان الأباطرة في أغلب الأحيان هم سبب الالتئاق ، حيث ضربوا بدافع سياسي حبرا صديقا بحبر معاد ، ووصل الحال بكل من المتنافسين الى حد الصبر على احتمال اهانات أعدائه الذين لا تؤنبهم ضمائرهم ، والى شراء تأييد أتباعه الذين حفزهم الجشع والطموح . وقد ضمن اسكندر الثالث تعاقب البابوات تعاقبا سلميا دائما ، حين أبطل نهائيا أصوات رجال الدين والشعب الموصومة بالشغب والفتنة ، وقصر حق الانتخاب على مجمع الكرادلة وحدهم . وسوى هذا الامتياز ألهام بين الفئات الثلاث : الأساقفة والقساوسة والشماسية . وحظى رجال الكنيسة في أبروشية رومه بالمرتبة الأولى في ترتيب الوظائف الكنسية . ووقع الاختيار عليهم من جميع الأمم المسيحية دون تمييز . ولم يكن امتلاك أغنى اقطاعية أو التعيين في أهم أسقفية يتعارض مع لقبهم ووظيفتهم . وراى أعضاء السناتو في الكنيسة الكاثوليكية ، أغنى أعوان الجبر



الأعظم ونوابه ، ثيابا أرجوانية ، وهذا اللون الأرجواني هو رمز الاستشهاد أو الملكية . وزعموا ، مفاخرين ، أنهم مساوون للملوك . وقد رفع من شأنهم صفر عددهم الذى قلما زاد ، حتى حكم ليو العاشر ، على عشرين أو خمسة وعشرين فردا . وبهذا التنظيم الحكيم أزيل كل شك وفضيحة ، وانتزعت تماما جذور الانشقاق حتى انه فى فترة امتدت ستة قرون أحدث انتخاب مزدوج مرة واحدة تقساما فى وحدة المجمع المقدس . ولما أصبح الحصول على ثلثي الأصوات شرطا ضروريا ، فقد تأجل الانتخاب فى أكثر الأحيان بسبب مصالح الكرادلة وأهوائهم الخاصة . وعلى حين أطالوا هم فترة حكمهم المستقل ، بقى العالم المسيحى بلا رأس . وقد بقى كرسى البابوية شاغرا ثلاث سنوات تقريبا قبل ارتقاء جريجورى العاشر الذى صمم على القضاء على هذا العبث فى المستقبل . وقد وضع مرسومه بمسد بعض المقاومة ، فى مجموعة القانون الكنسى . وسبح بتسعة أيام لأداء مراسم دفن للبابا المتوفى وعودة الكرادلة الغائبين . وفى اليوم العاشر يحجزون ، ومع كل منهم خادم واحد ، فى شقة مشتركة أو مجمع مقدس بدون حوائط أو أستار فاصلة . وقد تركت نافذة صغيرة لادخال الضروريات . ولكن الباب مقفل من الناحيتين ، ويقوم على حراسته حكام المدينة . لمنعهم من أى اتصال بالعالم الخارجى . فإذا لم يتم الانتخاب فى ثلاثة أيام . اختزلت مائدة الطعام الزاخرة الى صفحة واحدة فى الغداء والعشاء . وبعد اليوم الثامن يقتصرون على كمية ضئيلة من الخبز والماء والنيذ . وفى أثناء خلو الكرسي الرسولى ، حرم على الكرادلة لمس الموارد المالية أو الاضطلاع بحكومة الكنيسة

إلا في أمور عاجلة نادرة . وتبطل تماما كل اتفاقات ووعود مع  
 الناهيين ، وحصنت نراحتهم بأيمان حاسمة وصلوات كاثوليكية .  
 وقد خففت تدريجيا بعض البنود غير المناسبة المفرطة في الشدة بلا  
 جدوى . ولكن مبدأ الحجز لا يزال قويا لم يمس . ولا زالت تستحثهم  
 الحوافز الشخصية من الحرص على الصحة والحرية أن يتعجلوا اتقاذاً  
 أنفسهم . وقد لفت تحسين طريق الانتخاب ، أو الانتخاب السري .  
 نضال المجمع في قناع حريري من البر والأدب . وقد حرم الرومان  
 بهذه النظم من انتخاب أميرهم وأسقفهم ، وبدأ ، في حسي الحرية  
 الجامعة المؤقتة ، أنهم لا يحسون بفقدان هذا الامتياز الذي لا يفدر  
 بثمن . وقد أحيا الامبراطور لويس ، امبراطور بافاريا ، مثال أوتو  
 العظيم . وبعد بعض المفاوضات مع الحكام اجتمع الشعب الروماني  
 في الميدان أمام كنيسة القديس بطرس وعزل جون-الثاني والعشرين .  
 بابا أفنيون . وقد وثق اختيار خلف له برضاهم وهتافهم . وصدقوا  
 باستحسانهم وموافقتهم ، وصوتوا تصويتا حرا ، على قانون جديد  
 يقضى بأنه يجب على أسقفهم الا يتغيب أكثر من ثلاثة أشهر في  
 السنة ، والا يتعد أكثر من مسيرة يومين من المدينة ، وأنه اذا أهمل  
 العودة بعد أن يطلب اليه الرجوع ثلاث مرات ، وجب عزل خادم  
 الشعب هذا وتجريده . ولكن لويس نسي ضعفه هو نفسه ، كما  
 نسي حزازات تلك الأزمنة . فقد رفض الناس شبحة الذي لا فائدة فيه  
 خارج حدود المعسكر الألماني . واحتقر الرومان ما صنعت أيديهم .  
 والتمس خصم البابا الرحمة من مليكه الشرعى . وثبت حق الكرادلة  
 بشكل أقوى ، بفضل هذا التهجيم الذي جاء في غير أوانه .

## لهجرة البابوات إلى أفنيون

لو أن الانتخاب جرى دائما في الفاتيكان ، لما اعتدى أحد على حقوق السناتو والشعب دون عقوبة . ولكن الرومان نسوا ، كما تناساهم الناس ، في غياب خلفاء جريجورى السابع الذين لم يداوموا على اقامتهم في المدينة والأبرشية كماعدة مقدسة . وكانت رعاية شئون هذه الأبرشية أقل أهمية من حكم الكنيسة في العالم المسيحى . ولم يكن من الممكن أن يتهج البابوات بالاقامة في مدينة يلقي فيها نفوذهم مقاومة على الدوام ، وتعرض فيها في أكثر الأحيان أشخاصهم للخطر : لقد فروا من ظلم الأباطرة ومن الحروب في ايطاليا ، الى ما وراء جبال الألب الى أحضان فرنسا الكريمة . وانسحبوا في حزم من شغب رومه وصخبها ليعيشوا ويموتوا في أماكن أكثر هدوءا مثل أناجنى ويروجيا وفيتربو والمدن المجاورة . وعندما يلحق بالقطع أذى أو يعرض العوز بسبب غياب الراعى ، كان البابوات يستدعون في تقريع خشن ، مع تذكيرهم بأن القديس بطرس أقام كرسيه ، لا في قرية مغمورة ، ولكن في عاصمة العالم ، وتهديدهم تهديدا وحشيا بأن الرومان سيحملون السلاح ويسيطرون لتدمير ذلك المكان وذلك الشعب الذى يتجراً فيمنح البابوات ملجأ ، ومن ثم عادوا الى رومه طائعين وجلين ، حيث استقبلهم فيها قائمة بالدين الثقيل الذى تراكم عليهم . ألا وهو تعويض كل خسارة ألحقها بالمدينة فرارهم منها : مثل أجر المساكن . وبيع المؤن والنفقات المختلفة للخدم والأجانب الذين كانوا يترددون على البلاط البابوى . وبعد فترة قصيرة سادها السلام ،

وربما استردوا فيها النفوذ ، تقوا مرة أخرى بسبب اضطرابات جديدة ،  
ودعوا مرة ثانية بأوامر تعسفية أو بدعوة مهذبة من السناتو .  
وفي مثل هذا الانسحاب العرضي ، قل أن طال غياب المنفيين من  
الفاتيكان والهاربين منه ، أو ابتعدوا كثيرا عن العاصمة . ولكن في  
أول القرن الرابع عشر انتقل العرش الرسولي من التير الى الرون ،  
وقد تراءى للناس في ذلك الوقت أن هذا الانتقال كان الى الأبد .  
ويمكن أن نستنتج سبب هذه الهجرة من النزاع العنيف الذي شب  
بين بونيفاس الثامن وملك فرنسا . لقد قام في وجه الأسلحة الروحية  
— كالحرمان والطرد من الكنيسة اتحاد الأقاليم الثلاثة وامتيازات  
الكنيسة العالية ( في الغال ) . ولم يكن البابا على استعداد لمواجهة  
الأسلحة الدنيئة التي كان لدى فيليب الجميل من الشجاعة ما يمكنه  
من استخدامها . وبينما كان البابا يقيم في أناجنى دون توقع لأي  
خطر ، هاجم قصره وشخصه ثلثائة من الخيالة . جميعهم سرا الوزير  
الفرنسي وليام أوف نوجاريت . وشيارا كولونا ، وهو سليل أسرة  
نبيلة ، ولكنها معادية لرومه . وهرب الكرادلة ، وأغرى أهل أناجنى  
بطرح ولائهم وعرفانهم بالجميل . ولكن بونيفاس الذي لم يفزع ولم  
يوجل وهو أعزل وحيد ، جلس على كرسيه وانتظر ، مثل الآباء  
المجندين القدامى ، سيوف الغالين . وقع نوجاريت وهو خصم أجنبي ،  
بأن ينفذ أوامر مولاه . وبسبب ما بين كولونا والبابا من عداوة شخصية ،  
انصبت على البابا الشتائم وكيلت له الضربات ، وأودع السجن ثلاثة  
أيام كانت حياته فيها مهددة نتيجة المتاعب التي لاقاها بسبب عناده  
الذي شدد منه استفزازهم له . وقد هيا ابطاؤهم الغرب لأنصار  
الكنيسة بعض الوقت وأمدتهم ببعض الشجاعة ، لاقتاذ البابا من هذا

الاعتداء الآثم . ولكن روحه المتعجرفة جرحت في موضع حيوى .  
ومات بونيفاس في رومه في سورة الغضب والانتقام . وقد دنست  
ذكراه برذيلتين بارزتين ، الجشع والكبرياء . ولم تسم شجاعة الشهداء  
بهذا الزعيم الكنسى الى مرتبة القديسين وأمجادهم . وتقول حوليات  
ذاك الزمان انه : « مذنب شهم ، دخل كثعلب ، وحكم كأسد ، ومات  
ميتة كلب » . وجاء بعده بنيدىكت الحادى عشر ، أكثر البشر اعتدالا ،  
ومع ذلك فانه حرم من الكنيسة رسل فيليب الأشرار ، وصب على  
مدينة أناجنى وشعبها لعنة كبيرة لا تزال آثارها ظاهرة لأعين المؤمنين  
بالخرافة .

وبعد موته أكدت براعة الفريق الفرنسى نفس الحيرة المملة في  
المجمع القلق نفسه . حيث قدم عرضا ظاهره فيه الرحمة وباطنه  
فيه العذاب ، وقد قبل هذا العرض ، وهو أنه في ظرف أربعين يوما  
لا بد أن يختار واحد من مرشحين ثلاثة يقدمهم خصومهم . وكان  
رئيس أساقفة بوردو وهو عدو عنيد للملكه ووطنه على رأس القائمة ،  
ولكن طموحه كان معروفا . ولبى ضميره دعوة الحظ ، وأطاع أوامر  
رجل جواد كان قد أبلغ عن طريق رسول سريع أن اختيار البابا كان  
آنثذ في يديه . ووافق على الشروط في مقابلة خاصة . وتمت الصفقة في  
سرية وسرعة ، ووافق المجمع المقدس بالاجماع ، ورفع كليمنت  
الخامس الى عرش البابوية . وسرعان ما أذهل كرادلة الفريقين دعوة  
منه للمشول بين يديه فيسا وراء الألب ، وقد كشفوا بسرعة أنه لا أمل  
لهم في العودة من ذلك المكان . ولقد التزم ، نتيجة لوعده وجبه ،  
بالاقامة في فرنسا . وبعد أن جر بلاطه عبر بواتو وغسقونيا ، وأقفر  
بنفقاته المدن والأديرة التى مر بها ، اسقر تهائيا في أفنيون التى ازدهرت

مدة سبعين سنة كمقر الحبر الرومانى وعاصمة العالم المسيحى . وكان الطريق الى أفنيون ميسورا من كل جانب ، برا وبحرا وبوساطة نهر الرون ، ولا يمكن أن تسلم ولايات فرنسا الجنوبية نفسها لاطاليا . وقامت قصور جديدة لسكنى البابا وكرادته ، وسرعان ما جذبت كنوز الكنيسة فنون الترف . وكانوا يملكون المنطقة المجاورة : مقاطعة فينسان Venaissin وهى بقعة خصبة كثيفة السكان . واشترت مملكة أفنيون فيما بعد من جين ، أول ملكة لنابلى وكويتس لبروفانس . نظرا لصغر سنها وكروبيها ، لقاء ثمن بخس هو ثمانون ألف فلورين . وفى ظل الملكية الفرنسية ، وفى وسط شعب مطيع ، تمتع البابوات بالهدوء والشرف اللذين لم يعرفوها منذ مدة طويلة . ولكن ايطاليا حزنت لغيابهم . ويحتمل أن تكون رومه ندمت وهى تعاني الوحدة والفقر ، على حريتها الجامحة التى طردت خليفة القديس بطرس من الفاتيكان . وجاء ندمها متأخرا غير مجد . وبعد موت الأعضاء القدامى ، امتلا المجمع المقدس بالكرادلة الفرنسيين الذين نظروا الى رومه بعين الكراهية والاحتقار ، فداوموا على انتخاب سلسلة من البابوات المحليين أو الاقليميين ، كانت تربطهم ببلدهم الأصلى روابط لا تنفصم البتة .

## إنشاء اليوبيل أو السنة المقرسة

خلق تقدم الصناعة الجمهوريات الابطالية وكان سببا فى ثرائها : وكانت فترة حريتهم هى أكثر الأوقات ازدهارا فى عدد السكان والزراعة ، وتحولت صناعتهم وتجارتهم ، وأعمالهم الميكانيكية

بالتدريج الى فنون الرشافة والعبرية . ولكن موقع رومه كان أقل  
ملاءمة ، ومنطقتها أقل خصوبة ، وكانت أخلاق أهلها قد أفسدها  
الخمول وأبطرها الفرور ، وتمسكوا بشدة برأيهم في أن الجزية التي  
يدفعها الرعايا يجب أن تنعش على الدوام عاصمة الكنيسة  
والامبراطورية . وقد شجع تردد الحجاج على أضرحة الرسل هذا  
الهوى الى درجة ما ، ولم يكن آخر تراث للبابوات ، وأعنى به نشأة  
السنة المقدسة ، أقل نفعا للأهالى عنه لرجال الدين . فمنذ ضياع  
فلسطين باتت هبة الغفران الكامل التي كانت تمنح للصليبيين غير ذات  
موضوع . وتعطل أهم كنوز الكنيسة أكثر من ثمان سنوات من  
التداول العام . وقد فتحت نقطة بونيفاس الثامن — الذى وفق بين  
رذيلتى الطموح والجشع — سيلا جديدا وكان لدى البابا من العلم  
ما يكفى لتذكر وأحياء الألعاب القرنية التي كان يحتفل بها في رومه  
في نهاية كل قرن . ورغبة في سبر أغوار السذاجة الشعبية دون خطر ،  
ألقيت عظة في حينها ، ونشرت اشاعه بمهارة ، واستحضر عديد من  
شهود العيان القدامى . وفي اليوم الأول من شهر يناير من عام  
١٢٧٢ ، ازدحمت كنيسة القديس بطرس بالمؤمنين الذين طالبوا  
بالغفران المعتاد في هذا الوقت المقدس . وسرعان ما اقتنع البابا الذى  
راقب ، كما أهاج قلقهم الورع ، بمدانة مطلبهم الذى أيده الشهود  
القدامى . وأعلن غفرانا كاملا لكل كاثوليكي زار في خلال تلك  
السنة وفي كل فترة مماثلة ، في خشوع ، كيستى القديسين بطرس  
وبولس الرسولين . وقد نشر هذا الخبر المحبوب في جميع أنحاء العالم  
المسيحي ، فازدحمت الطرق بأفواج من الحجاج ، أولا من أقرب

محافظات إيطاليا ، وفي النهاية من مملكتي المجر وبريطانيا البعديتين ،  
وقد سعوا لمحو خطاياهم في رحلة شاقة غالية النفقة ، ولكنها خالية  
من أهوال الخدمة العسكرية . وفي غمرة التشوة العامة أغفل أى اعتبار  
للمنصب والجنس ، والسن والضعف ، وفي الطرقات والكنائس لقي  
كثير من الناس مصرعهم تحت الأقدام بسبب التحرق الى الخشوع  
والتقوى . وليس من السهل احصاء عددهم ، ولن يكون الاحصاء  
دقيقا ، وربما ضاعف القساوسة البارعون في الأعداد لعلمهم اليقيني  
بعمدوى القدوة ، ومع ذلك فقد أكد لنا مؤرخ محقق ، اشترك في  
الطقوس ، أنه لا يقل على الإطلاق عدد من زاروا رومه عن مائتي  
ألف من الأجانب . وأكد واحد من شهود العيان أن مجموع الزوار في  
تلك السنة بلغ مليونين . وربما شكلت تلك التقدمة الصغيرة التي  
يجود بها كل فرد ثروة ملك . ووقف قسيسان ليلا ونهارا ويبد كل  
منهما جاروف ليجمعاً دون حساب ، أكوام الذهب والفضة التي انهالت  
على مذبح القديس بولس . وكان من حسن الحظ أن الوقت وقت  
سلام ورخاء . وإذا كان العلف نادرا ، وإذا كانت الخانات والمساكن  
باهظة الأجر على نهج مبالغ فيه . فقد كانت هناك كميات لا تتفد  
من الخبز والنبيد ، ومن اللحوم والأسماك ، أعدتها سياسة بونيفاس  
وجود الرومان المشتري . ان أية ثروة جاءت عرضا الى مدينة لا تجارة  
بها ولا صناعة لا بد أن تتبخر بسرعة . ولكن جشع الجيل التسالى  
وحسده أهاب بكليمنت السادس أن يستبق فترة القرن وهي طويلة  
المدى ، واستجاب البابا الرحيم لرغبات الناس . ومنح رومه هذه  
المواساة الهزيلة تعويضا عن فقده ، وبرر هذا التغيير بالإشارة الى



اسم اليوبيل الموسوى ومقوسه . فلبى الناس نداء . ولم ينقص عدد  
الحجاج ولا حماسهم ولا جودهم عن العيد الأول . ولكنهم قابلوا  
العذاب المثلث : الحرب والوباء والقحط ، فاعتدى على كثير من  
النساء العذارى فى قلاع ايطاليا ، ونهب كثيرون من الأجانب أو قتلوا ،  
بأيدي الرومان المتوحشين ، الذين لم يمد يدهم على الاعتدال وجود  
أسقفهم بينهم . ومن الممكن أن ينسب الى تقاد صبر البابوات ،  
اقتص تلك المدة على التوالى الى خمسين ، وثلاث وثلاثين ، وخمس  
وعشرين سنة ، على الرغم من أن الرقم الثانى يعادل عمر المسيح . وقد  
أقنع من قيمة اليوبيل كثيرا ، الاسراف فى منح الغفران ، وثورة  
البروتستانت وانهيار الخرافات . ومع ذلك فان اليوبيل التاسع عشر  
والأخير كان سنة لهو وغنى للرومان . ولن تعكر ابتسامه فلسفية  
ساخرة فوز القس أو سعادة الشعب .

## نبذة الرومان

فى بداية القرن الحادى عشر كانت ايطاليا معرضة لطغيان الاقطاع،  
وهو نظام مرهق للملك وللشعب على السواء . وقد دافعت جمهورياتها  
العديدة عن حقوق الطبيعة البشرية . ومدت هذه الجمهوريات حريتها  
وأملاتها من المدينة الى ما جاورها . وحطم سيف النبلاء ، وحرر  
عبدهم ، وهدمت قلاعهم . وتخلقوا بأخلاق المجتمع وتعودوا على  
الطاعة ، وانحصر طموحهم فى الحصول على المناصب البلدية . وفى  
أعظم ارستقراطيات البندقية وجنوه كبرياء ، كان كل رجل من  
الطبقات العليا خاضعا للقوانين . ولكن حكومة رومه الضعيفة المرتبكة

لم تكن قادرة على الحد من ثورة أبناءها الذين حقروا سلطان الحكام في داخل رومه وخارجها . ولم يعد الأمر نزاعاً مدنياً بين النبلاء والعامّة على حكم الدولة : حيث أكد البارونات استقلالهم الشخصي بأسلحتهم وكانت قصورهم وقلاعهم محصنة ضد الحصار ، واحتمل أتباعهم وخدمهم عبء استمرار منازعاتهم الشخصية . أما من حيث أرومتهم وتعلقهم بوطنهم فقد كانوا أجانب عن هذا الوطن . وربما تبرأ الروماني الأصل ، ان وجد مثل هذا الرجل ، من هؤلاء الأجانب المتعجرفين الذين احتقروا لقب المواطن وأطلقوا على أنفسهم ، في كبرياء وغرور ، أمراء رومه ، وبعد سلسلة من الثورات فقدت كل سجلات النسب ، وأبطل امتياز لقب الأسرة ، واختلط دم الأمم بألوف من الطرق . وحظى القوط واللومبارد ، واليونان والألمان والنورمان بأجمل الممتلكات ، بفضل منحة ملكية أو جزاء على الشجاعة . وقد تستأغ هذه الأمثلة بسهولة ، ولكن ارتقاء رجل يهودى الى مرتبة أعضاء السنااتو والقناصل حدث لا شبيه له في الأسر الطويل لهؤلاء المنفيين البائسين . ففي زمن البابا ليو التاسع اعتنق المسيحية يهودى غنى عالم . وقد كرم في تكميده باسم أبيه الرومى وهو البابا الحاكم . وقد برزت حماسة بطرس — ابن ليو — وشجاعته في الذود عن جريجورى السابع الذى عهد الى تابعة الأمين بحكم « ميناء هادريان » ، أى قلعة ركريستينوس أو كما تسمى الآن قلعة القديس أنجيلو . وقد أنجب كل من الولد وابنه ذرية كبيرة . وقد اشترك في ثروتهم ، وهى من ثمار الربا ، أنبل الأسرات في المدينة . وقد اتسعت صلاتهم الى حد أن حفيد المرتد الأول رفع الى عرش القديس بطرس بفضل مكانة

عشيرته . ووقف الى جانبه أكثر رجال الدين والشعب . وحكم عدة  
 منين في الفاتيكان . وكانت بلاغة القديس برنارد والنصر النهائي  
 لانوسينت الثانى هما اللذان وصبا أناكليستوس بلقب « خصم البابا » .  
 وبعد هزيمته وموته ، لم تعد سلالة ليو من اللامعين البارزين . وليس  
 ثمة أحد من النبلاء المحدثين يرغب فى أن ينتسب الى أصل يهودى .  
 ولست اعتزم احصاء الأسرات الرومانية التى أخفقت وخبت فى فترات  
 مختلفة ، أو التى استمرت تحتفظ بدرجات متفاوتة من العظمة والبهاء  
 الى الوقت الحالى . فأسرة فرانجياني العريقة التى احتفظت بمنصب  
 القنصل يوما ، تكشف عن اسمها فى ذاك العمل الكريم وهو « كسر »  
 الخبز أو توزيعه فى زمن القحط . والحق أن مثل هذا البر أكبر  
 مجدا من احاطة « حى Corsi » وهو حى متسع من أحياء المدينة ،  
 مع حلفائهم ، بسلسلة من التحصينات . وقد احتفظ السافيلي Savelli  
 بمركزهم الأصيل وهم من سلالة السابين ، كما ينبغي أن يتبين من  
 اسمهم . وقد نقش لقب الكابيزوتشى Capizucci على نقود أعضاء  
 السناتو الأوائل . ويحتفظ الكوتى Conti بشرف ، لا بمزارع ، دوق .  
 سنيا Signia . أما أسرة أنيبالدى ، فلا بد أنهم كانوا غاية فى الجهل  
 أو غاية فى التواضع ، ان لم يرجعوا بنسبهم الى بطل قرطاجه  
 ( هانيبال ) .

ولكن من بين ، أو ربما فوق ، لوردات المدينة وأمرائها . لا بد أن  
 أميز أسرتين متنافستين ، هما أسرة كولونا وأسرة أورسبني ، وتاريخهما  
 الخاص جزء أساسى من حويلات رومه الحديثة .

١ — كان اسم أسرة كولونا وشعارها موضوع كثير من الاشتقاق

المشكوك فيه . فلم يغفل الخطباء أو علماء الآثار عمود تراجان أو أعمدة  
هرقل أو عمود ضرب المسيح أو عمود النور الذى أرشد بنى اسرائيل  
فى الصحراء . وكان أول ظهور لهم فى التاريخ فى عام ١١٠٤ . وهذا  
يشهد بقوتهم وقدمهم ، بينما يشرح المعنى البسيط لاسمهم . لقد  
استغزت أسرة كولونا أسلحة باسكال الثانى باغتصاب كافاي Cavae  
ولكنهم كانوا يملكون بصفة شرعية فى ريف رومه اقطاعيتين  
ورائيتين هما مقاطعة زاجارولا ومقاطعة كولونا . ومن المحتمل أن  
المدينة الثانية من هاتين المدينتين تألقت فيها عمود مرتفع هو بقية باقية  
من احدى الدور الريفية أو المعابد . كما كانوا يملكون نصف المدينة  
المجاورة وهى مدينة توسكولوم Tusculum . وهنا زعم قوى بأنهم  
ينتسبون الى دوق توسكولوم . وكانوا فى القرن العاشر طغاة الكرسي  
الرسولى . وتبعاً لرايهم الخاص ، وللراى العام ، يرجع الأصل الأول  
والبعيد الى شواطئ نهر الرين . ولم يستح ملوك ألمانيا من قرابة  
حقيقية أو مزعومة مع أسرة نبيلة اشتهرت فى الكثير الغالب بالجداراة  
والفضل ، ودائماً بالحظ الحسن ، رغم تقلبات الزمن طيلة سبعمائة  
سنة . وفى أواخر القرن الثالث عشر تقريباً تألف أقوى فرع فى الأسرة  
من عم وستة أخوة ، كلهم ذوو شهرة فى الجيش أو الكنيسة . ومن بينهم  
انتخب بطرس عضواً فى سناتو رومه ، وأخذ فى عربة نصر الى الكايتول  
وحيته بعض الهنافات العقيمة بلقب قيصر . على حين أعلن ثقولا الرابع  
جون مركزاً على أنكونا وستيفن دوقاً على رومانيا . وكان راعياً لهذه  
الأسرة متحيزاً لها حتى انه رسم فى صور هجائية وكأنه قد سجن  
فى عمود أجوف . وبعد موته أثار سلوكهم المتعجرف غضب أقمى

البشر . لقد أنكر الكاردينالان ، العم وابن أخيه ، انتخاب بونيفاس الثامن . وخمدت لفترة ما شوكة أسرة كولونا بفعل أسلحته الروحية والزمنية . وأعلن حربا صليبية ضد أعدائه الشخصيين . فصودرت ممتلكاتهم ، وحوصرت حصونهم على ضفتى نهر التيبر بجنود القديس بطرس وجنود خصومهم من النبلاء ، وبعد تخريب باليسترينا أو برانستى ، وهى مقرهم الرئيسى ، قلبت الأرض قلبا بمحراث ، علامة على الخراب الأبدى . وانزل الأخوة الستة من مراكزهم ونفوا وأهدر دمههم ، فجاسوا خلال أوربا متكررين تحف بهم الأخطار من كل جانب . دون أن يفقدوا الأمل فى النجاة والتأثر . وفى هذا الأمل المزدوج كان بلاط فرنسا لهم أكثر ملجأ أمانا . فدبروا مشروع فيليب ، وقاموا على تنفيذه . وكان لزاما على أن أمتدح شهامتهم ، لو أنهم قدروا نكبة الطاغية الأسير واحترموا شجاعته . لقد أبطل الشعب الرومانى أعماله المدنية ، ورد الى أسرة كولونا ألقابها وممتلكاتها . ومن الممكن أن نكون فكرة عن ثروتهم من خسائرهم ، وعن خسائرهم من التعويضات التى منحت لهم ضد شركاء البابا المتوفى وورثته ، ومقدارها مائة ألف فلورين من الذهب ، وأبطل خلفاؤه العقلاء كل لوم روحى أو تجريد من الحقوق . ولم تزد هذه العاصفة الطارئة حظ الأسرة الا قوة . واشتهرت جرأة شيارا كولونا فى أسر بونيفاس ، وبعد ذلك بفترة طويلة فى تنويج لويس البافارى . وبسبب اعتراف الامبراطور بجميلهم أحيط العمود ، وهو رمز أسرتهم ، بناج ملكى . وكان ستيفن الأكبر هو قمة هذه الأسرة فى الشهرة والفضل ، وقد أحبه بترارك واعتبره بطلا أعظم من زمانه ، وجديرا كل الجدارة برومه

القديمة . وقد كشف الاضطهاد والنفي للناس عن قدراته في الحرب والسلام . ففي أيام الشدة والضيق كان موضع احترام لا شفقة ، وقد حفزه احداق الخطر به الى أن يعلن عن اسمه ووطنه . وعندما سئل : « وأين قلعتك الآن » ؟ وضع يده على قلبه وأجاب : « هنا » . وقد استقبل عودة الرخاء بالروح نفسها . والى أن آذنت شمس حياته بمغيب ، بعد أن تقدمت به السنون ، رفع أجداد ستيفن كولونا وأخلاقه وأبنائوه من مكاتنه في الجمهورية الرومانية وفي بلاط أفينيون.

٢ — هاجرت أسرة أورسينى Ursini من سبوليتو . فهم أبناء أورسوس Ursus كما سموا في القرن الثاني عشر ، وهو شخصية لامعة بارزة ، وقد عرف فقط بأنه أب لهذا العرق . ولكن سرعان ما برزوا بين نبلاء رومه بكثرة عدد عشيرتهم وشجاعتهم ، وبقوة قلاعهم ، وشرف العضوية في السناتو والمجمع المقدس ، وارتقاء اثنين الى كرسى البابوية هما سلستين الثالث ونيقولا الثالث ، وقد انتسبا الى هذه الأسرة وحبلا اسمها . وربما انتهت ثروتهم بأنها جاءت من سوء استغلال مبكر للمحاباة ، فقد تنازل لهم سلستين الجواد عن أملاك القديس بطرس . ومن أجلهم كان طموح نقولا الى محالفة الملوك والى تأسيس مملكتين جديدتين في لومبارديا وتوسكانيا والى الحصول لهم على العضوية الدائمة في سناتو رومه . وكان ما قلنا عن عظمة أسرة كولونا يضافى مجدا ، سوا بسواء ، على أسرة أورسينى خصومهم الدائمين المساوين لهم في النزاع الوراثى الطويل الذى مزق الحكومة الكنسية أكثر من مائتين وخمسين سنة . وكان الحقد الذى يتولد من الشهرة والقوة هو السبب الحقيقى لنزاعهم ، ولكن ، كعلامة-

خداعة على الامتياز ، اتخذت أسرة كولونا اسم الجبلين Ghibelines  
على أنهم حزب الامبراطورية ، أما أسرة أورسينى فحملت لقب الويلف  
Guelphs ، وانحازوا الى الكنيسة . وقد عرض النسر والمفاتيح في  
راياتهم المتضادة ، كما ثار النزاع الوحشى بين حزبي ايطاليا بعد أن  
نسى الناس منذ زمن طويل أصل النزاع وطبيعته . وبعد أن انسحب  
البابوات الى أفنيون ، تقاطلوا على الجمهورية الشاغرة ، واستمرت  
شروط النزاع بسبب الحل الوسط المنكود الذى قضى بأن ينتخب  
كل عام عضوان متنافسان للسناو ، فأقمرت المدن والقرى بسبب  
عدائهم الشخصى ودارت الحرب بينهما سجالا ، وتأرجحت بينهما  
كفة النصر ، ولم يسقط أى من الأستين بالسيف قبل أن يقاچىء  
ستيفن كولونا الأصغر أشهر أبطال أسرة أورسينى ويرديه قتيلا . وقد  
تلوث انتصاره باتهامه بخرق الهدنة . وجاء الانتقام للهزيمة انتقاما  
خسيسا ، اذ راح ضحيته طفل برىء وخادماه أمام باب الكنيسة .  
ومع ذلك فان عضو أسرة كولونا المنتصر انتخب عضوا لمدة خمس  
سنوات فى السناو ، وانتخب زميله لمدة سنة . وقد أوحى رية الشعر  
الى بترارك برغبة أو أمل أو نبوءة فى أن يعيد ذاك الفتى الكريم ، ابن  
بطله الميچل . رومه وايطاليا الى مجدهما الأول ، وأن يقطع عدله دابر  
الذئاب والأسود والحيات والديبة التى تجاهد لتقوض الأساس  
مخالد للعمود الرخامى .





## الفصل السابعون

(١٣٠٤-١٥٠٠)

بترارك • رينزي وعودة « الحكومة الفاضلة » • ازدهار الجمهورية  
الرومانية • فروسية رينزي ، وتنويجه ، حماقاته • عودة البابوات الى  
رومه • الانشقاق العظيم في الغرب • حكومة رومه في القرن الخامس عشر •  
الحكومة الكنسية •

### بترارك

بترارك في مفهوم العصور الحديثة ، هو الشاعر الايطالي الذي  
تغنى بالحبيبة « لورا » وبالحب . وعلى أنغام قوافيه التوسكانية  
تصفق ايطاليا ، أو بالأحرى تقدر أبا شعرها الفئائي . ويتردد على  
الألسنة شعره ، أو على الأقل اسمه ، في حماس أو ميل ينبعث من  
احساس بالمحبة . ومهما يكن الذوق الشخصي للأجنبي ، فإن معرفته  
الضييلة السطحية يجب أن تدع في تواضع أمام ذوق أمة مثقفة . ومع  
ذلك ، فاني أؤمل أو أفترض أن الايطاليين لا يقارنون الرتبة المملة  
في المقطوعات ذات الأربعة عشر بيتا وفي المراثي ، باتائجهم الرائع  
الرصين من الشعر البطولي ، وبالطبيعة الأصلية عند دانتى ، وبألوان  
الجمال المنتظم عند تاسو ، وبالتنوع الذي لا يبارى عند أريوستو .  
ولا زلت غير أهل للحكم على منافع العاشق . ولست أهتم اهتماما

كبيراً بهوى ميتافيزيقى لحرورية فاتنة ، ومجرد شبح ، مشكوك فيه  
 وجودها . أو سيدة ولود أنجبت أحد عشر طفلاً شرعياً ، بينما عاشقها  
 الولهان يتهدد ويغنى بجوار نافورة فوكلوز Veucluse . ولكن في  
 نظر بترارك ومطاحره الأكثر رزاة ، كان الحب اثماً ، والشعر  
 الايطالى لهوا كافها . ان مؤلفاته التى كتبت باللغة اللاتينية فى الفلسفة  
 والشعر والبلاغة ، هى التى بنت شهرته الحقيقية ، التى سرعان  
 ما انتشرت من أفينيون الى جميع أرجاء فرنسا وإيطاليا . وقد ازداد  
 عدد أصدقائه وتلاميذه فى كل مدينة . وإذا كانت المجلدات الضخمة  
 من مؤلفاته قد أودعت الآن الرفوف فاتنا — اعترافاً منا بالجميل ،  
 يجب أن نشيد برجل أحيى بالتعليم وبالقدوة روح عصر أوغسطس  
 ودراساته . ومنذ شبابه المبكر تاق بترارك الى الخطوة بتاج الشعر .  
 وقد أوجعت مراتب الشرف الجامعية فى الكليات الثلاث درجة  
 ماجستير أو دكتوراه فى فن الشعر . وكان قياصرة ألمانيا هم أول من  
 ابتدع لقب شاعر البلاط ، الذى خلده ، فى البلاط الانجليزى ،  
 العادة ، لا الفرور . وكان الفائز فى المباريات الموسيقية فى العالم  
 القديم يمنح جائزة . وقد أشعل الاعتقاد بأن فرجيل وهوراس توجا  
 فى معبد الكابيتول روح المنافسة فى شاعر لاتينى . وقد أغرم العاشق  
 ياكليل الفاو لمشاكلة لفظية بينه وبين اسم الحبيبة . وقد زادت صعوبة  
 السعى من قيمة كل من الهدفين . وإذا كانت فضيلة لورا ( الحبيبة )  
 أو رذائلها لا ترحم ، فقد استمتع ، أو ربما استطاع أن يفاخر بأنه  
 تمتع بعروس الشعر . ولم يكن غروره شديد الحساسية اذ أنه كان  
 ينتلج تبجح جهوده . وكان اسمه محبوباً ، وكان أصدقائه نشيطين .  
 وقد تملكت الموهبة الصامدة البارة على العداوة العلنية أو الخفية

التي يليها الحقد والحسد والبغضاء . وفي السادسة والثلاثين من عمره طلب اليه أن يقبل ما كان يصبو اليه ، وفي اليوم نفسه ، وهو وحيد في فوكلوز . جاءت دعوة كريمة مماثلة من السناتور في رومه ومن جامعة باريس . وكان علم مدرسة اللاهوت ، وجهل المدينة التي لا يحكمها قانون ، كلاهما غير أهل لمنح هذا الاكليل المثالي — ولو أنه خالد — الذي يمكن أن تحظى به المبقرية من الشاء العام الخالص . ومن الأعقاب . ولكن مرشحنا رفض هذا الخاطر المتعب . وبعد لحظات من الرضا والتمهل فضل دعوة عاصمة العالم .

وقد قام بمراسم هذا التسويج في الكابيتول صديقه وحاميه الحاكم الأعلى في الجمهورية . وصحب الموكب اثنا عشر شابا من عليقة القوم بملابسهم القرمزية ، وستة من مثلي الأسر الكبيرة بملابسهم الخضراء وعلى رؤوسهم أكاليل من الزهر . ووسط حشد من الأمراء والنبلاء ، اغتلى عضو الشيوخ ، ودوق أنجويلارا وقريب أسرة كولونا ، عرشه . وعندما جلجل صوت المنادى ، وقعه بتوارك . وبعد أن تحدث عن نص من فرجيل ، وبعد أن كرر ثلاث مرات دعاء بالرخاء والازدهار لرومه ، ركع أمام العرش وتسلم من عضو السناتور اكليل من الغار ، مع اعلان أكثر قيمة : « هذه هي جائزة الجدارة » . وصاح الشعب : « العمر المديد للكابيتول وللشاعر » . واستمع الناس الى مقطوعة شعرية في مديح رومه ، كنتاج لعبقريته ورمز لاعترافه بالجليل . وبعد أن زار الموكب بأجمعه الفاتيكان . علق الاكليل الدنوبى أمام ضريح القديس بطرس . وفي الوثيقة أو الدرجة التي قدمت اليه ، بحث لقب « شاعر البلاط » وامتيازاته في الكابيتول بعد مضي ألف وثلثمائة سنة ، ومنح الامتياز الدائم أن يلبس ، اذا أراد ،

تاجا من الغار أو اللبلاب أو الآس ، وأن يرتدى لباس الشعراء ، وأن  
يدرس ويناقش ويشرح ويؤلف في جميع الأماكن وفي كل الموضوعات  
الأدبية . ووافق مجلس الشيوخ والشعب على هذه المنحة . وكان  
منحه لقب المواطن جزاء وفاقا لتعلقه باسم الرومان . لقد أسسبغوا  
عليه شرفا ، ولكنهم أنصفوه ومنحوه ما يستحق . فقد تشبع بأفكار  
المواطن العتيق لكثرة صحبته لشيثرون وليفى . وقد حول خياله  
المتقد كل فكره الى احساس ، وكل احساس الى هوى . وقد ثبت  
منظر التلال السبعة وأطلالها الجليلة هذه الانطباعات الحيوية . انه  
أحب وطنه توجه وتبناء بروح كريمة . وقد أهاج فقر رومه وانحطاطها  
غضب ابنها البار وشفقته . لقد أخفى أخطاء مواطنيه . وشاد في حب  
وتحيز بآخر أبطالهم وسيدانهم . وأثلج صدره أن ينسى بؤس الحاضر  
في ذكريات الماضي . وفي أمل المستقبل . ولا زالت رومه سيدة العالم  
الشرعية ، ولكن البابا والامبراطور : أسقفها وقائدها ، قد اعتزلا  
منصبيهما وأنسجا على نهج شائن . الى الرون والدانوب . ولكن  
ان كان في الامكان أن تستعيد مكائتها . فلربما دعمت الجمهورية مرة  
أخرى حريتها ومستلكانها . وفي غمرة الانهالك في الحماس والبلاغة .  
أذهلت بترارك وايطاليا وأوربا ثورة حققت لفترة ما ، أروع ما تصور  
من رؤى . وسيحتل ظهور الترييون رينزى وسقوطه الصفحات  
التالية . فالموضوع هام والمادة موفورة ، ولا بد أن تبعث نظرة شاعر  
وطى ، في بعض الأحيان ، روح الحياة في الوصف الغزير ، ولكنه  
البسيط ، الذى دبحه مؤرخ فلورنسة ، وبشكل أخص ، مؤرخ  
رومه .

## رينزي وعودة الحكومة الفاضلة

في حي من المدينة كان يسكنه الصانع الميكانيكيون واليهود ،  
أنجب زواج صاحب خان من امرأة « غسالة » ، منقذ رومه في  
المستقبل . ولم يكن في امكان رينزي جابريني *Rienzi*  
أن يرث عن مثل هذين الوالدين مكلنة أو ثروة . ولكن التعليم الحر  
الذي تلقاه ، كان هو الهبة الكريمة التي قاسى أبواؤه في سبيلها .  
الآلام ، كما كان سبب مجده وموته المبكر قبل الأوان ، وقد يستوي  
دراسته للتاريخ والبلاغة ومؤلفات ثيشرون وسينكبوليفي وقيصر .  
وفاليربوس ماكسيموس . سست بعقوبة هذا الفتى الذي خرج من  
صفوف العامة ، فوق قرنائهم ومعاصريه . ولقد تصفح بجد لا يعرف  
الكلل المخطوطات البتيقة والنفوش القديمة ، وكان يميل الى نشر  
معارفه في لغة عادية مألوفة ، وكثيرا ما تارت نفسه . فصاح :  
« أين هم الآن أولئك الرومان ؟ أين فضيلتهم ؟ وعدلهم ، وفوتهم ؟  
لماذا لم أولد في تلك الأيام السعيدة ؟ » وعندما بعثت الجمهورية بوفده  
الى عرش أفينيون مؤلف من الطبقات الثلاث ، رشحت رينزي روحه  
وفصاحته لاختلال مكانة بين الأعضاء الثلاثة عشر الذين وقع عليهم  
الاختيار من بين العامة . وحظى هذا الحطيب بشرف الفاء كلمة في  
حضرة البابا كليمنت السادس ، والتحدث الى بترارك ، وهو ذو عقلية  
مسائلة . ولكن آماله الطموحة أخمدتها العار والفقر . واضطر هذا

الوطني القيور أن يكتفى برداء واحد . وبما يمنحه المستشفى من صدقات . وقد ألقده من هذا البؤس شعور بالحدارة ، أو ابتسامة الحظوة ، وكملت له وظيفة موثق بابوي مرتبا يوميا قدره خمسة فلورينات من الذهب ، وصلات أكثر شرفا واتساعا ، كما مكنته من مقارنة تراثه قولا وعملا بمساويء الدولة . وكانت فصاحة رينزي يقطعة ومقنعة . والجماهير دائما ميالة الى الحقد والتقريع واللوم . وقد آثروه فقد أخيه وافلات السفاكين من العقاب . ولم يكن من الممكن تبرير المصائب العامة أو المبالغة في وصفها . وقد اختفت من رومه نعمتا السلام والعدالة ، اللتان من أجلهما أنشئ المجتمع المدني . كما أن المواطنين الفيورين الذين كان من الممكن أن يحتلوا أي أذى في أجسادهم أو أموالهم ، أصيبوا بجرح عميق غاية العمق ، في تلك أعراض زوجاتهم وبناتهم ، وعصف بهم سواء بسواء غطرسة التبلأ وقساد الحكام . وكان سوء استعمال الأسلحة أو القانون هو الأمر الوحيد الذي ميز بين سباع الكابتول وبين كلابه وأفاعيه . وتكررت ومتوتعت هذه الاشارات الرمزية في الصور التي كان يعرضها رينزي في الطرقات وفي الكنائس . وبينما حملق النظارة في دهشة غريبة ، كان هذا الخطيب الشجاع السريع الخاطر يوضح ويهجو ، ويهيج المشاعر ، كما يبعث فيهم أملا بعيدا في الراحة والخلاص . وكانت امتيازات رومه وسلطانها الدائم على أمرائها وولاياتها هي موضوع أحاديثه الخاصة والعامة . وتحول في يديه أثر من آثار العبودية الى عنوان على الحرية وحافز اليها . لقد نقش قرار السناتو الذي منح فيسباسيان أعظم الامتيازات على لوح من

النحاس لا يزال قائما في مكان الجوقة في كنيسة القديس يوحنا لا تيران . وقد دعيت جماعة كبيرة من النبلاء والعامّة الى هذه المحاضرة السياسية . وشيد مسرح مناسب لاستقبالهم . وظهر الموثق وهو يرتدى لباسا فخما غريبا . وشرح النقوش بعد أن ترجمها وعلق عليها ، وأفاض بطلاقة في الأمجاد العتيقة للسنانو والشعب ، وهما مصدر كل سلطة شرعية . ولم يكن جهل النبلاء المطبق بمستطيع أن يتبين الاتجاه الحقيقي لهذه الأحاديث . وكان في استطاعتهم في بعض الأحيان ، بالألفاظ واللكمات ، تأديب هذا المصلح الذي خرج من صفوف العامة ، غير أنه كثيرا ما سمح له في قصر أسرة كولونا بأن يسلى المجتمعين بتهديداته وتبؤاته . وكان بروتوس العصر الحديث يتكرر تحت قناع الحفاقة ، وفي شخصية المهرج . وبينما كانوا سادرين في غيهم واحتقارهم ، كانت « عودة الحكومة الفاضلة » ، وهو تعبيره المفضل ، تنتشر بين الناس كحدث مرغوب فيه ، أو ممكن . وفي النهاية وشيك الوقوع . وبينما كان الجميع يميلون الى التصفيق لنقذهم « المنتظر » . أوتى بعضهم من الشجاعة ما يمكنهم من معاوته .

كانت النبوءة أو بالأحرى النداء الذي علق على باب كنيسة القديس جورج هو أول شاهد علني على خطئه ، كما كان عقسد جمعية ليلية مؤلفة من مائة مواطن على جبل أقتين أول خطوة في تنفيذها . وبعد أن أقسم المتآمرون يمين السرية والمساندة ، بين لهم أهمية مشروعاتهم وسهولته ، وأن النبلاء ، الذين لا تجمعهم وحدة ، وليست لديهم موازن ، كانوا أقوياء فقط في خوف الناس من

قوتهم الخيالية ، وأن كل قوة ، وكذا كل حق ، فى أيدي الشعب ،  
وأن موارد الخزنة الرسولية يمكن أن تخفف من الضائقة العامة ،  
وأن البابا سيبارك انتصارهم على العدو المشترك للحكومة والحرية .  
وبعد أن جمع حوله عصبة موالية ، لتأييد اعلانه الأول ، أعلن  
بالأبواق فى مختلف أرجاء المدينة ، أن على الجميع أن يجتمعوا فى  
مساء اليوم التالى أمام كنيسة القديس أنجيلو دون أن يحملوا أسلحة ،  
وذلك للاعداد لتأسيس « الحكومة الفاضلة » . واقضى الليل كله فى  
اقامة ثلاثين حفلا لتقديم قربان الروح القدس . وفى الصباح خرج  
رينزى من الكنيسة عارى الرأس مدججا بسلاحه ، يحيط به المتآمرون  
المائة . وقد أقنع نائب البابا ، أسقف أورفيتو الساذج ، بالاشتراك  
فى هذا الحفل الغريب . فسار على يمين رينزى وحملت أمامه ثلاثة  
ألوية كبيرة كرموز على هدفهم . ففى اللواء الأول . وهو راية الحرية ،  
جلس رومه على أسدين وفى احدى يديها سجع النخيل . وفى  
اليد الثانية الكرة الأرضية . ورسم على اللواء الثانى راية العدالة  
القديس بولس وهو يمسك بسيف مسلول . وعلى اللواء الثالث  
رسم القديس بطرس وهو يقبض على مفاتيح الوفاق والسلام .  
وقد شجع رينزى وجود جماهير لا حصر لها تهتف وتهلل ، وهى تفقه  
القليل وتؤمل فى الكثير . وسار الموكب ببطء من قلعة القديس  
أنجيلو الى الكايتول . وقد أثار نصره بعض الانفعالات التى جاهد  
فى اخمادها . وارتقى دون مقاومة وفى ثقة فاعهية قلعة الجمهورية ،  
وخطب فى الناس من الشرفة ، وتلقى موافقة متملقة على أعماله  
وقوانينه . ونظر النبلاء فى فزع صامت الى هذه الثورة الغريبة ،



وكأنهم عزل من السلاح مجردون من الرأى والمشورة . وقد اختيرت اللحظة المناسبة في دقة وحزم عندما كان ستيفن كولونا ، وهو أقوى النبلاء شكيمة ، غائبا عن المدينة . وعند أول اشاعة سارع بالرجوع الى قصره . وتظاهر بأنه يحقر هذا الشعب الشعبى ، وأعلن الى رسول رينزى أنه سيلقى ، عندما يريد ، بهذا المجنون من نوافذ الكايتول . فدىق الناقوس الكبير تواءا ، انذارا . وتتابعت الأحداث بسرعة وأحرق الخطر ، حتى ان كولونا نفسه بادى بالهرب الى ضاحية القديس لورنس ، ومن هناك ، بعد أن استراح لحظة ، جد السير حتى وصل فى أمان الى حصن باليسترينا ، وهو يندب قلة حزمه فى أنه لم يقض على الشرارة التى أشعلت هذه النار الكبرى . وصدر من الكايتول أمر عام حاسم لجميع النبلاء بالذهاب بطريقة سلمية الى مزارعهم . فأطاعوا . وقد كفل خروجهم هدوء مواطنى رومه الأحرار المطيعين .

ولكن مثل هذه الطاعة الاختيارية تتبخر مع أول نشوات الحماس . وشعر رينزى بأهمية تبرير استيلائه على الحكم بتشكيل منتظم ولقب قانونى . وتبعاً لاختياره هو ، كان الشعب الرومانى مستعدا لظهار تعلقهم به ولاظهار تفوذهم بأن ينشروا على رأسه لقب عضو السناتو أو قنصل أو ملك أو الامبراطور ، ولكنه فضل اسم التريون ، وهو لقب قديم متواضع . وكانت حماية العامة هى جوهر هذه الوظيفة المقدسة . وكانوا يجهلون أنها لم تمنح صاحبها قط أى قسط فى السلطتين التشريعية والتنفيذية فى الجمهورية . وفى هذا المنصب وبموافقة الرومان أصدر التريون أنجح القوانين لاعادة

« الحكومة الفاضلة » والاحتفاظ بها . وفي أول هذه القوانين كان يحقق رغبة الرجل الأمين غير المجرب ، فقضى بالآي طول الفصل في أية قضية مدنية لأكثر من خمسة عشر يوما . وقد يبرر الخوف من تكرار الحث ، الحكم على من اتهم آخر كذبا بالعقوبة نفسها التي كانت أدلته تؤدي إليها . ان الفوضى والاضطرابات التي سادت العصر ترغم المشرع على أن يعاقب على كل قتل بالاعدام وكل اعتداء بقصاص مماثل . ولكن تنفيذ العدالة كان أمرا لا أمل فيه ، قبل أن يقضى أولا على طغيان النبلاء . فص صراحة على أنه لا يجوز لأحد سوى الحاكم الأعلى أن يستولى على ، منافذ الدولة أو قناطرها أو قلاعها أو أن يتحكم فيها . وأنه يحرم الاتيان بحاميات خاصة الى مدن الأرض الرومانية أو قلاعها . وأنه لا يجوز أن يحمل أحد سلاحا أو يحصن داره في المدينة أو الريف . وعلى البارونات مسئولية حماية الطرقات وحرية مرور المؤن . وأنه يعاقب على حماية الأشرار واللصوص بغرامة مقدارها ألف مارك من الفضة . ولولا أن سيف السلطة المدنية أربح النبلاء الداعرين ، لبقيت هذه التشريعات عديمة القوة والقيمة . واستطاع انذار مفاجيء من ناقوس الكابيتول أن يضم الى اللواء أكثر من عشرين ألف متطوع . ولكن تأييد الترييون وقوانينه كانت في حاجة الى عون مستمد من قوة دائمة أكثر انتظاما . ففي كل ميناء على الشاطئ وضعت سفينة لتأمين التجارة . وجندت قوة ثابتة من الحرس ، قوامها ثلثمائة وستون من الخيالة وألف وثلاثمائة من الرجالة ، يتسلمون لباسهم ويتقاضون أجورهم ، في أحياء المدينة الثلاثة عشر . ويمكن أن تتبع أثر روح الكومنولث في المنحة المشكورة

وقدرها مائة فلورين أو جنيه تدفع لورثة كل جندي يفقد حياته في سبيل الدفاع عن وطنه . واستخدم رينزي — دون خوف من تهمة الاعتداء على الأموال المقدسة — موارد الخزنة الرسولية لانشاء قوة للدفاع العام واقامة مخازن للفلال واسعاف الأرامل اليتامى والأديرة الفقيرة . وكان كل فرع من الفروع الثلاثة ، أغنى ضريبة الوقود والملح والمكوس تدر مائة ألف فلورين سنويا . ولا بد أن سوء الاستغلال كان شنيعا ، إذ كانت ضريبة الملح وصلت في أربعة أشهر أو خمسة الى ثلاثة أمثال حصيلتها السابقة ، وذلك بسبب تدبيره الدقيق . وبعد أن أعاد قوى الجمهورية وماليتها ، استدعى التريون النبلاء من عزلتهم واستقلالهم . وطلب منهم الحضور شخصا الى الكابنول وفرض عليهم بين الولاء للحكومة الجديدة والخضوع لقوانين « الحكومة الفاضلة » . وخاف الأمراء والبارونات على سلامتهم ، ولكنهم توجهوا خيفة أكثر من الرقض ، فعادوا الى دورهم في رومه وهم يرتدون لباس المواطن البسيط المسالم . واختلط أعضاء أسرة كولونا وأورسيني وسافيلي وفرانجيا أمام منصة هذا الفرد العادي من الرعاع ، ذاك المهرج الدنيء الذي طالما سخروا منه ، وزاد في عارهم ذاك السخط الذي كانوا يجاهدون عبثا لاختفائه . وقد نظقت بالقسم نفسه طبقات المجتمع العديدة على الترتيب : رجال الدين والأعيان والقضاة والموثقون والتجار والصناع . وقد ميز هذا الهبوط التدريجي ارتفاع في درجة الاخلاص والحماس : أقسموا أن يحيوا ويموتوا للجمهورية والكنيسة ، وقد أدمجت مصالح الكنيسة بطريقة ماهرة ، بتعيين أسقف أورفيتو نائب البابا في وظيفة

التريون اسميا فقط . وكان رينزى يفخر بأنه خلص عرش القديس بطرس وأمواله من أرستقراطية مشاغبة متمردة . وقد تظاهر كليمنت الذى ابتهج لسقوطها ، بأنه يؤمن بأراء خادمه الأمين ، وأنه يشيد بمآثره ويوافق على لقبه . وقد ألهم حرص قوى على ثناء العقيدة ، لغة التريون ، ومن المحتمل أنه ألهم عقله كذلك ، فأشار من طرف خفى الى دعواه بأنه يتلقى رسالة مقدسة من الروح القدس . وفرض كواجب سنوى « الاعتراف » وتسلم القربان ، وعاقب على مخالفة ذلك بغرامة ثقيلة . وقام بدقة على رعاية شعبه الوفى وسعادته الروحية والدينية معا .

## ازدهار الجمهورية الرومانية

ربما لم يسبق قط من قبل أن أحس الناس بطاقة عقل واحد وأثره ، أشد من احساسهم باصلاح رومه على يد التريون رينزى ، وهو اصلاح مفاجئ ، ولكنه عابر . وتحولت بؤرة لصوص الى معسكر أو دير . فكان يصغى فى صبر ، ويسارع الى تضييد الجراح وتخفيف الآلام ، ولا يقبل شفاعة عند انزال العقوبة ، وكان الوصول الى ساحته دائما سهلا على الفقير والغريب . ولم يكن المولد أو المركز أو حصانة رجال الكنيسة لتحضى المذهب أو شركاءه . وأبطل امتيازات بعض الدور والمعابد الخاصة فى رومه ، تلك التى لم يكن أى مندوب من مندوبى العدالة يجرؤ على دخولها ، واستخدم أخشاب حواجزها وحديدتها فى تحصين الكابنول . وتعرض رب أسرة كولونا الميجل الى العار المزدوج ، فى أنه لا يستطيع فى قصره أن يحصى مجرما على الرغم

من رغبته الشديدة في ذلك . وسرق يوما بغل يحمل اثناء من الزيت بالقرب من كابرايكا ، وقد حكم على رب أسرة أورسيني بأن يعوض الخسارة وأن يدفع غرامة قدرها أربعمئة فلورين لاهماله في حراسة الطرق العامة . ولم يتمتع أشخاص البارونات بحصانة أكثر من أرضهم ودورهم . ومن الجائز أنه حدث اتفاقا أو عمدا أن عين الصرامة المحايدة انصبت على رؤساء الأحزاب المتعادية . فقبض على بيتر أجايت كولونا الذي كان عضوا في السناتو في رومه بسبب عدوان أو دين ، واستراح ضمير العدالة باعدام مارتن أورسيني ، ولو بعد حين ، وكان من بين أعمال العنف والنهب التي ارتكبها أنه اعتدى على سفينة غارقة في مصب نهر التيبر وسلبها . ولم يعبأ الترييون الذي لا يقبل شفاعاة والذي كان قد اختار ضحيته ، لم يعبأ باسمه ولا بالرداء الأرجواني لاثنين من الكرادلة ، هما عماء ، ولا بزواج حديث ، ولا بمرض قتال . فجرحه ضباط الحكومة من قصره ، من مخدع الزوجية ، وكانت محاكمته قصيرة ومرضية ، وجمع ناقوس الكاينول الناس . ونزع رداؤه . وركع على ركبتيه وقد ربطت يده وراء ظهره . وسمع الحكم عليه بالاعدام . وبعد اعتراف قصير ، اقتيد أورسيني الى المشنقة . وبعد هذا المثال ، لم يطمع امرؤ يدرك خطيئته في الافلات من العقوبة . وسرعان ما طهر هروب الأشرار الداعرين والظالمين مدينة رومه وما حولها . وهنا يقول المؤرخ : « وفي هذا الوقت بدأت الغابات تبتهج اذ خلت من اللصوص ، والثيران تحرث ، والحجاج يزورون المعابد ، وامتلات الطرقات والغانات بالمسافرين . وعادت التجارة والإمانة والرخاء الى الأسواق .

ومن الممكن عرض كيس ملىء بالذهب دون خطر فى وسط الطريق العام . وحالما يطمئن المرء على حياته وماله ، تدب الحياة تلقائيا فى فنون الصناعة وتؤتى أكلها . وكانت رومه لا تزال عاصمة العالم المسيحى ، وقد انتشرت شهرة الترييون وحظه فى كل قطر ، على لسان الغرباء الذين استمتعوا بخيرات حكومته .

وأوحى انقاذ الوطن الى رينزى بفكرة عريضة ، وقد تكون خيالية ، هى توحيد ايطاليا فى جمهورية اتحادية ( فدرالية ) كبرى تكون رومه هى مركزها الشرعى والعتيق . وتكون المدن الحرة والنبلاء الأحرار أعضاءها وحلفاءها . ولم يكن قلبه أقل فصاحة من لسانه ، وقد سلمت رسائله العديدة الى رسل سريعين موثوق بهم ، اخترقوا على أقدامهم ، وهم يسكون بعضا بيضاء ، الغابات والجبال ، وتمتعوا فى أكثر الولايات عداوة بحصانة السفراء ، وعادوا يقولون فى لغة الملق أو الصديق ان الطرقات التى مروا بها كانت مليئة بالجماهير الراكمة التى تدعو الله لنجاح مساعيهم . فكان من الممكن لو أن الهوى استمع الى العقل ، ولو أن المصلحة الخاصة أخلت السبيل للمصلحة العامة ، أن تخفف المحكمة العليا والاتحاد الفيدرالى لجمهورية ايطاليا من شقاقها الداخلى فتغلق جبال الألب ضد برابرة الشمال . ولكن هيهات ، لقد فات الأوان . واذا قدمت البنديقية وفلورنسه وسيينا ويروجيا وكثير من المدن الصغيرة أرواحها وأموالها للحكومة الفاضلة ، فان طائفتى لومبارديا وتوسكانيا كانا يحتقران أو يمتتان حتما الرجل الذى خرج من صفوف الرعاع ، والذى أذاع دستورا حرا . ولكن الترييون تلقى منها ومن كل جزء فى

إيطاليا ردودا بلغت الذروة في المحبة والاحترام . ثم جاء في أروها سفراء  
الأمراء والجمهوريات . وبين هذه الجماعات الأجنبية في ساعات  
اللهو والعمل كان الموثق الوضيع قادرا على أن يتخلق بأدب الملوك  
في تواضعهم أو يحاكي جلالهم (١) وكان أهم حدث في حكمه ،  
التجاء لويس ملك المجر الى عدالته . فقد أرسل اليه يشكو من أن  
جين ملكة نابلى خنقت غدرا أخاه وهو زوجها . وبعد أن شهد  
الترييون المحاكمة الرهيبة في رومه ، واستمع الى محامى الدفاع ،  
أجل هذه القضية الهامة ، ولكنها البغيضة ، والتي سرعان ما فصل  
فيها ملك المجر بحد السيف . وفيما وراء الألب وعلى الخصوص في  
أفنيون ، كانت الثورة موضع تساؤل ودهشة وثناء . وكان بترارك  
الصديق الخاص لرينزى ، وربما كان مستشاره السرى ، وكانت تشع من  
كتاباتهِ روح الوطنية المشتعلة والابتهاج . لقد ضاع كل احترام للبابا  
وكل اعتراف بالجميل لأسرة كولونا في أسس واجبات المواطنين  
الرومانى . ويدافع شاعر البلاط في الكابيتول عن الثورة ، ويشى على  
البطل ، ويمزج ببعض المخاوف والنصائح أروع الآمال في ارتقاء  
الجمهورية مدارج العظمة ودوامها .

---

(١) وهكذا فهل معارف أوليفر كرومويل القسدام الفريين تذكروا  
دخوله الى مجلس العموم البريطانى بطريقة خشنة فظة غير كريهة - عندما  
هو سلاسة أخلاق حامى حسمى الجمهورية ، وهو جالس على عرشه يحفز  
به الجلال . ان الشمور بالقسدة والقوة « قد يرقى فى بعض الاحيان  
بالملوك فيصل الى مستوى المرتبة التى يشغلها المرء » .

## فروسية رينزي ، توجهه ، حماقته

وبينما كان بترارك غارقا في أحلامه ونبوءاته ، كان البطسل الروماني يهوى بسرعة من ذروة شهرته وقوته . وبدأ الشعب الذي كان يتطلع في دهش الى صعود السراج الوهاج ، يلاحظ عدم انتظامه في مساره وتعاقب الظلام والنور . وبات أكثر فصاحة وأقل حكمة ، وأكثر جرأة وأقل عزما ، فلم يكن يتحكم في مواهب رينزي منطق هادئ مسيطر . فكان يبالغ في توضيحتهم مناط الأمل وموطن الخوف عشر مرات . ان الحزم الذي لم يكن ليقيم عرشه ، لم يكن في وسعه أن يحصنه . وفي ذروة رخائه وازدهاره كانت فضائله تلتاث ، دون وعى منه ، بالردائل القريبة منها : العدالة بالقسوة ، والكرم بالاسراف ، والرغبة في الشهرة بالفرور الصياني الموصوم بالتباهي والتفاخر ، كان في مقدوره أن يتعلم أن التريون القديم الذي كان في نظر الناس قويا مقدسا لم يكن يختلف عن الرجل من العامة في أسلوب أو لباس أو مظهر ، وأنه كلما زار المدينة على قدميه ، أعانه في مهمته صاحب واحد أو تابع واحد . ولو أن الأخوين الجراكين ابني جراكوس قرأا ألقاب خلفهما الطنانة ونعوته الرنانة ، لعبسا أو ابتسما ساخرين : « فيقولوا ، قاس ورحيم ، منقذ رومه . حامى ايطاليا . صديق الجنس البشرى ، نصير الحرية والسلم والعدالة . ترييون ميجل » . وعاونت مواكبه المسرحية على الاعداد للثورة . ولكن رينزي ، ترفا وغرورا ، أساء استغلال المثل السياسى القائل بأن يتحدث المرء الى عيون الجماهير . كما يتحدث الى عقولهم . فلقد منحته الطبيعة وسامة



وملاحة ، ولكن أفسدها ومنسخها الافراط والادمان . وقد حد من ميله الى الضحك تكلف الرزاة والحزم ، وهو على منصة الحكم . وكان يرتدى ، على الأقل في المناسبات العامة ، ثوبا متعدد الألوان من المخمل أو الأطلس ، مبطنا بالقراء ومزركشا بالذهب . وكانت عصا العدالة التي يحملها في يده عبارة عن صولجان من الصليب الصقيل متوجا بسكرة وصليب من الذهب ، وبه قطعة صغيرة من الخشب الحقيقي المقدس . وفي مواكبه المدنية والدينية خلال المدينة كان يمتطي جوادا أشهب ، هو رمز الملكية . وكان علم الجمهورية الكبير ، وهو يمثل شمسا مع دائرة من النجوم ويهامة مع غصن الزيتون يرفرف فوق رأسه . وكانت القطع الذهبية والفضية تشر على الناس ، كما أحاط بشخصه حرس مؤلف من خمسين جنديا يحملون الرماح . وسارت أمامه فرقة من الخيالة ، بطولهم وأبواقهم المصنوعة من الفضة الخالصة . وقد كشف طموحه في الحصول على شرف الفروسية عن وضاعة أصله ، كما حظ من أهمية منصبه . ولم يكن النبلاء الذين انحاز التربيون الفارس الى جانبهم ، أقل مقبلا له من العامة الذين هجرهم وتخلوا عن صفوفهم . وقد أنفق في ذلك اليوم كل ما بقي حتى الآن من الكنوز ومن الترف ومن الفن . ركب رينزي في طليعة الموكب من الكابتول الى اللاتيران . وخففت الزينات والألعاب من ملل الطريق . سارت طبقات رجال الدين والمدنيين والعسكريين ، كل تحت علمه الخاص به . وسارت سيدات رومه في ركاب زوجته . وكان من الممكن لسفراء ايطاليا أن يهملوا بأعلى أصواتهم أو أن يسفروا في أعماقهم من هذا البهاء المبتدع . وبعد أن وصلوا في

المساء الى كنيسة قسطنطين وقصره ، شمسك المجتمعين ، وأذن لهم  
بالانصراف ، ودعاهم على كثرة عددهم الى الحفل الذى سيقام فى  
اليوم التالى . ومن يد فارس مبجل تسلم رتبة فارس من جماعة الروح  
القدس . وقد سبق ذلك تطهيره بالاستحمام . ولم يحدث أن أتى رينزى  
فى حياته عملا جلب عليه فضيحة ولو ما أكثر من استخدامه فى ذلك  
اليوم ، فى أمر دنيوى ، الاثناء المصنوع من الحجر الساقى ، الذى  
شفى بوساطته قسطنطين من مرض الجذام ( وهى خرافة سسبجة )  
على يد البابا سيلفستر . واجترأ بالقدر نفسه ، وانتظر التريسون  
أو استراح داخل الحرم المقدس للتعميد . وقد فسر سقوط سريره  
الرسمى على أنه نذير شؤم بسقوطه الوشيك . وعند اقامة الطقوس  
رأته الجماهير التى عادت الى الكنيسة فى أبهى مظهر من الجلال  
والعظمة ، مرتديا ثوبا أرجوانيا ومتنطقا بسيقه وحول قدميه مهمازه  
المذهب ، ولكن سرعان ما أخل طيشه وحمقه بسير الطقوس المقدسة .  
حيث نهض من عرشه وتقدم نحو المصلين وصاح بأعلى صوته :  
« اتنا نطلب الى البابا كليمنت أن يمثل أمامنا ونأمره بالاقامة فى  
أبرشيته ، أبرشية رومه . وكذلك نطلب الى مجمع الكرادلة المقدس ،  
ونطلب أيضا الى المدعين ، شارل أوف بوهيسيا ولويس أوف باقاريا  
الذين يسميان نفسيهما إمبراطورين ، كما اتنا نطلب الى جميع ناخبي  
ألمانيا ، أن يقولوا لنا بأى حق اغتصبوا حق الشعب الرومانى الذى  
لا يمكنه التنازل عنه ، والشعب هو السيد الشرعى القديم  
للإمبراطورية » . ثم استل سيفه البكر وأخذ يلوح به مشيرا الى أجزاء  
العالم الثلاثة ، وكرر ثلاث مرات هذا الاعلان المتهور : « وهذا أيضا

ملكى « . وقد حاول نائب البابا ، أسقف أورفيتو ، أن يجد من هذا المسلك الطائش . ولكن الموسيقى العسكرية غطت على احتجاجه الهزيل ، وبدلاً من الانسحاب من الاجتماع ، قبل أن يتناول الطعام مع أخيه التريون على مائدة كانت الى ذلك الوقت مخصصة للحبر الأعظم . وأعدت للرومان وليمة كذلك التى كان يولها القياصرة ، ونشرت موائد لا حصر لها فى الغرف والأروقة والأفنية فى قصر لاثيران لكلا الجنسين ولكل طبقات الشعب ، وسال نهر من النيذ من خياشيم تمثال حصان قسطنطين البرونزى ، ولم تسمع أية شكوى الا من ندرة الماء . وحد النظام والخوف من عبث الجماهير . وحد يوم تال لتتويج رينزى . فوضع أعظم رجال الدين من الرومان على رأسه بالترتيب سبعة تيجان مكونة من أوراق مختلفة ومعادن مختلفة . وهى تمثل هبات الروح القدس السبع . وكان لا يزال يعلن أنه يحكى مثال التريونات القدامى . وقد تخدع الشعب هذه المشاهد غير العادية أو تتملقه . وقد أرضى غرور زعيمهم غرورهم . ولكنه فى حياته الخاصة انحرف بسرعة عن جادة الاقتصاد والتقشف . ان العامة الذين أفزعهم ترف النبلاء ، أهاجتهم الآن أبهة الرجل الذى هو من نظرانهم . وأبرزت زوجه وابنه وعمه ( وكان حلاقاً بالاسم والمهنة ) التناقض بين سلوكه الوضاعة وبذخ الأمراء . وانغمس رينزى فى ردائل الملك ، دون أن يحظى بجلاله .

---

فى عام ١٣٤٧ خلع رينزى عن منصبه ونفى . ثم عاد الى رومه بعد سبع سنوات يحمل لقب غمضسو فى السناتو ، ولكنه قتل بعد أربعة أشهر ، فى سبتمبر سنة ١٣٥٤ .

## عودة البابوات إلى رومهم

كانت عودة جمهورية حرة هي أولى رغبات بترارك وأسمائها . ولكن بعد نفى بطله الذي خرج من صفوف الرعاع وموته ، اتجه نظره من التريبون الى ملك الرومان . وكان الكابتول لا يزال ملوثا بدم رينزي ، عندما هبط شارل الرابع من جبال الألب ليحصل على تاجي ايطاليا والامبراطورية ، وأثناء مروره بميلان ، استقبل شاعر البلاط . ودفع ثمن ملقه . فتقبل وسام أوغسطس ، ووعد في جد ورصانة دون ابتسامة ، أن يقلد مؤسس الملكية الرومانية . وكان التطبيق الزائف للأسماء والقواعد القديمة مصدرا لآمال بترارك وخيبته ويأسه . ولكنه لم يكن يستطيع أن يفعل الفرق بين الأزمنة والشخصيات . وثمت شقة بعيدة بين القياصرة الأول وبين الأمير البوهيمي الذي انتخب ، بفضل رجال الدين ، رئيسا للطبقة الأرستقراطية الألمانية اسيا فقط . وبدلا من أن يستعيد لرومه مجدها وولاياتها ، كان قد ارتبط مع البابا بمعاهدة سرية على أن يغادر المدينة في يوم تنويجه . ولم يفت شاعر البلاط أن يشيع هذا التهمر الشائن باللوم والتفريع .

وبعد ضياع الحرية والامبراطورية ، كانت رغبة بترارك الثالثة والأكثر تواضعا هي أن يصلح بين الراعي والرعية ، وأن يدعو أسقف رومه الى أبرشيته القديمة الخاصة . وفي حماس الشبَاب ووقار الشيوخ وجه بترارك رجاءه الى خمسة من البابوات على التوالي . وقد ألهم فصاحته دوما شعوره المتدفق ولغته المنطلقة . وكان بترارك

ابن واحد من مواطني فلورنسة . وقد آثر دائما البلد الذي ولد فيه على ذلك الذي تعلم فيه . وكانت إيطاليا في نظره ملكة العالم وجنته . وعلى الرغم من أحزابها الداخلية ، فقد كانت بلا ريب أكثر تفوقا من فرنسا في الفنون والعلوم ، في الثروة والتهذيب . ولكن هذا الاختلاف لا يكاد يبرر لفظ متبربر الذي يطلقه دون تمييز على جميع الأقطار الواقعة وراء جبال الألب . وكانت أفينيون ، بابل الروحية ، بؤرة الرذيلة والفساد ، موضع كراهيته واحتقاره . ولكنه ينسى أن الرذائل والفضائح لا تنبت من التربة ، وأنها في كل مكان مقترنة بقوة حاشية البابا وترفه . وهو يعترف أن خليفة القديس بطرس هو أسقف الكنيسة العامة ، ومع ذلك لم يثبت الرسول الدائم على عرشه الدائم على شواطئ الرون ، بل على نهر التيبر . وبينما تنعم كل مدينة في العالم المسيحي بأسقفها ، كانت العاصمة مهجورة بائسة . ومنذ انتقال الكرسي الرسولي ، تركت المباني المقدسة في اللاتيران والفاتيكان بمذابحها وقديسيها في حالة فقر وانحلال . وكثيرا ما صورت رومه في صورة بائسة ، وكان زوجها جواب الآفاق يسكن أن تدعوه الى العودة صورة عادية تبين كهولة زوجته الباكية وعللها . ولكن السحب العالقة فوق التلال السبعة ، سيدها وجود سلطانها الشرعي . وستكون الشهرة الخالدة ورخاء رومه وسلام إيطاليا جزاء وفاقا لذلك الذي أوتي من الجرأة ما ينفذ به هذا القرار الحكيم . ومن البوابات الخمسة الذين حتم بتراكم ، ضجر الثلاثة الأول وهم جون الثاني والعشرون ويندكت الثاني عشر وكليمنت السادس ، أو تلهوا بجرأة الخطيب . ولكن التغيير المشهود الذي حاوله اربان

الخامس نفذه نهائيا جريجورى الحادى عشر ، وكان يحول دون تنفيذ هدفهم عقبات لها وزنها ، بل لا يمكن تخطيها وكان أحد ملوك فرنسا ، وقد استحق لفظ الحكيم ، لا يرغب فى اطلاق سراحهم من تبعية محلية ، وتعلق الكرادلة ، وأكثرهم من رعاياه ، بلفسة أفنيون وعاداتها وجوها ، وبقصورهم العظيمة ، وعلى الخصوص بأنبذة برجندى . وكانت ايطاليا فى نظرهم بلدا أجنبيا أو معاديا . فأبحروا من مرسيلية على الرغم منهم ، وكأنهم يباعون أو ينفون الى بلاد العرب . وأقام اربان الخامس فى الفاتيكان ثلاث سنوات فى أمان وتشريف . وقد حافظ على قداسته حرس مؤلف من ألفين من الخيالة . وقد حيا ملك قبرص وملكة نابلى وأباطرة الشرق والغرب ، فى خشوع ، أباهم المشترك الجالس على كرسى القديس بطرس . ولكن سرور بترارك والايطاليين تحول بسرعة الى حزن وغضب . فدعت أسباب هامة ، عامة أو خاصة ، أو نفاد صبره أو رجاء الكرادلة ، دعت اربان الى فرنسا . ونجا الانتخاب التالى من وطنية الرومان الطاغية . وكانت قوى السماء تهتم بشئونهم . فلم يوافق يريجيت السويدى ، وهو قديس وحاج ، على رجوع البابا الى فرنسا ، وتنبأ بموت اربان الخامس . وشجعت القديسة كاثرين (من سيناء) وهى عروس المسيح وسفيرته الى أهل فلورنسه — شجعت هجرة البابا جريجورى الحادى عشر . ويظهر أن البابوات أنفسهم وهم سادة السذاجة البشرية العظام ، قد أصغوا الى هؤلاء النساء الحالمات . ومع ذلك فهذه العظائم السماوية أعانتها بعض الأدلة المتصلة بالسياسة الزمنية . لقد غزا الأعداء فى غف مفر البابوات فى أفنيون .

ولقد انتزع بطل على رأس ثلاثين ألفا من اللصوص القدية والغفران من نائب المسيح والمجمع المقدس . وكان شعار المحاربين الفرنسيين أن يتركوا الشعب وينهبوا الكنيسة ، وتلك هرطقة جديدة ذات أهمية خطيرة جدا . وبينما طرد البابا من أفنيون . دعى بالحاح الى رومه واعترف به الشعب والسناتو سيذا شرعا لهم ، ووضعوا تحت قدميه مفاتيح الأبواب والقناطر والقلاع ، وعلى الأقل ذاك الحى الذى يقع عبر نهر التيبر ، ولكن هذه التقدمة المخصصة اقترن بها اعلانهم بأنهم لن يحتلوا بعد ذلك فضيحة غيابه وكارثة بعده ، وأن عنادهم سيحفرهم فى النهاية الى احياء حن الانتخاب البدائى وتأكيده . واستشير رئيس دير جبل كاسينو ان كان يقبل التاج المثلث من رجال الدين والشعب . وأجاب رجل الكنيسة المبجل : « انى واحد من مواطنى رومه ، والقانون الأول عندى هو صوت وطنى » .

واذا كانت الخرافة تفسر موتا مبكرا ، واذا كانت قيمة النصيحة تقدر بنتيجتها . فقد يترأى أن السماء كانت غاضبة على مثل هذا الاجراء الذى يتسم فى الظاهر بالمنطق واللياقة ، فلم يعيش جريجورى الحادى عشر أكثر من أربعة عشر شهرا بعد رجوعه الى الفاتيكان . وجاء فى اثر موته الانشقاق العظيم فى الغرب الذى مزق الكنيسة اللاتينية أكثر من أربعين سنة . وكان المجمع المقدس يتألف فى ذاك الوقت من اثنين وعشرين كاردينالا : ستة منهم بقوا فى أفنيون . ودخل أحد عشر من الفرنسيين ، وأسباني واحد ، وأربعة من الايطاليين المجمع المقدس بالطريقة المعتادة . ولم يكن اختيارهم بعد مقصورا على من يرتدون الثياب الأرجوانية . فاختاروا باجماع الأصوات رئيس

أساقفة باري . وكان من رعايا نابلي ، كما اشتهر بغيرته وعلمه . وقد ارتقى عرش القديس بطرس باسم اربان السادس . وتؤكد رسالة المجمع المقدس أن انتخابه كان حرا سليما ، وأنه كان ، كما جرت العادة ، بالهام من الروح القدس . وقد بجل ونصب وتوج طبقا للمراسم المعتادة . وخضعت رومه وأفنيون لسلطانه الزمنى ، واعترف العالم اللاتينى بسلطانه الدينى . واستمر الكرادلة يحفون بسيدهم الجديد عدة أسابيع ، فى أعظم مظاهر التعلق والولاء ، حتى هيا لهم حر الصيف هربا وقورا من المدينة . وسرعان ما اجتمعوا فى أنانجى وفى فوندى ، فى مكان أمين ، حتى خلعوا القناع واتهموا أنفسهم بالكذب والزيف والرياء ، وطردوا المرتد وعدو المسيح فى رومه ، وأخذوا فى اختيار روبرت ( من جنيف ) باسم كليمنت السابع ، وأعلنوا للعالم أنه نائب المسيح الحقيقى الشرعى . أما اختيارهم الأول فقد كان عملا قهريا غير شرعى أبطله الخوف من الموت وتهديد الرومان . وتبرر شكواهم أدلة قوية مستمدة من الاحتمال والواقع . وكان الكرادلة الفرنسيون الاثنا عشر وهم يكونون ثلثى الأصوات، سادة الموقف فى الانتخاب . ومهما تكن الحزازات الاقليمية ، فلا يمكن أن نفترض أنهم كانوا على استعداد للتضحية بحقوقهم ومصالحهم من أجل مرشح أجنبى لن يميدهم قط الى وطنهم الأصلى . وفى الروايات المختلفة ، وكثيرا ما تكون متناقضة ، لونت ظلال العنف الذى أظهره الشعب بألوان قاتمة أو باهتة . غير أنه أهاج تطرف الرومان المشاغين شعورهم بامتيازاتهم وخوفهم من هجرة أخرى . وقد أربح المجمع المقدس صيحات ثلاثين ألفا من الثائرين



الذين أحاطوا به وهم يحملون أسلحتهم . وقد أعلنت أجراس الكاثوليك  
وكنيسة القديس بطرس انذارا ، وكانت الصيحة العامة : « الموت  
أو بابا ايطالي ! » وقد تكرر التهديد نفسه على السنة حاملي الأعلام  
أو زعماء الأحياء الاثنى عشر على هيئة نصيحة أريد بها الخير .  
واتخذت بعض الترتيبات لاحراق الكرادلة المعاندين . حتى اذا اختاروا  
مواطننا من وراء الألب ، لكان من المحتمل ألا يخرجوا قط أحياء من  
الغاتيكان . واقتضى هذا شيئا من الرياء والتظاهر أمام أعين الناس في  
رومه وفي العالم . وتنج عن كبرياء اربان وقسوته خطر أكثر حتمية .  
وسرعان ما كشفوا ملامح الطاغية الذي استطاع أن يسير في حديقته  
وأن يردد تسيحه بينما يسمع من غرفة مجاورة ستة من الكرادلة  
يضحجون من المذاب على المظلة . وكان من الجائز أن تربطهم غيرته  
العنيدة — التي من أجلها دوى صوته عاليا بتقد رذائلهم وترفهم —  
بمقار أبرشياتهم وواجباتهم في رومه . ولولا أنه ارتكب وزرا مهلكا ،  
فأجل ترقية جديدة ، لأصبح الكرادلة الفرنسيون أقلية هزيلة في  
المجمع المقدس . فلهذه الأسباب وأملا في أن يعبروا الألب مرة أخرى  
اعتدوا في تهور على سلام الكنيسة ووحدها . ولا تزال مميزات  
اختيارهم المزدوج تناقش في المدارس الكاثوليكية . ولقد حدد غرور  
الأمة ، أكثر من مصلحتها ، اتجاه البلاط ورجال الدين في فرنسا .  
ومالت حكومات سافوى وصقلية وقبرص وأراجون وكاستيل  
ونافار واسكلنده ، بنفوذها وبالمثل الذي ضربته ، الى الامتثال  
لكليمنت السابع ، وبعد موته ، لبنيديكت الثالث عشر . وتمسكت  
رومه وأهم الحكومات في ايطاليا وألمانيا والبرتغال وبريطانيا والأراضي  
المنخفضة وممالك الشمال بالانتخاب الأول ، أعنى اختيار اربان السادس  
الذي خلفه بونيفاس التاسع وافوسينت السابع وجريجورى الثانى عشر .

## الانسحاق الخطير في الغرب

من شواطئ التير والرون تراشق الحيران المتعاديان بالقلم والسيف . واختل نظام المجتمع المدني والدينى . وأصاب الرومان نصيب وافر من الشرور التى يمكن أن يتهموا بأنهم أول من أثارها . لقد عللوا أنفسهم دون جدوى بالأمل فى إعادة الملكية الدينية وتخفيف فقرهم بالجزية والعطايا التى تقدمها الأمم . غير أن انشقاق فرنسا واسبانيا حول تيار الخشوع الذى يدر الربح . ولم يكن من الممكن تعويض الخسارة بعيدين من أعياد اليوبيل على مدى عشر سنوات . وقد اضطر ارباب السادس وخلفاؤه الثلاثة الى قطع اقامتهم فى الفاتيكان بسبب مشاكل الانشقاق والجوش الأجنبية والثورات الشعبية . وكانت أسرتا كولونا وأورسينى لا تزالان حروبهما المهلكة . وأكد حملة الأعلام فى رومه امتيازات الحكم الجمهورى وأساءوا استغلاله . وعاقبهم نواب المسيح — الذين كانوا قد جندوا قوات عسكرية — على ثورتهم بالمشنقة والسيف والخنجر . وفى مؤتمر ودى قتل غدرا أحد عشر ممثلا من مثلى أو نواب الشعب ، وألقى بهم الى عرض الطريق . ومنذ غزو روبرت النورماندى ، امتصر الرومان فى نراهم الداخلى دون أى تدخل خطير أجنبى . ولكن فى الاضطرابات التى أسفر عنها الانشقاق أعان جار طموح ، هو لادسلاوس ملك نابلى ، البابا تارة والشعب تارة ، ثم غدر بهما . وقد خلع عليه البابا لقب « قائد الكنيسة » ، بينما وضع الآخرون بين يديه أمر تعيين حكاهم . وقد حاصر رومه برا وبحرا ودخلها ثلاث مرات دخول

الفاتح المتبربر : فدنس المذابح واعتدى على العذارى ونهب التجار ، وأدى الصلاة فى كنيسة القديس بطرس ، وترك حامية فى قلعة القديس أنجيلو . وفى بعض الأحيان لم يحالف التوفيق جيوشه ، وهو مدين بحياته وتاجه لتمهله الذى لم يزد على ثلاثة أيام . ولكن لادسلاوس اتصر بدوره . وقد كان موته المبكر وحده هو الذى استطاع أن ينقصد العاصمة والحكومة الكنسية من الفاتح الطموح الذى حظى بلقب ملك رومه ، أو على الأقل ، حظى بسلطانه .

لم آخذ على عاتقى كتابة التاريخ الكنسى لهذا الشقاق . ولكن رومه ، وهى موضوع هذه الفصول الأخيرة ، تهتم اهتماما عميقا بالنزاع الذى ثار بين ملوكها حول اعتلاء العرش . وارتفعت أول اقتراحات عن سلام العالم المسيحى واتحاده من جامعة باريس ، من السوربون التى كان علماءها يعدون ، على الأقل فى الكنيسة الغالية ، أعظم الباحثين فى العلوم اللاهوتية . وتجنبوا عن حكمة كل بحث كربه فى أصل النزاع أو خصائصه ، واقتراحوا كعلاج شاف ، أن المتنازعين فى رومه وفى أفنيون يجب أن يعتزلا فى الوقت نفسه ، بعد تفويض كرادلة الحزبين المعادين فى حضور انتخاب شرعى . وأنه يجب على الأمم أن تحجب ولاءها اذا آثر أحد المتنازعين مصلحته الشخصية على المصلحة العامة . وفى كل مرة يخلو الكرسي ، حاول أطباء الكنيسة هؤلاء أن يتجنبوا شر التسرع فى الاختيار . ولكن سياسة المجمع المقدس وطموح أعضائه أصما الأذان عن كل منطق ورجاء . ومهما بذل البابا من وعود ، فلن يلتزم قط بأيمان أقسمها وهو كاردينال . انك لتجد طوال خمس عشرة سنة أن أهداف الجامعة السلمية قد

تملصت منها حيل الحبرين المتنافسين وشكوك أتباعهم أو أهواؤهم ،  
وتقلبات الأحزاب الفرنسية التي تحكمت في شارل السادس الموصوم  
بالجنون . وفي النهاية اتخذ قرار عظيم ، وأرسل وفد جليل مؤلف  
من بطريق الاسكندرية ، واثنين من رؤساء الأساقفة ، وخمسة  
عن رؤساء الأديرة ، وثلاثة من الفرسان ، وعشرين عالما الى بلاطى  
رومه وأفنيون ليطلب باسم الكنيسة والملك ، اعتزال المدعين :  
بيتردى لونا الذى سعى نفسه بنديكت الثالث عشر ، وأنجيلو كوراريو  
الذى اتخذ اسم جريجورى الثانى عشر . ومن أجل شرف رومه التلبد  
وأملأ فى نجاح مشروعهم ، طلب السفراء أن يجتمعوا فى مؤتمر مع  
حكام المدينة الذين أرضوهم باعلان قاطع بأن أفضل الملوك المسيحيين  
لا تراوده أية رغبة فى نقل الكرسي الرسولى من الفاتيكان الذى يعتبره  
الجميع كرسي خليفة القديس بطرس الحقيقى والخاص . وباسم  
السناتو والشعب أكد روماني فصيح رغبتهم فى التعاون للوصول  
الى وحدة الكنيسة ، ورثى للكوارث الزمنية والدينية التى جلبها  
الانشقاق ، ومطالب بحماية ملك فرنسا ضد جيوش ملك نابلى . وكان  
جوابا بنيديكت وجريجورى مهذين قدر ما كانا مضطلين خداعين .  
وفى تفادى طلب الاعتزال كان المتنافسان كلاهما يصدران عن روح  
واحدة أو مشتركة . فوافقا على ضرورة الاجتماع فى لقاء سابق .  
ولكن لم يكن من المستطاع تحديد الزمان والمكان والنهج بموافقة  
الجانبين . ويقول خادم من خدم جريجورى : « اذا أقدم أحدهما ،  
أحجم الآخر . ويظهر أحدهما وكأنه حيوان يخشى البر ، بينما يظهر  
الآخر وكأنه مخلوق يرهب البحر . وعلى هذا النحو ، من أجل بقية

قليلة من العمر والقوة ، يعرض هذان القسيسان الهرمان سلام العالم المسيحي وخلاصه للخطر .

وفي النهاية ثار العالم المسيحي بسبب عنادهما وخداعهما .  
فهجرهما الكرادلة الذين عانق بعضهم بعضا كأصدقاء وزملاء .  
وأعانهم في ثورتهم جمعية كبيرة من رجال الدين والوفود . في عدالة متجردة عزل مجمع بيزا بابا رومه وبابا أفنيون كليهما . وقرر المجمع المقدس بالاجماع اختيار اسكندر الخامس ، ثم ملئ كرسيه الشاغر بسرعة في انتخاب مماثل باختيار جون الثالث والعشرين أكثر البشر خلاعة وتهتكا . ولكن بدلا من القضاء على الانشقاق ، أسفر تهور الفرنسيين والايطاليين عن مدع ثالث لكرسى القديس بطرس . ولم تلق أمثال هذه المزاعم التي ادعاها المجلس والمجمع قبولا . فانحاز ملوك ثلاثة هم ملك ألمانيا وملك المجر وملك نابلى الى جانب جريجورى الثانى عشر . ولما كان بندكت الثالث عشر نفسه أسبانيا ، فقد أبى على أسبانيا القوية ورعها ووطنيتها الا أن تعترف به . وقد أصلح مجمع كونستانس من أعمال مجمع بيزا المتهورة . وقد لعب الامبراطور سيجموند دورا بارزا كمحام أو حام للكنيسة الكاثوليكية . وربما بدا من عدد الأعضاء المدنيين والكنسيين ومراتبهم في المجمع أنهم يؤلفون « مجلس الطبقات » في أوروبا . ومن البابوات الثلاث كان جون الثالث والعشرون أول ضحية . تمكن من الهرب ولكنه أعيد أسيرا : وأخفيت أفظع التهم والفضائح : ولم يتهم نائب المسيح الا بالتهم الآتية وحدها : القرصنة والقتل والاعتصاب والشذوذ الجنسى ونكاح المحارم . وبعد أن أقر الحكم الذى صدر

ضده كمر في السجن عن حنقه في أنه أسلم نفسه ووثق في مدينة حرة  
قيما وراء الألب . أما جريجورى الثانى عشر الذى اقتصر سلطانه على  
حدود ريمنى الضيقة ، فقد اعتزل عرش البابوية اعتزالا أكثر شرفا .  
وقد دعا سفيره الى الجلسة التى تخلى فيها عن لقب البابا وسلطانه  
الشرعى . وللتغلب على عناد بنديكت الثالث عشر أو أنصاره ، قام  
الامبراطور بشخصه برحلة من كونستانس الى برينيان . وعقد معاهدة  
مشرفة على قدم المساواة بين ملك كاستيل وأراجون وناقار واسكتلنده:  
فعزل المجلس بنديكت بموافقة الأسبانيين . وترك هذا الرجل الهرم  
الذى لا يملك ضرا فى قلعة مهجورة ليحرم من الكنيسة فى كل يوم  
مرتين ، المسالك التى ثارت عليه وتخلت عن نصرته . وبعد أن أزيلت  
آثار الانشقاق على هذا النهج ، بدأ مجمع كونستانس بخطى وئيدة  
حذرة فى انتخاب سيد رومه ورأس الكنيسة . وفى هذه المناسبة  
الخطيرة عزز المجمع المؤلف من ثلاثة وعشرين كاردينالا بثلاثين نائبا ،  
سنة من كل دولة من الدول الخمس العظمى فى العالم المسيحى ، وهى  
ايطاليا وألمانيا وفرنسا وأسبانيا وانجلترا . وقد خفف من تدخل  
الأجانب ايثارهم الكريم لايطالى ورومانى ، هو أوتوكولونا الذى  
قدمته مميزاته الموروثة وكذا الشخصية الى المجمع المقدس . وتقبلت  
رومه فى سرور وامثال أنبل أبنائها . وقد دافعت أسرته القوية عن  
الحكومة الكنسية . ويتنيز ارتقاء مارتن الخامس عرش البابوية بأنه  
تاريخ عودة البابوات الى الفاتيكان واستقرارهم فيه .

## مكرومة رومه فى القرن الخامس عشر

لاحظ أحد المواطنين فى فخر وسرور أن ملك الرومان حين يمر بالكراذلة ورجال الدين الذين يستقبلونه على الباب كان يلقى اليهم بتحية خفيفة ، ثم يتجه بالتكريم والتحية الحارة الى عضو السناتو فى رومه وييجل شخصه . وفى وداعه الأخير هذا أمسكت محافل الامبراطورية والجمهورية بعضها ببعض فى عناق حبيب . وطبقا لقوانين رومه يشترط فى حاكمها الأول أن يكون عالما بالقانون وأن يكون غربيا عنها ، وأن ينسب الى مكان يعد على الأقل أربعين ميلا من المدينة وألا تربط بينه وبين أحد من سكان رومه صلة الدم أو النسب حتى الدرجة الثالثة ، طبقا للقواعد الكنسية . وكان الانتخاب سنويا وكان سلوكه عضو السناتو المعتزل يفحص فحفا دقيقا . ولا يجوز أن يختار لشغل الوظيفة نفسها الا بعد مضى سنتين . وقد خصص له راتب كبير يقدر بثلاثة آلاف فلورين لنفقاته ومكافأته . وكان مظهره العام يمثل عظمة الجمهورية . فكانت ثيابه من الديباج الموشى بالذهب أو من المخمل القرمزى . وفى فصل الصيف من حرير أخف . وكان يمسك فى يده بصولجان من العاج . وكانت أصوات الأبواق تعلن قدومه . وكان يسبق خطواته الجليطة أربعة من الحجاب أو الأنباغ على الأقل ، وفد لفت عصيهم الحمراء بأشرطة أو قصاصات طويلة من اللون الذهبى ، أو زى المدينة الرسمى . وكانت اليمين التى يقسمها فى الكابيتول تعلن حقوقه وواجباته ، وأنه يطيع القوانين ويقوم على تنفيذها ، ويحذ من الزهو ، ويحمى الضعيف وينشر العدل

والرأفة في حدود اختصاصه . وقد عاونه في الاضطلاع بهذه المهام  
الجليلة ثلاثة من القرباء : اثنسان ملازمان له ، وقاض للجنايات  
المستأنفة . وتشهد القوانين بكثرة محاكمتهم للصوص والمغتصبين  
والقتلة . ولكن تستر هذه القوانين الضعيفة على فوضى المنازعات  
الشخصية والجماعات المسلحة للدفاع المتبادل . واقتصر عمل عضو  
السناتو على تدبير شئون العدالة . وعهد بالكابيتول والخزانة وحكومة  
المدينة ومنطقتها الى ثلاثة من الأوصياء أو المحافظين ، كانوا يغيرون  
أربع مرات في كل سنة . واجتمعت الأحياء الثلاثة عشر تحت رايات  
زعمائها ، كل تحت راية زعيمه الذي أطلق عليه اسم Caporioni  
وكان أكبر هؤلاء يتميز باسم الأول Prior « ، ومركزه .  
وتألفت الهيئة التشريعية الشعبية من مجالس الرومان السرية والعامة .  
وكان الأول يتكون من الحكام وأسلافهم المباشرين ، ومن بعض  
الموظفين الماليين والقضائيين ، وثلاث طوائف من المستشارين تتألف  
كل منها على الترتيب من ثلاثة عشر ، وستة وعشرين ، وأربعين ،  
فتكون الجيلة حوالى مائة وعشرين شخصا . أما في المجلس العام  
فكان لكل مواطن ذكر الحق في اعطاء صوته . وقد زاد من قيمة  
هذا الامتياز حرصهم الشديد على منع أى أجنبي من اغتصاب لقب  
الرومانى وشخصيته . وقد حد من صخب الديمقراطية احتياطات  
حازمة يقظة . ففينا خلا الحكام لم يكن يسمح لأى شخص بتوجيه  
سؤال . ولم يسمح لأحد بالتكلم الا من منبر مفتوح أو منصة  
مكشوفة . ومنعت جميع الهتافات غير المنظمة . وحدد رأى الأغلبية  
بوساطة الاقتراح السرى ، ونشرت قراراتهم المجللة باسم السناتو



والشعب . وليس من السهل أن نحدد الفترة التي تحولت فيها نظرية الحكم هذه الى قواعد عملية دقيقة ودائمة ، لأن اقرار النظام ارتبط تدريجياً بتدهور الحرية . ولكن في عام ١٥٨٠ جمعت القوانين القديمة ، ورتبت في ثلاثة مجلدات . وكيفت للاستعمال الحديث ، في عهد البابا جريجورى الثالث عشر وبموافقته . وهذه المجموعة المدنية والجنائية هي قانون المدينة الحديث ، واذا كانت الجمعيات الشعبية قد ألغيت ، فلا يزال عضو سناتو أجنبي مع ثلاثة من الأوصياء أو المحافظين يقيم في قصر الكابيتول . ولقسد كرر البابوات سياسة القياصرة . وتظاهر أسقف رومه بأنه يحافظ على شكل الجمهورية ، بينما حكم كملك زمنى وروحى ذى سلطات مطلقة .

## الحكومة الكنسية

تعتمد تهديدات الفاتيكان الروحية ، على قوة الرأى . واذا حل العقل أو الهوى محل الرأى ، ضاع الصوت نفسه عبثاً في الهواء . وتعرض القسيس الذى لا حول له ولا طول الى عسف خصم من النبلاء أو العامة . ولكن بعد عودة البابوات من أفنيون ، كان سيف القديس بولس يحرس مفاتيح القديس بطرس . وتحكمت في رومه قلعة منيعة . وكان المدفع آلة قوية تستخدم ضد الفتن الشعبية . وجندت قوة نظامية من الخيالة والرجال تحت علم البابا . وكفلت موارده الواسعة نفقات الحرب . ومن أرجاء أملاكه كان يستطيع أن يجلب جيشاً من الجيران المعادين والراعى الموالين ضد مدينة تائرة . ومنذ اتحاد دوقيتى فيرارا وأورينو امتدت الدولة الكنسية من البحر

المتوسط الى الأديرياتيك ، ومن حدود نابلى الى شواطئ نهر البو .  
وحتى القرن السادس عشر اعترف أكثر أجزاء هذه الرقعة الفسيحة  
بالدعوى القانونية وبالسلطة الزمنية لأخبار الرومان . واستندت  
دعاوهم بالفعل الى الهبات الحقيقية أو الخرافية التى تمت فى القرون  
المظلمة . واذا أردنا أن نتبع الخطى التى تمت على مر الأيام  
وانتهت باستقرارهم النهائى ، فإن هذا يجرنا لا محالة بعيدا الى أعماق  
الأحداث فى إيطاليا بل فى أوربا : مثل جرائم اسكندر السادس وعمليات  
يوليوس الثانى الحربية وسياسة ليو العاشر الكريمة ، وهو موضوع  
دبجته أقلام أنبل المؤرخين فى تلك الأزمنة . وفى الفترة الأولى من  
فتوحاتهم ربما كان البابوات ، حتى حملة شارل الثامن ، موفقين فى  
الصراع مع الأمراء والدول المجاورة التى كانت قواتها مساوية لقوات  
البابوية أو دونها . ولكن حالما بدأ ملوك فرنسا وألمانيا وأسبانيا  
يناضلون بجيوش ضخمة للاستيلاء على إيطاليا فإن البابوات كملوا  
بالحيلة والدهاء النقص فى القوة ، وأخفوا فى تيه لا حد له من الحروب  
والمعاهدات آراءهم وطموحهم وأملهم الخالد فى أن يطردهم المتبربرين  
الى ما وراء الألب . وفى كثير من الأحيان اختل ميزان الفاتيكان  
الدقيق على أيدي جنود الشمال والغرب الذين اتحدوا تحت راية  
شارل الخامس . وقد عرضت سياسة كليمنت السابع الضعيفة والمتقلبة  
شخصه وأملاكه لرحمة الفاتح . وتركت رومه سبعة أشهر نهبا لجيش  
لا يعترف بأى قانون . جيش أشد قسوة وجشعا من القوط والوندال .  
وبعد هذا الدرس القاسى خفف البابوات من طموحهم الذى كاد أن  
يصل الى حد الاشباع ، واتخذوا ثانية صفة الأب المشترك وتورعوا عن

كل منازعات عدوانية ، اللهم الا نزاع سريع عندما شعر نائب المسيح  
وسلطان تركيا سلاحهما في الوقت نفسه ضد مملكة نابلى . وفي النهاية  
انسحب الفرنسيون والألمان من ميدان القتال . وشدد الأسبان  
قبضتهم على ميلان ونابلى وصقلية وسردينيا وساحل توسكاني ،  
وأصبح من مصلحتهم المحافظة على السلام ، وعلى تبعية إيطاليا التي  
خلت من الاضطرابات تقريبا من منتصف القرن السادس عشر الى  
أوائل القرن الثامن عشر . وخضع الفاتيكان للسياسة الدينية للملك  
كاثوليكي واحتمى بها . وقد مالت به أهواؤه ومصالحه الى أن يعاون  
الأمير ضد الشعب في كل نزاع . وبدلا من التشجيع أو العون  
أو الملجأ الذي قدمته الدول المجاورة ، سجن أصدقاء الحرية أو أعداء  
القسانون وأحيطوا من كل جانب بنطاق حديدي من الطغيان ،  
فأخضعت عادات الطاعة والتربية التي استمرت زمنا طويلا روح التمرد  
والفتنة في نبلاء رومه وعامة الناس فيها . ونسى البارونات سلاح  
أجدادهم ، وما كان يتوزعهم من أحزاب وشيع ، وأصبحوا ، دون  
أن يحسوا ، خدم الترف والحكومة . وبدلا من الاحتفاظ بعدد من  
المستأجرين والأتباع ، استعمل إنتاج مزارعهم في النفقات الخاصة  
التي تزيد من ملاذ اللورد وتنقص من قوته . فتبارت أسرنا كولونا  
وأورسيني في زخرفة قصورهما وكثائسهما . وناقصت ثروات الأسرات  
البابوية المفاجئة أبهتهم القديمة أو تفوقت عليها . ففي رومه لم يعد  
يسمع صوت الحرية أو النزاع . وبدلا من السيل أو الموج الهادر ،  
كانت ثمة ، بحيرة ساكنة لمساء تعكس صورة الخمول والعبودية .  
ان أى مسيحي أو فيلسوف أو محب لوطنه لابد أن يرتاع ويصدم

بالمملكة الزمنية لرجال الدين . وستزيد تذكارات عظيمة رومه المحلية  
وذكريات قناصلها واتصاراتها من مرارة عبوديتها ومن عار هذه  
العبودية . وإذا نحن وازنا في هدوء بين مناقب الحكومة الكنسية  
ومثالبها ، فقد نمتدحها في حالتها الراهنة كنظام معتدل ، وقور ،  
هادئ ، خال من أخطار أحزاب الأقلية ، ونزوات الشباب وتفتات  
الترف وكوارث الحرب . ولكن يرجح هذه المزاي انتخاب يحدث  
مرارا ، وقد يحدث كل سبع سنوات ، لمليك ينذر أن يكون من أهل  
القطر ، حاكم سياسى « شاب فى السياسة » بلغ من العمر ستين عاما ،  
فى مغرب حياته وقدراته ، بدون أمل ، وبدون أطفال يرثون فى حكمه  
المؤقت . ويختار المرشح الناجح من الكنيسة ، بل من الدير . وهو  
بحكم تعليمه وتنشئته أكثر الناس عداء للعقل والانسانية . والحرية .  
لقد تعلم وهو عبد أسير لعقيدته أن يؤمن لأنه من الحق أن يجعل  
كل ما يدعو الى التحقير ، وأن يحقر كل ما يستحق تقدير الرجل  
المتعقل ، وأن يعاقب الهفوة وكأنها جريمة ، وأن يكافئ الزهد  
والعزوبة كأعظم الفضائل . وأن يضع القديسين المذكورين فى التقويم  
فوق أبطال رومه وحكماء أثينا ، وأن يعتبر كتاب القداى والصليب  
أداتين أكثر نفعا من المحراث والنول . وفى ممارسة وظيفة المبعوث  
Nuncio أو الكاردينال ، ربما يحظى بمزيد من المعرفة عن العالم ،  
ولكن الدنس الأول سيلصق بعقله وسلوكه . ومن الدراسة والتجربة  
قد يرتاب فى أمرار مهنته ، ولكن القس الفنان سوف ينهل جزءا من  
التعصب الذى يرضع به الناس . وقد تفجرت عبقرية سيكستوس  
الخامس من غلام دير للفرويسكان . وفى حكم دام خمس سنوات ،

قطع دابر الخارجين على القانون وقطاع الطرق ، وأبطل معابد  
الرجس في رومه ، وكون قوة بحرية وقوة عسكرية ، وجدد الآثار  
العتيقة وحماكاها ، وبعد أن استخدم الموارد في سخاء وكرم ، وزاد في  
هذه الموارد زيادة كبيرة ، ترك خمسة ملايين كراون في قلعة القديس  
أنجيلو . ولكن عدله دنسته القسوة ، وقد ألهم طموحه الى الفتح  
نشاطه . وبعد موته تجددت المساوىء . ونضبت الخزانة . وقد جر على  
الخلف خمساً وثلاثين ضريبة جديدة ، وشراء الوظائف . وبعد وفاته  
حطم تمثاله ، حطمه شعب لا يعترف بالجميل أو شعب ألم به الضرر  
والأذى . وتبرز شخصية سيكستوس الخامس الأصليلة الجامحة  
فريدة في ثبث البابوات . ويمكن أن نستجمع قواعد حكوماتهم  
الزمنية وآثارها اذا نظرنا نظرة ايجابية مقارنة الى الفنون والفلسفة ،  
الى الزراعة والتجارة ، الى الثروة والسكان ، في الدولة الكنسية .  
أما أنا ، فأريد أن أكون رفيقا بارا بجميع الناس ، وما أريد في أخريات  
أيامى أن أسىء الى البابا ورجال الدين في رومه .



## الفصل الجادى والسبعون (١٤٣٠)

مقال يوجيو عن أطلال رومه فى القرن الخامس عشر • أربعة أسباب  
للدمار • الكوليزيوم • إعادة المدينة • تاملات أخيرة فى اضمحلال  
الامبراطورية الرومانية وسقوطها •

### مقال يوجيو عن أطلال رومه فى القرن الخامس عشر

فى أواخر أيام البابا يوجينوس الرابع<sup>(١)</sup> ، صعد اثنان من بطاقته :  
العلامة يوجيو Poggio وصديق له ، تل الكايتولين وجلسا بين أطلال  
الأعمدة والمعابد ، وأطلا من هذه البقعة المشرفة الشاهقة ، على منظر  
هذا الخراب الذى اتسعت رقعته وتعددت مظاهره . وقد أتاح المكان  
والموضوع مجالا واسعا للتأمل فى تصاريف القدر التى لا ينجو منها  
لا الانسان ولا أعظم أعماله فخرا ، والتى توارى الامبراطوريات  
والمدن نفس التراب . واتفقا على أنه ، نظرا لعظمة رومه العابرة ،  
فإن سقوطها أشد وأفكى وأدعى الى الحزن والأسى .

---

(١) هذا على ما يظهر خطأ ، وسهو بدلا من البابا مارتن الخامس .  
وفى الفصل ٦٥ ، يشير جيبيون الى أن محاوره يوجيو وضعها قبل موت  
مارتن بزمان قصير فى أواخر ١٤٣٠ تقريبا . ويعلق ميلمان على هذا  
السهو ، أما بيورى فقد أعفله - د.م.ل.

« صور خيال فرجيل حالتها الأولى ، كما كان يمكن

أن تبدو في زمن غابر ، عندما استضاف إيفاندر Evander  
ذاك الرجل الغريب الذي جاء من ترواده . كانت صخرة  
تاربيان هذه آنذاك أجمة موحشة منعزلة ، يتوجها على  
زمن الشاعر ، السقوف الذهبية للمعبد . ولقد هدم المعبد  
ونهب الذهب ، ودارت عجلة الحظ دورتها وأصبحت  
الأرض المقدسة مرة أخرى مغطاة بالأشواك والشجيرات  
الشوكية . وفيما مضى كان تل الكايتول الذي يجلس عليه  
عاصمة الامبراطورية الرومانية وقلعة المسالم ، وباعث  
الخوف الى قلوب الملوك ، وزادته شهرة آثار الأقدام في  
عدد كبير من مواكب النصر ، وزادته غنى وثناء أسلاب  
عدد كبير من الأمم والجزية التي فرضت عليها . كيف  
سقط منظر الدنيا هذا ! وكيف تغير ! لقد محت كروم  
العنب طريق النصر . وغطت أكوام الروث مقاعد  
السناتو . حلق ببصرك في تل بالاتين وفتش بين البقايا  
الضخمة التي فقدت شكلها عن المسرح الرخامي ،  
والمسلات والتماثيل الهائلة وأروقة قصر نيرون : استعرض  
التلال الأخرى في المدينة . تجد أن الفضاء الفسيح  
لا يعكره سوى الأطلال والحدائق . أما ساحة ( فورم )  
الشعب الروماني التي اجتمع فيها لسن القوانين  
أو انتخاب الحكام فقد أحيطت بسور لزراعة الخضروات ،  
أو تركت لاستقبال الخسازير والجاموس . وترقد على



الثرى تلك الأبنية العامة والخاصة التى شيدت للخلود ،  
عارية مهشة ، وكأنها أطراف مارد جبار . ان الخراب  
أبرز للعين من البقايا الضخمة التى نجت من أذى الزمان  
والحظ .

وقد وصف يوجيو بدقة هذه الأطلال ، وهو من أوائل من رفعوا  
أعينهم عن آثار الأساطير الأولى الى آثار الخرافات الكلاسيكية .  
١ — فضلا عن قطرة كستيروس وقوس نصره ، وقبره وهرمه ،  
أمكنه أن يرى من عصر الجمهورية ، صفا مزدوجا من الأقبية فى دار  
الملح على الكايتول ، نقش عليها اسم كاتولس ، وهى من مآثر كرمه .  
٢ — أمكنه أن يتبين الى درجة ما أحد عشر معبدا من الشكل  
الكامل للپاثيون ، وثلاثة أقواس وعمودا من الرخام بقيت من معبد  
السلام الذى بناه فسباسيان ، بعد الحروب الأهلية واتصاره على  
اليهود .

٣ — من الحمامات العامة ، التى حددها فى شىء من التهور  
بسبع حمامات ، لم يكن هناك واحد كامل ليمثل استعمال الأجزاء  
المختلفة وتوزيعها . ولكن حمامات دقلديانوس وأنطسوينوس  
كرا كلا كانت لا تزال تحتفظ بألقاب المؤسسين ، لتذهل المتفرج المدقق  
الذى يلاحظ مناتتها ومساحتها وتعدد أنواع الرخام وحجم الأعمدة  
وعدها ، ويقارن بين الجهد والنفقات وبين الاستعمال والأهمية .  
وكان من الممكن أن يجد المرء بعض الآثار الباقية من حمامات  
قسطنطين واسكندر ، ودومتيان ، أو بالأحرى تيتوس .  
٤ — وقد بقيت أقواس النصر الخاصة بالإباطرة تيتوس

وسيفيروس وقسطنطين — بقيت كاملة من حيث البناء والنقوش ،  
وثمة قطعة سقطت وشرفت باسم تراجان . وقد نسب قوسان من  
أقواس النصر . كانا لا يزالان قائمين في طريق فلامينيوس ، الى  
فاوستينا وجالينوس — تخليدا لذكراهما ، وهما أقل سموا .

٥ — وبعد ذكر الكوليزيوم ، وهو من عجائب العالم ، كان  
يوجيو يستطیع أن يفضی عن مدرج صغير من الطوب ، من المرجح  
أنه بنى لاستعمال المعسكر البريتورى . وقد احتلت المباني العامة  
والخاصة ، الى حد كبير ، مسرحى ماركيلوس وبومبى . وفي مكان  
سيرك أجوناليس والسيرك الأعظم لا يمكن التساؤل الا عن الموقع  
والشكل .

٦ — وكان عمودا تراجان وأنطونين قائمين فى ذاك الوقت ،  
ولكن المسلات المصرية كانت قد هُشمت أو طمرت . ولم يبق من  
جمهور غير من الالهة والأبطال غير تمثال فارس وحيد مصنوع من  
النحاس المذهب ، وخمسة من التماثيل المصنوعة من الرخام ،  
أشهرها حصانا فيدياس وبراكسياتيليس .

٧ — ولم يكن من الممكن ضياع قبرى أوغسطس وهادريان  
الضخمين ضياعا تاما . ولكن لم يكن يرى من الأول غير كومة من  
الأتربة . أما عن الثانى ، حصن القديس أنجيلو — فقد حظى ،  
باسم القلعة الحديثة ومظهرها .

وكانت هذه وأمثالها ، اذا أضفنا بعض الأعمدة المنفصلة والتي  
لا تحمل أسماء ، هى بقايا المدينة القديمة . لأن آثار بناء أكثر حداثة  
يمكن أن تلاحظ فى الأسوار التى بلغ محيطها عشرة أميال ، وكانت

تحتوى على ثلثمائة وتسع وسبعين قلعة صغيرة ، وبها ثلاث عشرة بوابة  
تؤدى الى الريف .

رسمت هذه الصورة الحزينة منذ أكثر من تسعمائة سنة بعد  
سقوط الامبراطورية الغربية ، بل حتى بعد سقوط مملكة القوط في  
إيطاليا . ولم تكن الفترة الطويلة من الكروب والفوضى ، تلك الفترة  
التي هجرت فيها الامبراطورية والفنون والثراء شواطئ الشير —  
تستطيع أن تستعيد المدينة أو تقوم بتجديدها ، ومثل جميع أعمال البشر  
التي لا بد أن تتهقر ، ان لم تتقدم ، كان من المحتوم أن يجعل كل  
عصر تال بتخريب أعمال القدماء . وسيكون قياس تفاقم الانهيار  
والتأكد من حالة كل مبنى في كل فترة ، جهدا لا نهاية له ولا فائدة فيه .  
ويكفينى أنا شخصا ملاحظتان يمكن أن تكونا مقدمة لبحث عن  
الأسباب والنتائج العامة .

١ — قبل شكوى يوجيوس الفصيحة بمائتى سنة ، ديج كاتب  
مجهول وصفا لرومه . وقد يؤكد جهله ذكر الأشياء نفسها تحت أسماء  
غريبة وخرافية ، ومع ذلك فقد كان لهذا المساح المتبرير عيسىمان  
وأذنان . فاستطاع أن يلاحظ البقايا الظاهرة ، كما استطاع أن يصغى  
الى روايات الشعب . وهو يحصى بجلاء سبعة مسارح وأحد عشر  
حماما واثني عشر قوسا وثمانية عشر قصرا ، اختفى الكثير منها قبل  
زمن يوجيوس . ومن الواضح أن كثيرا من الآثار القديمة الفخمة  
بقيت حتى وقت متأخر ، وأن عوامل الدمار عملت بنشاط قوى متزايد  
في القرنين الثالث عشر والرابع عشر .

٢ — ويجب تطبيق الفكرة عينها على القرون الثلاثة الأخيرة ،  
وسيكون من المبحث البحث عن النافورة ( Septizonium ) التى  
بناها سيفيروس والذى شاد بذكرها بترارك وعلماء الآثار فى القرن  
السادس عشر . وحين كانت المباني الرومانية لا تزال كاملة سليمة ،  
فان المتانة والضخامة وتناسق الأجزاء قاومت الضربات الأولى مما  
كانت قوية وعنيفة ، ولكن أقل لمسة سستعجل باسقاط بقايا أقواس  
وأعمدة كانت آيلة للسقوط .

## أربعة أسباب للدمار

أستطيع بعد البحث الدقيق أن أثبت أربعة أسباب أساسية لخراب  
رومه ، استمرت تعمل عملها ، لفترة تزيد على ألف سنة :

### ١ - أذى الزمان والطبيعة :

يستطيع الانسان بفنه أن يشيد آثارا تدوم أكثر من فترة عمره  
القصيرة ، ومع ذلك فان هذه الآثار ، مثل صاحبها ، ضعيفة قابلة  
للنناء . ويجب أن تعد حياته وأعماله سواء بسواء ، لحظة عابرة فى  
جولات الزمان التى لا حد لها . ولكن ليس من السهل أن تحدد مدة  
بقاء مبنى بسيط متين . ولقد استهوت الأهرام ، كاحدى عجائب الدنيا  
القديمة ، أنظار القدماء . وسقط مائة جيسل كورق الخريف فى  
القبور . وذهب الفراغة والبطالة والقياسرة والخلفاء ، ولكن لا تزال  
الأهرام نفسها ترتفع منتصبة فى مكانها ثابتة فوق فيضانات النيل .  
أما أى بناء معقد مركب من أجزاء كثيرة دقيقة . فهو أكثر تعرضه

للأذى والانحلال . وكثيرا ما عجلت العواصف والزلازل ، والحرائق والفيضانات بسير الزمن الصامت . لقد اهتز الهواء والأرض بلا ريب ، ولقد ترنعت القلاع الصغيرة العالية في رومه من أساسها . ولكن التلال السبعة على ما يظهر . لم توضع فوق الفجوات الكبيرة في الكرة الأرضية ، ولم تتعرض المدينة في أى عصر الى اهتزازات الطبيعة التى حولت أعمال القسرون الى تراب فى لحظات قليلة فى جو أنطاكية ولشبونة وليما . والنار أقوى عامل من عوامل الحياة والموت . وقد يشعل هذا الشر السريع وينشره جد البشر أو إهمالهم . وقد امتازت كل فترة من فترات التاريخ الرومانى بتكرار كوارث مماثلة . واستمر حريق مشهود ، هو خطيئة عصر نيرون أو كارثته ، بعنف غير متساو ، ستة أيام أو تسعة . وكان تحت مبان لا حصر لها ، ازدحمت فى طرق متقاربة ملتوية ، أمدت اللهب بوقود دائم ، وبعد أن خمدت ، بقيت أربعة أحياء من الأحياء الأربعة عشر سليمة لم تمسها النيران . ودمرت ثلاثة أحياء تدميرا تاما ، وشوهت سبعة أخسرى ببقايا مبان منهزمة لوثها الدخان . وفى ذروة الامبراطورية نهضت العاصمة من بين الرماد فى ثوب قشيب من الجمال . ولكن ذاكرة المعمرين رثت لخسائرهم التى لا تعوض من فنون اليونان وتذكارات النصر وآثار العصر القديم البدائي أو الخرافى . أما فى زمن الكروب والقوضى فكل جرح قاتل ، وكل سقوط لا تقوم له قائمة ، ولا تعويض للضرر ، لا بعناية الحكومة العامة ولا بنشاط المصلحة الخاصة . ولكن من الممكن أن تقدم سبين يطلان لم كانت كوارث الحريق أشد تدميرا فى مدينة مزدهرة منها فى مدينة تتمزق أوصالها : —

( أ ) تذوب أولا المواد الأكثر قابلية للاشتعال ، مثل الطوب والخشب والمعادن ، أو تأكلها النيران . ولكن يمكن أن تشند النار ، دون ضرر أو نتيجة تذكر ، في الجدران العارية والأقواس الضخمة التي نزلت عنها زخارفها .

( ب ) بين الدور العادية وبيوت العامة أو الرعاع ، من السهل جدا أن تشعل بشرارة صغيرة حريقا هائلا ، ولكن سرعان ما تأكلها النيران جسيما ، ومن ثم تنف المباني الضخمة التي قاومت ونجت ، بمثابة جزر كثيرة ، في حالة من العزلة والطمأنينة .

وتمرضت رومه مرارا بسبب موقعها لخطر الفيضانات . ودون استثناء نهر التيبر ، فإن مجارى الأنهار التي تهبط من جانبي جبال الأبنين قصيرة وغير منتظمة : نهر قليل العمق في قيط الصيف ، وميل دافق عندما يسلؤه في الخريف أو الشتاء سقوط الأمطار وانصهار الجليد . وعندما تصد الرياح المضادة تيارا وتمنعه من الوصول الى البحر ، وعندما يضيق المجرى العادى بثقل المياه ، تفيض المياه فوق الضفتين وتنتشر وتغطي بلا حساب على سهول القطر المجاور ومدنه . وبعد الانتصار في الحرب البونية الأولى بمدة قصيرة ، فاض التيبر بسبب سقوط أمطار غير عادية . وهذا الفيضان الذي فاق جميع ما سبقه في الزمان والمكان دمر كل المباني المشيدة في أسفل تلال رومه . وتبعاً لتتوع الأراضى . تنوعت الأسباب والدمار واحد ، واكتسحت قوة دفع المياه المفاجئة ما اعترضها من المباني ، أو تقوض أساسها فانهارت ، نتيجة لاستمرار الفيضان مدة طويلة . وفي زمن أوغسطس تجددت الكارثة نفسها . فلقد اقتلع هذا النهر المتورد ، القصصور والمعابد القائمة على شاطئيه . وبعد أن بذل الامبراطور جهوده في

تنظيف النهر وتوسيع المجرى الذى امنأ بالبقايا والأقراض ، حفزت نقطة خلفائه أخطار وأهداف مماثلة . ولظالما لقى مشروع تحويل التيار نفسه أو بعض نهيراته فى مجار جديدة معارضة تؤيدها الحزبيلات والمصالح الخاصة . ولم تعوض الفائدة التى جنوها شيئا من الجهد والنفقات التى بذلت فى تنفيذ المشروع مبتورا بعد فوات الأوان . فالتحكم فى الأنهار أبلى وأهم انتصار أحرزه البشر على شرور الطبيعة. وإذا كانت هذه وأمثالها هى أضرار نهر التيسر فى زمن حكومة قوية نشيطة ، فماذا كان يسع ، أو من ذا الذى يستطيع أن يحصى الأضرار التى أصابت المدينة بعد سقوط الامبراطورية الغربية . وفى النهاية ألتج الشر نفسه علاجا له . وأغلب الظن أن أكوام القاذورات والتراب التى اكتسحها النهر من التلال رفعت سهل رومه أربع عشرة أو خمس عشرة قدما فوق المستوى القديم ، فأصبحت المدينة الحديثة أقل تعرضا لطغيان النهر .

#### ٢ - هجوم الأعداء من التبريرين والمسيحيين :

أهمل جمهور الكتاب من كل جنس ، أولئك الذين نسبوا تدمير الآثار الرومانية الى القوط والى المسيحيين ، فى أن يبحثوا الى أى مدى كان هؤلاء القوط والمسيحيون يصدرن عن غل وحقد فى نفوسهم ، والى أى مدى كانوا يملكون من الوسائل والوقت ما يكفى لارضاء نفهم . ولقد وصفت فى الصفحات السابقة من هذا التاريخ انتصار البرابرة والدين . وفى وسعى أن أخلص فقط ، فى كلمات قليلة ، صلتهم الحقيقية أو المتصورة بخراب رومه القديمة . وقد ينسج خيالنا

أو يعتقد فكرة رومانية سارة ، مؤداها أن القوط والوندال انطلقوا من اسكنديناوه وهم يتحرقون شوقا الى الثأر لهروب أودين <sup>(١)</sup> وتحطيم أغلال بنى البشر ، ومعاينة ظالمهم ، وأنهم كانوا يرغبون في احراق سجلات الأدب الكلاسيكى ، وأن يشيدوا عمارتهم على أنقاض الطرازين التوسكاني والكورثى . ولكن الحقيقة المحددة البسيطة هي أن الفاتحين الشماليين لم يكونوا من الوحشية أو النهذيب والصقل الى درجة يمكن معها أن يكون لديهم مثل هذا التطلع الى التدمير والثأر . وكان رعاة سكيديا وألمانيا قد تعلموا في جيوش الامبراطورية ، فاكسبوا نظامها وتغلبوا على ضعفها ، ولما كانوا قد درجوا على استخدام اللغة اللاتينية ، فانهم تعلموا أن يبجلوا اسم رومه وألقابها . ورغم عجزهم عن مباراتها ، فقد مالوا الى الاعجاب بفنون ودراسات حقبة متأخرة ، أكثر من ميلهم الى القضاء عليها . وفي استيلائهم المؤقت على عاصمة غنية لا قبل لها بالمقاومة ، استولت على جنود ألاريك وجنسريك أهواء جيش منصر . وفي غمرة ارخائهم العنان للشهوة ، أو القسوة ، كان جل بحثهم عن الثروة المنقولة ، وما كانوا ليستشعروا لذة أو زهوا في التفكير العقيم في أنهم دكوا آثار القناصل والقياسرة . وكان وقتهم ثميناً حقاً ، فقد أخلى القوط رومه في اليوم السادس ،

---

(١) أنى أنهز هذه الفرصة لأعلن أنى في خلال اثنى عشر عاما نسيت أو نبذت فكرة هروب أودين Odn من آزوف الى السويد . وهى فكرة لم أؤمن بها قط أباناً عيماً . ومن الواضح أن القوط ألان . ولكن كل شيء أبعد من فيسر وتاسيتس يكتنفه الظلام ، أو هو خرافة ، في تاريخ ألمانيا القديم .



كما تركها الوندال في اليوم الخامس عشر . وعلى الرغم من أن البناء أشق من الهدم فس الجائز أن هجومهم السريع ترك أثرا ضئيلا على الأبنية الصلدة التي خلفها العالم القديم . وقد تذكر أن كلا من ألاريك وجنسريك تظاهرا بالابقاء على مباني المدينة ، وأنهما عاشا في ظل حكومة تيودوريك السعيدة ، في أحضان القوة والجمال . وأن الغيظ العابر الذي ألم بصدر توتيلاد قد أذهبت رقة مزاجه الخاص ونصيحة أصدقائه وأعدائه . وقد يرتفع اللوم عن رءوس هؤلاء المتبربرين الأبرياء لقمع على رءوس كاثوليك رومه . كانت تماثيل الشياطين ومذابحهم ومنازلهم رجسا في أعينهم . وكان في استنطاعتهم عند تسلطهم على المدينة أن يدأبوا في حماس على اقتلاع وثنية أجدادهم . وقد هيا لهم تدمير المعابد في الشرق مثلا يحتذونه ، كما هيا لنا بابا للمناقشة . وقد يقع شيء من الوزر ، أو يعود شيء من الفضل ، عدلا وانصافا ، الى المؤمنين الرومانيين . ولكن كراهيته انصبت على آثار الخرافات الوثنية ، وكان من المسكن الاحتفاظ بالمباني المدنية المخصصة للنفع العام أو اللهو في المجتمع دون الاضرار بها أو ارتكاب وزر من أجلها . ولقد تم تغيير الديانة ، لا بالشغب الشعبي . ولكن بقرارات من الأباطرة والسناتو وبفعل الزمن . ومن بين رجال الدين المسيحي ، كان أساقفة رومه في العادة أكثر الناس تعقلا وأقلهم تعصبا ، ولا يمكن أن يوجه اتهام فطعي الى القرار الحكيم الذي يستحق الثناء ، الذي كان من أثره الإبقاء على مبني الباتيون الفخم العظيم وتحويله .

### ٣ - استعمال المواد وسوء استعمالها :

تتألف قيمة أى شئ يوفر حاجات الجنس البشرى أو ملاذته ، من جوهره وشكله ، من المواد ومن الصنعة . أما ثمنه فيجب أن يعتمد على عدد الأشخاص الذين قد يحصلون عليه ويستخدمونه ، على اتساع السوق ، وتبعا لذلك على سهولة أو صعوبة تصديره الى البلاد البعيدة ، وتبعا لطبيعة الشئ ، والمكان الذى يوجد فيه وظروف العالم المؤقتة . واغتصب المتبررون الذين فتحوا رومه ، فى لحظة قصيرة ، جهود الدهور المتعاقبة وكنوزها . ولكن ، فيما عدا أدوات الترف القابلة للاستهلاك المباشر ، كان يجب أن يروا أمامهم ، دون لهفة أو رغبة ، أشياء لا يمكن قفلها من المدينة فى عربات القوط أو على أسطول الوندال . وكان الذهب والفضة أول أهداف جشعهم . ففى كل قطر . وفى أصغر مجال ، يشل الذهب والفضة أقصى ما تتطلبه الصناعة ، وأئمن ما يصبو الناس الى اقتنائه . وقد يرضى اناء أو تسال مصنوع من تلك المعادن الثمينة غرور زعيم متبربر . ولكن جباهير العامة لا نعى بالشكل ، وانما تتمسك فقط بالجوهر . والسسبائك اذا صهرت قد توزع بسهولة وتصك كعملة متداولة فى الامبراطورية . واضطر اللصوص الأقل نشاطا أو الأقل حظا الى أن يقنعوا بالأسلاب الأقل قيمة من النحاس الأصفر والرصاص والحديد والنحاس . وقد نهب طغاة اليونان كل ما أفلت من أيدي القوط والوندال . وقد انتزع الامبراطور كونستانس فى زيارته الجشعة القرميد البرونزى من سقف الباثيون . وقد تعتبر مباني رومه منجما متسعا متنوع المعادن . وقد تمت بالفعل العملية الأولى ، وهى انتزاع المواد . وقد قضت المعادن

وأعيد سبكها . وقطع الرخام وصقل . وبعد اشباع شسهوة النهب الأجنبى والداخلى ، كان فى رومه ثمت بقايا يمكن أن تباع ان وجد مشتر . ولقد تركت آثار العالم القديم مجردة من زينتها الثمينة ، ولكن كان الرومان يستطيعون أن يهدموا بأيديهم الأقواس والجدران ، ان فاق الأمل فى الربح تفقات الجهد والتصدير . ولو أن شرلمان اتخذ من إيطاليا مركزا للإمبراطورية الغربية ، لثاقت عبقريته الى إعادة أعمال القياصرة أكثر منها الى الاعتداء عليها . ولكن السياسة أجبرت الملك الفرنسى على البقاء فى غابات ألمانيا . فلم يرتض ذوقه غير التخریب . وزين قصره الجديد فى اكس لاشابل برخام رومه ورافنا . وبعد شرلمان بخمسائة عام ، استمد روبرت ملك صقلية . أعقل الملوك وأجودهم فى زمانه ، المواد نفسها بفضل الرحلة الهينة اللينة عبر التبير ثم البحر . ويتنهد بترارك شاكيا محنقا من أن ذخائر العاصمة القديمة للعالم هى سر الترف الخامل الذى ترفل فيه نابلى . ولكن هذه الأمثلة للنهب أو الثراء كانت نادرة فى القرون المظلمة . وربما كان فى استطاعة الرومان وحدهم ، ودون حسد من أحد ، أن يستخدموا لمنفعتهم العامة أو الخاصة المباني الباقية من العالم القديم ، لولا أن شكلها الحالى وموضعها قد أصبحا لا تقع فيها الى حد كبير للمدينة ولسكانها . ولا زالت الأسوار تحدد محيط المدينة القديم ، ولكن المدينة كانت قد هبطت من تلالها السبعة الى ساحة مارتىوس . وتركت بعض الآثار البالغة الروعة والعظمة والتي قاومت أذى الزمان ، فى قفر بعيد جدا عن مساكن الجنس البشرى . ولم تعد قصور أعضاء السناتو تلائم عادات خلفائهم الملقين أو ثرواتهم . وكان استخدام الحمامات والأروقة

قد نسى . وفي القرن السادس عطلت ألعاب المسرح والمدرج والسيرك .  
 وخصصت بعض المعابد للعبادة السائدة . ولكن الكنائس المسيحية  
 فضلت شكل الصليب المقدس . ووزع الطراز السائد أو العقل ،  
 طبقا لنسودج غريب ، غرف الدير ومرافقه . وفي أثناء الحكم الكنسي  
 زاد عدد مؤسسات التقوى والورع زيادة ضخمة . وازدهمت المدينة  
 بأربعين ديرا للرجال وعشرين ديرا للنساء ، وستين دارا ومجمعا  
 للقانون الكنسي والقساوسة ، الذين زادوا ولم يخفوا من نقص  
 السكان في القرن العاشر . وإذا كان طراز المباني القديم قد نبذه شعب  
 لا يدرك نفعه أو جماله ، فإن المواد الوفيرة قد استخدمت في كل أمر  
 دعت إليه الضرورة أو الخرافة ، حتى ان أجبل الأعمدة المصنوعة على  
 الطراز الأيونى أو الكورنثى من أثمن رخام باروس ونوميديا قد  
 انحط فأصبح يحمل سقف دير أو اسطبل . وقد يعطينا التدمير اليومى  
 الذى يقوم به انترك في مدن اليونان وآسيا الصغرى مثلا كنيسا  
 محترقا . وفي التدمير التدريجى لآثار رومه قد يلتمس العذر للبائى  
 سيكستوس الخامس وحده ، لأنه استخدم أحجار النافورة في بناء  
 كنيسة القديس بطرس المجيدة . وقد يغمرنا شيء من السرور والأسى  
 عندما تقع أعيننا على قطعة أو ظلل مهما كان مشوها أو مدنس .  
 ولكن أكبر قدر من الرخام حرم من مادته ، كما حرم من مكانه وتناسب  
 أجزائه : فقد أحرق لاعداد الجير ولعمل الأسمنت . ومنذ قدوم بوجيو  
 اختفى عن عينيه معبد الكونكوردي وكثير من المباني الرئيسية . وتعبير  
 حكمة بارعة سادت في العصر نفسه عن الخوف الحق الورع من أن  
 الاستمرار في هذا العمل سوف يقضى في النهاية على جميع آثار العالم

القديم . وكانت قلة العدد هي الشيء الوحيد الذى حث من مطالب الرومان ونهبهم . وقد يخلق خيال بترارك الشعور بوجود شعب قوى . وانى أتردد فى الاعتقاد بأنه حتى فى القرن الرابع عشر كان يسكن انقاصهم الى عدد حقير مثل ثلاثة وثلاثين ألفا من السكان . واذا كانوا قد زادوا من تلك الفترة الى حكم ليو العاشر ، حتى بلغوا خمسة وثمانين ألفا ، فان زيادة عدد المواطنين كانت ، الى حد ما ، ضارة بالمدينة العتيقة .

#### ٤ - النزاع الداخلى بين الرومان :

لقد أقيمت الى النهاية أقوى وأعظم سبب من أسباب التخريب ، ألا وهو النزاعات الداخلية بين الرومان أنفسهم . وفى أثناء حكم الأباطرة اليونانيين والفرنسيين اضطرب السلم فى المدينة ببعض الفتن العارضة ، على الرغم من أنها كثيرة . ويسكن أن ترجع تاريخ التهور فى الحروب الخاصة الى اضطلال حكم الأباطرة الفرنسيين أعنى من بدء القرن العاشر ، تلك الحروب التى خرفت دون عقاب الناموس العام وشرعة الانجيل ، دون احترام لجلال الملك الغائب أو وجود نائب المسيح وشخصيته . وفى فترة مظلمة امتدت خمسمائة سنة ، مزق رومه النزاع الدموى المتواصل بين النبلاء وبقية الشعب ، بين جماعتى الويلف والجبلىن ، بين أسرتى كولونا وأورسينى . واذا كان التاريخ لم يحط بالكثير . واذا كان الكثير غير جدير بملاحظة المؤرخين ، فقد أوضحت فى الفصلين السابقين أسباب الاضطراب العام ونتائجه . وفى مثل هذا الوقت حينما كان السيف هو الحكم

الفصل في كل نزاع ، لم يكن أحد يستطيع أن يعهد بحياته وأملكه  
لحماية قانون لا حول له ولا طول ، فحمل المواطنون الأقوياء السلاح  
طلباً للأمان وعدة للعدوان ضد أعدائهم في الداخل الذين أبغضوهم  
أو خافوهم . وفيما عدا البندقيه وحدها ، كانت عين الأخطار  
والأهداف تعم جميع الجمهوريات الحرة في إيطاليا ، واغتصب النبلاء  
الحق في تحصين منازلهم . وبناء قلاع قوية تستطيع أن ترد هجوماً  
مفاجئاً . فامتلات المدينة بهذه المباني العدائية . والمثل المستمد من لوكا  
Lucca التي كانت تضم ثلثمائة قلعة ، وقانونها الذي حدد ارتفاعها  
بثمانين قدماً ، يسكن أن يطبق تطبيقاً واسعاً على الولايات الأغنى الأكثر  
سكاناً . وأول خطوة اتخذها برانكليوني عضو السناو لاقرار  
السلام والعدالة كانت تدمير ( كما رأينا آنفاً ) مائة وأربعين قلعة في  
رومه . وفي أواخر أيام الفوضى والشفاق ، حتى عهد مارتن الخامس ،  
كانت هناك أربع وأربعون قلعة قائمة في واحد من الأحياء الثلاثة عشر  
أو الأربعة عشر في المدينة . وقد حولت بقايا العالم القديم بسهولة  
كبيرة جداً لتستخدم في هذا الغرض الخبيث . وهيأت المعابد  
والأقواس لهذه المباني الجديدة المتخذة من الطوب والحجارة أساساً  
عريضة صلبة متينة . ونستطيع أن نسمي القلاع الحديثة التي ارتفعت  
على أنقاض الآثار التي كانت قد شيدت تخليداً لانتصار يوليوس  
أو المدرج أو المقبرة الضخمة الى قلعة قوية فسيحة . ولا حاجة بي  
الى أن أكرر أن بناء هادريان الضخم قد اتخذ لقب وشكل قلعة  
القديس أنجيلو . وكانت نافورة سيفيروس تستطيع أن تقاوم جيشاً  
ملكياً . وقد سقط قبر ميتيلا Medla تحت ثقل استحكاماته الخارجية .

واحتلت أسرتا سافيلي وأورسيني مسرحي بومبي وماركيلوس . وقد حورت هذه القلعة الخشنة بالتدريج حتى اكتسبت بهاء القصور الإيطالية ورشاققتها . وحتى الكنائس أحيطت بالأسلحة والحصون . وكانت الآلات الحربية الموضوعة فوق سقف كنيسة القديس بطرس تبعث الرعب في قلوب الفاتيكان ، كما كانت وصمة عار في جبين العالم المسيحي . وسبكون كل ما يحصن عرضة للهجوم ، وقد يدمر كل ما بهاجم . ولو استطاع الرومان أن ينتزعوا من البابوات قلعة القديس أنجيلو ، لأصدروا قرارا عاما بتدمير هذا الأثر من آثار العبودية . وقد تعرضت للحصار كل المباني المخصصة للدفاع . وفي كل حصار استخدمت فنون التدمير وآلاته استخداما بارعا . وبعد موت نيقولا الرابع ، تركت رومه ، لمدة ستة أشهر ، دون ملك أو سنانو . نهبا لجنون الحرب الأهلية . ويقول كاردينال وشاعر عاش في تلك الأزمنة : « حطمت الدور تحت ثقل الحجارة الضخمة وسرعتها . وثقت الجدران بضربات من رأس الكبش . واندلعت النار والدخان في القلاع ، وحفر المهاجمين النهب والتار » . وأتم العمل طغيان القوانين . ومارست أحزاب إيطاليا ، كل بدوره ، الانتقام الأعشى ، دون تفكير . ضد خصومهم ، فهدموا منازلهم وقلاعهم حتى ساوت الثرى . وعند مقارنة أيام العداة الأجنبية بعصور العداة الداخلي يجب أن نقرر أن العداة الداخلي كان أشد تخريبا للمدينة . ويجد رأينا هذا سندا فيما يقول بترارك شاعر البلاط : « انظر الى بقايا رومه ، الى صورة عظمتها الأولى ! فلن يستطيع الزمن أو المتبررون أن يفاخروا بهم الذين قاموا بهذا التخريب الهائل . لقد ارتكبه مواضوها

أنفسهم ، وتم على أبدي أشهر أبنائها . وقد فعل أجدادك ( فهو ) يكتب الى واحد من أسرة هانيبال النيلة ( برأس الكباش مالم يستطع بطل قرطاجه أن يفعل بالسيف » . أما أثر السبيين الأخيرين للانحطاط ، فيجب ، الى درجة ما ، أن يتضاعف ، بفعل الواحد منهما في الآخر . اذ أن الدور والقلاع التي هدمت في الحروب الأهلية احتاجت الى مدد جديد دائم من آثار القدماء .

## الكوليزيوم

يمكن أن تطبق هذه الملاحظات العامة ، بشكل خاص ، على مدرج تيتوس الذي حظي باسم الكوليزيوم ، اما لضخامته ، أو من أجل تسال نيرون الهائل : وهو بناء لو أنه ترك للزمان والطبيعة ، فربما ادعى لنفسه خلودا واستمرارا . ويميل علماء الآثار المدققون والذين حسبوا عدد النظارة والمقاعد ، الى الاعتقاد بأنه فوق الصف الأعلى من الدرج الحجري أحيط المدرج وزيد في ارتفاعه بعدة طبقات من الشرفات الخشبية التي أكلتها النيران مرارا ، وأعادها الأباطرة . لقد أصبح كل شيء ثمين أو سهل الحمل أو وثني : تماثيل الالهة والأبطال ، والزينات الغالية لأعمال النحت ، التي صنعت من النحاس أو غطيت بصفائح رقيقة من الفضة والذهب - أصبحت هذه كلها أول ضحايا الغزو أو التعصب ، وجشع المتبررين أو المسيحيين . ويمكن أن نرى تقوبا كثيرة في أحجار الكوليزيوم الضخمة . وفي ظروف انهياره أقوال كثيرة ، قد يرجح منها اثنان . ولقد ربطت أحجاره بعضها ببعض بأربطة متينة من النحاس أو الحديد ، ولم تفعل عينه



السلب والنهب قيمة المعادن غير الثينة . وحول الفضاء الخالي الى  
 ساحة مولد أو سوق . وورد ذكر صناع الكوليزيوم في استعراض  
 قديم ، وقد حفر الفجوات أو جعلت أكثر سعة لتقبل الركائز التي  
 تعتمد عليها حوائط الصناعات الميكانيكية أو خيامهم . وعلى الرغم  
 من أنه لم يبق لمدرج الفلايين غير جلاله المجرد ، فقد تطلع حجاج  
 الشمال اليه في رهبة و إعجاب ، وتفجر حماسهم الوحشي في تمير  
 سام أصبح مثلاً ، وقد دون في القرن الثامن في بقايا بيد Bede  
 المجلد : « ستدوم رومه ما دام الكوليزيوم ، وستسقط رومه عندما  
 يسقط الكوليزيوم ، وسيسقط العالم عندما تسقط رومه » . وفي  
 نظم الحروب الحديثة ، لا يصح اختيار مكان لاقامة قلعة ، اذا كان  
 هذا المكان تشرف عليه تلال ثلاثة ، ولكن قوة الأسوار والأقواس  
 كان في استطاعتها مقاومة آلات الهجوم ، وكان من الممكن اقامة عدد  
 كبير من الحامية في البقعة المحاطة بالأسوار . وبينما احتل أحد  
 الحزبين الفاتيكان والكابيتول . تحصن الحزب الآخر في لاثيران  
 والكوليزيوم .

ويجب أن نأخذ الغاء الألعاب القديمة في رومه في شيء من اليسر .  
 وقد نظم قانون المدينة أو أعرافها الألعاب الكرتالية وألعاب تل  
 الصدف وسيرك أجونايس . وكان عضو السناتو يرأس الحفلة  
 ويحدد الجوائز ويوزعها . وهي خاتم الذهب ، أو الباليوم Pallium  
 كما سمي ، ثم القماش أو الحرير . وقد كانت الجسزية التي  
 فرضت على اليهود تغطي النفقات السنوية . وزاد في شرف السباق  
 على الاقدام وعلى ظهور الخيل أو في العربات ، ألعاب اثنين وسبعين

من شباب الرومان والمباريات بينهم . وفي سنة ١٣٣٢ احتفل بادخال مصارعة الثيران في الكوليزيوم نفسه على الطراز العربى والأسباني . وقد وصفت المصارعات بكل دقائقها في مدونة يومية ترجع الى ذاك الوقت . فأعيد نظام مناسب للمقاعد . ودعا اعلان عام ، وصل حتى ريمنى ورافنا ، النبلاء الى أن يجربوا مهارتهم وشجاعتهم في هذه المغامرة الخطرة . وقد نظمت سيدات الرومان في فرق ثلاث وجلسن في ثلاث شرفات . وكانت هذه الشرفات في ذلك اليوم ، وهو الثالث من شهر سبتمبر ، مبطنة بقماش قرمزي . وقادت جاكوفا دي روفيري الجميلة السيدات من وراء نهر التيبر ، وهن عنصر طاهر أصيل يمثل ملامح القدماء واخلاقهم . أما بقية المدينة فانقسمت كالعادة بين أسرتي كولونا وأورسيني ، وكان الحزبان يفخران بعدد نساءهما وجمالهن . وقد أشير بالثناء الى سحر سافिला أورسيني وجمالها . وقد أسفت أسرة كولونا لغياب أصغر غادة في أسرتهم ، وكانت قد لوت كعبها في حدائق نيرون . واقترع على الأبطال . وقام بالاشراف على القرعة مواطن هرم مبجل . ثم هبطوا الى الحلبة لملاقة الثيران الهائجة ، على الأقدام ، على ما يظهر وبحربة واحدة . ومن بين هذا الجمع الغفير اختار مؤرخنا أسماء عشرين من أبرز الفرسان وألوانهم وعلاماتهم . وعدد كبير من هذه الأسماء هم أشهر أبناء رومه والدولة الكنسية : مالانيسا ، وبولينتا ، وديللا قالى ، وكافاريللو ، وسافيلي ، وكابوتشيو وكوتى ، وأنيبالدى ، وألتيرى ، وكورسى : وكانت ألوانهم تناسب أذواقهم ومراكزهم ، وكانت شعاراتهم تعبر عن الأمل أو اليأس ، وتتم عن روح البسالة وقوة الأسلحة . ومن أمثلة ذلك : « انى وحيد ، كالآخ

الأصغر الذى يحمل اسم هوراثيوس » ، ثقة أجنبي جرىء » انى  
 أعيش فى بؤس » أرمل باك » انى أحترق تحت الرماد » ، عاشق  
 يجبله الحياء » انى أعبد لافينيا أو لوكرتيا » ، اعتراف مبهم بهوى  
 حديث » اخلاصى لا مثيل له فى قائه » ، شعار ثوب رسمى أبيض  
 » من أقوى منى » ؟ شعار جلد الأسد » فاذا غرقت فى الدم ، فباله  
 من موت بهيج ! » ، رغبة شجاعة وحشية . وقد منع أسرة أورسينى  
 كبرياؤها أو حزمها من النزول الى الميدان . الذى كان يحتله ثلاثة من  
 منافسهم الوراثيين ، وكانت علاماتهم المنقوشة تدل على عظمة اسم  
 كولونا الهائلة : » على الرغم من حزنى ، فانى قوى » ، » انى قوى  
 قدر ما أنا عظيم » ، لوسقطت ( مخاطبا النظارة ) » فلسوف تسقطون  
 معى » . وهو يشير ( كما يقول الكاتب المعاصر ) الى أنهم وحدهم  
 كانوا من حزب الكابول ، بينما كانت الأسرات الأخرى خاضعة  
 للفتاكيان . كان الصدام فى المدرج خطيرا داميا . وقد التحم كل بطل  
 بدوره مع ثور هائج . ويمكن أن ينسب النصر الى ذوات الأربع  
 اذ لم يبق غير أحد عشر فى الميدان ، وكانت الخسارة تسعة جرحى  
 وثمانية عشر من القتلى من جانب خصومهم . وقد حزن بعض من  
 أنبل الأسرات ، ولكن بهاء الجنازة فى كنيسة القديس جون  
 لاتيран والقديسة ماريا ماجيورا ، هيا للشعب عظة أخرى . ولا رب  
 أنه ما كان ينبغى أن يسفك دم الرومان فى أمثال هذه المصارعات ،  
 ومع ذلك فانا مضطرون الى أن نشئ على بسالتهم ، ونحن نلوم  
 تهورهم . ويشير النبلاء المتطوعون الذين يظهرون عظمتهم ويخطرون  
 بحياتهم تحت شرفات النساء الجميلات ، شفقة أبلغ من ألوف الأسرى  
 والمجرمين الذين يجرون رغم أنوفهم الى ساحة الاعدام .

وكان استخدام المدرج في هذه المصارعات أمرا نادرا ، وربما كان عيدا فريدا . وكان الطلب على المواد حاجة يومية مستمرة يستطيع المواطنون اشباعها دون قيد أو ندم . وفي القرن الرابع عشر ضمن اتفاق ودي شائن لكلا الحزبين حق استخراج الأحجار من محجر الكوليزيوم العام الحر . ويرثى يوجيو أن أكبر قدر من هذه الأحجار قد أحرق ، وصارت حيرا ، بسبب جهل الرومان . وللحد من سوء الاستغلال ، ولمنع الجرائم الليلية التي قد تحدث في أركانه الواسعة المظلمة ، أجاطه يوجنيوس الرابع بسور . ومنح بمقتضى قرار بقى مدة طويلة ، كلا من الأرض والبناء ، لرهبان دير مجاور . وبعد موته تهدم السور في إحدى ثورات الشعب . ولو أنهم أنفسهم احترموا أنبل أثر تركه آباؤهم ، لوجدوا ما يبرر العزم على وجوب منع هذا الأثر من أن ينحط فيصبح ملكا خاصا . وقد خرب جزؤه الداخلى . ولكن في منتصف القرن السادس عشر ، وهى فترة تمتاز بالذوق والعلم ، كان محيطه الخارجى ، ويبلغ ألفا وستمائة واثنتى عشرة قدما ، لا يزال سليما لم يمس : ارتفاع مثلث من ثمانين عقدا . بلغ علوه مائة وثمان أقدام . أما عن خرابه حاليا ، فينسب الاثم فيه الى أبناء أخوة بول الثالث . وكل سائح ينظر الى قصر فارنيز لا بد أن يلحن اعتداء هؤلاء الأمراء المفرورين وترفهم ، ويوجه لوما مماثلا الى أسرة باربرينى ، وربما خشى المرء تكرار التدمير والتخريب في كل عصر ، حتى وضع الكوليزيوم فى حماية الدين بفضل أكبر الأبحار ، وأعنى به بنيديكت الرابع عشر ، الذى قدس بقعة صبغها الاضطهاد والخزعبلات بدم عدد كبير من شهداء المسيحيين .

## إعادة المدينة

عندما متع بترارك نظره لأول مرة برؤية تلك الآثار التي تجل بقاياها المتناثرة عن أبلغ الوصف ، أدهشه تراخي الرومان أنفسهم وعدم اهتمامهم بها ، وقد أحس بالهوان أكثر مما استشعر الفخر ، حين كشف أنه اذا استثنينا صديقه رينزى وواحدا من أسرة كولونا ، فان رجلا غريبا من الرون كان يعرف عن هذه العاديات أكثر من نبلاء العاصمة وسكانها الأصليين . وقد بدا جمل الرومان وسذاجتهم بشكل فاضح في المسح القديم للمدينة الذي تم حوالى مستهل القرن الثالث عشر . ودون أن نطيل الوقوف عند الأغلاط العديدة في الأسماء والأماكن ، قد تثير أسطورة الكابتول ابتسامة احتقار وسخط . يقول الكاتب المجهول : « سمي الكابتول بهذا الاسم لأنه رأس العالم . حيث جلس القناصل وأعضاء السناتو في الزمن القديم ليحكموا المدينة والكرة الأرضية . وقد غطيت الجدران القوية العالية بالزجاج والذهب ، يتوجها سقف مزخرف بأغنى النقوش وأغربها ، وفي أسفل القلعة قام قصر ، معظمه من الذهب ، مزين بالأحجار الثينة ، ويمكن تقدير قيمته بثلاث قيمة العالم نفسه . وقد رتبت تماثيل كل الولايات ، وفي عنق كل تمثال جرس صغير . وقد دبرت هذه الحيلة السحرية ، بحيث أنه اذا ثارت الولاية ضد رومه ، دار التمثال الى تلك الجهة من الأفق ، فدى الجرس ، وأعلن عراف الكابتول هذه المعجزة ، وأخبر السناتو بهذا الخطر المهدق » . ويمكن أن نجد مثلا ثانيا ، أقل في الأهمية ، ولكنه مساو في السخف ، عن تمثال من الرخام يمثل

حصانين يقودهما شابان غاريان . وقد تقل هذا التشال منذ مدة من حمامات قسطنطين الى تل الكويرينال . وقد نجد عذرا لاطلاق اسمي فيدياس وبراكسيديليس دون سند ، ولكن كان يجب ألا ينقل هذان المثالان اليونانيان أكثر من أربعمائة سنة من زمن بركليس الى حكم تيريوس . وكان يجب ألا ينقلها الى فيلسوفين أو ساحرين ، كان عربيها رمزا للحقيقة والمعرفة . وقد أخبرا الامبراطور بأكثر أعماله سرية ، وبعد أن رفضا جميع الجوائز المالية . طلبا أن يسمح لهما بشرف وضع هذا الإثر الخالد الذي يشلهما . وعلى هذا النهج كان الرومان يشعرون بقوة السحر ، ولكنهم كانوا لا يشعرون بجمال الفن . فلم يكن هناك أكثر من خمسة تماثيل ظاهرة لعين بوجيوس ، أما الأعداد الكبيرة التي دفنت صدفة أو قصدا تحت الأقباض ، فقد تأخر لحسن الحظ بعثها الى زمن أكثر أمنا وأعظم تنورا . وكشف بعض العمال الذين كانوا يحفرون لغرس الكروم تشال النيل الذي يزين الفاتيكان الآن ، بالقرب من معبد أو دير مينرفا . ولكن المالك المتعجل وقد آلمته بعض الزيارات التي حفز اليها حب الاستطلاع ، أعاد الرخام الذي لا نفع فيه الى قبره السابق . وقد نتج عن كشف تشال بومبي . وارتفاعه عشرة أقدام ، قضية قانونية . فقد عثر عليه تحت حائط مشترك . وأصدر القاضي العادل حكمه بأن يفصل الرأس عن الجسد لارضاء مزاعم المالكين المتجاورين . وكان من الممكن أن ينفذ الحكم ، لولا أن أقصد تدخل أحد الكرادلة وجود أحد البابوات ، البطل الروماني من أيدي مواطنيه المتبررين . غير أن سحب الهمجية انقضت بالتدريج . وأعاد النفوذ السلمي

لمرتن الخامس وخلفائه الى المدينة زينتها ، كما أعاد النظام الى الدولة الكنسية . ولم تكن التحسينات التي أدخلت على رومه في القرن الخامس عشر نتيجة ذاتية للحرية والجد . ان أول جذور مدينة عظيمة وأكثرها موافقة للطبيعة هو عمل الريف المجاور وكثافة سكانه ، فهو الذي يمدّها بضرورات العيش والصناعة والتجارة الخارجية . ولكن الجزء الأكبر من الريف المجاور لرومه كان قد تحول الى صحراء جرداء مهجورة . وكانت أيدي الاتباع الكسالي المدقعين البائسين تقوم بزراعة الأراضي الخصبة المملوكة للأمرء ورجال الدين . واستغل الاحتكار المحصول الضئيل أو صدره لمصلحته . والسبب الثاني والأقل ملاءمة للطبيعة لنمو عاصمة ما هو سكنى ملك من الملوك ، ونفقات بلاط مترف والجزية التي تجبى من الولايات التابعة . وقد فقدت الولايات وأموال الجزية بسقوط الامبراطورية . وإذا كان الفاتيكان قد جذب جزءا من نهر الفضة الذي انساب من بيرو والذهب الذي انهر من البرازيل ، فان موارد الكرادلة ورسوم الوظائف وهبات الحجاج والاتباع وبقايا الضرائب الكنسية كانت تعطى مددا ضئيلا ، ومع ذلك فقد كانت هي التي تقوم بدفع نفقات بلاط كسول ، وتمسك رفق المدينة . وكان عدد سكان رومه لا يزيد على مائة وسبعين ألفا ، اعنى أقل بكثير من سكان العواصم الكبيرة في أوروبا . وفي داخل المساحة الشاسعة المحصورة بين الأسوار انتشرت الكروم والأطلال فوق أكبر جزء من التلال السبعة . ويمكن أن ينسب جمال المدينة الحديثة وبهاؤها الى سوء استغلال الحكومة والى أثر الخرافات . فقد تميز كل حكم ( الا فيما ندر ) بارتقاء سريع لأسرة جديدة أغناها

البابا الذى لا ولد له على حساب الكنيسة والبلد . فكانت قصور  
أبناء الأخوة المحظوظين أغلى آثار الرشاقة والعبودية . وامتحن أجمل  
فنون العمارة والتصوير والنحت فى خدمتهم . وازدانت متاحفهم  
وحداثتهم بأثمن آثار العالم القديم التى حفزهم الذوق أو الغرور الى  
جمعها . واستخدم البابوات أنفسهم موارد الكنيسة على نهج أكثر  
ملاءمة لاضفاء رواء على العبادات الكاثوليكية . غير أنه مما لا طائل  
تحتة أن نعدد مؤسسات الورع من مذابح وكنائس صغيرة وكبيرة ،  
لأن هذه النجوم الصغيرة الأقل بهاء ألقت بها فى الظلام شمس الفاتيكان .  
وقبة القديس بطرس وهى أعظم المباني المجيدة التى استخدمت يوما  
فى دين من الأديان . ويقترن بشهرة يوليوس الثانى وليو العاشر  
وسكستوس الخامس تفوق براماتنى وفورتانا وعبقريه رافاييل وميكل  
أنجلو . وقد وجه عين الكرم الذى ظهر فى بناء القصور والمعابد ،  
بحماس مساو فى احياء أعمال القدماء ومنافستها . فأقيمت المسلات  
التي كانت ملقاة على الثرى ونصبت فى أبرز الأماكن . ورمم أحد  
عشر مجرى من عمل القياصرة والقناصل ، وسارت الأنهار الصناعية  
فوق سلسلة من العقود القديمة والجديدة ، لتصب فى حوض من  
الرخام فيضانا من المياه الصحية المنعشة . وربما عطل الزائر المتعجل  
فى صعود سلالم القديس بطرس النظر الى عمود من الجرانيت  
المصرى ارتفع الى مائة وعشرين قدما بين نافورتين عاليتين دائمتين .  
وقد أوضح علماء الآثار وطلبتهم خريطة رومه القديمة ووصفها وآثارها .  
ويزور فى خشوع آثار أقدام الأبطال وبقايا الامبراطورية ،  
لا الخزعات ، جيل جديد من الحجاج من الأقطار النائية ، التى كانت  
تسودها الهجية يوما ، فى الشمال .



## تأملات أخيرة عن اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها

سيجذب تاريخ اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها انتباه هؤلاء الججاج ، والتفات كل قارئ . ومن المحتمل أن هذا الاضمحلال والسقوط كانا أعظم مشهد في تاريخ الجنس البشرى وأفظعه . وتتصل الأسباب المختلفة والنتائج التدريجية بكثير من أكثر الأحداث امتاعا في تاريخ الانسانية : سياسة الدهاء التي اتبناها القيصرية الذين أبقوا الى فترة طويلة ، اسم الجمهورية الحرة وصورتها ، واختلال النظام في زمن الطغيان العسكرى ، وظهور المسيحية واقرارها ، ومذاهبها ، وتأسيس القسطنطينية ، وتقسيم المملكة ، وغزو المتبربرين من ألمانيا وسكيزيا واستقراهم ، ووضع القانون المدنى ، وشخصية محمد ودينه ، وسلطان البابوات الزمنى ، واعادة الامبراطورية الغربية على يد شرلمان وسقوطها ، وحروب اللاتين الصليبية في الشرق ، وفتوحات العرب والترك ، وخراب الامبراطورية اليونانية ، ودولة رومه وثوراتها في القرون الوسطى . وقد يمتدح المؤرخ أهمية الموضوع وتنوعه ، ولكن عندما يشعر بمثالبه ، يتهم حتما في أغلب الأحيان بالنقص في المواد . ولقد خطرت ببالى لأول مرة وأنا بين أطلال الكابيتول ، فخررة هذا المؤلف الذى شرح صدرى وأعملت فيه فكرى ما يقرب

من عشرين سنة من حياتي ، والذي مهما كان لا يسمو الى ما كنت  
أرغب فيه ، واني أسلمه في النهاية الى حب الجمهور للاطلاع والى  
بعدهم عن التحيز .

لوزان

في السابع والعشرين من شهر يونية من عام ١٧٨٧ •

## الكشاف\*

( ويشمل الأجزاء الثلاثة )

( الرقم الموضوع بين القوسين يشير الى  
الجزء ، والآخر يدل على رقم الصفحة ) .

« ٢ »

- أبجاريوس : ملك الرها ، اتصاله المزعوم بالسيد المسيح (٢) ٥٤٧  
أيلافيوس : رئيس وزراء قسطنطين الأكبر ، يقتله كونستانتينوس  
الثاني (١) ٥٤٩  
أبو بكر : يجمع القرآن وينشره (٣) ٤٠ ، يعتنق دين محمد . ٥٠ ،  
برافقه في الهجرة ٥٥ ، اختيار النبي له ٧٨ ، خطبته  
عند وفاة النبي ٧٩ .  
أبو سفيان : رئيس فرع أمية وأمير مكة . يدبر قتل النبي (٣) ٥٥ ،  
تعرض المسلمين لقافلته ٦٣ ، حصاره للمدينة دون  
جدوى ٦٦ ، يسلم مكة ويؤمن برسالة محمد . ٧٠ .  
أبو طالب : عم محمد وحاميه ، ينصحه بالتخلي عن الرسالة ،  
عارض عقيدته ويحمي شخصه (٣) ٥٢ ، والهامش .  
أبو الفرج : جرجوري بارهيريوس . رئيس أساقفة الشرق ،  
مناقشة روايته عن تدمير عمرو بن العاص لمكتبة  
الاسكندرية (٣) ٩١ .

نوجه نظر القارئ الى الخلاف في بعض الأسماء ، تبعا لاختلاف نطق  
بعض الحروف في اللغتين اليونانية والانجليزية ، ولورود بعض الأسماء  
بأشكال مختلفة في المراجع العربية . من ذلك سسابور أو شابور ،  
خربستوم أو كريسمستوم . قسطنثيا أو كستنتيا ، ايسينيوس  
اوليكنيوس . وفي هذا الكشاف أوردنا اللفظين في معظم الحالات .

( الترجمة )

## أبوليناريوس

: اسقف اللاذقية ، رآه في النجس (٢) ٤٩٣ . استنكر  
هرطقته ٤٩٤ .

## أتالوس

: محافظ رومه ، الأريك يرفعه على العرش (٢) ٢٠٩ ،  
أخلاقه ، مفاوضته مع هونوريوس ، ووقاحته ٢١١ ،  
سوء حظ حملته ضد أفريقية ٢١٢ ، جوفوريوس  
يفد به ، الأريك يعزله على نهج شائن ٢١٣ .

## أتيللا

: إيتزل ( Etzel ) ، يتراجع نحو شالون عنسد  
أقتراب أيتيوس وثيودوريك (٢) ٢٧٣ ، خطابه الى  
جيشه ٢٧٥ ، هزيمته ٢٧٧ ، تراجمه عبر الراين ٢٨٠  
يكرر طلبه للزواج من هونوريا ، يغزو إيطاليا ٢٨١ ،  
يستولى على أكوليا ، وينهب لومبارديا ٢٨٢ ، موضع  
معسكره ، يستقبل وفدا من لدن فالينتيان الثالث ،  
يقرر السام عند تسلّم صداق هونوريا ٢٨٨ ، يتزوج  
من الديكو dico ، وفاته وجنازته ٢٩٠ .

## أناثاريك

: فاضى القوط الغربيين ، يضطهد القوط المسيحيين (٢)  
٣٤٢ .

## أناسيوس

: ( القديس ) جزاءات روحية (١) ٦٠٣ ، كراهيته  
لاتباع آريوس ، دفعه عن المذهب السابلي الذي نشره  
ماركيلوس ٦١٨ ، قسطنطين يعزله وينفيه ، قصة  
موت آريوس ٦٢٨ هامش ، أخلاقه ومغامراته ، تحمسه  
لعقيدة التثليث الكاثوليكية ٦٣٤ ، مهارته في المرافعة ،  
عدم سلامة انتخابه ٦٣٦ ، شعبيته ، مقاومته  
لقسطنطين ٦٣٧ ، التهم التي وجهت اليه ، دعوته  
للمنول امام مجمع صور ، اضطحابه أرسينيوس الى  
هناك ٦٣٨ ، لقاءه مع قسطنطين ، اتهامه بالتعرض  
لاسطول نقل الفلال ٦٤٠ ، نفيه اولا الى تريف ،  
قسطنطين الثانى يعيده ٦٤١ ، عزله مرة أخرى ونفيه  
بمقتضى قرار من مجمع انطاكية ، اقامته في رومه ٦٤١ ،  
تبرئة اساقفة إيطاليا له ، كونستانس يدعو الى

ميلان ، تبرئته في مجمع سارديكا ٦٤٢ ، قسطنطينوس  
يعيده ، لغاؤهما في أنطاكية ، دحوله الاسكندرية دخول  
المنتصر الظافر ٦٤٤ ، اتهامه في مجمع أول وميلان  
٦٤٧ ، حماس أصدقائه ودفاعهم عنه ، ادانته  
وعزله ٦٤٩ ، طرده للمرة الثالثة من الاسكندرية ٦٥٢ ،  
مسلكه الجريء ، اختفاؤه لمدة ست سنوات ، ايواء  
رهبان طيبة له ٦٥٦ ، مغامراته المختلفة ٦٥٧ ، قذفه  
في كونستانتينوس ٦٥٩ ، اعادته (٢) ٦٩ ، نفيه مرة  
أخرى على يد جوليان ٧٠ ، التجاؤه مرة أخرى الى  
الصحراء ٧٢ ، اعجاب جوفيان المفرط به ، اعادته ٩٧ ،  
يدخل نظام الأديرة في رومه ٣١٩ .

أثينايس : ابنة السفسطائي الأثيني ليونتيوس ، تاريخها ، زواجها  
من تيودوسيوس الأصغر ، تتخذ الاسم المسيحي  
يودوكيا (٢) ٢٤٩ ( انظر يودوكيا ) .

أجريا : مراقب مع أوغسطس (١) ١١٩ .

أجربينا : طموحها (١) ٢٠٠ .

أجريكولا : بهزم الكاليدونيين ، يفكر في الاستيلاء على أيرلنده ،  
استدعاؤه (١) ٦٨ .

أجلای : غرامها بالقديس بونيفاس (١) ٤٧٧ .

أدريان : الأول ، البابا ، يستقبل شرلمان في رومه ٥٧٣ (٢) . يتقبل  
قرارات مجمع نيقيا الثاني فيما يتعلق بالصورة ٥٨٢ ،  
يهدد إباطرة اليونان بالحرمان من الكنيسة ٥٨٣ ،  
عظمته ٥٨٥ .

آدم : أحد الأنبياء جاء ذكره في القرآن (٣) ٣٨ .

أدولفوس : يرسل مددا الى صهره الأريك (٢) ٢٠٣ ، عين مديرا  
للشئون الخاصة لدى اتالوس ٢٠٩ ، يخلف الأريك ،  
حياته بعد ذلك ٢٢٨ .

أربوجاستيس : من الفرنجة ، اختير حاكما عاما على بلاد الغال ، يحاصر  
فالينتيان في قصره في فيينا (٢) ١٢٢ ، يقتله ، ويخطع

الحالة الأرجوانية على يوجينيوس ١٢٤ ، هزيمته على يد تيودوسيوس ، وانتحاره ١٢٥ .

أركاديوس : بن تيودوسيوس . عظمة بلاطه وترفه (٢) ٢٢٩ ، موته ، وصيته المزعومة ٢٤١ .

أرستيديس : فيلسوف ، مسيحي (١) ٤٠٠ .

أريوس : أخلاقه ، محاكمته وحرماته (١) ٦١١/٦١٣ ، عرض

أمره على مجمع نيقيا ، شعوره نحو التثليث والكلمة ،

ثمان عشرة فرقة من مذهبه ٦١٥ ، آراء الفرق الثلاث

الرئيسية ٦٢٠ ، انتشار المذهب الآري في الشرق ٦٢٢ ،

رسالة قسطنطين إلى أريوس واسكندر ٦٢٥ ،

قسطنطين ينفي أريوس ! دمج مذهب به باسم

البورفيريين Porphyrians استدعاؤه وسط

مظاهر التكريم ٦٢٧ ، موته المفاجيء المفزع ٦٢٨ .

اسحق : ( الثاني ) أخلاقه وحكمه ، وفد مخز الى صلاح الدين

(٣) ٢٠٧/٢٠٦ ، اعترافه باستقلال بلغار ، ٢٠٨ ،

عزله وسمل عينيه ٢١٠ ، الصليبيون يعيدونه ٢٣٣ ،

عزله على يد مرزوفل

اسكندر : ( الثالث ) البابا ، يضع نظاما لاختيار من يعلى

العرش البابوي ، في مجمع الكرادلة (٣) ٣٩٠ .

اسكندر : سيفيروس . ( انظر سيفيروس ) .

اسينيون : Essenions ، متاعهم مشترك بينهم (١) ٣٧٨ ،

وصفهم ٣٩٣ .

اغسطس : أخلاقه وسياسته (١) ٦٥ ، ١٣٢ ، هادريان

والأنطونينيون يتبعون سياسته ٧٣ ، مركزه بعد

موقعة اكتيوم ١١٧ ، اصلاح السناتو ١١٨ ، يتظاهر

بالتنازل عن السلطة العليا ، يلقب بالامبراطور ١٢٠

بقتسم الولايات مع السناتو ١٢٣ ، يحتفظ بالقيادة

العسكرية في رومة ١٢٤ ، ويمنصبى القنصل

والتربيون ١٢٤ ، الحبر الاعظم والراقب ١٢٦ ،

يحتفظ بصورة الحرية ١٣٣ ، خوفه من الجيش ١٣٥  
تبني تيبيريوس ١٣٧ ، الأمر بتقديم القران في بيت  
القدس ٣٢٤ ، تفاخره بالتواضع (٢) ٥٩٥ .

اغسطس

: وقصر ، سلطة كل منهما (١) ٢٩٩ .

اغسطين

: القديس ، وصفه لمعجزات وفات القديس ستيفن (٢)  
١٦٢ . وصف كتابه عن مدينة الرب ١٦٢ هامش ،  
مناسبتها نهب رومه ٢١٦ ، وفاته ، أخلاقه ، علمه ،  
مكتبته ، عبقريته ٢٥٨ ، مذهبه الديني ، مقارنته بكلفن  
٢٥٩ هامش

افلوطين

: ( بلوتينوس ) الفيلسوف ، صداقته مع الامبراطور  
جالينوس (١) ٢٥٤ .

اكاكيوس

: راعي الدببة ، والد الامبراطورة تيودورا (٢) ٤٠٠ .

اكيغالي

: طائفة مصرية (٢) ٥٢٥ .

الاجاباثوس

: ( انطونيوس ) صوته ، دخوله عبادة الشمس (١)  
١٩٤ ، فحوره وتخشه ١٩٦ ، محاولته الحط من  
شان اسكندر سيفيروس ١٩٨ ، قتله على يد الحرس  
البريتوري ١٩٩ ، السماح لأمه بتوقيع قرارات  
السناتو ٢٠٠ ، أول من استخدم الثياب الحريرية  
من الرجال (٢) ٤٢٣ .

الاريك

: القوطي ، يطلب رهائن ضامانا لتعويضه بولاية في  
الغرب (٢) ١٧٢ ، يسير نحو رومه ١٧٣ ، حصارها  
١٩٧ ، قبول القدية ورفع الحصار ٢٠١ ، دخول  
توسكانيا ، وصول مدد ٢٠٢ ، اقتراحاته لبلاط  
رافنا ٢٠٣ ، أوليمبيوس يرفضها ، تجديدها ٢٠٤ ،  
غضبه من خطاب هونوريوس ٢٠٧ ، استيلاؤه على  
أوستيا ٢٠٩ ، اجباره الرومان على اختيار اناطوس  
امبراطورا في مكان هونوريوس ٢٠٩ ، ثم يعزله ٢١٣ ،  
حملته الثالثة ضد رومة ونهبها ٢١٣/٢١٤ ، اخلاء  
المدينة ٢٢٣ ، نهب جنوب ايطاليا ٢٢٤ ، مشروعات  
الفتح ، وفاته ، جنازته ٢٢٧ .

- الكسيوس : مؤسس أسرة كومنينوس (٣) ١٦٦ .
- الكسيوس : الثالث . يفتصب العرش (٣) ٢٠٩ ، تخاذله عند اقتراب الصليبيين ٢٢٧ ، هربه من القسطنطينية ٢٣٣ .
- الكسيوس : الرابع . هروبه من وجه الكسيوس الثالث (٣) ٢١٠ ، تحالفه مع الصليبيين ، وعوده ٢٢٢/٢٢١ ، تتويجه ٢٣٤ ، اقناع الصليبيين بالبقاء في القسطنطينية ٢٣٥ ، عزله وقتله ٢٣٩ .
- البيوس : يعهد اليه جوليان بلعادة بناء هيكل بيت المقدس (٢) ٥٠ .
- امالاسوتا : ابنة تيودوريك ، تشيد لرفاته قبرا فخما (٢) ٣٩٠ .
- اماتئوس : خصى أنسطاسيوس ، يمكر به جوستين (٢) ٩٣ ، قطع رأسه ٩٣ .
- امبروز : القديس ، مولده وتاريخه الأول (٢) ١٠٠ ، منازعاته مع الامبراطورة جوستينا ١٠٢ ، صدور أمر بنفيه وعدم امتثاله له ١٠٥ ، اخراج رفات جيرفاسيوس وبروتاسيوس ، قوتها الحارقة ١٠٦ ، تأثير امبروز على تيودوسيوس ، رفضه اشراكه في تقبل القربان بعد مذبة سالونيك ١١٨ ، رفض دخوله الكنيسة واجباره على التوبة علانية ١١٩ ، رفض الاعتراف بالقاصب يوجينيوس ١٢٩ ، يقاوم التماس سيماخوس الاغضاء عن آلهة النصر ١٤١ .
- اميانوس : ماركيلينوس . وصفه لديانة كونستانتينوس الثاني أو خرافاته (١) ٦٣١ ، وصفه لدين المسيحي ٦٥٩ ، قصة العقبات غير العادية ضد اعادة بناء معبدن المقدس (٢) ٥٢ ، وصفه لأخلاق الرومان ١٨٠ .
- انا : كومنين ، علمها (٣) ١٢٨ .
- اناستاسيا : اخت قسطنطين ، تزوجت اوبتاتوس (١) ٥٣٨ .
- اناستاسيوس : حربه مع تيودوريك القوطي الشرقي (٢) ٣٦٨ .
- انتيميوس : جد أركاديوس ، يتولى حكم الشرق بعد وفاته (٢) ٢٤٤ .



- انتيموس** : المهندس المعماري ، حيلة الفلسفية لاغاطة زينون (٣) ٤٣١ ، يخطط أيا-صوفيا في القسطنطينية ٤٤٣ .
- انثراوس** : العديس ، نمل جثمانه الى القسطنطينية (٢) ١٥٩ .
- انطونينا** : زوجة بليساروس ، تشيد ديرا (٢) ٤٥٧ .
- انطونينوس** : اسم حمله جيتسا وكراكلا (١) ١٨١ ، والاجابالوس أيضا ١٩٤ .
- انطونينوس** : نائب قنصل في آسيا ، عن المسيحيين الذين يتهافون على الاسشهاد (١) ٤٤٧ .
- انطونينوس** : پيوس . سور اسكتلنده (١) ٦٩ ، سياسته ٧٣ ، حكمه واخلاقه ١٤١ .
- انطونينوس** : ماركوس اوريليوس . حكمه وحلقه ، « تأملاته » (١) ١٤٢ . اقراطه في التسامح ، رفعه فاوستينا الى مصاف الآلهة ١٤٥ ، اشراك كومودوس في حكم الامبراطورية ١٤٧ ، مرسومة المزعوم ومعامته للمسيحين ٤٥٢ .
- انطونينوس** : القديس ، مؤسس الأديرة ، تاريخه (٢) ٣١٩ .
- انيكيوس** : ( جوليان ) أول عضو من السناتو اعتنق المسيحية (٢) ١٧٧ .
- انيكية** : (الأسرة الانيكية) في رومه ، عظمتها وثوراؤها (٢) ١٧٧ .
- اوپتاتوس** : زوج أخت قسطنطين ، مقتل على يد كونستانتينوس (١) ٥٥٠ .
- اودواكر** : أخلاقه وحكمه (٢) ٣١٢/٣١١ ، اسنلاؤه على دالماتيا وهزيمة الروجيين ٣١٣ .
- اودنياتوس** : من تدمر . أنهك جيش سابور (١) ٢٥٢ . سمى افسطس ، أوصى بحكومة الشرق الى زنوبيا ٢٥٨ ، مقتله ٢٦٦ .
- اورستيس** : والى مصر ، هاجمه رهبان وادى النطرون (٢) ٤٩٩ .

**أوريجن** : عن الإغراء (١) ٣٦٤ ، عن عدد المسيحيين ، ٣٩٩ ، شهادته فيما يتعلق بالشهداء ٤٣٩ محاولته حمل ماميا على اعتناق المسيحية ٤٥٥ ، قرار جستنيان ضد مؤلفاته (٢) ٥٣٥ .

**أوريليان** : حملته ضد زنوبيا (١) ٢٦٨ ، حصار تدمر ٢٧١ ، معاملته لزنوبيا ٢٧٢ ، اعدام لونجينوس ٢٧٣ اخماد ثورة فيرموس ٢٧٤ ، انتصاره ٢٧٥ ، القضاء على الفتنة في رومه ٢٧٩ ، حملته في الشرق ومقتله ٢٨٢ ، وضع مشروع لزراعة الكروم في اثروريا (٢) ١٩٢ .

**أوسيسيوس** : ( أوزيوس ) أسقف قرطاجة ترأس مجمع نيقيا (١) ٦٢٦ تأييده لأثناسيوس ، انتزاع قرار منه بادانة أثناسيوس ٦٥٠ .

**أوكنافيانوس** : لقب أغسطس (١) ١٣١ .

**أوليبان** : رئيس مجلس بلاط ماميا (١) ٢٠١ ضيف اسكندر سيفيروس الدائم ٢٠٣ .

**أولفيلاس** : ( يولفيلاس ) رسول القوط ، مترجم الكتب المقدسة ، مبتكر الحروف الهجائية القوطية في ولاية موشيا ( بين الدانوب وجبال البلقان ) (٢) ٣٤١ ذهابه الى القسطنطينية ٣٤٢ :

**أوليمبيوس** : ضابط في القصر ، مخازيه مغامراته ، موته الشائن (٢) ٢٠٤/٢٠٥ .

**أيتيوس** : الملقب بالملحد ، قصته (١) ٦٢٠ .

**أيتيوس** : احد قواد بلاكيديا ، حربه ضد الكونت يونيفاس (٢) ٣٦٠ ، فراره الى بانونيا ٣٦١ ، يخلص اورليانتر ٢٧٤ يهزم أثبلا في شالون ٢٧٤ ، يعرض طريقه في ايطاليا ٢٨٧ يلج في تزويج ابنه جاودنتيوس من الأميرة يردوكسيا ، مقتله على يد فالنتيان الثالث ٢٩٤ .

- أيديسيوس** : الأفلاطوني ، أول من فسر لجوليان سر المجاز (٢) ٢٣ ،  
مدرسته في برجاموس ٢٧ .
- أيربان** : الخامس البابا ، استقبله الامبراطور بالايولوجوس في  
كبرياء (٣) ٢٩١ . عودته المؤقتة الى روم من  
أفنيون ٤٢٨ .
- أيربان** : السادس ، البابا ، انتخابه وأخلاقه (٣) ٤٣٠ .
- أيرين** : تعيد تقديس الصور ، تقسطهد مهشمى الأيقونات  
(٣) ٥٧٨ .
- ايكوبولوس** : عشيق تيودورا (٢) ٤٠٢ .
- اينيلس** : ( سيلفيوس ) البابا بيوس الثاني ، الحرب ضد الاتراك  
أمر غير عملي (٣) ٣٧٨ يحاول أن يقود حملة  
ضدهم ٣٧٩ .

#### « ب »

- بائنين** : قائد الحرس البريتورى (١) ١٧٥ سلوكه النبيل ،  
اعدامه ١٨٩ .
- بايلاس** : ( القديس ) أسقف انطاكية ، جثمانه ، نقله الى داخنى  
فى موكب فخم بأمر من جوليان (٢) ٦٢ .
- باخوميوس** : رئيس الدير ، عدد أتباعه وأدبرته (٢) ٣٢٠ .
- بللام** : إيفاده الى بندكت الثانى عشر (٣) ٢٨٥ ، راهب من  
كالابريا ، علمه ومحاضراته عن هوميروس ، أسقف  
٣٣٦ .
- بازيل** : ( باسيليوس ) الأول ، المقدوني ، امبراطور  
القسطنطينية ، يستفيد من انهيار الأسرة الكارلوئنجية  
(٣) ١٣٦ .
- بازيل** : رئيس أساقفة قيصرية ، أثره على الرهبنة فى الشرق  
(٢) ٣٢١ .
- بالايولوجوس** : ميخائيل الامبراطور ، مفاوضته مع بالدوين الثانى

(٣) ٢٦١٠ ، تحالفه مع جنوه استرداده للقسطنطينية

• ٢٦٤

**بالايولوجوس :** جون ، الامبراطور ، معاهدته مع انوسنت السادس ،

(٣) ٢٨٩ يزور اربان الخامس ، يعترف بسيادة البابا

وابشاق الروح القدس من الآب والابن ، تعاوضه مع

جون هوكوود ٢٩١ القبض عليه من أجل الدين ٢٩٢ .

**بالنوين :** كونت فلاندرز ، أصبح امبراطورا فيما بعد ، اتشح

بالصليبية (٣) ٢١٣ .

**بالنوين :** ( الثاني ) الامبراطور ، مصائبه واستجداؤه زيارة

انجلترا (٣) ٢٥٦ ، تحالف شائن مع الأتراك والكومانس .

٢٥٧ . بيع المخلفات المقدسة الى القديس لويس ٢٥٨ ،

الهرب الى ايطاليا ٢٦٤ .

**پترارك :** من أوائل الذين احيوا العلوم في ايطاليا (٣) ٣٢٤

صدافته لبارلام ٣٢٦ ، طابعه الشعرى والأدبى ٤٠٩ ،

تتويجه ٤٠٩ ، ثناؤه على رينزى ٤٢١ ، دعوته لشارل

الرابع وهجاؤه ٤٢٦ ، يطلب الى البابوات الرجوع الى

رومه ٤٢٧ ، يشهد على تدمير المواطنين لآثار الرومان

• ٤٦١

**پترونيوس :** ( مكسيموس ) • فالنتيان الثالث يفتصب زوجته (٣)

• ٢٩٦ .

**بروبا :** أرملة پترونيوس قائد الحرس البريتورى ، تهرب أثناء

نهب رومه (٢) ٢٢١ .

**پروپوس :** أحد قواد أوريليان (١) ٢٧٢ .

**پروكلوس :** صراف في زمن جوستين (٢) ٣٩٣ .

**پروكوبيوس :** اختاره جوفيان ليشرف على دفن جوليان (٢) ٩١ .

**بطرس :** ( القديس ) • زيارته لروما (١) ٣٧٦ ، قبرا القديسين

بطرس وبولص في رومه ، أو النصب القائمة لهما (٢)  
١٥٩ ، ظهورهما لأتيليا ٢٨٩ .

**بلاكيديا** : أخت هونوريوس ، موتها وقبرها في رافينا (٢) ٢٩٣  
الهامش .

**بليثي** : الأصغر يتفحص حال المسيحيين في بيثينيا (١) ٣٦٠  
يصف كثرتهم وانتشارهم ، يذكر مسيحيين من جميع  
الطبقات ٢٩٧ ، يسأل تراجان عما يتبع نحوهم ٤٣٢ ،

**بوجيو** : تأملاته في سقوط رومه (٣) ٤٤٥ وصفه لأطلالها  
٤٤٧ ،

**بوستوموس** : أحد قواد جالينوس ، انتصاراته (١) ٢٣٢ .

**بوكاشيو** : احياء العلوم اليونانية في ايطاليا (٣) ٣٢٧

**بول** : بولص السمسطى ( من ساموساتا ) قصته (١) ٤٥٧ ،  
تجريده من منصبه ، حماية زنوبيا له ٤٥٩ .

**بولكيريا** : أخت تيودوسيوس الأصغر ، أخلاقها وادارتها (٢)  
٢٤٥ ، سبب جلب العار على يودوكيا ، ٢٥٢ ، انضمت  
الى كيريل ضد نسطوريوس ٥١٠ .

**بونيفاس** : ( الكونت ) قائد بلاكيديا ، حوضر في هيورجوس (٣)  
٢٥٧ ، هرب الى رافنا ، شن حربا ضد أيتبوس ، موته ،  
ميدالباته ، ٢٦٠/٢٦١ .

**بونيفاس** : مركز مؤتفرات ، اختياره لقيادة الحملة الصليبية  
الرابعة (٣) ٢١٩ ، تأييده لقضية ألكسيوس بن اسحق  
انجيليوس ٢٢٢ ، ترفقه بهد الاستيلاء على  
القسطنطينية ٢٤٣ .

**بونيفاس** : ( القديس ) . حصوله لأجلأى على بعض الرفات المقدسة  
(١) ٤٧٧ .

**بوتبوس** : أخلاقه وأبحاثه (٢) ٢٨١ زيارته المزعومة لأتينا ٣٨٢ ،

اتهامه بالخيانة ٣٨٥ ، سجنه في بافيا ، اعدامه  
بطريقة وحشية ٣٨٦ ، الفرد الاكبر يترجم مؤلفاته  
٣٨٧ ، رفعه الى مصاف القديسين ٣٨٨ .

**بيساريون** : اسقف نيقية ، اختياره لحضور مجمع في الغرب (٣)  
٣١٠ ، في مجمع فلورنسه ٣١٥ ، كاردينال ٣١٧ اقامته  
في ايطاليا وأحلافه ٣٢٢ .

**بيليساريوس** : دفاعه عن القسطنطينية ضد البلغار (٢) ٤٥٣ اتهامه  
بالتآمر ضد جستنيان ٤٥٦ ، مصادرة ثروته ، تسوله ،  
خزافة سخيفة ٤٥٧ .

**بيبين** : بن شارل مارتل ، تتويجه ملكا (٢) ٥٧١ ، تقديمه  
حكومة رافنا الى البابوات ٥٧٤ .

**بيرينيس** : وزير كمودس ، وفد كتاب بريطانيا ضده واعدامه (١)  
١٥٣/١٥٢ .

**بيوس** : ( الثاني ) البابا ، انظر اينياس سيلفيوس .

« ت »

**تاكيتس** : (تاسيتس المؤرخ ، روايته عن المسيحيين في  
رومه (١) ٣٩٥ ، واضطهادهم في عهد نيرون ، بعض  
الملاحظات على روايته ٤٢٤ ، وصف مؤلفاته ٤٢٦ .

**تتريكوس** : مفتصب (١) ٢٥٥ يزين انتصار أوريليان ٢٧٥ ، اعادته  
الى منصبه ، وليمته لأوريليان ٢٧٧ .

**تراجان** : الامبراطور ، يفتح داكيا ( داشيا ) (١) ٦٩ يحاكى  
الاسكندر الأكبر ، حملاته ضد الشرق ، الامبراطور  
الوحيد الذي وصل الى الخليج الفارسي ٧٠ ، ساحته  
وعموده ١٠٠ ، نيرفا يتبناه ١٢٨ ، أخلاقه ١٣٩ ،  
قسطنطين ينتزع قوس النصر الخاص به ١٤٠ ، رده على  
المسيحيين ٤٣٣ .

**تريونيان** : وزير جستنيان ، اتهام الاهالي له (٢) ٤١٧ .

- تريجيتيوس** : سفارته الى اتيلا (٢) ٢٨٨ .
- تيبيريوس** : اخلاقه (١) ٥٩ استخدام شكلليات العدالة ٦٢  
 اوغسطس يتبناه ١٣٧ اقامة الحرس البريتورى  
 باستمرار فى رومه ١٦٧ ، المرسوم المزعوم لمصلحة  
 المسيحيين ٤٥١ .
- تيتوس** : منحه السطة الامبراطورية ، ادارته (١) ١٣٧/١٣٨ .
- تيرتوليان** : طريقه لوصف يوم الحساب (١) ٣٥١ استنكاره  
 الترف ٣٦٢ ، يرى ، أن يتخلى الجنود المسيحيون ٣٦٦ ،  
 رأيه فى الهروب من الاضطهاد ٣٦٧ هامش ، روايته  
 عن مرسومى تيبيريوس وماركس انطونينوس ٤٥١ .
- تيريداتس** : ملك لرمينية ، يهرب من الفرس (١) ٢٤٨
- تيموتي** : ( تيموتاوس القط ) راهب يحرض على قتل  
 بروديسيوس ويصبح بطريق الاسكندرية (٢) ٥٢٣ .
- « ث »
- ثيودور** : من مويسويستيا ، أعدم لهرطقته (٢) ٥٣٥ .
- ثيودورا** : زوجة جستنيان ، مولدها وتاريخها الأول (٢) ٤٠٠ ،  
 تسحر الامبراطور وتزوج منه ، يشركها فى  
 الامبراطورية ٤٠٤ ، حياتها الخاصة ، طفيانها  
 وقضائها ٤٠٥ ، سفرها الى حمامات يثينيا  
 وموتها ٤٠٨ ، ميلها الى الفريق الأزرق ٤٠١ ، نباتها  
 فى شغب نيقا ٤١٨ ، التنافر الروحى بينها وبين  
 جستنيان ٥٣٤ .
- ثيودوريت** : أسقف كيرسى . بره بمباريا التى نفيت من قرطاجة (٢).  
 ٢٦٥ اتهامه بالهرطقة ٥٣٥ .
- ثيودوريك** : بن الاريك ، بمقد حلفا مع ايتيوس (٢) ٢٧٢ قتله فى  
 معركة شالون ٢٧٨ .
- ثيودوريك** : القوطى الشرقى ، سياسته الخارجية (٢) ٣٦٥ حربه .

مع اناستاسيوس ٣٦٨ ، اسطوله البحرى ، اعماله فى بلاد الغال ، علاقته ببلاط بيزنطة ٣٦٨ / ٣٦٩ ، تدبير العدالة ، زيارة رومه ، اعاده الانار العامة ٣٧١ ، اقامته فى فيرونا ٣٧٤ ، اتباع مذهب آريوس ، تسامحه ٣٧٦ ، مساوىء حكومته ٣٧٨ . اغراؤه باضطهاد الكاثوليك ٣٨٠ ، اعدام بونثيوس ٣٨٦ قتل سيماخوس ، نفيه وموته ٣٨٨ ، قبره فى راقنا ٣٨٩ .

**ثيودوسيوس ( الأكبر )** : فضائله واخطاؤه (٢) ١٠٧ ترفقه بأهل انطاكيا ١١٢ مذبحة سالونيك ١١٥ أثر القديس امبروز عليه ١١٧ حرمانه من الكنيسة ١١٨ ، يعيد فالتيان الثانى ١٢١ ، يسأل الناسك المصرى جون عن اغتصاب يوجينيوس ١٢٥ ، يرده اريوجاستيس عن اكويليا ١٢٨ ، هزيمة يوجينيوس واريوجاستيس ووفائهما ١٢٩ ، يصبح الامبراطور الوحيد ١٣٠ ، تعيين اركادبوس وهونوريوس امبراطورين فى الشرق والغرب موته ، سؤاله السناتو عن تعيين جوبيتر أو المسيح ١٤١ ، حظر تقديم القرابين ١٤٣ ، تدمير المعابد الوثنية ١٤٤ آخر مرسوم حاسم ضد الوثنيين ١٥٣ حماية الوثنيين ذوى الكماليات ١٥٦ .

**ثيودوسيوس ( الأصغر )** : يحيط القسطنطينية بالأسوار (١) ٤٩٩ ، استقبال رفات القديس كريستوم (٢) ٢٤١ ، تربيته وأخلاقه ٢٤٧ ، زواجه من يودوكيا ٢٤٩ ، سلوكه فى النزاع بين كيرلس ونسطوريوس ٥١٠ ، نفى نسطوريوس ٥١٣ .

**ثيوفيلوس** : آخر محطى الأيقونات واشدهم قسوة (٢) ٥٨١ .

### « ج »

**جالوس** : ابن أخى قسطنطين ، افلاته من القتل (١) ٥٥١ تعليمه وسجنه ، منحه لقب قيصر ، زواجه من كونستانتينا ،



قساوة خلقه وقتله ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، نقل رفات القديس  
بابلّاس الى دافنى (٢) ٦٢ .

**جالينوس** : أشرکه دقلديانوس فى الحكم . أخلاقه ، تبناه وزوجه  
ابنته (١) ٢٩٠ ، أغرى دقلديانوس باضـطهاد  
المسيحيين ٤٦٥ ، مرسوم التسامح ٤٧٨ .

**جالينوس** : أشرکه فاليريان فى الحكم (١) ٢٣٠ قاوم الفرنجة ٢٣٢ ،  
يحط من قدر السناتو ٢٣٥ ، تزوج من پيپا ٢٣٦ ،  
سار ضد القوط ٢٤٤ ، أخلاقه وادارته ٢٥٣ يعتبر  
الامبراطور الوحيد اثناء ثورة الطفلة الثلاثين ٢٥٨ ،  
أوامره الوحشية ٢٥٩ ، القحط والوباء فى عصره ٢٦٣ ،  
محاباته للمسيحيين ٤٥٧ .

**جراتيان** : بن فالينتيان الأول من زوجته سيفيرا ، رفضه اعتلاء  
كرسى البابوية ، يزىل تمثال النصر من  
السناتو (٢) ١٣٨ .

**جريجورى** : نازيانزن ، رثاؤه للخرافات القائمة بين  
المسيحيين (١) ٦٥٩ .

**جريجورى** : ( الثانى ) البابا ، رسائله القاسية الى ليو الثالث (٢)  
٥٦٠ اشعال نار الثورة فى ايطاليا ٥٦٤ .

**جريجورى** : ( الأكبر ) البابا ، عداؤه للمبقرية الكلاسيكية ، الاعتقاد  
بأنه شوه التماثيل واحرق مكتبة البلاطين (٢) ٤٧٣  
مولده وتاريخه ٤٧٥ ، مدى ولايته الروحية ٤٧٧ ،  
تحويل الانجلوسكسون الى المسيحية ٤٧٨ ، حكومته  
الزمنية ، مزارعه ، صدقاته ٤٧٩ ، سلوكه السياسى ،  
انقاذ رومه من اللومبارديين ٤٨١ .

**جريجورى** : ( السابع ) البابا ، حليف النورمان ، نزاعه مع هنرى  
الثالث (٣) ١٧٣ ، اعتزاله وموته ١٧٥ .

## جستينا

: اعتناقها المذهب الآري ، جدالها مع القديس امبروز (٢) ،  
١٠١ ، موتها ١٢٢ .

## جستنيان

: الإمبراطور برامجه ، الى من وجهها (١) ٥٢١ ، مولده.  
وتعليمه (٢) ٣٩٠ ، طموحه الماكر ، اتباعه المذهب  
الأرثوذكسي ، بهاؤه ، وضع التاج ، ٣٩٥ ، ابطال  
القانون الذي يحرم على السناتو الزواج من أمة.  
أو مشقة ، زواجه من ثيودورا ٤٠٤ ، اشراكها في  
الحكم ٤٠٥ ، حمايته للفريق الأزرق ٤١٢ ، شغب  
نيقا ٤١٤ ، اتساع ممتلكاته ، الزراعة والصناعة فيها  
٤٢٠ ، المباني والمهندسون ، تشييد أيا صوفيا ٤٣٠ ،  
الكنايس والقصور ٤٣٨ ، القضاء على مدارس أثينا  
٤٤٠ ، القنصلية الرومانية ٤٤٨ ، اشاعة موته  
والمشاجبات التي نتجت عن ذلك ، مؤامرة ضده ،  
الحاق العار بالقائد بيليساريوس ٤٥٥ ، وفاته وأخلاقه  
٤٥٧ ، ظواهر طبيعية اثناء حكمه ٤٦٠ ، أخلاقه الدينية  
وحكومته ٥٢٩ ، ميله الى لقب ( النقي ) ، اضطهاد  
٥٣١ ، اتباعه المذهب الأرثوذكسي ، هرطقته ٥٣٧ ،  
ترجمة مجموعة القوانين الى اليونانية (٣) ١٢٣ ،  
الصليبيون يكشفون عن جثمانه ٢٤٨ .

## جنسريك

: ملك الوندال ، الصعوبات الداخلية ، مفاجأة قرطاجة (٢)  
٢٦١ تدمير أسطول ماجوريان ٣٠٩ ، عقد معاهدة  
معه ٣١٠ .

## جورج

: ( الكبادوكي ) يخلف أناثاسيوس ، طغيانه (١) ٦٥٤ (٢)  
٦٥ أخلاقه الشائنة ٦٤ ظلمه وعسفه ، قتله ٦٦ ،  
تبجيله كقديس وشهيد ، القديس الحامي  
لبريطانيا ٦٧ .

## جورديان

: نائب قنصل في أفريقية ، أسرته ، أخلاقه ، عظمته (١)  
٢١٥ ، المناداة به امبراطورا مع ابنه ، أخلاق الابن ٢١٦ ،  
موتهما ٢٢٠ .

**جوستين** : الشهيد ، رايه في المسيحيين الذين يقتلون اليهود (١)  
٣٣٢ ، مبالغته في وصف انتشار المسيحية ٣٩٨ ،  
تعليمه واعتناقه المسيحية ٤٠١ .

**جوستين** : الأكبر ، قائد الحرس ، استولى على عرش الامبراطورية  
بعد موت اناستاسيوس (٢) ٣٩٢ ، أخلاقه وحكمه ٣٩٣ ،  
موته ٣٩٧ .

**جوليان** : نودى به امبراطوراً عند موت جوليان ، أخلاقه (٢)  
٧٩ ، تقهره الى سامرا والصالحية ٨٠ ، مفاوضاته  
مع شابور ، تردد وصلاح ذليل ٨٣ ، تقهر مثل تقهر  
عشرة الآلاف ، خسائره في عبور دجلة ٨٥ ، وصوله  
الى نصيبين ، ذهول الرومان ومخطهم على معاهدته  
٨٨ ، تنفيذ المعاهدة ، طرد مواطني نصيبين ٩٠ ،  
السير الى أنطاكية ، تعيين بروكوبيوس للإشراف على  
دفن جوليان ٩١ ، نشر الاباروم أثناء سيره ، مرسوم  
في صالح المسيحيين ٩٥ ، اعلانه أنه يؤيد عقيدة  
نيقيا ٩٧ .

**جوليا** : ( دومنا ) ، زواجها من سيفيروس ، أخلاقها (١) ١٨٠ .

**جوليا** : ( مائسا ) ، اقناع الاجابالوس بتبني اسكندر  
سيفيروس (١) ١٩٨ .

**جوليان** : ابن اخي قسطنطين الأكبر ، اخلاق أوكتافيوس (١) ١٣٣  
هامش ، افلانه من القتل على يد كونستانتينوس ٥٥١ ،  
تعليمه وسجته ، معاونه جالينوس له ٥٥٧ ، رده على  
ديلفيديوس ٥٥٩ ، حمايته للغالبيين ٥٦٠ ، ازدهارهم  
أثناء حكمه ، اقامته في باريس ٥٦١ ، يدخل  
القسطنطينية ، يحضر جنازة قسطنطينوس (٢) ١٠/٩ ،  
حكومته المدنية وحياته الخاصة ، غذاؤه النباتي ١١ ،  
عفته ، أعماله ، خطيب وقاض ١٢ ، مزاياه وعيوبه  
كقاض ومشرع ، أخلاقه ١٣ ، البحث في ديانته ١٧ ،

سبب رده ، تربيته المسيحية ، اشتراكه في الصلاة في الكنيسة ، رايه في التثليث ١٨ ، اعجابه بهوميروس واساطيره ٢١ ، يعتنق الوثنية ، يختار التعليل المجازي للأساطير على النهج الأفلاطوني ٢٣ ، مذهبه الديني ٢٤ ، الاطلاع على الأسرار الأليوزية ، أخفاء دينه ٢٨ ، العمل ضد المسيحية ٣٢ ، مرسوم التسامح العام ، استدعاء المسيحيين المنفيين ٣٤ ، دوافع سرية للتسامح معهم ، يصبح الحبر الأعظم ٣٥ ، حماسه في إعادة الوثنية ، افراطه في تقبل الخرافات ٣٦ ، توجيهات لإصلاح كهنة الوثنية ٣٨ ، كراهيته لاتباع الأبيقوريين والمتشككين ٣٩ ، احتضانه للمهتدين الى دينه ، نجاحه مع الجنود ٤٣ ، محاباة اليهود ٤٥ ، يسمى المسيحيين الجليليين ، كراهيته الظالمة لهم ٥٣ ، نقل موارد الكنيسة الى احبار الوثنية ، حرمان أبناء المسيحيين من مدارس التعليم ٥٤ ، حرمانهم من الوظائف التي تحتاج الى امانة وتدر ربحا ٥٥ ، الحكم عليهم بإعادة المعابد الوثنية ٥٧ ، زيارته لمعبد أبولو في دافني ٦١ ، اغلاق الكنيسة الأسقفية في أنطاكية ، ٦٣ ، مصادرة أملاك كنيسة الرها ٦٨ ، رسالته الى أهل الاسكندرية ٦٩ ، طرد أناناسيوس ، بفضه الدائم لهذا الحبر ٧١ ، جنازته ٩١ ، اشاعات عن قتله ٩٢ .

- جوليان** : كاردينال في مجمع فلورنسه (٣) ٣١٥ .
- جوليانوس** : ( ديدويوس ) يشتري الامبراطورية (١) ١٦٩ .
- جون** : ( الكبسودوكي ) ، وزير جستنيان ، اتهام الشجب (١) ٤١٧ .
- جون** : ( الثالث والعشرون ) ، البابا ، فجوره ، عزله (٣) ٤٣٥ .
- جيزكلرد** : روبرت ، يهزم ليو التاسع (٣) ١٤٩٦ ، مولده وأخلاقه ١٥١ ، يحظى بلقب كونت أبوليا ، نقولا الثاني يمنحه

لقب دوق ١٥٤ ، فتوحاته في إيطاليا ١٥٦ ، خطبة  
ابنته لابن الامبراطور ميخائيل ، معاونته لرجل يزعم  
انه الامبراطور ميخائيل ١٦٢ ، يغزو الاسبراطورية  
الشرقية ، يحاصر دورازو ١٦٣ ، يحرق سفنه ١٦٤ ،  
يهزم الكسيوس كومنينوس ١٦٩ ، يستولي على  
دورازو ١٧١ ، ينقذ جريجوري السابع من هنري  
الثالث ١٧٤ .

**جيتا**

: ( انطونينوس ) بن الامبراطور سيفيروس ، اختلافه مع  
كراكلا (١) ١٨١ اعتلاؤه العرش ١٨٤ .

« خ »

**خالد**

: ( بن الوليد ) سلوكة في غزوة احد (٣) ٦٥ ، اعتناقه  
الاسلام ٧٠ ، مذابحه ٧١ ، بسالته في مؤتة ، تسميته  
« سيف الله » ٧٥ .

**خديجة**

: تتزوج محمدا (٣) ٣٢ حبه واحترامه لها ٨٦ .

**خريسوستوم**

: ( كريسوستوم ) القديس ، حججه ضد تعميم المريض  
مرض الموت (١) ٥٨٧ هاشم ، فصاحته ٦٠٧ وصف  
بهاء أركاديوس وترفه (٢) ٢٢٩ ، أصله ورقية ٢٣١ ،  
اخلاقه وخصائصه الأدبية ، عمله كأحد رجال الكنيسة  
وجبراته في الوعظ ٢٣٢ . اضطهاد الامبراطورة  
يودوكسيا وغيرها من السيدات له ٢٣٤ ، تقشفه  
وصرامته ٢٣٥ ، صدور قرار ضده من مجمع أوك  
( البلوط ) ٢٣٧ ، اعادته ، طعنه على يودوكسيا ٢٣٨ ،  
نفيه الى القوقاز ٢٣٩ نشاطه في كتابة الرسائل من  
هناك ، وفاته في كوماننا ٢٤٠ ، نقل جثمانه الى  
القسطنطينية ٢٤١ ، دفاعه عن الرهبنة في الأديرة  
٣٢٣ هاشم .

**خريسولوراس** : ( مانويل ) ، أستاذ اللغة اليونانية في فلورنسة (٣) ٢٣٠ ،  
وفاته ٣٣١ .

**دالماتيوس** : ابن أخى قسطنطين ، تعليمه (١) ٥٤٥ ، تعيينه لحكم الحدود القوطية ٥٤٦ ، حرمانه من الاشتراك فى السلطة الامبراطورية ٥٤٨ ، قتله على يد كونستانتينوس . ٥٥٠ .

**داندولو** : ( هنرى ) دوج البندقية ، أخلاقه (٣) ٢١٦ معاهدته مع الصليبيين الفرنسيين ٢١٧ ، اغراؤهم بمهاجمة مدن دالماتيا . ٢٢٠ ، تحييد مساعدة ألكسيوس ابن اسحق انجيلوس ٢٢١ ، شهامته عند حصار القسطنطينية ٢٣٢ .

**دقلديانوس** : أصله وأخلاقه وعلو شأنه (١) ٢٨٦ ، التشبه بسياسة أوغسطس ، حلمه ٢٨٧ اتخاذه ماركوس أنطونينوس نموذجاً له ، اشراك ماكسيميان ٢٨٨ ، اتخاذاً لقبه جوثيوس ٢٨٩ ، اشراك جاليريوس وكونستانتينوس كقيصرين ، تقسيم الامبراطورية الى أربعة أقسام . ٢٩٠ ، الاحتفال بالنصر فى الحرب الفارسية ٢٩١ ، الإقامة فى نيقوميديا ٢٩٣ ، لبس التاج ٢٩٨ ، نظامه السياسى ٢٩٩ ، اعتزاله ٣٠٢ ، رده على مكسيميان ٣٠٥ ، موته ٣٠٧ ، معاملته للمسيحيين ، اعتناقه زوجته وابنته المسيحية ٤٦٠ ، جاليريوس بغيره بالاضطهاد ٤٦٥ ، مرسومه ضد المسيحيين ٤٦٧ ، احراق قصره ٤٦٩ ، تنفيذ مرسومه الأول ٤٧٠ ، مراسيم أخرى ٤٧٣ .

**دوميتيان** : ( دوميشيان ) الامبراطور (١) ٦٨ ، مقتله ١٣٦ ، اضطهاد المسيحيين تحت اسم اليهود ٤٣٠ ، قتل أقاربه ٤٣١ ، ابطال أعماله ٤٣١ .

**دوميتيلا** : ابنة أخى دوميتيان ، نفيها ، اعتبارها من أوليات الشهادات (١) ٤٣١ .

**ديكيوس** : اضطهاد المسيحيين (١) ٤٤١ ، ٤٥٦ ، منع انتخاب أسقف رومه ٤٥٦ .

**ديمتريوس** : أخو جون الثاني . يرفض الموافقة على اتحاد الكنيستين (٣) ٣١٨ .

**ديوسكوروس** : بطريق الاسكندرية ، يساند يوتيكيوس (٢) ٥١٥ عنفه ضد فلافيان ٥١٦ عزله في مجمع خلقدونية ونفيه ٥١٩ .

## « د »

**ديتشارد** : (الاول) ملك انجلترا ، رده على فيلك دي نيللي (٣) ٢١٢ .

**ديكمبر** : ( كونت ) قائد قوات المتبريرين ، يوافق على اعتلاء ماجوريان العرش (٢) ٣٠١ . يشر الجنود البرابرة لكي يخلعوه ٣١١ .

**دينزي** : كولادي ، ترييون روماني ، مولده اخلاقه (٣) ٤١١ يتولى حكم رومه ويتخذ لقب ترييون ٤١٤ ، قوانينه وادارته ، خضوع النبلاء ٤١٦ ، مشروع جمهورية فدرالية ايطالية ٤٢٠ ، الاستماع الى قضية لويس ملك المجر وجين ملكة نابلي ٤٢١ . رذائله وحماقاته ٤٢٢ ، منحه لقب فارس ، تنويجه ٤٢٥ .

## « ذ »

**ذايبرجان** : قائد الحياالة البلغار ، يعبر الدانوب (٢) ٤٥٢ بيليساريوس يصده ٤٥٤ .

**ذونيبيا** : ملكة تدمر ، اخلافها ، جمالها ، زواجها من اودينافوس (١) ٢٦٥ . انتصاراتهما المشتركة ، حكم المشرق ٢٦٦ ، هزيمتها على يد اوريليان ٢٦٨ ، تراجعها الى تدمر ٢٦٩ ، هربها واسرها ، سلوكها في الاسر ٢٧٢ ،

غدرها بمعلمها لونجينوس ٢٧٢ ، تزين انتصار أوريليان .  
٢٧٥ اغتزالها في تيفولي ، أسرتها ٢٧٧ .

**زوسيموس** : روايته عن اعتناق قسطنطين المسيحية (١) ٥٦٤ ،  
٥٨٧ .

**زيد** : مولى النبي محمد ، اعتناقه الاسلام (٣) ٥١ ، موته .  
٧٥ .

**زينون** : الامبراطور ، يفسح قانون التوفيق Henoticon  
(٢) ٥٢٤ .

### « م »

**سابور** : ( شابور ) الأول ، بن أرتجزسيس ملك الفرس ،  
يتسبب في مصرع خسرو ملك أرمينية (١) ٢٤٨ ، يأسر  
الآلمريان ، يغزو سوريا وكيليكيا وكبادوكيا ٢٥٠ ،  
قسوته ٢٥١ ، انهك أوديناتوس لجيشه ، معاملته  
لآلمريان ٢٥٢ .

**سابور** : ( الثاني ) بن هرمز ملك الفرس ، تتويجه قبسل .  
ولادته (١) ٥٥٢ ، اغتباطه بموت جوليان (٢) ٨٠ ،  
معاملته مع جوفيان ٨٢ .

**ساتورنينوس** : منافس جالينوس ، ملاحظاته عندما عين امبراطورا (١)  
٢٥٧ .

**سالوست** : حاكم المشرق ، يرفض أن يتولى العرش بعد موت  
جوليان (٢) ٧٨ ارساله الى شابور ٨٢ .

**ستيفن** : اسطفان القديس ، أول شهيد ، كشف جثمانه بمعجزة  
(٢) ١٦١ ، سال دمه في نابلي ١٦٢ هامش ، مثل .  
غالي عنه ١٦٣ هامش .

**سليمان** : بن بايزيد ، تحالفه مع مانويل بالابولوغوس (٣) ٢٧٣ .



- سليمان** : حفيد سلجوق ، يحتل آسيا الصغرى ، يلقب بالفازى  
فتوحاته (٣) ١٧٧ .
- سويانير** : فيلسوف وصديق قسطنطين ، اعدم لاشتهاله  
بالسحر (١) ٦٤٠ هـامش .
- سوليكيانوس** : يفاوض من أجل العرش (١) ١٦٨ .
- سيباستيان** : كونت مصر ، يضع جورج اسقف كايادوكيا على عرش  
الاساقفة (١) ٦٥٤ .
- سيقيروس** : اسكندر ، نودي به فيصرا (١) ١٩٨ ، ارتقى العرش  
العرش ١٩٩ ، تعليمه وطريقته في الحياة ٢٠١ ، ٢٠٢ ،  
يرفض اسم انطونيوس ٢٠٤ ، قتله ٢٠٧ ، يضع تماثيل  
ابراهيم وأورفيوس وأبولونيوس والمسيح في معبده  
الصغير ٤٥٥ .
- سيقيروس** : ( سبتيموس ) ، حكومته الرشيدة (١) ١٧١ ، ١٧٢  
تراخى النظام ١٧٣ اصلاح الحرس البريتورى ١٧٤  
قبضته على السناتو ١٧٥ ، السبب الرئيسى في  
اضمحلال الامبراطورية ١٧٧ ، غرامه بالسحر ١٧٩ ،  
ذهابه الى بريطانيا ١٨٢ ، موته ١٨٤ ، حماية المسيحيين  
في البداية ٤٥٤ ، ثم اصدار مرسوم ضدهم ٤٥٥ .
- سيكستوس** : ( الخامس ) البابا ، حكمه (٣) ٣٧٩ .
- سيماخوس** : وصفه اعدم خروج قسطنطين من حظيرة  
الوثنية (١) ٦٦٤ مكانه وعبقريته وحماسه في الدفاع  
عن الوثنية ، التماسه من أجل الهة النصر (٢) ١٣٩ ،  
اعتراض القديس امبروز ١٤١ ، اختيار تيودوسيوس له  
قنصلا ١٥٧ .
- سيمون** : دى منتفورت ، الاشتراند في الحملة الصليبية  
الرابعة (٣) ٢١٣ ، تخليه عنها ٢٢١ .
- سيميون** : ( العمود ) ، ناسك سورى ، تعذيبه الشاذ لنفسه ،  
التبجيل الذى لقيه (٢) ٣٣٧ .

## « ش »

- شاول** : ( الثامن ) ملك فرنسا ، يشتري القاب الامبراطورية ، ويرتدى حلة أرجوانية ويتخذ لقب أوغسطس (٣) ٣٧٦ .
- شرلمان** : أول زيارة لرومه (٢) ٥٧٢ ، هبته للبابوات ٥٧٤ ، مراوغته في وعوده ، قراراته الزيفة ٥٧٥ ، مقاومة عبادة الصور ٥٨٢ ، حمايته للبابا ليو الثالث ٥٨٥ ، آخر زيارة لرومه ٥٨٦ ، رفعه الى مصاف القديسين ، أخلاقه ومآثره ٥٨٧ ، تزيين قصره في أكس لاشابل برخام مأخوذ من رافنا ورومه (٣) ٤٥٧ .
- شيشرون** : خلود الروح (١) ٣٤٢ .

## « ع »

- عائشة** : ابنة أبى بكر ، وزوج النبى ، (٣) ٧٩ ، ٨٤ حديث الامك ٨٥ .
- على** : ( بن أبى طالب ) يعتنق الاسلام (٣) ٥١ شجاعته ٦٨ .
- عمر** : ( بن الخطاب ) الخليفة ، اعتناقه الاسلام (٣) ٥٢ .
- عمرؤ** : ( بن العاصى ) اعتناقه الاسلام (٣) ٧٠ احراق مكتبة الاسكندرية ٩٢ .

## « ف »

- فاتاكيس** : جون دو كاس ، يحاصر القسطنطينية (٣) ٢٥٤ فتوحاته وموته ٢٥٧ .
- فاليريا** : ابنة دقلديانوس ، اعتناقها المسيحية (١) ٤٦١ .
- فاليريان** : الإمبراطور ، أخلاقه ، اشراك ابنه جالينوس معه (١) ٢٢٩ . التقدم نحو المشرق ، أسر شابور له ٢٥٠ ، كيف عومل ، قصة حشو جلده ٢٥٢ ، محابة المسيحيين في البداية ثم اضطهادهم ٤٥٧ .

- فاليتيان** : الثاني ، اعاده تيودوسيوس (٢) ١٢١ أخلاقه ١٢٣ ، قتله ١٢٤ .
- فاليتيان** : الثالث ، هربه من راقنا ، ارسال وفد الى أثينا ٢٨٧ ، قتله آتيوس ٢٩٤ . اغتصابه زوجة بترونيوس مكسيموس ٢٩٦ ، مقتله ، أخلاقه ٢٩٧ .
- فالتر** : أسقف مورسا ، من اتباع آريوس ، سلوكه الماكر (١) ٦٢٤ ، ٦٣٠ .
- فاوستا** : زوجة قسطنطين ، أولادها ، ظفرها بقتل كريستوس (١) ٥٤٣ ، مناقشة قصة قتلها لارتكابها جريمة الزنا ٥٤٤ .
- فاوسينا** : ابنة أنطونينوس بيوس ، تتزوج ماركوس أنطونينوس (١) ١٤١ أخلاقها ١٤٥ .
- فرجيل** : المسيحية ونشيد الرعاة الرابع (١) ٥٨٤ .
- اللافيان** : بطريق القسطنطينية ، يتهم يوتيكس (٢) ٥١٤ قتله في مجمع أفيوس الثاني ٥١٦ .
- فوتيوس** : (٣) ١٢٦ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ .
- فيتروفيوس** : المهندس المعماري ، ملاحظاته عن المباني الرومانية (٢) ١٩٥ .
- فينليوس** : الامبراطور ، أخلاقه (١) ٥٩ .
- فيجيتيوس** : روايته عن انحلال النظام الروماني (٢) ١٣٣ .
- فيجيلانتيا** : أم جستنيان ، محاورها من زواجه (٢) ٤٠٤ .
- فيسباسيان** : ( فسبازيان ) اشراك ابنه تيتوس معه في الحكم ، أصله وأخلاقه (١) ١٢٧ .
- فيلهاردين** : ( جيفرى دي ) ، يصحب الحملة الصليبية الرابعة (٣) ٢١٣ .

: ( الأكبر ) اعماله في رومه ( ١ ) ٣١٣ قوس النصر ٣١٤ ،  
القضاء على الحرس الامبراطوري ٣١٥ ،  
اماكن سكناه ٣١٦ ، نشاطه ٤٨٩ . مشروع تشييد  
القسطنطينية ٤٩٠ تفكيره في بناء مدينة جديدة في  
سهل ثروادة ٤٦٥ نسبة تأسيس القسطنطينية الى  
الوحي ٤٩٧ ، تمثاله تزيينه خصائص ابوللون  
والمسيح ٥٠١ دعوة ابرز الرومان الى القسطنطينية ،  
يمنح سكانها امتيازات ، موكب سنوي يحمل فيه  
تمثاله ٥٠٣ ، نظام حكومي جديد ٥٠٦ ، وزراء القصر  
السبعة ٥٢٢ مزايا حكمه ٥٣٠ ، اخلاقه ، أسرته ٥٣٣ ،  
حفده على ابنه كريسيوس ٥٤٠ ، الاحتفال بمرور  
عشرين عاما على حكمه ٥٤١ ، اعدام كريسيوس  
وليكنيوس ٥٤١ ، حكاية ندمه لا اساس لها ٥٤٢ ،  
هحاؤه ووصفه بأنه نيرون آخر ، رفعه من مركز ابنائه  
وابناء اخوته ٥٤٤ تعليمهم ٥٤٥ ، موته وجنارته ٥٤٧  
النزاع حول من يخلقه ٥٤٨ قصر الوراثة على ابنائه  
٥٤٩ ، تاريخ تحوله الى المسيحية ٥٦٣ ، مرسوم  
متناقضان ، خرافاته الوثنية ٥٦٥ ، وضع أبيه في  
مصاف الآلهة ، عبادته لأبوللون ٥٦٦ ، حمايته  
للمسيحيين في الغال ٥٦٦ ، مرسوم ميلان ٥٦٧ ،  
دوافعه لمحاباة المسيحيين ٥٦٨ ، بعد هزيمة ليكنيوس  
يدعو جميع رعاياه لاعتناق المسيحية ٥٧٣ رؤياه  
٥٧٥ ، اتخاذ الصليب واللاباروم ٥٧٦ ، حلمه ٥٧٨  
قوس نصره ونقوشه ٥٧٩ رؤياه في السماء شهادته  
مشكوك فيها ٥٨٢ ، مناقشة دوافع قسطنطين في  
اعتناق المسيحية ٥٨٢ . أحاديثه اللاهوتية ، طبيعته  
الوثنية ، يبرهن على المسيحية بأشعار سنييل  
وقرجيل ٥٨٤ امتيازاته كمسيحي ، قسيس وكاهن  
في الطقوس السرية ٥٨٥ ، سبب تأخر تعميده ٥٨٦ ،

سوء أخلاقه بعد اعتناق المسيحية ٥٨٧ ، رفع  
اليونانيين له الى مصاف القديسين ٥٨٨ ، أثر اعتناقه  
المسيحية ٥٨٩ ، بحمى المسيحيين في فارس ٥٩٠ .  
كرمه في المنحة التي قدمها الى كاسيليان أسقف  
قرطاجة ٥٩٩ ، مجابة الرهبنة في الأديرة ، سخاؤه  
نحو الكنيسة ٦٠٠ ، حضور مجمع نيقيا ٦٠٨ رسالته  
الى اسكندر وأريوس يحثهما على الاعتدال ٦٢٥ ،  
تزايد تحمسه ضد أتباع مذهب أريوس ، اقرار عقيدة  
نيقيا ٦٢٦ ، نفى يوسيبوس أسقف نيقوميديا وأريوس ،  
اعادتهما ٦٢٧ ، عزل أهم ثلاثة من زعماء الكاثوليك  
٦٢٨ ، يوسيبوس يعمده ، تناقض آرائه الدينية ٦٢٨ .  
عدم القضاء على الوثنية ٦٦١ ، ابطال مساويء  
الطقوس الوثنية ٦٦٢ ، السناتو في رومه يرفعه الى  
مصاف الآلهة ٦٦٤ ، أسطورة شفائه على يد القديس  
سيلفستر ومنحه الامبراطورية الغربية الى البابوات  
(٢) ٥٧٦ .

## « ك »

- كاسيودوروس** : وصفه للبندقة (٢) ٢٨٥ تقديره ٣٧١ .
- كاسيوس** : أثيديوس ، الثورة (١) ١٤٣ .
- كاليجولا** : أخلاقه (١) ٥٩ مقتله ١٣٦ محاولة وضع تمثاله في  
الهيكل في بيت المقدس ٣٢٤ .
- كانتاكوزين** : ( جون ) ، معاوضته مع كليمنت السادس (٣) ٢٨٧ .
- كرايلا** : ( مجمع ) ، يحظى بحق انتخاب البابا ، تكوينه ، نشأة  
المجمع المقدس (٣) ٣٩٠ .
- كرايلا** : انطونيوس ، نزاعه مع جيتا (١) ١٨٠ طموحه وعدم  
تقواه ١٨٣ اعتلاؤه العرش مع جيتا ١٨٤ ، تباغضهما ،

ميتروخ تقسيم الامبراطورية ١٨٥ ، قتل جينا ١٨٦ ،  
تدمير مذبح الاسكندرية ١٩٠ ، بصره ١٩٢ ، محاكمة  
الاسكندر الأكبر ، مربيته ومعالجه مسيحيان ٤٥٣ .

كريسپوس : بن قسطنطين ، فضائله (١) ٥٣٨ ، حقد ابيه عليه  
٥٣٩ ، الحاق العار به وقتله ٥٤١ ، دمرته افانين  
قاروسا وحيلها ٥٤٢ .

كلوديوس : أخلاقه (١) ٥٩ اختياره امبراطورا بواسطة الحرس  
البرينورى ١٢٥ .

كلياندر : وزير كمودوس (١) ١٥٤ طغيانه ١٥٥ قتله ١٥٧ .

كليمنت : ( الثالث ) ، غدو البابا ، تكريسه (٣) ١٧٤ .

كليمنت : ( الخامس ) ، البابا يقبل مقره الى أفنيون (٣) ٣٩٥ .

كليمنت : ( السادس ) ، البابا ، يستقبل سفراء جون كلثاكورين ،  
اخلاقه (٣) ٢٨٧ . يدخل اليوبيل الموستوى ٣٩٨ .

كليمنت : ( السابع ) ، البابا ، اختياره (٣) ٤٣٠ .

كليمنز : فلافيوس ، ابن عم دوميشيان ، يتزوج دوميتيلا ،  
اعدم بتهمة الاتحاد واتباع الطقوس اليهودية ،  
اعتباره من اوائل الشهداء (١) ٤٣١ .

كمودس : اشتراكه في السلطة الامبراطورية (١) ١٤٧ ، اعتقاله  
العرش ١٤٨ ، محاولة أحد أعضاء السناتو قتله ١٥٠ ،  
كراهيته للسناتو ١٥١ ، مجونه وجهله ١٥٧ ، « هرقل  
الرومان » ١٥٩ ، ظهوره في المدرج ، مجالد ١٦٠ ،  
اطلاق « يولوس » عليه ١٦١ ، مؤامرة ضده وقتله ١٦٢  
حمايته للمسيحيين ٤٥٣ .

كولونا : ( شارا ) سبب بوثيفاس السابع في اناجنى (٣) ٣٩٤ .

كولونا : ( ستيفن ) يهرب من رومه (٣) ٤١٥ .

كومينوس : دافيد ، محمد الثانى يسأله سؤالاً موجزا (٣) ٣٧٥ .

**كونستانتيا** : أخت قسطنطين ، عظمتها وبؤسها (١) ٥٢٨ تطلب  
المغفر عن ابنها ليسينيوس ٥٤٠ .

**كونستانتينا** : ( قسطنطينا ) ابنة قسطنطين ، تزوجت جالوس (١)  
٥٥٨ .

**كونستانتينوس** : ( قسطنطيوس ) ، اشترك مع دقلديانوس ، أخلاقه (١)  
٢٩٠ . ابن ماكسيميان بالتسني وزوج ابنته ٢٩٠ ضد  
الاضطهاد ٤٧٤ .

**كونستانتينوس** : ( الثاني ) بن قسطنطين الأكبر ، عين قيصرًا وحاكمًا  
على بلاد الغال (١) ٥٤٠ ، تعليمه ٥٤٥ ، حاكم اللوليانين  
الشرقية ٥٤٦ استيلاؤه على القسطنطينية عند موت  
أبيه ٥٥٠ تزيفه وتزويره ، قتل أبنائه وأبناء أعمامه ،  
٥٥٠ نصيبه في الإمبراطورية ٥٥١ شن الحروب على  
فارس ٥٥٢ إمبراطور وحيد ٥٥٣ ، نفوذ الخصيان  
٥٥٥ ، اعتناق مذهب آريوس وصف أميانوس لمقائده  
٦٣١ ، ميله الجامع إلى الجدل الديني ، تقلب آرائه  
٦٣٢ ، لقب أسقف الأساقفة ٦٣٣ ، اضطهاده  
أثناسيوس ٦٣٤ أعادته ٦٤٣ حصوله على قرار ضد  
أثناسيوس ٦٤٩ نفى من بناهضه من الأساقفة ٦٤٩  
يزور معابد رومه ٦٦٤ ، جنازته (٢) ١٠ .

**كونستانتينوس** : ( قسطنطيوس ) ، يوليوس ، أرسطو قراطي  
أخو قسطنطين (١) ٥٣٧ قتله كونستانتينوس ٥٥٠ .

**كونستانس** : ( قنستنز ) ثالث أبناء قسطنطين ، يتولى حكم إيطاليا  
وأفريقية (١) ٥٤٦ نصيبه من الإمبراطورية ٥٥١ ،  
يحمي أناثاسيوس ويطالب بعودته ٦٤٢ ، تهديداته ٤٦٣ .

**كونستانس** : ( الثاني ) بن قسطنطين الثالث ، يذهب إلى رومه  
ليتخذها عاصمة (٣) ١٢٣ .

**كيزريان** : ( سيبريان ) أسقف قرطاجة ، أخلاقه (١) ٣٧٤  
مقاومة طموح الحبر الروماني ٣٧٦ خطبه الشديدة

٣٨٦ قصة حياته ٤٤٠ نفيه الى كورويوس ٤٤٢  
الحكم عليه بالاعدام ٤٤٣ .

كيريل : ( كيرلس ) السكندري يرد على جوليان (٢) ٣٢  
قصته ٤٩٧ طفيانه ٤٩٨ مقاومته لأورستيس ٤٩٩  
قتل هيبتايا ٥٠١ ، يدين هرطقة آريوس ٥٠٤ يحضر  
مجمع افيسوس ٥٠٦ يحصل على قرار ضد  
نسطوريوس ٥٠٨ عزل كيريل ٥٠٨ دوائيه وانتصاره  
على نسطوريوس ٥١٠/٥١١ وفاته ٥١٢ .

كيرثوس : رايه في طبيعة المسيح المزوجة (٢) ٤٩١ .

« ل. »

لاسكاريس : تيودور ، الدفاع عن القسطنطينية ضد اللاتين (٣)  
٢٣١ .

لاسكاريس : يانوس ، أحد نحاة اليونان (٣) ٣٣٣ - ٣٣٧ .

لايتسا : ارملة جراتيان ، أعانتها لفقراء الرومان أثناء حصار  
الاريك (٢) ١٩٨ .

لونجينوس : أخلاقه (١) ١١٥ معلم زنوبيا ٢٦٥ غدرها به ، ميتة  
بطولية ٢٧٣ .

لويس : ( التاسع أو القديس ) ، حربه الصليبية ، أخلاقه (٣)  
١٨٨ الاستيلاء على دمياط ١٨٩ ، أسره ١٩٠ ، الحملة  
الصليبية السابعة ، حملته على تونس ، موته ١٩١ .

ليبانوس : السفطاني ، وصفه لفصاحة جوليان (٢) ١٤ يمتدح  
تقوى جوليان ٢٩ ملاحظاته على معاهدة جوثيان  
وشابور ٨٤ تحت حماية ثيودوسيوس ١٥٧ ملاحظة  
عن خريسوستوم . ٢٣٢ .

ليكينوس : ( ليسينيوس ) مرسومه المضاد لرسوم ميلان (١) ٥٧٣  
رؤياه لأحد الملائكة ٥٧٩ .



**ليكينوس** - : ابن كونستانتيا ، قتله على يد قسطنطين (١) ٥٤١ .

**ليو** : ( الثالث ) الأيسوري ، الخطوات التي اتخذها لإبطال الصور المقدسة (٢) ٥٥٣ ؛ رسالة جريجوري الثاني القاسية اليه ٥٦٠ ثورة إيطاليا ضده ٥٦٤ .

**ليو** : ( الثالث ) البابا ، محاولة اغتياله ، استعادة عينيه ولسانه بمعجزة (٢) ٥٨٥ ؛ زيارته لشارلمان وتوجيهه ٥٨٦ موقفه في النزاع الخاص بانثاق الروح القدس (٣) ١٩٨ .

**ليو** : ( السادس ) الفيلسوف ، تعليمه وحكمه (٣) ١٢٦ .

**ليو** : ( التاسع ) البابا ، أخلاقه ، نزاعه مع المورمان (٣) ١٤٨ هريمه ١٤٩ .

**ليو** : ( العظيم ) أسقف رومه ، إيقاده الى أنيلا (٢) ٢٨٨ مساعدة شبحي القديسين بطرس وبولص له ٢٨٩ ، التثام مجمع خلقدونية ٥١٨ ، خطابه عن التجسيد يوافق عليه أساقفة الشرق ٥٢٠ ، ويوافق عليه مجمع خلقدونية ٥٢١ .

## « م »

**ماجوريان** : أخلاقه ، أصله وخدماته ، انتخابه امبراطورا (٢) ٢٩٩ رسالته النبيلة الى مجلس الشيوخ ، قوانينه الحكمة ٣٠١ منع حرم الآثار العامة ٣٠٥ ، يصد الوندال ، يجمع جيشا من البرابرة ٣٠٦ يوحد بين الغال واسبانيا ٣٠٨ ينشئ بحرية ، ويدمرها جنسريك ٣١٠ ، ريكيمين يثير البرابرة ضده ، تنازله وموته ٣١١ .

**مارتن** : ( القديس ) أسقف تور ، حباسة في تدمير المعابد الوثنية (٢) ١٤٥ مؤسس الأديرة في بلاد الغال ٣٢١ .

**مارتن** : ( الخامس ) البابا ، انتخابه (٣) ٤٣٦ .

مارك : ( مرقس ) أسقف ايسوس ، وقوع الاختيار عليه  
لحضور المجمع في الغرب (٣) ٣١٠ . في مجمع  
فلورنسه ٣١٥ رفضه تقبل القربان مع اللاتين ٣١٩ .

ماركيا : خليفة كمودس (١) ١٥٧٠ تنأمر ضده ١٦٢ ، تحمي  
المسيحيين ٤٥٣ :

ماركبانوس : بتزوج الامبراطورة بولكريا اسميا ويعترف به  
امبراطورا (٢) ٢٤٥ .

ماركيلوس : ( مارسلس ) أسقف رومه نفيه (١) ٤٧٦ .

ماكريانوس : قائد الحرس البريتوري في عهد فاليريان ، نصائحه  
الضعيفة المهلكة (١) ٢٤٩ .

ماكرينوس : أوبيلوس ، نبوة بتوليهِ العرش (١) ١٩١ .

ماكسيموس : بويينوس ، يدخل رومه منبجراً ، ادارته الحكيمة  
(١) ٢٢٥ .

ماكسيميان : زميل دقلديانوس ، مولده وأخلاقه (١) ٢٨٨ لقب هرقل  
٢٨٩ حفل انتصاره ٢٩٢ اضطهاد السناتو ٢٩٥ ، تنازله  
عن العرش ٣٤٠ .

ماكسيمين : أصله وقوته وشجاعته (١) ٢٠٧ ترقيته ٢٠٨ ، تأمره  
ضد سيفيروس ، توليه العرش ٢١٠ طغيانه وظلمه  
٢١١ ، الثورة الأفريقية ٢١٤ ، اعلانه عنوا عاما ٢١٨ ،  
السير الى ايطاليا ٢٢١ حصار اكويليا ٢٢٢ قتله ،  
صورته ٢٢٤ .

ماكسيمين : ( دازا ) قيصر ، اضطهاد المسيحيين (١) ٤٥٥ مساعدة  
الوثنيين ٤٨١ .

ماكستتيوس : بن ماكسيميان ، حماية المسيحية ٤٧٦ .

ماميا : ام اسكندر سيفيروس ، حمايتها لابنها (١) ١٩٨ .

الوحيدة على العرش ١٩٩. قوتها وادارتها ٢٠٠ ، قتلها  
٢١١ ، مقابلتها لأوريجن ٤٥٥

**محمد (النبي) :** الاشارة الى قصة أهل الكهف ( النيام السبعة ) (٢)

٢٦٨. أجداده ومركزهم كأمرأ (٢١) ٢٦ ، ٣١ مولده ،  
تربيته ، نسبه ، أمواله ، زواجه من خديجة ٢٢ ، الرسالة ،  
مظهره الشخصي ، صفاته الذهنية ، موضوع أميته ٣٣  
أسفاره ٣٤ ، تأملاته في بوحدته ٣٥ خلاصة عقيدته ،  
تمسكه بوحدانية الله ، الجبرية ٣٧ . خاتم الأنبياء ،  
اتهامه لليهود والنصارى بتحريف الكتب المقدسة  
يستأثر بالوعد الخاص بالبراكليت ٣٩ ، ينشر القرآن  
٤٠ ، معجزاته ٤٢ ، رقيه الى ما فوق السماء السابعة  
معجزة القمر ، التعليم والطقوس ٤٣ رأيه في البعث ٤٧ ،  
الجنة والنار ٤٨ ، أسرته تعتنق دينه ٥١ خطبه في مكة  
٥١ ، هجرة أصحابه الى الحبشة ٥٢ الخطر الشخصي  
والهجرة ٥٣ وصوله الى المدينة ٥٧ الجهاد ٥٩ ، صفاته  
العسكرية ٦١ غزوة بدر ٦٣ غزوة أحد ، جرحه ٦٥ ،  
غزوة الأحزاب أو الخندق ٦٦ حملاته ضد مكة ٦٩ ،  
خضوع مكة ، تقلده مركز الامارة والنبوة في مكة ٧١ ،  
غزوة حنين ٧٢ ، حصار الطائف ، عبائه لأبي سفيان  
وقريش ٧٣ ، خضوع بلاد العرب ، عدد المسلمين في حجة  
الصرع ، الشك في وضع السم ، تواضعه ٧٧ ، وفاته  
٧٩ ، قبره ، أخلاقه وحياته الخاصة ٨٠ ، زوجاته ٨٤  
الصرع ، الشك في وضع السم ، تواضعه ٧٧ ، وفاته  
٧٩ ، قبره ، أخلاقه وحياته الخاصة ٨٠ ، زوجاته ٨٤  
أسباب نجاح دينه ٨٧ فضله على وطنه ٨٩ .

**محمد ( الثاني ) :** السلطان . تقوية قلاعه على البسفور (١) ٤٩٢ ،

أخلاقه وعلمه (٢) ٢٤١ يقتل أخوته ٢٤٤ يهاجم  
القسطنطينية ٣٤٥ هزيمة بحريته ٣٤٨ نقل السفن

على اليابسة ٣٥٢ الهجوم العام ٣٥٦ الاستيلاء على  
المدينة ٣٥٧ دخوله القسطنطينية ٣٦٨ . سلوكه نحو  
اليونانيين ٣٧٠ يملأ المدينة بالسكان ويزينها ، ضمانات  
لليونانيين ٣٧٢ السير الى الموره ٣٧٣ القضاء على  
امبراطورية طرايزون ٣٧٥ موته ٣٧٩ .

**مراد الثاني** : الاستيلاء على ادرنه (٣) ٢٧٢ حصار القسطنطينية  
استدعاؤه الى بوريا ٢٧٥ .

**ميدتشي** : ( كوزمو ) ، حامى العلماء اليونانيين (٣) ٣٣٤ .  
**ميدتشي** : لورنزو ، حامى العلماء اليونانيين (٣) ٣٣٧ .  
**مينرقينا** : زوجة قسطنطين الاولى (١) ٥٣٧ .

#### « ن »

**نسطوريوس** : بطريق القسطنطينية ، حماسه في الاضطهاد (٢) ٥٠٢  
هرطقته ٥٠٣ ادانة كيرلس بطريق الاسكندرية والبابا  
سليستين له ، تجريدته في مجمع افيسوس ٥٠٨ ، نفيه  
٥١٣ ، موته ، رواية عن قبره ٥١٤ .

**نيرقا** : اخلاقه ، يتبنى تراجان (١) ١٢٨ .

**نيرون** : اخلاقه (١) ٥٩ آخر اسرة يوليوس ١٣٢ مؤامرة ضده  
١٣٤ اتهمه بحرق رومه ٤٢٤ عقاب المسيحيين ٤٢٦  
عدم اتهام اليهود ٤٢٨ .

#### « ه »

**هادران** : يتخلل عن فتوحات تراجان في الشرق ، مقارنته بتراجان  
وانطونيوس بيوس (١) ٧٢ رحلاته العديدة ٧٣ ،  
تربيته ، اخلاقه ١٣٩ ، تبني قيرويس ١٤٠ ، تحويل  
طرايزون الى ميناء ٢٤٠ مكتبة اثينا (٢) ٤٤٤ .

**هانيباليانوس** : آخر قسطنطين (١) ٥٣٧ قسطنطينوس يقتله ٥٥٠

**هانيباليانوس** : ابن أخى قسطنطين ، عين قيصرًا وأنسل النبلاء ،  
الأمير اليونانى الوحيد الذى تميز بلقب ملك (١) ٥٤٥ ،  
أقامته فى قيصريّة ، مملكته ٥٤٦ ، حرمانه من  
نصيبه فى الامبراطورية ٥٤٨ قسطنطيوس يقتله ٥٥٠ .

**هرقل** : يستقبل سفير النبى محمد (٣) ٧٤ .

**هنرى** : ( الثالث ) ملك ألمانيا وإيطاليا ، حليف ألكسيوس  
نزاعه مع جريجورى السابع ومع النورمان ، دخول  
رومه (٣) ١٧٢/١٧٣ تفهقره ١٧٤ .

**هونوريوس** : ابعاد معارضى الكنيسة الكاثوليكية (٢) ١٧٠ اثاره القوات  
الأجنبية المساعدة ١٧١ ، رسالة غير موفقة ٢٠٧ ،  
يوافق على اشراك اتالوس فى الامبراطورية ، ويرفض  
اقتراحه ، يتخلى عنه جوفىوس وقالنز ٢١١ هيراكليان  
حاكم افريقية يدعمه ٢١٢ .

**هيبتيا** : ابنة ثيون ، جمالها وعلمها ، كيرلس بطريق الاسكندرية  
يقتلها (٢) ٥٠١ .

**هيروود** : ( هيروديس ) اتيكوس ، جوده (١) ٩٧ .

## « ي »

**يوتيجيس** : رئيس دير ، يعاون كيرلس (٢) ٥١١ هرطقته ٥١٤ ،  
تبرئته فى مجمع افيسوس الثانى ٥١٦ .

**يوجينيوس** : ( الرابع ) البابا (٣) ٣٠٤ ، ٣١٣ ، ٣١٩ .

**يودوكسيا** : ابنة باوتو ، تضطهد خريسوستوم (٢) ٢٣٧ تطالب  
بعودته ، تتمكن من نفيه ٢٣٧ ، اباحيتهها ، موتها  
٢٤١/٢٤٢ .

**يودوكيا** : زوجة ثيودوسيوس الأصغر ، اخلاقها (٢) ٢٤٩

أعمالها الأدبية ، حجها الى بيت المقدس ٢٥١ ،  
الحاق العار بها ٢٥٢ موتها ٢٥٣ .

يوسيبوس : ( يوسوبوس ) من قيصرية ، أخلافه (١) ٤٨٣ أخباره  
المصطنعة فيما يتعلق بالشهداء ٤٨٥ هامش تفاضيه  
عن موت كريسپوس وليكنيوس ٥٤٢ روايته عن  
اعتناق قسطنطين للمسيحية ٥٦٤ وعن رؤيا  
قسطنطين الثانية ٥٨١ موافقته على تأييد مذهب  
الطبيعة الواحدة ٦٢٧ ، توجيهه في مجمع صور ٦٣٨ .  
يوسيبوس : الخصى ، تسلطه على قسطنطينوس الثاني (١) ٥٥٦